ستيفان تسفايج

ساعات القدر في تاريخ البشريّة

ترجمة: محمّد جديد

علي مولا

ساعات القدر
في تاريخ البشرية

دراسات

اسم المؤلف : ستيفان تسفايج
عنوان الكتاب : ساعات القدر
في تاريخ البشرية
المترجم : محمد جديد
الناشر : المدى
الطبعة الاولى : سنة ٢٠٠٥
الحقوق العربية محفوظة

Author:Stefan Zweig
Title :Sternstunden der Menschheit
Translator:Mouhammed Jadid
Al- Mada P.C
First Edition : 2005
Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٢٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

ستيفان تسفايج

ساعات القدر في تاريخ البشرية

أربع عشرة صورة تاريخية وجيزة

ترجمة: محمّد جديد

مقدمة

ما من فنان يكون خلال الساعات الأربع والعشرين بأسرها من أيام حياته اليومية فناناً بغير انقطاع؛ وذلك أن كل ما هو جوهري، ودائم، يُوَفَّق إليه الإنسانُ توفيقاً، ولا يحدث ذلك إلا في لحظات الوحي القلائل والنادرة. وكذلك لا يكون التاريخ الذي نُعْجَب فيه بالمشاعر وهو المصوِّر الأعظم في كل العصور قاطبة، خلاقاً على نحو متواصل بحال من الأحوال، حتى في مصنع الرب الحافل بالأسرار، كما يسمى جوته التاريخ تسمية تنطوي على الخشوع، يحدث الكثير الذي لا يقاس، مما لا أهمية له، ومما ينطبع بطابع الحياة اليومية. وهنا أيضاً تعد اللحظات التي لا تنسى نادرة، كما تعدّ كذلك في كل مكان في الفن والحياة. وفي أغلب الأحيان لا يرتّبها الترتيبَ الزمني، بحكم كونه مؤرخاً، إلاّ بغير مبالاة، وبمثابرة، نقطة إلى جانب نقطة، في تلك السلسلة الهائلة التي تمتد على مدى آلاف السنين، وواقعةً إلى جانب واقعة، لأن كل توتر يحتاج إلى زمن للتحضير والإعداد، وكل حدث واقعي يحتاج إلى تطوير. ويعد الملايين من البشر ضمن إطار شعب من الشعوب، ضروريين دائماً، لكي تنشأ عبقرية من العبقريات. ولابدَّ، دائماً، أن تَنْسَرب الملايين من الساعات في تاريخ العالم هدراً قبل أن تظهر إلى حيز الوجود ساعة تاريخية حقاً، ساعة حاسمة من ساعات البشرية.

ولكن إذا نشأت في الفن عبقرية تخطّت العصور: فإنها تحدث في ساعةٍ في تاريخ البشرية تنشئ حسماً يمتد على مدى عقود من الزمان وقرون. ومثلما يحدث في أضيق حيِّز من الزمان، وما يجري، في العادة مسرخياً بعضه إثر بعض، أو بعضه إلى جانب بعض، فإنه ينضغط في لحظة واحدة، تحدد كل شيء، وتفصِل في كل شيء: كلمة نعم واحدة، أو كلاً واحدة، أوْ لما يئن الأوان، أو فات الأوان، تجعل من هذه الساعة ساعة حاسمة لا رجعة فيها، على مدى مائة جيل، وترسم معالم حياة فرد، أو شعب، بل مسيرة المصير للبشرية بأسرها.

وأمثال هذه الساعات المجمَّعة تجميعاً مسرحياً، والنزّاعة إلى تقرير المصير، والتي ينحشر فيها حسم يتخطى حدود العصر في تاريخ واحد، وفي ساعة وحيدة، وفي كثير من الأحيان في دقيقة واحدة فحسب، نادرةٌ في حياة فرد، ونادرة على مرّ التاريخ. وأحاول أن أذكِّر هنا ببعض من أمثال هذه الساعات الحاسمة، وقد أطلقت عليها هذا الاسم لأنها تشع بنورها كالنجوم، مضيئة، لا تتبدّل، في ليل الفناء والزوال، من عصور وأصقاع شتى. ولم أحاول، في أي مكان، أن ألَوِّن أو أدعم الحقيقة النفسية للأحداث الخارجية والداخلية، باختراعي الخاص، ففي تلك اللحظات المُصَعَّدة، حيث تكون تلك الحقيقة قد صيغت صياغة مكتملة، لا يحتاج التاريخ إلى يد تتداركه بالعَوْن، ولا يجوز لشاعر أن يحاول أن ينافس التاريخ حينما يستوي حق الاستواء على عرشه، شاعراً ومسرحياً.

هَرَبٌ إلى الخلود

اكتشاف المحيط الهادئ

٢٥ أيلول ١٥١٣

سفينة يتم تسليحها

كان كولومبوس قد عرض، لدى عودته الأولى من أمريكا المُكْتَشَفة، في مسيرته المُظَفَّرة في شوارع أشبيلية وبرشلونة المكتظة، أعداداً لا تحصى من النفائس والطرائف، والبشر ذوي اللون الأحمر، من عرق كان غير معروف حتى الآن، والحيوانات التي لم يسبق أن رآها أحد قط، من الببغاوات الملوَّنة، الزاعقة، وحيوانات التابير ذات الحركة الثقيلة، ثم النباتات الغريبة والثمار التي تلفت الأنظار، والتي سرعان ما ستجد موطنها في أوروبا، والذرة الصفراء الهندية، والتبغ، وجوز الهند. وكان هذا كله يجتذب أنظار الجمهور الذي كان يهتف ويهلل مندهشاً، في فضول، غير أن ما يثير الزوجين الملكيَّيْن ومستشاريْهما أعظم الإثارة تلك الصناديق والسلال الصغيرة الملأى بالذهب، ولم يكن الذهب الذي جاء به كولومبوس من الهند الجديدة كثيراً، بل كان بضع قطع تزيينية قايض عليها أهل البلاد الأصليين أو سلبهم إياها، وبضع سبائك صغيرة، وبضع حفنات من الذرة الصفراء المفتَّتة، وكان تِبراً أكثر مما كان ذهباً –

وكانت الغنيمة بأسرها لا تكاد تكفي لصك بضع مئات من الدوكات. غير أن كولومبوس العبقري الذي يظل أبداً يؤمن إيمان المتعصب بما يريد أن يؤمن به على وجه الخصوص، والذي يتمتع، بالقدر ذاته، بالحق في طريقه البحري إلى الهند، مكلّلاً بالمجد، قائلاً، في تبجُّج وتلفيق، وفي حماسة مفرطة صادقة: إن هذا ليس إلاّ عيِّنة أولى، ضئيلة، وإنه قد تلقى خبراً موثوقاً عن مناجم ذهب لا يُسْبَر غورها، في هذه الجزائر الجديدة، إذ يوجد هناك، على مستوى منبسط تماماً، وتحت طبقة رقيقة من التراب، الذهبُ النفيس، في بعض الحقول. وكان يقول إن المرء يستطيع، بمسحاة عادية، أن يكشف عنه بسهولة، ويقول إنه توجد في الجنوب، وراء هذا ممالك يشرب فيها الملوك من آنية من ذهب، وإن الذهب فيها يعدل أقل مما يعدل الرصاص في إسبانيا. ويسمع الملك، الذي يظل أبداً في حاجة إلى الذهب، وهو سكران، بأرض الذهب الجديدة هذه كتلك التي ورد ذكرها في التوراة والتي تعود إليه هو، وما زال القوم لا يعرفون كولومبوس بما يكفي، وهو في جنونه الرفيع المستوى، لكي يرتابوا في وعوده، ويجري على الفور الإعداد للرحلة الثانية، بأسطول كبير. ولم يكنِ القوم إذّاك في حاجة إلى أهل دعاية ومُطَبِّلين، لاستئجار ركاب، وذلك أن نبأ أرض الذهب المكتشفة حديثاً، حيث يمكن رفع الذهب باليد المجرَّدة يجعل أسبانيا كلها يستحوذ عليها الجنون: ويتدفق الناس بالمئات، وبالألوف لكي يرتحلوا إلى أرض الذهب (إلدورادو).

ولكن أي طوفان عَكِرٍ هذا الذي تقذف به إلى هنا الآن الرغبةُ من كل المدن والقرى والمواطن. لم يكن الذين يبلغون عن مجيئهم أناس نبلاء شرفاء يريدون أن يموِّهوا بالذهب شعارات أسلحتهم تمويهاً كاملاً فحسب،

ولم يكونوا مغامرين جسورين، وجنوداً شجعاناً، بل كانت كل أوساخ اسبانيا وخَبَيها تقوم سابحة إلى بالوس وقادش، فمنهم اللصوص المَوْصومون، وقطّاع الطرق، والصعاليك الباحثون في أرض الذهب عن صناعة تدر دخلاً أكبر، ومدينون، وأزواج يريدون أن يهربوا من دائنيهم وزوجاتهم المشاكسات، وكل اليائسين والخائبين، والموصومين، والمطارَدين من قبل (Alguacils)، كل هؤلاء يبلّغون عن مجيئهم إلى الأسطول. عصابة من الخائبين طُرِح بعضها على بعض في عمل جنوني، قد عقدت العزم على أن تصل إلى الغنى، أخيراً، دفعة واحدة، وعقدت العزم، من أجل ذلك، على أن تقدم على أي عمل من أعمال العنف، وعلى كل جريمة، وبهذا القدر من الجنون أوحى كلٌّ منهم إلى الآخر بعبث خيال كولومبوس، الذي يقول إن المرء لا يحتاج في تلك البلدان إلاّ إلى أن يضرب بمسحاته الأرض، وإذا كتل الذهب تبرق في وجهه وتتألّق، وأن على الموسرين أن يأخذوا معهم خدماً بين المهاجرين ليتمكنوا من جرّ المعدن الثمين في كتل كبيرة على الفور، وكان من لا يُوَفَّق إلى أن يحظى بالقبول في البعثة يرغم الآخرين على أن يفسحوا له الطريق، ومن دون أن يكثروا من السؤال عن الإذن الملكي يجهِّز المغامرون الصعاليك سفناً على حسابهم، لكي يصلوا إلى هناك بسرعة فحسب، ويَلُمّوا الذهب، والذهب، والذهب، وتتحرر إسبانيا، بضربة واحدة من أهل القلاقل والصعاليك الأكثر انطواءاً على الخطر.

ويرى حاكم إسبانيولا (التي أصبحت فيما بعد سان دومينجو، أوهايتي)، وقد تولاّه الفزع، هؤلاء الأضياف المتطفّلون الذين فاضت بهم الجزيرة التي عُهِد بها إليه، وكانت السفن تأتي، من عام إلى عام،

بحمولة جديدة، وأجراء قد أفلت زمامهم على نحو مطرد الزيادة. غير أن القادمين كانوا مفعمين بخيبة الأمل بالقدر ذاته، لأن الذهب لم يكن بحال من الأحوال مبذولاً هنا في الشوارع، وما عاد المرء يستطيع أن يبتزّ من أهل البلاد الأصليين، الذين ينقض عليهم الوحوش، حبّة من الذرة، وهكذا تجوب هذه العصابات من الهَمَج خلال الديار سالبة ناهبة، فكان ذلك مثار فزع للهنود الحمر البائسين، ومثار فزع للحاكم. وعبثاً يحاول أن يجعل منهم مستعمرين، بأن يحوّلهم إلى الأرض الزراعية، ويوزّع عليهم المواشي، بل يهب لهم المواشي البشرية أيضاً، أي أنه يعطى لكل فرد منهم ستين إلى سبعين من أهل البلاد ليكونوا عبيداً. ولكن لم يكن يميل إلى ممارسة الزراعة، لا شعب الهيدالجو من أهل النبالة الأصليين، ولا قطاعُ الطرق السالفين. إذ لم يأت هؤلاء لكي يزرعوا القمح ويرعوا الماشية. وبدلاً من أن يُعْنَوْا بالبذور والمحصول فإنهم كانوا يعذّبون الهنود الحمر التعساء - وبذلك استأصلوا السكان بأسرهم خلال سنوات قلائل، أو كانوا يقعدون في الملاهي، وفي أقصر وقت بلغ تضخم الديون على معظم هؤلاء ما كان يضطرُّهم إلى بيع المعطف والقبعة والقميص الأخير، بعد بيع أمتعتهم، حتى يصل الأمر إلى بيع رقابهم فيعتقلهم التجار والمرابون.

ومن أجل ذلك كان من قبيل الرسالة التي تجد الترحيب عند كل هؤلاء الخائبين في إسبانيولا، أن يتولى رجل مرموق السمعة، وهو عالم القانون مارتن فرنانديز دي إنسيزو عام ١٥١٠ تجهيز سفينة، ليتدارك مستعمرته في تيراً فيرما بسكان جدد. وكان مغامران مشهوران، هما ألونزودي أوجيدا ودييجو دي نوكويسا، قد حصلا من الملك فرديناند في

عام ١٥٠٩ على امتياز بتأسيس مستعمرة بالقرب من برزخ باناما وشاطئ فنزويلا، يطلقان عليها، في مرحلة مبكرة، اسم قشتالة الذهب (جولد قشتاليا). وكان هذا الخبير بأمور الدنيا، والعالم وفي القانون، الذي أسكره الاسم الرنّان، وخلبت لُبَّه الأحاديث الملفَّقة، قد أودع ثروته كلها في هذا المشروع، ولكن المستعمرة المؤسسة حديثاً في سان سيباستيان، في خليج أورابا لا يأتي منها ذهب، بل لا تصدر عنها إلاّ صرخة استغاثة حادة، فقد أبيد نصف الرجال في المناوشات مع السكان الأصليين، وأبيد النصف الآخر إذ مات جوعاً، ولكن ينقذ المال المُسْتَثْمَر المغامر إنسيزو الذي غامر ببقية ثروته، وجهز بعثة إغاثة. ولم يكد الخبر يتناهى إلى مسامع هؤلاء، ومفاده أن إنسيزو يحتاج إلى الجند حتى همَّ كل اليائسين، والعاطلين عن العمل في اسبانيا باغتنام الفرصة، والهرب معه. إنما هو الرحيل فحسب، لمجرد الإفلات من قبضة الدائنين، ويقظة الحاكم الصارم!، ولكن الدائنين أيضاً كانوا منهم على حذر، وهم يلاحظون أن مَدينيهم الذين يرزحون تحت أفدح الديون يريدون الهرب إلى غير لقاءٍ البتَّة، وها هم أولاء يقتحمون مقر الحاكم كالعاصفة، لكيلا يَدَعوا أحداً يغادر من دون إذنه الخصوصي. وينزل الحاكم على رغبتهم، وتجري تعبئة حراسة صارمة، وتضطر سفينة إنسيزو إلى البقاء خارج المرفأ، وتقوم قوارب الحكومة بدور الخفارة، وتحول دون إقدام أحد من المتطفِّلين على تهريب نفسه إلى ظهر السفينة. وبحرارة لا حد لها ينظر كل اليائسين الذين لا يُجْفِلون من الموت بمقدار ما يجفلون من العمل الشريف أو برج الديون، بينما كانت سفينة إنسيزو تتوجه إلى مغامرتها وقد انتفخت أشرعتها.

وتتوجه سفينة إنسيزو، وقد انتفخت أشرعتها، من إسبانيولا، نحو القارة الأمريكية، وكانت المعالم الرئيسية للجزيرة قد غابت وراء الأفق الأزرق. إنها رحلة هادئة، ولم يكن ثمة شيء خصوصي يُلاحَظ أول الأمر، إلاّ هذا على أية حال، وهو أن كلب صيد شديد البأس، يتمتع بقوة فائقة، وهو ابن كلب الصيد الشهير بيشيريكو، وكان هو نفسه قد أصبح مشهوراً باسم ليونسيكو - يعدو جيئة وذهاباً، في جَلَبة على ظهر السفينة، ويتشمم الروائح حواليه في كل مكان، وما من أحد يعرف إلى من يعود هذا الحيوان العاتي، وكيف وصل إلى ظهر السفينة، كما كان يلفت النظر آخر الأمر أيضاً أن هذا الكلب لم يكن من الممكن إبعاده عن صندوق كبير لزاد السفر نقل إلى ظهر السفينة في اليوم الأخير، وإذا هذا الصندوق ينفتح من تلقاء نفسه بطريقة مفاجئة ويخرج صاعداً منه قديش قشتالة، مثل سانتياغو، شاكيَ السلاح، بسيفه وخوذته، وهو رجل في نحو الخامسة والثلاثين من العمر، إنه ڤاسكو نو نيزدي بالبووا، الذي يقدم بهذه الطريقة أول اختبار لجسارته ودهائه المدهشين، وقد ولد في جيريز دي لوس كابالليريس، لأسرة من النبلاء، وكان قد أبحر، بصفة جندي بسيط، مع رودريجو دي باستيداس، إلى العالم الجديد، وأخيراً، وبعد عدد من الرحلات التائهة، نزل على الشاطئ مع سفينته بأسرها، قبالة إسبانيولا، وعبثاً حاول الحاكم أن يجعل من نونيز دي بالبووا مستعمِراً صالحاً، وبعد أشهر قلائل هجر الأرض الزراعية التي قُسِمت له، وبلغ من إفلاسه أنه ما عاد يعرف كيف يخلِّص نفسه من دائنيه. ولكن بينما كان المدينون الآخرون يحملقون على الشاطئ ناظرين إلى

قوارب الحكومة التي جعلت هربهم على سفينة إنسيزو مستحيلاً، يدور نونيز بالبووا، بجسارة، حول حاجز دييجو كولومبوس، متحاشياً إياه، إذ يندس مختبئاً في صندوق لزاد السفر، ويوعز إلى مساعدي المساعدين أن يحملوه إلى ظهر السفينة حيث لا يحسّ القوم، في غمرة الجَلَبة الناجمة عن الرحيل، بالحيلة الوقحة. ولا ينبئ المسافر غير المرئيّ عن وجوده إلاّ حين يعلم أن السفينة قد باتت بعيدة عن الساحل بما يكفي لكي لا يعود القوم أدراجهم بالسفينة من أجله. لقد بات الآن هنا.

وأنسيزو من رجال القانون، وكان قليل الميل إلى الرومانسية، شأن معظم رجال القانون، وكان، بحكم كونه قائد الشرطة في المستعمرة الجديدة، يأبى أن يحتمل هناك من يأكلون في المطاعم من دون أن يدفعوا الثمن، ولا يطيق الشخصيات التي يشوبها الالتباس والغموض، ولذلك فسرعان ما يعلن لنونيز دي بالبووا، بحدة، أنه لا يفكر في أن يأخذه معه، بل سينزله على الساحل في أول جزيرة يمرّون بها، سواء أكانت مأهولة أم غير مأهولة.

ولكن المسألة لم تصل إلى هذا المستوى، فبينما كانت السفينة تتوجه نحو قشتالة الذهبي تصادفها أعجوبة في ذلك العصر، حيث تمخر عباب هذا البحر الذي ما زال غير مجهول، بضعة اثني عشريات من السفن على وجه الإجمال - وكان هذا قارباً مكتظاً بالركاب يقوده رجل سوف يتردد صدى اسمه عمّا قريب في أرجاء العالم، وهو فرانسيسكو بيزارو، وكان ركابه قادمين من مستعمرة إنسيزو، سان سيباستيان، وفي البداية يُعَدّون من العصاة المتمردين الذين غادروا مواقعهم من باب الاستبداد والتحكُّم، ولكن كان من بواعث فزع إسيزو أنهم يتحدثون

قائلين إنه ما عاد ثمة وجود بعدُ للمستعمرة السالفة، سان سيباستيان، وأنهم، هم أنفسهم، آخر من كان في المستعمرة السالفة، وأن الآمر أوجيدا قد فرَّ من هناك بسفينة، أما الآخرون الذين لم يكن في حوزتهم إلا سفينتان حربيتان شراعيتان، فلم يكن لهم بد أن ينتظروا إلى أن مات منهم من مات فلم يبق منهم سوى سبعين، لكي يجدوا مكاناً في هذين القاربين الصغيرين، وتحطمت من هاتين السفينتين الحربيتين الشراعيتين، واحدة، مرة أخرى. ويعدّ الأربعة والثلاثون من رجال بيزارو آخر الباقين على قيد الحياة من أهل قشتالة الذهب. فإلى أين يذهبون الآن؟ لم يكن رجال إنسيزو، فيما تفيد أقاصيص بيزارو يرغبون في أن يعرِّضوا أنفسهم للمناخ المستنقعي الرهيب في المستوطنة المهجورة وسهام السكان الأصليين المسمومة، على أن العودة إلى إسبانيولا من جديد تبدو لهم أنها الإمكانية الوحيدة. وفي هذه اللحظة الخطيرة يبرز، على نحو مفاجئ، فاسكو نونيز دي بالبوا. ويعلن قائلاً إنه يعرف، من رحلته الأولى مع رودوريجو دي باستيداس، كل ساحل أمريكا الوسطى، وإنه يتذكر أنهم وجدوا في تلك الأيام مكاناً يقال له داريا على ضفة نهر يحتوي على الذهب ويوجد عنده أناس ذوو مودة من أهل البلاد الأصليين. وهناك، وليس في مستقر النكد والشقاء، ينبغي للمرء أن يؤسس المستوطنة الجديدة.

وعلى الفور يعلن الفريق تأييده لنونيز دي بالبوا. ويتوجه القوم، بموجب اقتراحه، إلى داريْا، على برزخ باناما، ويدبِّرون هناك، أول الأمر، المجزرة المألوفة بين السكان الأصليين، وحين يُعْثَر، بين المتاع المنهوب على الذهب أيضاً، يقرر اليائسون أن يبدأوا هنا بمستوطنة، ويطلقون، من

ثمَّ، على المدينة الجديدة اسم سانتا ماريا ديل انتيجوا ديل داريا، في شعور منهم بالامتنان المنطوي على التقوى.

ارتقاء خطير

وسرعان ما سيندم المتحول البائس للمستعمرة، رجل القانون إنسيزو، ندامة شديدة لأنه لم يبادر إلى رَمْي الصندوق مع نونيز دي بالبوا الموجود فيه، عن ظهر السفينة في الوقت المناسب، إذ بات هذا الرجل الجسور، بعد أسابيع قلائل، يمسك في يده، بكل مقاليد السلطة. ويحاول إنسيزو، بحكم كونه متضلعاً في القانون منذ نعومة أظفاره، ومن أهل التربية والنظام، وبصفته عمدة الحاكم الذي ما عاد يمكن العثور عليه في الوقت الراهن، أن يدير المستعمرة لصالح التاج الأسباني، ويصدر، وهو في كوخ الهنود الحمر البائس، المراسيم بنظافة وصرامة تعدلان مثيلتيهما لو أنه كان يقعد في حجرة رجل الحقوق في إشبيليا. ويحظر، في وسط هذا الجوّ المقفر، الذي لم تطأه قدم البشر بعدُ أبداً، شراء الذهب من السكان الأصليين، قائلاً إن هذا احتياطي للتاج، ويحاول أن يفرض النظام والقانون على هذه العصابة التي لم تتح لها تربية ولكن بدافع الغريزة يتمسَّك المغامرون بالرجل حامل السيف ويتمرَّدون على رجل القلم. وسرعان ما يصبح بالبوا سيِّد المستعمرة الحقيقي، ولم يكن بدّ لإنسيزو أن يهرب لينجو بحياته. وحين يأتي الآن نيكويسا، وهو أحد حكام البرّ، آخر الأمر ليوطِّد النظام، لا يدعه بالبوا ينزل على البر على الإطلاق، ويغرق نيكويسا البائس مطروداً من الأرض التي أقطعه إياها الملك، في رحلة العودة.

والآن بات نيونيز دي بالبووا، الرجلُ الذي خرج من الصندوق، سيِّد المستعمرة، غير أنه لم يكن يشعر بالارتياح الكامل، على الرغم من نجاحه، لأنه أقدم على تمرد علني على الملك، وكان أقلّ من ذلك أملاً في العفو، ما دام الحاكم المعيَّن من قبل الملك قد لقي حتفه من جرّاء إثمه، وهو يعرف أن إنسيز والهارب هو في طريقه إلى إسبانيا حاملاً معه اتهامه أو أنه لم يكن له بدٌّ من أن تنعقد محكمة بعد ذلك تحاكمه لتمرده، ولكن إسبانيا بعيدة على أية حال، وما زال أمامه الكثير من الوقت إلى أن تكون سفينة من السفن قد مخرت عباب المحيط مرتين. ولمّا كان ذكاؤه في مثل جسارته فهو يبحث عن الوسيلة الوحيدة لكي يظل ثابتاً في سلطانه المغتَصَب، وهو يعلم أن النجاح في ذلك الوقت يبرر كل جريمة، وأن تقديم كمية كبيرة من الذهب إلى خزانة التاج الملكي يمكنه أن يخفف من حدة أي إجراء تأديبي، أو يؤجله، وإذاً فهو تدبير الذهب أولاً، لأن الذهب هو السلطان! وبالاشتراك مع فرانسيسكو بيزارو يستعبد وينهب السكان الأصليين في الجهات المجاورة، وفي غمرة المجازر المألوفة يتاح له نجاح حاسم. وذلك أن واحداً من شعب الكاسيك، يقال له كاريتا، أغار عليه بطريق الغدر، ومع الإخلال ذي الجلافة المتناهية، بقواعد إكرام الضيف، يقول له مقترحاً، وقد بات هو محكوماً عليه بالموت، إن من الأفضل له أن يعقد تحالفاً مع قبيلته بدلاً من أن يحوِّل الهنود الحمر إلى أعداءٍ له، ويقدم له ابنته عربوناً لولائه. ويدرك بونيز دي بالبووا على الفور أهمية الظفر بصديق له قوي بين السكان الأصليين، فيقبل عرض كاريتا، على أن ما هو أدعى إلى الدهشة بعدُ أنه يظل حتى ساعته الأخيرة متعاطفاً مع تلك الفتاة الهندية الحمراء

بألطف الأساليب. وبالاشتراك مع كاريتا الكاسيكي يستعبد كل الهنود الحمر في الجهات المجاورة، ويحظى بسلطان عليهم يبلغ منه أنَّ أقوى زعيم لهم، وهو المدعو كوماجرَ يدعوه إلى بيته بحفاوة وتقدير.

على أن هذه الزيارة للزعيم القوي تعود بساعة الحسم التاريخي العالمي في حياة فاسكو نونيز دي بالبوا الذي لم يكن حتى الآن سوى متمرد يائس وجسور على التاج، وكان مقدَّراً له أن ينتظر حبل المشنقة، أو فأس المحاكم القشتالية، ويستقبل الكاسيكي كوماجر في منزل مبني من الحجر فسيح الأرجاء يبعث، من جراء غناه أعلى درجات الاندهاش في نفس فاسكو نيونيز، ويهدي هذا إلى ضيفه، من دون مطالبة، أربعة آلاف أونصة من الذهب، غير أن الدور في الاندهاش بات الآن من نصيب الكاسيكي. ذلك لأن أبناء الجنة، الأقوياء، الغرباء الذين يضاهون الأرباب، الذين استقبلهم بتقدير بالغ الإجلال والحفاوة، لم يكادوا يبصرون الذهب حتى زايلتهم الكرامة، وانقضَّ بعضهم على بعض كالكلاب التي أفلتت من عقالها، وتُسْتَلُّ السيوف، وتتكوَّر قبضات الأيدي، ويزعقون، وتغلي مراجلهم، بعضهم على بعض، وكلٌّ يريد حصته الخصوصية من الذهب، وينظر الكاسيكي إلى ثورانهم وقد أخذته الدهشة وتولاّه الازدراء: إنه الاندهاش الخالد من قبل كل أبناء الطبيعة في كل أرجاء المعمورة، حيال البشر المتحضرين، الذين تبدو حفنة من المعدن الأصفر أعلى قيمة بالقياس إليهم من كل المنجزات الفكرية والتقنية في حضارتهم.

وأخيراً يوجه الكاسيكي الكلام إليهم، ويسمع الأسبان وقد أخذتهم رعدة الرغبة والنهم، ما يترجم التَّرْجُمان. ويقول كوماجر: ما أغرب اقتتالكم من أجل أمثال هذه التفاهات، وتعريضكم حياتكم، من أجل

مثل هذا المعدن العاديّ، لأشد المتاعب والمخاطر. هناك، وراء هذه الجبال، يوجد بحر هائل، وكل الأنهار التي تصب في هذا البحر تأتي معها بالذهب. ويقيم هناك شعب يسافر بالسفن ذوات الأشرعة والمجاذيف، المماثلة لسفنكم، وملوكه يأكلون ويشربون من آنية من الذهب. وهناك تستطيعون أن تعثروا على هذا المعدن الأصفر، على قدر ما ترغبون، إنه طريق محفوف بالمخاطر، فما من شك في أن الزعماء سيرفضون عبوركم، غير أنه ليس إلاّ طريقاً يقتضي مسيرة أيام قلائل.

ويشعر فاسكو نونيز دي بالبوا بشيء يمسّ قلبه. لقد تم العثور آخر الأمر على آثار بلاد الذهب الأسطورية التي يحلمون بها منذ سنين، ولقد أراد أسلافه أن يستطلعوا أخبارها في كل الأماكن، في الجنوب والشمال، وهي الآن تقع على بعد مسيرة بضعة أيام، وإذا كان هذا الكاسيكي صادقاً في روايته. فإن وجود ذلك المحيط الآخر مضمون في الوقت ذاته أيضاً، وهو المحيط الذي بحث عنه كولومبوس عبثاً وكابوت وكوريريال، وكل المشاهير الآخرين من البحارة، وبذلك يتم في الحقيقة اكتشاف الطريق الذي يدور حول الكرة الأرضية. ومَنْ يكن أول من يرى هذا البحر الجديد ويستولي عليه لمصلحة وطنه فلن يعتري الفناء اسمه على الأرض أبداً. ويدرك بالبوا العمل الذي لابد أن يقوم به ليفتدي نفسه من جريرة كل إثم وليحظى بشرف خالد: أن يكون أول من يعبر البرزخ إلى بحر الجنوب (Mar del Sur) الذي يفضي إلى الهند، وأن يفتتح أرض الذهب لصالح التاج الإسباني. وبهذه الساعة في منزل الكاسيكي كوماجر يتقرَّر مصيره. ومنذ هذه اللحظة بات لحياة هذا المغامر العابر معنى رفيع، يتخطى كل العصور.

وما من سعادة في مصير إنسان أعظم من أن يكتشف، وهو في منتصف العمر أي في سنوات الرجولة الخلاّقة، رسالة حياته. ونونيز دي بالبووا يعرف ما يوجد في كفة الميزان بالنسبة إليه – الموت الباعث للرثاء، على منصة الإعدام، أو الخلود. أن يشتري لنفسه أول الأمر، السلام مع التاج، وأن يبرِّر فعلته الشنعاء، وهي اغتصاب السلطة، فيما بعد، وأن يضفي عليها الشرعية! ولذلك يرسل متمرِّد الأمس، على أنه أكثر أفراد الرعية قاطبة في الجد والاجتهاد، إلى خازن الخزانة الملكية في إسبانيولا، باسامونت، ليس مجرد خُمْسٍ هدية كوماجر، التي تعود بحكم القانون إلى التاج، فحسب، بل يضيف، وهو الأكثر خبرة في الممارسات العملية في الدنيا، من عالم القانون إنسيزو، إلى الإرسالية الرسمية بعدُ، بصفة شخصية، تبرعاً مالياً سخيّاً، موجَّهاً إلى مدير الخزانة، مع رجاء تثبيته في منصبه، قبطاناً عاماً للمستعمرة. والحق أن مدير الخزانة، باسامونت، لم يكن يتمتع بصلاحية فعل هذا، ومع ذلك فهو يبعث إلى نونيز دي بالبووا وثيقة مؤقتة، وكانت في الحقيقة غير ذات قيمة. ولكن في الوقت ذاته كان بالبووا الذي كان يريد أن يُؤَمِّن نفسه من كل الجهات، قد أرسل أيضاً اثنين من أكثر رجاله موثوقيّةً، إلى اسبانيا، لكي يتحدثا في البلاط عن مكاسبه من أجل التاج، وليبلغاه الرسالة الهامة التي كان قد انتزعها من الكاسيكي، ويوعز فاسكو نونيز بإبلاغ إشبيلية أن ترسل إليه قوة مؤلفة من ألف رجل فحسب، قائلاً إنه يتعهَّد بأن يفعل بها من أجل قشتالة ما لم يفعل إسبانيٌّ قط من قبله، وقال إنه يلتزم باكتشاف البحر الجديد، والظفر بأرض الذهب التي عثر عليها

حديثاً، وهي التي وعد بها كولومبوس عبثاً، وأنه، أي بالبووا، سوف يفتتحها.

ويبدو كل شيء وقد اتجه الآن لصالح الإنسان الضائع، والمتمرد، واليائس، غير أن السفينة الأولى القادمة من إسبانيا تأتي بخبر سوء. ذلك أن أحد مساعدي مساعديه في التمرُّد، وهو الذي كان قد أرسله إلى هناك، في أيامه، ليدحض اتهامات المسلوب إنسيزو لدى البلاط، يُبَلِّغ أن المسألة باتت تنطوي على الخطر بالنسبه إليه، بل تشكل خطراً على حياته. وذلك أن «رجل القانون» المصدوم قد وصل بشكواه ضد من سلبه سلطانه، إلى المحكمة الإسبانية وتوصَّل إلى الحكم على بالبووا بالتعويض عليه. وقال إن الرسالة عن وضع بحر الجنوب القريب، التي كان في وسعها أن تنقذه، لمّا تصل بعد، في مقابل ذلك، وقال: وعلى كل حال فسوف تصل بأول سفينة شخصية من المحكمة لكي تطالب بالبووا بتأدية الحساب عن انقلابه، ولتحكم عليه في المكان ذاته، أو تردَّه مكبَّلاً بالأغلال، إلى اسبانيا.

ويدرك بالبووا أنه بات من الخاسرين، وقد نجحت إدانته وتمَّت قبل أن يصل إلى القوم خبره عن بحر الجنوب القريب وعن الساحل الذهبي، ومن البدهيّ أن القوم سيستغلون هذا الخبر، بينما يُدَحْرِجون رأسه في الرمل، وسوف يتولّى أي امرئ آخر إنجاز عمله، العمل الذي كان يحلم به؛ أمّا هو ذاته فما عاد لديه شيء يؤمِّله في إسبانيا، وهم يعلمون أنه دفع بالحاكم الشرعي المبعوث من قبل الملك إلى الموت، وأنه طرد العمدة من وظيفته بأسلوب التحكُّم والاستبداد - بل سوف يضطر إلى أن يعدّ الحكم رحيماً بعدُ لو فرض عليه السجن فحسب، ولم يُرْغَم على التكفير

عن جسارته على صخرة قطع الرؤوس، ولم يكن في وسعه أن يحسب حساباً لأصدقاء أولي قوة وبأس شديد، إذ ما عاد، هو نفسه، يتمتع بسلطان. أمّا شفيعه الأفضل، وهو الذهب، فما زال صوته أكثر وَهْناً من أن يضمن له الرحمة. كان ثمة شيء واحد فحسب يستطيع الآن أن ينقذه من العقوبة على جسارته - جسارة أكبر منها بعد. فإذا اكتشف البحر الآخر، وأرض الذهب الجديدة، قبل أن يصل رجال القضاء، وقبل أن يلمسه أعوانهم ويكبّلوه بالأغلال، استطاع أن ينقذ نفسه. كان ثمة هرب واحد فحسب ممكن بالقياس إليه، في نهاية العالم المسكون، ألا وهو الهرب إلى عمل جليل، الهرب إلى الخلود.

وكذلك يقرر نونيز دي بالبوا أن لا ينتظر الرجال الألف الذين التمسهم من إسبانيا، ولا ينتظر أيضاً وصول الشخصيات القضائية. والأفضل عنده أن يجرؤ على الأمر المَهول برجال قلائل مصممين مثله! ولأنْ يموت مكلّلاً بالشرف في سبيل مغامرة من أجرأ المغامرات في كل العصور، خيرٌ له من أن يتدحرج رأسه على صخرة الإعدام مجلّلاً بالعار، مغلول الأيدي. ويؤَذِّنُ نونيز بالبوا في المستعمرة فيجمعها، ويعلن، من دون أن يتكتّم على الصعوبات، عن رغبته في عبور البرزخ، ويسأل من يريد أن يتبعه. وتبعث جرأته الجرأة في الجند الآخرين، البالغ عددهم مائة وتسعين، وهم كل الرجال القادرين على حمل السلاح في المستعمرة تقريباً، فيعبرون عن استعدادهم، أما التسلُّح فلا حاجة إلى تأمين الكثير منه، لأن هؤلاء البشر يعيشون في حرب مستمرة على أية حال. وفي الأول من أيلول عام ١٥١٣، يبدأ نونيز دي بالبوا مسيرته إلى الخلود هرباً من حبل المشنقة أو السجن، بطلاً وقاطع طريق، ومغامراً ومتمرداً.

لحظة خالدة

ويبدأ عبور برزخ بَنمَا في ذلك الإقليم، إقليم كويْبا، المملكة الصغيرة العائدة إلى الكاسيكي كارتيا، الذي كانت ابنته رقيقة حياة بالبوا، ولم يختَرْ نونيز دي بالبوا، كما سوف يتبيَّن فيما بعد، أضيق موقع، ومن جراء جهله هذا يطيل أمر العبور الخطير بضعة أيام، ولكن لم يكن هناك بدٌّ، بالقياس إليه، أن يكون من المهم أن يتوافر له قبل كل شيء، لدى مثل هذه الضربة في المجهول، من أجل الإمدادات، أو الانسحاب، ضمان صداقة قبيلة من قبائل الهنود الحمر. وينتقل الفريق في عشرة من القوارب الكبيرة، من داريا إلى كويْبا، مائة وتسعون جندياً مسلحون بالخناجر والسيوف والبنادق القديمة والأقواس، تواكبهم عصابة لا يستهان بها من الكلاب البوليسية المهيبة، ويقدم الكاسيكي الحليف هنوده الحمر ليكونوا حيوانات حمولة وأدلاّء، ومنذ السادس من أيلول يبدأ ذلك الزحف المجيد عبر البرزخ الذي يطرح هو ذاته مطاليب هائلة على قوة الإرادة لدى المغامرين الجسورين والمحنكين. ويضطر الإسبان أوّلاً إلى أن يعبروا، في وسط لهيب خط الاستواء الخانق، المنهك للقوى، الذي ذهبت أرضه المستنقعية، المحمَّلة بالحمى، بعد ذلك بقرون من الزمان، عند إنشاء قناة بناما، بأرواح الألوف المؤلَّفة. ومنذ هذه الساعة فصاعداً يغدو مما لابدَّ منه أن يُشَقَّ الطريق عبر ما لم تطأه قدم إنسان، خلال أحراش الليانيين السامة، بالفأس والسيف، ويشق الأوائل من القوة، للآخرين، خلال الدغل الكثيف، ممراً ضيقاً، كما لو كانوا يشقّونه خلال منجم أخضر هائل، ثم يعبر هذا الممر، في طابور طويل لا نهاية له، جيشُ الفاتحين، والأسلحة في أيديهم على الدوام، أبداً، في

النهار والليل، متيقظي الحواس، في توتُّر، لصد غارة مفاجئة من قبل السكان الأصليين. وتغدو الحرارة خانقة في الظلمة المشحونة بالبخار، ظلمة عمالقة الأشجار، المحنيّة كالقباب، في رطوبتها، إذ تستعر فوقهن شمس قاسية لا ترحم. وتُجَرِّر القوة أذيالها، مجلّلة بالعرق، والشفاه قد بلغ منها العطش ما بلغ، بأسلحتها الثقيلة، ميلاً بعد ميل، في مسيرة متواصلة: ثم تنهال على نحو مفاجئ دفقات من المطر البركاني، وتتحول جداول صغيرة، في مثل سرعة البرق، إلى أنهار جارفة، إما أن يترتَّب الخوض فيها بالأقدام، وإما أن يتم عبورها على جسور مترنحة ارتجلها الهنود الحمر على عجل، من لحاء الشجر. أما الغذاء فليس لدى الإسبان منه شيء سوى حفنة من الذرة، ويتقدَّمون إلى الأمام وقد أنهكوا أنفسهم، واحمرَّت عيونهم من السهر والسهاد، جائعين، عطاشاً، تحفّ بهم أعداد لا تحصى من الحشرات الواخزة التي تمصّ الدماء، بملابس مزقتها الأشواك، وأقدام مُجَرَّحة، وقد حُمَّت العيون وتورَّمت الخدود من وخزات البعوض الذي يئزُّ أزيزاً، لا يقرّ لهم قرار في النهار ولا ينامون في الليل، وسرعان ما باتوا منهكين كل الإنهاك. وبعد الأسبوع الأول من المسير، فحسب لا يستطيع قسم كبير من الفريق أن يصمدوا للمشاقّ، ونونيز دي بالبووا الذي يعرف أن الأخطار الحقيقية ما زالت في انتظارهم، يصدر تعليمات مؤداها أن من الأفضل أن يتخلّف كل المرضى بالحمى والمتخلّفين المنهَكين، فهو يريد أن يجرؤ على المغامرة الحاسمة بالنخبة المصطفاة إلى أبعد الحدود، من قوته، فحسب.

وأخيراً تأخذ الأرض في الارتفاع، ويغدو الدغل أكثر إشراقاً، وهو الذي لا يقدر على إخراج خضرته الوارفة الغنّاء الاستوائية، الكاملة، إلا

في الوِهاد المستنقعية، ولكن الشمس الاستوائية العمودية، باتت الآن، إذ ما عاد الظل يحميهم، تستقر صارخة، حادّة، على أسلحتهم الثقيلة. ورويداً رويداً، وعلى مراحل قصيرة، يتمكن المُنْهَكون من ارتقاء المرتفع درجة درجة، إلى تلك السلسلة من الجبال التي تمتد بين البحرين لتفصل المسافة اليسيرة الضيِّقة القائمة بين البحرين وكأنها عمود فقري من الحجر. وشيئاً فشيئاً تغدو النظرة أكثر انطلاقاً وحرية، فيكتسب الهواء البرودة أولاً. وبعد جهد بطولي دام ثمانية عشر يوماً تبدو أفدح الصعوبات وقد تمّ التغلُّب عليها. وها قد ارتفعت أمامهم سلسلة الجبال التي يستطيع المرء أن يطل من قمتها، كما قال الدليل الهندي الأحمر، على كلا المحيطين، المحيط الأطلسي، والمحيط الهادئ الذي كان غير معروف، ولم يطلق عليه اسم بعد. ولكن الآن على وجه الخصوص، حيث يبدو وكأن الانتصار قد تمَّ على المقاومة الماكرة الصلبة في الطبيعة، بصورة نهائية، يتصدى لهم عدوّ جديد، هو كاسيكيٌّ ذلك الإقليم، ليقطع طريق المرور على الغرباء بمائة من محاربيه. وكانت التجارب كثيراً ما حنّكت نونيز دي بالبووا في القتال مع الهنود الحمر. ويكفي أن يطلق رشقة من البنادق القديمة، ومرة أخرى يثبت البرق الاصطناعي والرعد الاصطناعي، قدرة سحرهما ذات البلاء الحسن لدى السكان الأصليين، ويهرب المروَّعون من النار، ولكن بدلاً من أن يبتهج بالبووا بالانتصار السهل، يجرِّده من شرفه، مثلما كان يفعل كل الفاتحين الإسبان بقسوة دنيئة باعثة للخزي والعار، إذ يدع عدداً من الأسرى المقيدين الذين لا دفاع لهم، تمزق أجسادهم وتنهشها عصابة الكلاب البوليسية الجائعة، وهم بعدُ أحياء، وتكون مذبحة مثيرة للاشمئزاز تلطِّخ بالعار ليلة نونيز بالبووا السابقة على اليوم الخالد.

وثمة خليط فريد لا سبيل إلى تفسيره في شخصية هؤلاء الفاتحين وأسلوبهم، إذ يتسمون بالتقوى والإيمان على قدر ما يتسم به المسيحيون في أي يوم من الأيام، ويجأرون إلى الله بالدعاء من قلب يستعر حرارة، ويرتكبون في الوقت ذاته، باسمه، أشد الفظائع الوحشية افتضاحاً، في التاريخ، وهم، على كونهم مؤهلين لأروع الإنجازات البطولية المنطوية على الجرأة، والتضحية، والمقدرة على احتمال المعاناة، يخادع بعضهم بعضاً، ويقاتل بعضهم بعضاً، بأكثر الأساليب خلواً من الحياء، وينطوون مع ذلك، مرة أخرى، في غمرة استحقاقهم للازدراء، على حسّ متميِّز حيال الشرف، وعلى روح رائع، جدير بالإعجاب حقاً، تجاه العظمة التاريخية التي تنطوي عليها رسالتهم. وذلك أن نونيز دي بالبووا نفسه، الذي ألقى في الأمسية التي سلفت بأسرى أبرياء مقيدين لا دفاع لهم، إلى كلاب الصيد، وربّما ربَّت على ظهور البهائم التي كانت ما تزال تقطر أشداقها من دم البشر الطازج، مغتبطاً راضياً، كان على وجه الدقة، على يقين من أهمية عمله في تاريخ البشرية، وهو يجد في اللحظة الحاسمة، إيماءة من تلك الإيماءات الرائعة التي تظل غير منسيّة على مرّ العصور. إنه يعلم، أن هذا اليوم، أي الخامس والعشرين من أيلول، سيكون يوماً من الأيام المعدودة في تاريخ العالم، وبروح إسبانية رائعة يعرب هذا المغامر المستهتر، القاسي، عن مقدار الاكتمال الذي فهم به معنى رسالته التي تتخطى العصور.

وإليك لفتة رائعة من لفتات بالبووا: ففي المساء، بعد حمام الدم مباشرة، دلّه واحد من السكان الأصليين على قمة قريبة، وأبلغه أن في وسع المرء أن يطلّ ببصره من ذروته على البحر، بحر الجنوب المجهول.

وعلى هذا الفور يصدر بالبووا تعليماته، فهو يدع الجرحى والمنهَكين في القرية المنهوبة، ويأمر الفريق الذي ما زال قادراً على المسير - وما زالوا سبعة وستين على الإجمال من المائة والتسعين السالفين، الذين بدأ معهم المسير في داريا - بارتقاء ذلك الجبل. وحوالي العاشرة صباحاً يكونون على مقربة من الجبل. وما عاد هناك سوى قمة صغيرة جرداء يترتب ارتقاؤها، ثم لا يكون بدٌّ للبصر أن تتسع أمداؤه في اللانهائي.

وفي هذه اللحظة يأمر بالبووا الفريق بالتوقف. لا ينبغي لأحد أن يتبعه، لأنه لا يريد أن يشاطره أحد هذه النظرة الأولى على المحيط المجهول. إنه يريد أن يكون هو وحده، ويظل إلى الأبد، الإسباني الأول، والأوروبي الأول، والمسيحي الأول، الذي يبصر الآن، بعد أن عبر المحيط العملاق الأول من كوننا، أي المحيط الأطلسي، المحيط الآخر، الهادئ، الذي ما زال مجهولاً، ورويداً رويداً، واجبَ القلب، وقد تغلغلت في أعماقه أهمية اللحظة، يرتقي الجبل والراية في يسراه، والسيف في يمناه، وخيال وجسد وحيد في الدائرة الهائلة، ويرتقي على مهل، من دون أن يستعجل، لأن العمل الحقيقي قد تمّ إنجازه، وما هي إلاّ بضع خطوات، تتناقص على نحو مطرد. وبالفعل، الآن، وقد وصل إلى القمة، تنفتح أمامه نظرة هائلة. فوراء الجبال ذات الانحدار الشديد، والتلال المنحدرة بأحراشها وخضرتها، يقع قرص لا نهاية له، عملاق، يعكس بريقاً معدنياً، البحر، البحر، الجديد، المجهول، الذي كان حتى الآن يلوح في الأحلام فحسب ولم يره أحد قط، البحر الأسطوري، الذي كان كولومبوس وكل خلفائه يبحثون عنه عبثاً، البحر الذي تغسل أمواجه أمريكا والهند والصين، وينظر ڤاسكو نونييز دي بالبووا، وينظر، وينظر،

فخوراً وسعيداً، وهو يَعُبُّ في داخل وعيه أن عينه هي أول عين لأوروبي تنعكس فيها الزرقة اللانهائية لهذا البحر.

ويظل فاسكو نونيز دي بالبووا زمناً طويلاً ينظر في المدى البعيد وقد أخذه الوجد، وبعد ذلك فحسب ينادي رفاقه إليه، ليشاطروه سروره وزهوه بنفسه، ويصعدون، ويتسلّقون، ويعدون صاعدين، ويحملقون ويندهشون، ويشيرون إلى ما أمامهم بخطوات متحمسة. وفجأة يشرع الأب المرافق، أندريس دي ڤارا في نشيد (Te Deum Laudemus)، وعلى الفور يتوقف الصخب والصياح، وتتوحد كل الأصوات الحادة والخشنة في ترتيل خاشع، وينظر الهنود الحمر إليهم مندهشين، وهم يُسْقِطون شجرة على أثر كلمة من الكاهن لينصبوا صليباً يحفرون في خشبه الحروف الأولى من اسم ملك إسبانيا، وحين يرتفع هذا الصليب الآن، يبدو الأمر كما لو كان ذراعاه الخشبيان يريدان أن يدركا كلا البحرين، المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ، بكل أمدائهما غير المرئية.

وفي غمرة الصمت الرهيب، يبرز نونيز دي بالبووا، ويلقي كلمة في جنده، ويقول: إنه يحق لهم أن يحمدوا الله الذي يوليهم هذا الشرف وهذه النعمة، وأن يرجوا منه أن يساعدهم من بعدُ على فتح كل هذه البلدان، وأنهم إذا شاؤوا أن يتّبعوه من بعدُ كما كانوا يفعلون حتى الآن، بإخلاص، فسوف يعودون من هذه الهند الجديدة وهم أغنى الأسبان، ويُلَوِّح بالراية بأسلوب احتفالي، في كل اتجاهات الرياح الأربعة، من أجل الاستيلاء على كل الأمداء البعيدة التي تلفُّها هذه الرياح، ثم ينادي الكاتب، أندريس دي ڤالديرا بانو لكي يحرر وثيقة تسجل هذا الفصل الاحتفالي من أجل كل العصور. وينشر أندريس دي ڤالديرا بانو رِقّاً،

وكان قد جرّه معه في خزانة خشبية، مع دواة، وريشة للكتابة، عبر الغابة العذراء، ويطلب إلى «كل الفرسان والأشراف، والجنود وأهل الخير، الذين شهدوا اكتشاف بحر الجنوب (des Mardel Sur) على يد القبطان الجليل والموقَّر، ڤاسكو نونيز دي بالبووا، الحاكم بأمر صاحب السمو»، أن يثبتوا أن «هذا السيد، فاسكو نونيز دي بالبووا هو الذي كان أول من رأى هذا البحر، وكشف عنه لمن تبعوه».

ثم يهبط السبعة والستون عن التل، وبهذا التاريخ، ٢٥ أيلول ١٥١٣، تطلع البشرية على المحيط الأخير في الأرض، الذي كان حتى الآن غير معروف.

ذهب ولآلئ

والآن، وقد تم الظفر باليقين، لقد رأوا البحر. ولكن الآن ينزلون إلى شاطئه، يتحسَّسون الطوفان النديّ، ويلمسونه، ويجسّونه، ويتذوَّقونه، ويلمّون الغنيمة من شاطئه! ويدوم النزول يومين، ولكي يعرفوا في المستقبل أقرب الطرق من الجبال إلى البحر يقسم نونيز دي بالبووا فريقه إلى مجموعات متفرقة، وتصل ثالثة هذه المجموعات، بقيادة ألونزو مارتن، الشاطئ أولاً، ويبلغ من الإشباع البالغ لهؤلاء الجنود في هذه المجموعة من المغامرين، حتى البسطاء منهم، بغرور المجد، وبهذا الظمأ إلى الخلود، أن الرجل البسيط، ألونز ومارتن يوعز إلى الكاتب أن يزوده بورقة كتب عليها بالأسود على الأبيض، إنه كان أول من بلَّل قدمه ويده في هذه المياه التي ما زالت تحمل اسماً، ولا يبلغ بالبووا بالنبأ إلا بعد أن أضاف إلى اسمه هَباءة صغيرة من الخلود، قائلاً إنه قد بلغ البحر،

ولامس طوفانه بيده هو. وعلى الفور يتجهَّز بالبووا من أجل لفتة مُشْجِية. وفي اليوم التالي، في يوم عيد القديس ميخائيل، يظهر، يصحبه اثنان وعشرون من الرفاق، عند الشاطئ، ليستولي بنفسه، مثل القديس ميخائيل، مسلَّحاً، متمنطقاً، في طقس احتفالي، ولا يخطو إلى الطوفان على الفور، بل ينتظر، مثل سيدهم وآمرهم، في كبرياء، مستريحاً تحت شجرة، إلى أن يلقى الطوفان المتصاعد بموجته حتى يبلغه، ويداعب قدميه بلسانه مثل كلب مطيع، وعند ذلك فحسب ينهض قائماً، ويطرح الدرع على ظهره حتى يلتمع في الشمس كالمرآة، ممسكاً بسيفه بإحدى يديه، وبالأخرى راية قشتالة وعليها صورة السيدة العذراء، ويخطو داخل الماء. ولا يهزّ نونيز دي بالبووا، الذي كان حتى الآن متمرداً ويائساً، وهو الآن الخادم الأكثر إخلاصاً لمليكه والمنتصر، الرايةَ إلاّ حين تغسله المياه حتى وركيه، ويكون قد غاص كله في هذه المياه الأجنبية الكبيرة، عند ذلك يهز الراية في كل الاتجاهات، ويقول فوق ذلك بصوت عال، فلْيَعش الملكان الجليلان والجبّاران، فرديناند ويوهانا، ملكا قشتالة وليون وأراغون اللذان أستَولي باسمهما، ولصالح تاج قشتالة الملكي، استيلاءً حقيقياً، مجسّداً، دائماً، على كل هذه البحار والأراضي والشواطئ والمرافئ والجزائر، وإنني أقسم على الدفاع عنها باسم مَلِكَيْ قشتالة اللذين تعد هذه ملكهما، الآن، وعلى مدى كل العصور، إذا ما ادعى أي أمير، أو قبطان آخر، مسيحياً كان أم وثنياً، ومهما كانت العقيدة أو الطبقة التي ينتمي إليها، حقاً في هذه البلاد والبحار، ما دامت الدنيا قائمة، وإلى يوم الحساب».

ويكرر كل الإسبان القسم، وتظل كلماتهم تفوق بدوِّيها، لحظة من

الزمان، الهدير الصاخب للطوفان، ويبلّل كل منهم شفتيه بماء البحر، ويعود الكاتب أندريس دي ڤالديراً بانو مراراً إلى تحرير محضر بالاستيلاء، ويختتم وثيقته بالكلمات التالية: «كان هؤلاء الاثنان والعشرون، وكذلك الكاتب أندريس دي ڤالديراً بانو، كانوا أول مسيحيين وطئت أقدامهم بحر الجنوب، واختبروا جميعاً الماء بيديهم وبلّلوا أفواههم به، لكي يرَوْا أهو ماء مالح كماء ذلك البحر الآخر. وحين رأوْا أنه مالح وجهوا شكرهم لله».

لقد أنجز العمل الكبير، وبات من الواجب الآن استخلاص الفوائد المادية من هذه المغامرة، ويغنم الإسبان من بعض السكان الأصليين، بعض المال أو يقايضونهم بشيء منه، ولكن ثمة مفاجأة جديدة كانت تنتظرهم في غمرة انتصارهم. ذلك لأن أيادي بأسرها ملأى باللآلئ النفيسة يعثر عليها في الجزر القريبة بمقادير تنم عن كثرة مفرطة، يجيء إليهم بها الهنود الحمر، وفيهم واحدة يقال لها «بلليغرينا»، التي تغنّى بها سيرفانتس ولوب دي ڤيجا، لأنها زيَّنت تاج الملك في إسبانيا وانكلترا بحكم كونها واحدة من أجمل اللآلئ قاطبة، ويحشو الإسبان كل الجيوب، وكل الأكياس إلى حد الإتخام بهذه النفائس التي لا تعدل قيمتها هنا أكثر من قيمة القواقع والرمل، وحين يسألون بنهم عن الشيء الأكثر أهمية لديهم على الإطلاق في الدنيا، أي الذهب، يشير أحد الكاسيكين إلى الجنوب، حيث يغيب خط الجبال رَخِياً، وراء الأفق، تحت الماء، ويعلن قائلاً إنه يوجد هناك بلاد ذات كنوز لا يُسْبَر غورها، حيث يتناول الحكام الطعام في أوانٍ ذهبية، وتجرّ أروع الحمولات إلى خزانة كنوز الملك حيوانات كبيرة ذات أربع قوائم - هي اللاما، كما يقصد

الكاسيكي، ويذكر اسم البلاد التي تقع إلى الجنوب في البحر، ووراء الجبال، ويبدو أنها «البيرو»، وكان اسمها غريباً له جرس موسيقي.

ويحملق ڤاسكو نونيز في الأفق البعيد، في اتجاه يد الكاسيكي المبسوطة، في ذلك الاتجاه، حيث تتلاشى الجبال شاحبة في السماء، وكانت كلمة «البيرو» اللّينة، المغرية، قد نُقِشَتْ في روحه على الفور، ويخفق قلبه مضطرباً. لقد تلقى، ثاني مرة في حياته، وعوداً كبيرة على غير توقُّع. وكانت الرسالة الأولى، رسالة كوماجر عن البحر القريب، قد تحققت، لقد عثر على شاطئ اللؤلؤ، وعلى بحر الجنوب، وربما وفّقَ إلى تحقيق الرسالة الثانية، وهي اكتشاف مملكة الإنكا، بلاد الذهب في هذه الأرض، وافتتاحها.

قلّما تجود الآلهة...

وما زال نونيز دي بالبووا يحملق في المدى البعيد في نظرة توّاقة، وما زالت تتجاوب أصداء كلمة «البيرو» في نفسه كأنها جرس ذهبي، «پيرو»، إنه لَتَخَلٍّ مؤلم للغاية! - إذا ما عاد يحق له هذه المرة أن يجرؤ على مزيد من الاستكشاف، فإن المرء لا يستطيع أن يغزو مملكة باثنتين أو ثلاث من الاثنى عشريات من الرجال، وإذاً فهي العودة إلى داريا أولاً، ثم العودة ذات مرة، مع القوى المستجمعة، على الطريق الذي عُثِر عليه الآن، إلى أرض الذهب الجديدة، غير أن مسيرة العودة هذه ليست بأقل منها صعوبة، إذ يضطر الاسبان مراراً إلى أن يقاتلوا خلال الأدغال، وأن يصمدوا لغارات السكان الأصليين، وما عاد ثمة قوة حربية، بل هي قوة صغيرة من مرضى الحمى والرجال الذين يتابعون المسير وهم يعرجون،

بآخر ما لديهم من الطاقة، وقد بات بالبووا نفسه على وشك الموت، وبات يحمله الهنود الحمر في حصير محمول بطريقة التعليق، ويصل، بعد أربعة شهور من المشاق الرهيبة، في ١٩ كانون الثاني ١٥١٤، إلى داريا، ولكن عملاً من أعظم الأعمال في التاريخ قد تمّ إنجازه. لقد وفى بالبووا بوعده، وبات كل من أسهم معه في التجرُّؤ على المجهول، غنياً، لقد جاء جنده معهم بكنوز من شاطئ بحر الجنوب لم يجئ بمثلها قَطُّ كولومبوس والغزاة الآخرون، وكذلك يحظى كل المستعمرين الآخرين بقسطهم، ويقدَّم الخمس من هذا إلى التاج، وما من أحد ينقِم على المنتصر أنه يترك، ليونشيكو، جزاءً له على نشاطه الجمّ في تمزيق لحم السكان الأصليين البائسين عن أجسادهم يشاركهم في اقتسام الغنيمة، شأن أي محارب آخر، ويدعه يُغطى بخمسمائة بيزو ذهبي. وما من واحد في المستعمرة ينازعه في سلطانه بحكم كونه حاكماً بعد مثل هذا الإنجاز، ويُحْتَفَل بالمغامر والمتمرد كأنه إله، ويستطيع، فخوراً، أن يلفِّق إلى إسبانيا النبأ الذي يفيد أنه أنجز، من أجل التاج القشتالي أعظم المآثر منذ أيام كولومبوس، وتخترق شمس سعادته في صعود عمودي سحيق، كل السحب التي ظلت حتى هذا الوقت تجثم على حياته وباتت الآن في كبد السماء.

غير أن سعادة بالبووا لم يكن لها إلاّ عمر قصير. وذلك أن سكان داريا يندفعون بعد أشهر قلائل وقد تولتهم الدهشة، في يوم مشرق من أيام حزيران، إلى الشاطئ. وكان شراع قد أشرق بنوره عند الأفق، وهذا وحده يعد أعجوبة في هذا الركن الضائع من العالم وإذا شراع ثان يظهر إلى جانبه، وثالث، ورابع، وخامس، وسرعان ما يكونون عشرة، كلاّ، بل

خمسة عشر، بل عشرين، بل هو أسطول بأسره يتوجه إلى الميناء، وسرعان ما يعلمون: أن هذا كله إنما أحدثه كتاب نونيز دي بالبووا، ولكن ليس رسالة انتصاره، - التي لمّا تصل بعد إلى إسبانيا - بل ذلك النبأ الأسبق، الذي نقل فيه الخبر الذي أدلى به الكاسيكي عن بحر الجنوب القريب وأرض الذهب، والتمس فيه جيشاً قوامه ألف رجل لافتتاح هذه البلدان. ومن أجل هذه البعثة لم يتردد التاج الإسباني في تجهيز مثل هذا الأسطول الجبار، ولكن لم يفكر القوم في اشبيلية وبرشلونة بحال من الأحوال في أن يعهدوا بمهمة لها مثل هذه الأهمية إلى مغامر ومتمرد تلوك سمعته أقاويل السوء إلى هذا المدى مثل فاسكو نونيز دي بالبووا. ويتم إرسال حاكم خاص هو رجل، غني، نبيل، مرموق السمعة، في الستين من العمر، اسمه بيدرو آرياس داڤيلا، وكان على الأغلب يسمى بيدراriاس، لتوطيد النظام آخر الأمر في هذه المستعمرة بصفته حاكماً من قبل الملك، ولإحقاق الحق بشأن الجرائم المرتكبة حتى الآن، وللعثور على ذلك البحر، بحر الجنوب، وافتتاح أرض الذهب الموعودة.

والآن ينجم موقف باعث للاستياء بالقياس إلى بيدراriاس، فهو مكلَّف، من ناحية بمحاسبة المتمرد نونيز دي بالبووا عن طرده السابق للحاكم، ووضعه في الأغلال في حال ثبوت أنه مذنب، وهو مكلَّف من ناحية أخرى باستكشاف بحر الجنوب، ولكن لم يكد قاربه يصطدم بالبر حتى علم أن نونيز دي بالبووا الذي يفترض فيه أن يقدم للمحاكمة، قد أنجز العمل الرائع بجهده الخاص، وأن هذا المتمرد قد احتفل بالانتصار المقدر له هو، من قبل، وأنه أنجز، من أجل التاج الأسباني، أعظم مأثرة منذ اكتشاف أمريكا. وكان من البدهي أنه لا يستطيع الآن أن يضع

رأس رجل كهذا على منصة الإعدام مثلما يفعلون بمجرم من عامة الناس، ولابد له أن يحييه بأدب، ويهنئه بإخلاص. ولكن منذ هذه اللحظة فصاعداً باء نونيز دي بالبووا بالخسران، فلن يغفر بيدرارياس لهذا الخصم أبداً أنه أنجز هذا العمل بصفة مستقلة، وهو العمل الذي أرسل من أجل تنفيذه، والذي كان خليقاً أن يضمن له المجد الخالد على مر العصور، والحق أنه لم يكن له بدّ أن يخفي كراهيته لبطل ذلك العمل عن المستعمرين لكيلا يملأ بالمرارة قلوبهم قبل الأوان، ويؤجِّل التحقيق، بل يعقد صلحاً زائفاً يعقد فيه بيدرارياس خطبة ابنته هو، التي كانت ما زالت متخلِّفة في إسبانيا على نونيز دي بالبووا. ولكن كراهيته وغيرته حيال بالبووا لا تخفّ حدتهما بحال من الأحوال، بل تتصاعدان، حين يصل الآن من أسبانيا، حيث اطلع القوم آخر الأمر على عمل بالبووا، مرسوم يقضي بإسباغ لقب النبالة اللائق (الأعيان)، فيما بعد على بالبووا، ويكلِّف بيدرارياس بالتشاور معه في كل شأن مهم. وهذه البلاد أصغر من أن تتسع لحاكمين، ولابد لأحدهما أن يتنحّى، وأن يزول أحد الاثنين. ويحس ڤاسكو نونيز دي بالبووا أن السيف معلّق فوق رأسه، لأن السلطة العسكرية والعدالة في يَدَيْ بيدرارياس، ولذلك يحاول مرة ثانية أن يهرب، وهو الأمر الذي نجح فيه في المرة الأولى نجاحاً رائعاً، يحاول الهرب إلى الخلود، ويلتمس من بيدرارياس أن يسمح له بتجهيز بعثة لاستكشاف الشاطئ المطل على بحر الجنوب، وغزو المناطق المجاورة فيما بعد. غير أن الرغبة الخفية للمتمرد القديم هي أن يستقل بنفسه على الشاطئ الآخر للبحر، بعيداً عن كل رقابة أو تحكُّم، وأن ينشئ لنفسه أسطولاً، وأن يغدو سيد إقليمه الخاص، وأن يغزو، قدر الإمكان

أيضاً، بلاد البيرو الأسطورية، أرض الذهب هذه الخاصة بالعالم الجديد، ويوافق بيدرارياس على نية غدر. إذا هلك بالبوا في هذا المشروع كان ذلك خيراً له، وإذا وُفِّق في مشروعه فسيتوفر بعدُ، وعلى الدوام، وقت للتخلص من هذا المفرط في الطموح.

وبذلك يشرع بونيز دي بالبوا في مشروع هربه الجديد إلى الخلود، وربما كان مشروعه الثاني أعظم وأجلَّ من الأول، وإن لم تُكْتَب له الشهرة ذاتها في التاريخ الذي يظل أبداً لا يمجِّد إلا الناجحين. وفي هذه المرة يعبر بالبوا البرزخ، لا برجاله فحسب، بل يوعز بجر الخشب والألواح، والأشرعة، والمراسي، والدوافع، من أجل أربع من السفن الشراعية ذات الصاريتين من قبل ألوف من السكان الأصليين فوق الجبال. ذلك لأنه إذا توفّر له ذات مرة أسطول هناك على الجانب الآخر استطاع أن يتمكّن من السيطرة على كل الشواطئ، وأن يغزو كل جزائر اللؤلؤ وبلاد البيرو، البيرو الأسطورية، ولكن في هذه المرة يتخذ القدر من هذا الجريء موقفاً معادياً، وإذا هو لا يفتأ يواجه ألواناً من المقاومة. ففي زحفه خلال الأدغال الرطبة تفترس الديدان الخشب وتصل الألواح وقد أصابها العطن، وما عاد من الممكن استعمالها. ومن دون أن يدع ذلك يثبط همته يوعز بالبوا عند الخليج بقطع جذوع جديدة، وصنع ألواح طازجة. فطاقته تقترف الأعاجيب الحقيقية - وإذا كل شيء يبدو وقد نجح، وإذا السفن الشراعية ذوات الصاريتين مبنيّة، وهي أولى هذه السفن في المحيط الأطلسي. هنالك تهب عاصفة من الأعاصير على الأنهار التي تصنع فيها السفن، فجأة، هبوباً عملاقاً فتفيض، وتُجْتَرَف القوارب المصنوعة، وتتحطم في البحر، ويكون ثمة اضطرار إلى البدء من جديد،

مـرة ثالـثـة، وأخـيـراً يوفَّـقـون إلى صنع سـفـينـتين شراعـيـتين من ذوات الصاريتين، ومـا زال بالبوا يحتاج بعدُ إلى اثنتين فوق هذا أو ثلاث، ثم يستطيع أن ينطلق، ويغزو البلاد التي يحلم بها في النهـار والليل، منذ أن أشـار ذلك الكاسيـكي في تلك الأيام بيـده المبـسـوطة إلى الجنوب، وسـمع هو أول مـرة بـالكلمـة المغـوية «البـيـرو». ومـا هي إلاّ بضـعـة من الضباط الشجعـان يوعز أن يلحقوا به، ومَدَدٌ جيد من الرجال يطلبه، ثم يستطيع أن يؤسس مملكته! ومـا هي إلا بضـعـة شهـور بعدها، وشيء من التـوفـيق في الجسارة من داخل النفس، وعندها لا يكون بيـزارو هو الذي يذكره التاريخ بصفة هازم الإنكا وفاتح البيرو، بل نونيز دي بالبوا.

ولكن حتى تجاه أعـزائه وأصحاب حظوته لا يظهر القدر أبداً كـثيـراً من الكرم والشـهـامـة. وذلك أن الآلهة قلّما تهب للفـاني أكـثـر من مـأثرة خالدة واحدة.

الهلاك

وأعدّ نونيز بالبوا العدة لمشروعه الكبيـر بطاقة حديدية، غيـر أن النجـاح الجـريء على وجـه الخـصـوص يشكّل الخطر عليـه، لأن عين بيدراريـاس الحاقدة ترقب نوايا مرؤوسه في قلق. وربما بلغـه، عن طريق الخيانة، نبأ عن أحلام بالبـوا الطموحة في السـيطرة، وربما كان يخشى، مع شيء من الغيـرة فـحسب، من مغبّة نجاح ثانٍ للمتـمرد القديم. وعلى كل حال فـهو يرسل فجأة رسالة حميمة جداً إلى بالبـوا، مؤداها أنه يودّ منه أن يعـود، قبل أن يشرع نهائياً في حملة غزوه، إلى مناقشة بعدَ (أكْلا)، وهي مدينة بالقرب من دارْيا. على أن بالبـوا، الذي يأمل في

أن يتلقى مزيداً من المساندة في الرجال من بيدرارياس، يلبي الدعوة ويعود أدراجه على الفور. وأمام أبواب المدينة تتقدم نحوه ثلة من الجند، لكي تؤدي إليه التحية على ما يبدو، ويُهْرَع إليها مسروراً، لكي يعانق قائده وأخاه في السلاح منذ كثير من السنين، ورفيقه في اكتشاف بحر الجنوب، وصديقه الموثوق، فرانسيسكو بيزارو.

ولكن فرانسيسكو بيزارو يضع يده ثقيلة على كتفه، ويعلن له أنه بات أسيراً، وذلك أن بيزارو أيضاً يتعطّش إلى الخلود، وهو أيضاً يشتهي أن يغزو بلاد الذهب، وربما لم يكن من المستكره عنده أن يرى رجلاً من الصفوف الأولى بمثل هذه الجسارة وقد أزيح من الطريق. ويتولى الحاكم بيدرارياس فتح القضية المتعلقة بالتمرد المزعوم، وتنعقد المحكمة بسرعة وبأسلوب غير عادل، وبعد أيام قلائل يخطو فاسكو نونيز دي بالبوا مع أخلص رفاقه إلى منصة الإعدام، ويبرق سيف الجلاد، وفي ثانية واحدة تَنطفئ في الرأس المتدحرج إلى الأرض، إلى الأبد، العين التي كانت أول عين ترى في الوقت نفسه، كلا المحيطين اللذين يشتملان على كرتنا الأرضية.

فتح القسطنطينية
٢٩ أيار ١٤٥٣

إدراك الخطر

في الخامس من شباط عام ١٤٥١ يأتي ساع سِرّيٌّ أكبرَ أبناءِ السلطان مراد، وهو محمد البالغ من العمر إحدى وعشرين سنة، في آسيا الصغرى، بخبر مفاده أن أباه توفي، ومن دون أن يتفاهم هذا الأخير مع مستشاريه، ولو بكلمة واحدة، يرمي الأمير الداهية الماكر بمقدار ما هو مفعم بالطاقة والحيوية، بنفسه على أفضل خيوله، وفي كَرَّة واحدة يضرب بسوطه جواده الأصيل الرائع على مدى الأميال المائة والعشرين إلى أن يبلغ مضيق البوسفور، وينتقل على الفور إلى «جاليپولي»، على الساحل الأوروبيّ. وهناك فحسب يكشف النقاب لأخلص خلصائه عن موت والده، ويجمع، لكي يتمكن من سحق أي مطالبة أخرى بالعرش بصورة مسبقة، قوة مصطفاة من النخبة ويقودها إلى أدرنة حيث يُعْتَرَف به، ومن دون معارضة، صاحبَ الأمر والنهي في الدولة العثمانية. وكان من أولى تصرفات محمد في الحكم أنه يكشف، على نحو رهيب، عن تصميم لا هوادة فيه. ولكي يتخلّص، بصورة مسبقة، من أي خصم له من الدم ذاته، يأمر بخنق أخيه القاصر في الحمام، وعلى أثر ذلك تماماً –

وهذا أيضاً يثبت مكره ووحشيَّته القائمتين على التروّي والتفكير المُسْبق، يُلْحق بالقتيلِ القاتلَ الذي استأجره لهذه الفعلة.

على أن الخبر الذي يفيد أن محمداً هذا الفتى صاحب العاطفة الحارّة، والنَزّاع إلى المجد قد أصبح سلطاناً على الأتراك بدلاً من مراد الأكثر حَذَراً وتبصُّراً، يملأ بيزنطة بالفزع، إذ يعلم القوم عن طريق مائة من المستطلعين أن هذا الطامح قد أقسم أن يُدْخِل في ملكه حاضرة العالم السالفة، وأنه ينفق، على الرغم من صباه، الأيام والليالي، في الاعتبارات الاستراتيجية، في هذه الخطة التي هي خطة العمر، غير أن كل التقارير تنبئ في الوقت ذاته، بالإجماع، عن ألوان المؤهِّلات العسكرية والدبلوماسية الفائقة للباديشاه الجديد. فمحمد يجمع بين الخصلتين في وقتٍ معاً، بين التقوى والقسوة، وبين حرارة العاطفة والخُبْثِ، وهو امرؤ ذو ثقافة وعلم، ورجل محبٌّ للفن، يقرأ سيرة صاحبه قيصر، وسِيرَ الرومان باللاتينيّة، وهو في الوقت نفسه بربريٌّ يُهْريق الدماء كما يُهْراق الماء. وهذا الرجل ذو العينين الثاقبتين الكئيبتين والأنف الحاد الذي ينمُّ عن الشراسة، والذي يحاكي أنف الببغاء، يثبت في وقت واحد، أنه عامل لا يعتريه الكلل، وجندي جسور ودبلوماسي لا يردعه عائق، وكل هذه الطاقات الخطيرة تحدث آثارها في وِجْهَةٍ مركزية، في الفكرة ذاتها، وهي أن يفوق جدَّه بيازيد، وأباه مراد اللذين لقَّنا أوروبا التفوُّق العسكري للأمة التركية الجديدة، بأشواط بعيدة، غير أن اختياره الأول، وهذا ما يعرفه القوم وما يشعرون به، سيكون بيزنطة، هذا الحجر الكريم الرائع الذي هو آخر ما تبقَّى من تاج قسطنطين وجستنيان الإمبراطوري.

وهذا الحجر الكريم يقع بالقياس إلى قبضة مصمِّمة على اقتحامه في موقع غير مَحْمِيّ في الواقع، وهو قريب في متناول اليد. وهذه الامبراطورية البيزنطية (Imperium Byrantinum) أو الامبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت في سالف الأيام تشتمل على العالم، من فارس إلى جبال الألب، ثم تمتدُّ إلى صحارى آسيا، وكانت امبراطورية لا يكاد يمكن عبورها في شهور بعد شهور، بات في وسع المرء الآن أن يعبرها في ثلاث ساعات على قدميه وعلى نحو مريح، وكان من بواعث التفجُّع أنه لم يتبقَّ من تلك الدولة البيزنطية شيء سوى رأسٍ بلا جسد، وحاضرةٍ من دون بلاد، هي القسطنطينية، مدينة قسطنطين، أو بيزنطة القديمة، وحتّى مِنْ بيزنطة هذه ما عاد تابعاً للامبراطور (أو الباسيلويس - Basileus) سوى شطرٍ منها هو استانبول الحالية على حين سقطت جالاتا في أيدي الجنويّين، وسقطت كل الأراضي الواقعة وراء جدار المدينة في أيدي الأتراك، وباتت هذه الإمبراطورية، امبراطورية القيصر الأخير، على وجه الخصوص، مجرد سور دائري هائل يطوف حول الكنائس والقصور والمنازل التي يختلط بعضها ببعض، والتي يسمونها بيزنطة، وقد سبق لها أن تعرَّضت للنهب حتى نخاع العظام من قبل الصليبيين، وجُرِّدت من شعبها من جرّاء الطاعون وأنهكتها المُدافعة الخالدة للشعوب البدوية، ومزَّقتها الخصومات القومية والدينية، فما عادت هذه المدنية تستطيع أن تقدم الرجال ولا جرأة الرجال لتدافع عن نفسها بطاقتها الخاصة ضد عدو يُطْبِق حواليها بأذرعٍ كأذرع الأخطبوط من كل حدب وصوب منذ عهد بعيد، وبات أَرْجُوان أمبراطور بيزنطة الأخيرة، قسطنطين دراغاز، عباءة من الريح، وبات تاجه ألعوبة في يد القدر،

ولكن لمجرَّد أنه كان مُحاصَراً من قبل الأتراك، ولأنه كان مقدَّساً عند العالم الغربي بأسره بفعل الثقافة المشتركة التي دامت ألف عام، كانت بيزنطة هذه تعني بالقياس إلى أوروبا رمزاً لشرفها ولا يمكن لآياصوفيا أن تظل باقية مِنْ بَعْدُ، كاتدرائيةً رومانية قديمة من كاتدرائيات الإيمان، هي الأخيرة والأجمل في المسيحية الرومانية الشرقية قاطبةً إلاّ حين تتولى المسيحية المتحدة حماية هذا الحصن الأخير الذي بات متداعياً، في الشرق.

ويدرك قسطنطين الخطر على الفور، ولمّا كان يداخله خوف مفهوم على الرغم من كل أحاديث محمد عن السلام فهو يبعث بالرسل وراء الرسل إلى إيطاليا، وبالرسل إلى الباب، وإلى البندقية، وإلى جنوة، يلتمس إرسال السفن الحربية والجنود ولكن روما تتردد، والبندقية أيضاً، إذ كان ما زال يفصل بين عقيدة الشرق وعقيدة الغرب هُوَّة الشقاق اللاهوتي القديم، فالكنيسة اليونانية تكره الروميّة، وبطريركها يرفض أن يعترف بالبابا راعياً أعلى. والحق أنه تمَّ الاتفاق منذ عهد بعيد، بالنظر إلى خطر الأتراك، في فيرّارا وفلورنسا، أي في مجمعين، على إعادة توحيد الكنيستين، وفي مقابل ذلك ضمنت بيزنطة المعونة ضد الأتراك. ولكن لم تكد سحابة الخطر المحيق المخيِّم على بيزنطة تنقشع حتى رفضت المؤتمرات الكنائسية اليونانية إدخال الاتفاقية حيِّز التنفيذ، والآن فحسب، إذا أصبح محمد سلطاناً، تنتصر المحنة على العناد الأرثوذكسي: وفي تَزامُنٍ مع التماس المعونة العاجلة تبعث بيزنطة إلى روما بنبأ إذعانها. ويتم الآن تجهيز السفن الحربية بالجند والذخائر، ولكن يُبْحِر على إحدى السفن مبعوث البابا لإجراء المصالحة بين كنيستَيْ

الغرب بأسلوب احتفالي، ولكي يعلن أمام العالم أنَّ من يهاجم بيزنطة فهو يتحدى المسيحية المتحدة.

قدّاس المصالحة

وتكون مسرحية رائعة في ذلك اليوم من أيام كانون الأول، وذلك أن الكاتدرائية الرومانية القديمة الرائعة التي لا نكاد نتمكن بعد من استشعار أبَّهتها السالفة التي تأتلف من المرمر والموازييك وألوان متعة البصر البرّاقة، في هذه الأيام، وفي ذلك المسجد، تحتفل بعيد المصالحة الكبير، وقد ظهر قسطنطين (الباسيلويْس) يُحْدِق به كل حملة الألقاب في مملكته، ليكون أعلى الشهود قدراً، والضامن الأعلى للوفاق الخالد. وغُصَّت القاعة العملاقة وقد أشاعت فيها الضياءَ الشموعُ التي لا تُحصى، وكان يحتفل بالقداس أمام الهيكل احتفالَ الأخوة مبعوثُ الكرسيّ الروماني إيسديروس، والبطريرك الأرثوذكسي جريجوريوس، ولأول مرة يجري إدراج اسم البابا في الدعاء في هذه الكنيسة من جديد. ولأول مرة يصدح نشيد التقوى صاعداً في أجواء قباب الكاتدرائية الخالدة باللغتين اللاتينية واليونانية بينما يُحْمَل جثمان الروح القدس (spiridion) في موكب احتفالي من قبل رجال الإكليروس اللاتين واليونان المتصالحين، معاً. ويبدو الشرق والغرب، وهذه العقيدة والعقيدة الأخرى، وقد ارتبطا إلى الأبد، وأخيراً تتحقق من جديد، ذات مرة، بعد سنين وسنين من النزاع الإجراميّ، فكرة أوروبا، ومعنى الغرب.

ولكن لحظات العقل والتصالح قصيرة وصائرة إلى الزوال، في التاريخ. وحتى في اللحظة التي تتزاوج فيها الأصوات، في الكنيسة،

بروح من التقوى، في صلاة مشتركة، تثور في الخارج، في صومعة من صوامع أحد الأديرة حَمِيّة الراهب المثقف، غيناديوس، ضدّ اللاتين وضد خيانة العقيدة الحقّة، ولم يكد شريط المصالحة يَضْفِرُهُ العقل حتى مزّقه التعصُّب مرة أخرى. وعلى نحو مماثل: بينما كان رجال الكهنوت اليونان يفكرون في الخضوع الفعليّ، يتذكَّر الأصدقاء، عند النهاية الأخرى للبحر المتوسط معونتهم الموعودة، والحق أنه يجري إرسال بعض السفن الحربية، وبضع مئات من الجند إلى هناك، ولكن المدينة تُتْرَك بعد ذلك لمصيرها.

الحرب تبدأ

ومِنْ شأن الحكام الجبابرة حين يكونون في طور الإعداد للحرب، ولم يُعِدّوا بعدُ للحرب عُدَّتها الكاملة، أن يتحدثوا عن السلام حديثاً يبلغ من السخاء أقصى حدوده. وكذلك يستقبل محمد عند ارتقائه العرش، على وجه الخصوص، رسول الامبراطور قسطنطين بكلماته الأكثر وداً والأكثر بعثاً للطمأنينة على الإطلاق، فهو يقسم بالله ورسوله وبالملائكة والكتاب على أنه يعتزم الالتزام بالمعاهدات مع الباسيلويس التزاماً يصل إلى أقصى حدود الإخلاص، غير أنّ ذلك السيء النية يعقد في الوقت نفسه اتفاقية للحياد المتبادل مع الهنغار والصرب مدة ثلاث سنوات - أي من أجل تلك السنوات الثلاث التي يعتزم خلالها أن يدخل المدينة في حوزته. وبعد أن وعد محمد بالسلام الوعدَ الكافي وأقسم عليه، عند ذلك فحسب يستفزُّ إلى الحرب بانتهاك للقانون.

وكان لا يعود إلى الأتراك حتى الآن سوى الساحل الآسيويّ من البوسفور، وبذلك كانت السفن تستطيع أن تنتهي من بيزنطة، عبر

المضيق، إلى البحر الأسود دونما عائق، إلى مخزن قمحها، ومنذ الآن فصاعداً يعمد محمد إلى إغلاق هذا الممرّ بأن يأمر ببناء حصن على الساحل الأوروبي، عند روملي حصار، من دون أن يحمِّل نفسه مشقَّة العثور على تبرير، وذلك في الحقيقة عند ذلك الموضع الأضيق على الإطلاق حيث كان الملك الجريء، كسرى يعبر مضيق البحر، وبين عشية وضحاها ينتقل الألوف وعشرات الألوف من عمال الحفر إلى الساحل الأوروبي الذي لا يجوز تحصينه بموجب الاتفاقيات (ولكن ما قيمة الاتفاقيات عند أرباب القوة والبطش)، وينهبون، من أجل مؤونتهم، الحقول المجاورة، ولا يكتفون باقتلاع المنازل، بل يقوِّضون أيضاً كنيسة القديس ميخائيل ذات الشهرة القديمة للحصول على الحجارة من أجل حصنهم، ويتولى أمر بناء الحصن السلطان بشخصه، وكان لا يقرُّ له قرار في الليل والنهار، وتضطر بيزنطة إلى أن تنظر وهي عاجزة كيف يقطع القوم عليها حرية المرور إلى البحر الأسود خلافاً للحق والمعاهدة، وإذا السفن الأولى التي تريد المرور في البحر، وهو المرور الذي كان حراً حتى الآن تطلق عليها النيران في وسط جَوٍّ السلام، وبعد اختبار القوة الأول هذا الذي نجح، سرعان ما تغدو كل مداراة أخرى للأمور فائضة عن الحاجة. وفي آب من عام ١٤٥٢ يستدعي محمد كل أغواته وباشواته للاجتماع، ويعلن إليهم رغبته علانية في مهاجمة بيزنطة والاستيلاء عليها، وسرعان ما يعقب الإعلان الفعل الفظ ويُرسَل المنادون في كل أنحاء الدولة التركية لجمع القادرين على حمل السلاح. وفي الخامس من نيسان عام ١٤٥٣، يطغى طوفان عاصف، كأنما انبثق على نحو مفاجئ من جيش عثماني لا تدرك الأبصار مداه، على سهل بيزنطة إلى أن يصل إلى ما دون جدرانها بقليل.

وكان السلطان يركب على جواده في طليعة قواته، في وشاح فخم، ليضرب خيمته قبالة باب ليكاس. ولكن قبل أن يدع راية قوته تخفق في الريح أمام مقره الرئيسيّ يأمر بأن يُبْسَط بساط الصلاة على الأرض، ويتقدم حافي القدمين، ويركع ثلاث ركعات، ومحيَّاه موجَّه نحو مكة، وتلامس جبهته الأرض، ووراءه - مسرحية رائعة - يشارك عشرات الألوف إثر عشرات الألوف من جيشه، بالانحناء ذاته، وفي الاتجاه ذاته، في الدعاء ذاته، إلى الله، أن يَهَبَ لهم القوَّة وينصرهم، وعند ذلك فحسب ينهض السلطان، وقد تحوَّل الخاشع الذليل، مرة أخرى، إلى المتحدّي، وتحوَّل عبد الله إلى السيد، والجندي، ويسرع الآن مؤذنوه العموميّون «الدلاّلون - tellals»، ليعلنوا، على وقع قرع الطبول، وإيقاع النفير، على المدى البعيد «أن حصار المدينة قد بدأ».

الأسوار والمدافع

ولم تكن بيزنطة تتمتع إلاّ بسلطان وقوة واحدة فوق هذا، وهي أسوارها، ولم يكن قد تبقى لها من ماضيها السالف الذي يشتمل على العالم سوى هذا الإرث الذي يعود إلى زمن أعظم وأكثر سعادة، وكان مثلث المدينة مغطىً بدرع من ثلاث طبقات إحداها منخفضة ولكنها تظل هائلة، إذ تغطي الأسوار الحجرية جَناحيْ المدينة المواجهين لبحر مرمرة والقرن الذهبي، وفي مقابل ذلك ينتشر سور الوقاية الذي يرتفع إلى مستوى الصدر قُبالة الأرض المفتوحة، وهو ما يُسمى بالسور التيودوسي، وكان قسطنطين نفسه قد جعل لبيزنطة نطاقاً من قبلُ، في إدراك منه لما تتعرّض له من الأخطار في المستقبل، وكان نطاقاً من

الأحجار المربَّعة، وتابع جستنيان بناء هذه الأسوار وتحصينها، غير أن الحصن الحقيقي لم ينشئه إلا تيودوسيوس بسور يبلغ طوله سبعة كيلو مترات ما تزال بقاياه التي يلتفُّ حواليها اللبلاب حتى اليوم تقدِّم شاهداً على قوة بنيانه القائم على الأحجار المربعة، ولمّا كان يزدان بالأثلام والكوى والأسوار المسنَّنة، وتحميه خنادق المياه، وتحرسه أبراج تربيعية جبّارة، وقد أنشئ في سلسلة متوازية، من طبقتين أو ثلاث طبقات، وكان كل امبراطور من أباطرة الألف عام يستكمله ويجدّده مراراً، فقد كان هذا السور الحَلَقيّ ذو المهابة والجلال يُعدُّ في عصره الرمز المكتمل لاستحالة الاستيلاء عليه. ومثلما كانت هذه الأسوار تهزأ في سالف الأيام بهمج البرابرة الذين ينهالون عليها كالعاصفة التي انطلقت من عنانها، كانت تهزأ أيضاً بفصائل الأتراك المقاتلة، كذلك تهزأ هذه اللَّبِنات المربَّعة أيضاً بكل آلات الحرب التي اخترعت حتى تاريخه. وكانت قذائف الدبّابات ترتطم بها مرتدَّةً عنها عاجزة، كما ترتدُّ الأكباش، وحتى طوابير الميدان والهاونات عن جدارها القائم المنتصب. وما من مدينة في أوروبا أكثر تحصيناً وأفضل حماية من القسطنطينية بفصل السور الثيودوسيّ.

على أن محمداً يعرف الآن هذه الجدران على نحو أفضل من أيّ امرئ آخر، ويعرف قوتها، ولم يكن يشغله في سهر الليالي وفي الأحلام، منذ شهور وسنين إلاّ فكرة واحدة، هي كيفية الاستيلاء على هذه الأسوار التي لا يمكن الاستيلاء عليها، وكيفية تقويض هذه الجدران التي لا يمكن تحويلها إلى أنقاض، وكانت تتراكم على منضدته الرسوم والقياسات، والصدوع.

وإذاً فليبادر إلى تأمين مدافع أقوى! أطول، وأبعد حَمْلاً، وأقوى

على القذف والإطلاق مما عرفه فن الحرب حتى الآن، أو فليُشكِّل قذائف أخرى من حجارة أقسى، وأثقل وزناً، وأقدر على السَّحق، والتدمير من كل ما تمَّ إنتاجه حتى الآن! ولابدَّ من اختراع مدفعية جديدة ضد هذه الأسوار التي لا يمكن الاقتراب منها، وليس هناك حل آخر. ويعلن محمد تصميمه على إبداع هذه الوسائل الهجومية الجديدة بأي ثمن.

بأيّ ثمن - ومثل هذا الإعلان يبعث من مجرد نفسه ذاتها قوىً إبداعية دافعة وكذلك يظهر بُعَيْد إعلان الحرب، لدى السلطان، الرجل الأغنى بالاختراع، والذي يُعَدّ أكثر سَبّاكي المدافع خبرة في العالم، إنه أورباس (Urbas) الهنغاري، والحق أنه مسيحي، وكان قد عرض خدماته على الامبراطور قسطنطين، ولكنه حين يتوقع التوقُّع الصحيح، وهو أن ينال من رجُلٍ منتصرٍ أجراً أعلى ويجد مهمّات أكثر جرأة لفنه، ويعلن استعداده، إذا ما وضعت تحت تصرُّفه وسائل غير محدودة، لأن يسبك مدفعاً لم يُرَ مدفع في مثل حجمه بعدُ على الأرض أبداً، ويعمد السلطان الذي لا يوجد بالنسبة إليه سعر باهظ، شأنه في ذلك شأن كل مهووس بفكرة واحدة، على الفور، إلى تخصيص عمال له بالعدد الذي يريد، وتُحمَل الفلزات بآلاف العربات إلى أدريانوبل، ويظل سبّاك المدافع ثلاثة أشهر، ويُحَضِّر، بجهد لا نهاية له، القالب الطيني بموجب طرائق التقسية السرية، قبل أن يتم السَّبْك المثير للكتلة الملتهبة. ويصيب العمل نجاحاً، وتستخرج السبطانة العملاقة، وهي أكبر سبطانة عرفها العالم حتى الآن، من قالبها، ويتمُّ تبريدها، ولكن قبل أن يتم إطلاق قذيفة الاختبار الأولى يبعث محمد بالمنادين في أنحاء المدينة بأسرها لتحذير النساء الحوامل. وحين تلفظ الفوهة التي تضاء بنور خاطف كالبرق، الكرة الحجرية الجبّارة،

وتُحَوِّل هذه جداراً بقذيفة اختبار واحدة، إلى أنقاض، يأمر محمد على الفور بأن يُصْنَع سلاح مدفعية كامل بهذه الأبعاد العملاقة.

وكانت أول آلة ضخمة «لقذف الحجارة»، كما سوف يسمي الكتاب اليونانيون فيما بعد هذا المدفع وقد تولاّهم الفزع، خليقة أن يتم إنشاؤها الآن على نحو موفّق، ولكن كان ثمة مشكلة عويصة أيضاً، وهي كيف يُجَرُّ هذا الوحش الهائل عبر تراقيا بأسرها، إلى أسوار القسطنطينية، هذا التنين المصنوع من خام الحديد؟ وتبدأ ملحمة كملحمة الأوذيسا لا مثيل لها، وذلك لأن شعباً بأسره، وجيشاً بأسره، يظل على مدى شهرين يُجَرِّر هذا الوحش الهائل، الجامد، الطويل العنق. وفي البداية تقوم فصائل الفرسان بشق الطريق لحماية الأثر النفيس من كل غارة، في دوريات متواصلة، وكان يعمل وراءهم ويرافقهم، في الليل والنهار، ألوف من عمال الحفر، للتخلص من حالات عدم الاستواء في الطريق، من أجل النقل الفادح الثقل، الذي يفسد الطريق وراءه من جديد على مدى شهور، وقد شُدَّ إلى برج العربة خمسون زوجاً من الثيران، وهي العربة التي كانت تجثم على محاورها السبطانة الهائلة، بأوزان موزعة توزيعاً دقيقاً، مثلما تمَّ في غابر الأيام، حَمْلُ المسلة عندما انتقلت من مصر إلى روما، وكان هناك مائتا رجل يسندون السبطانة التي كانت تترنَّح من ثقلها الخاص، عن اليمين وعن الشمال دونما توقُّف، بينما كان في الوقت ذاته خمسون من صُنّاع العربات والنجارين مشغولين بغير انقطاع، بتبديل العجلات الخشبية، وتزييتها، وتقوية الدعامات، ونصب الجسور، ويعرف القوم أن هذه القافلة العملاقة لا تستطيع أن تشق طريقها عبر الجبال والسُّهوب إلا خطوة خطوة، وبأبطأ خطوة تخطوها الثيران، ويتجمَّع

الفلاحون من القرى، ويرسمون شارات الصليب على صدورهم أمام هذا الكائن المعدني الهائل الذي يُحْمَل كأنه إله الحرب من قبل عُبّاده وكهنته، من بلد إلى آخر، ولكن سرعان ما تُجَرُّ إخوة سرير الصبّ الطينيّ المصبوبة من الحديد الخام، ومرة أخرى تجعل الإرادة البشرية المستحيل ممكناً، وإذا عشرون أو ثلاثون من أمثال هذه الأغوال المهولة تتجلّى متألّقة بأفواهها المستديرة السود تجاه بيزنطة، وتحقق المدفعية الثقيلة دخولها في التاريخ الحربي، ويبدأ النِزال بين أسوار أمبراطور دولة الروم الشرقية وبين المدافع الجديدة للسلطان الجديد.

أمل يلوح مرة أخرى

ورُويداً رويداً، وبِجَلَدٍ شديد، ولكن على نحو لا يُقاوَم، تقوم المدافع العملاقة بتفتيت أسوار بيزنطة وطحنها بقضماتٍ خاطفة. وفي البداية لا يستطيع كل مدفع أن يطلق أكثر من ست طلقات أو سبع في اليوم، ولكن السلطان يأتي، من يوم إلى آخر، بمدافع جديدة ينصبها، وفي غمرة سحب الغبار والخراب تظل تنفتح على الدوام ثغرة جديدة في السور الحجري الذي يتهاوى. والحق أنه كان يجري في الليل من قبل المحاصَرين رَتْق هذه الثقوب بأسافين خشبية تزداد ضرورتها على نحو مطَّرِد، وبكتل من الكتان، ومع ذلك فما عاد هذا السور الذي يقاتلون وراءه هو السور القديم، الفولاذي، الذي لا يمكن إلحاق الأذى به، ويفكر الثمانية آلاف وراء الأسوار وقد تولاّهم الفزع، وفي الساعة الحاسمة التي سوف يتقدم فيها المائة والخمسون ألفاً من مقاتلي محمد للهجوم الحاسم على الحصن الذي بات مُثَقَّباً. كان قد آن الأوان، وألحّت الضرورة إلى أقصى الحدود،

لكي تتذكر أوروبا، والمسيحية وعدهما، وها هي ذي مجموعات من النساء يرقدن مع أطفالهن طوال النهار أمام خزائن الآثار التذكارية في الكنائس حاثيات على رُكبهن، ومن كل أبراج الحراسة يستطلع الجند في النهار والليل لكي يَرَوا أنه يوشك أن يظهر آخر الأمر في بحر مرمرة الذي يعجُّ بالسفن التركية أسطول الإغاثة البابويُّ والبندقانيُّ الموعود.

وأخيراً، وفي العشرين من نيسان، في الساعة الثالثة صباحاً، تضيء إشارة، لقد استطلع القوم على البُعْد أشرعةً، على أنه ليس الأسطول المسيحي الجبّار الذي يحلمون به، ولكنه أسطول على أية حال، وكانت الريح تدفع به رويداً رويداً، وتتوجَّه ثلاث سفن جنوبية كبيرة نحوهم، ووراءهم سفينة رابعة، أصغر، هي سفينة قمح بيزنطية أدخلتها السفن الكبيرة الثلاث في وسطها لتحميها. وعلى الفور تحتشد القسطنطينية بأسرها متحمِّسة عند أسوار الشاطئ تحيةً للمُغيثين. ولكن في الوقت ذاته يلقي محمد بنفسه على جواده ويعدو به بأشد أشكال الركوب والعَدْوِ من خيمته الأرجوانية إلى الميناء، حيث يجثم الأسطول التركي أمام مرساه، ويصدر أمره بالحؤول، بأيّ ثمن، دون دخول السفن إلى ميناء بيزنطة، أي إلى القرن الذهبي.

وكان الأسطول التركي يبلغ تعداده مائة وخمسين سفينة من السفن الأصغر بالطبع، وعلى الفور تقرقر في البحر آلاف المجاذيف. وكانت سفن السواحل هذه المائة والخمسون المزوّدة بالخطاطيف وبقاذفات النار، وقاذفات الحجارة تشق طريقها متقدِّمة نحو السفن الحربية الكبيرة، الشراعية الأربع، ولكن لمّا كانت الريح تدفع هذه بقوة فقد كانت تسبق السفن الصغيرة وتصل إلى الشاطئ الآخر، حيث تهدر قذائف قوارب الأتراك وتصرخ. على أن

السفن الكبيرة تتقدم في مهابة وجلال، بأشرعتها المنتفخة المستديرة، غير عابئة بالمهاجمين، نحو ميناء القرن الذهبي الآمن، حيث كانت تُشَدُّ السلسلة الشهيرة من استانبول إلى جالاتا، لتقدِّم لهن بعد ذلك الحماية الدائمة من الهجوم والإغارة. وها هي ذي السفن الكبيرة الأربع قد أصبحت الآن عند هدفها، وبات في وسع الألوف على الأسوار أن يتبيَّنوا وجه كلٍّ من رجال السفن على حدة، وإذا الرجال والنساء جاثون على ركبهم ليشكروا الروح القدس على الإنقاذ المجيد، وإذا السلسلة تصلصل هابطة في الميناء لتستقبل سفن الغوث.

هنالك يحدث، دفعة واحدة، شيء مثير للفزع. لقد توقفت الرياح فجأة، وتقف السفن الشراعية الأربع وقد أصابها الموت الكامل، في عرض البحر، وكانت قد أصبحت على وجه الخصوص على بعد بضعةٍ من مرامي حَجَرٍ من الشاطئ المُنقِذ، وفي غمرة صراخ تهلهل وحشي تنقضّ العصابة بأكملها من سفن المجاذيف المعادية على السفن الأربع المشلولة التي تنتصب جامدة في البحر بغير حراك وكأنها أبراج أربعة، ومثل فحول الكلاب التي تنشب أنيابها في أيِّلٍ أحمر ذي ستة عشر قرناً، تتشبَّث السفن الصغيرة، بخاطفيها، بجناحي كل من السفن الكبيرة، وهي تضرب ضربات قوية في الهيكل الخشبي، لتنتهي بها إلى الغَرَق، وهم يتسلَّقون سلاسل المرسى برجال يتجدّدون على الدوام، ويقذفون الأشرعة بالمشاعل والحرائق، ليحرقوها. ويدفع قبطان الأرمادا التركية، بحزم وتصميم، بسفينة الأميرالية نحو سفينة النقل، ليصدمها، وإذا السفينتان تعلق إحداهما بالأخرى مثل حلقتين تشابكتا، والحق أن البحارة الجنويين مازال في وسعهم أن يدافعوا عن أنفسهم أول الأمر من

ظهور سفنهم المرتفعة والمحمية بالدروع ضد المتسلّقين إلى الأعلى، وما زالوا يطاردون المهاجمين ويردّونهم بالفؤوس والحجارة والنار الإغريقية، ولكن سرعان ما يغدو مما لابُدَّ منه أن ينتهي الصراع إلى غايته فهؤلاء كثيرون جداً في مواجهة قلة ضئيلة، وكذلك تضيع السفن الجنويّة.

ويالها من مسرحية تبعث الرِّعدَةْ في أوصال الألوف الواقفين عند الأسوار! ومثلما يتابع الشعب في العادلة، في الحلبة، ألوان الصراع الدموي، كذلك يستطيع الآن، على مَقْرُبَة بالغة إلى حد الإيلام، أن يتأمَّل بالعين المجرَّدة معركة بحرية، وأن يشهد الدمار الذي لا سبيل إلى تجنُّبه على ما يبدو، دمار سفنه، فما هي إلا ساعتان بعد على أقصى الحدود وتكون السفن الأربع قد وقعت في أيدي عصابة الأعداء في حلبة الصراع البحري. ألا عبثاً كان مجيء المُساعدين، عبثاً! أما اليونان اليائسون على أسوار القسطنطينية، الذين كانوا، على وجه الخصوص، على بُعْدِ مرمى حجر من إخوانهم، فكانوا يقفون ويصرخون وقد تكوَّرت قبضاتهم في غضبة عاجزة، إذ لم يكن في وسعهم أن يعينوا مُنقذيهم. على أن فريقاً منهم يحاول أن يبعث نار الحماسة في الأصدقاء المقاتلين باللفتات الجامحة وكان آخرون يستصرخون المسيح وكبير الملائكة ميخائيل، وكلَّ قديسي كنائسهم وأديرتهم، الذين كانوا يحمون بيزنطة منذ كثير من القرون، وقد ارتفعت أيديهم إلى السماء، راجين منهم أن يأتوا بمعجزة، ولكن كان ينتظر على الشاطئ المقابل لجالاتا، مرة أخرى، الأتراك ويلجأون بالدعاء ويتضرَّعون بالحرارة والحُمَيّا ذاتهما، طالبين النصر لذويهم: لقد تحوَّل البحر إلى مشهد من مشاهد مسرحية، وتحولت معركة بحرية إلى لعب متصارعين، وكان السلطان ذاته قد أقبل على

جواد يعدو ويخوض بجواده في عمق الماء بحيث يتبلّل ثوبه الخارجي، محاطاً بباشواته، ويصرخ من خلال يديه اللتين تكوّرتا مجوّفتين حتى تحوّلتا إلى ما يشبه البوق، بصوت غاضب في رهطه يأمرهم أن يستولوا على السفن المسيحية بأي ثمن، وما يفتأ يشتم ويهدد بخنجره المقوّس المسلول، كُلّما دُفِع بإحدى سفنه ذات المجاذيف ورُدَّت على أعقابها، قائلاً لأميراله: «إذا لم تنتصر، فلا تعودَنَّ حيّاً».

وما زالت السفن المسيحية الأربع تقاوم. ولكن القتال آذنَ بالنهاية، وها قد أخذت تنضب القذائف التي كانوا يصدّون بها القوارب التركية ذات المجاذيف، وها قد أخذ ينتاب ذراع البحارة التعب بعد قتال دام ساعات ضد القوة التي تتفوّق عليهم بمقدار خمسين ضعفاً، وآذن النهار بالأفوال، ومالت الشمس نحو الأفق. وما هي إلاّ ساعة أخرى وتضطر السفن إلى أن تندفع إلى الشاطئ الذي تحيله الأتراك، حتى وإن لم تكن قد تمكّن منها الأتراك ودخلوها، بفعل التيار، لقد ضاعوا، وضاعوا، وضاعوا!

هنالك يحدث شيء يبدو للجمهور اليائس المُعْوِل، المنتحب، في بيزنطة، كالأعجوبة. فبدفعة واحدة يبدأ هدير خافت، وترتفع رياح دفعة واحدة، وعلى الفور تنتفخ الأشرعة المنسدلة في السفن الأربع وتتكوَّر وتغدو كبيرة. لقد انبعثت الرياح التي تاقوا إليها وتضرّعوا يلتمسونها! ويرتفع مُقدَّم السفن الشراعية الحربية شأن المنتصر، ويسبق انطلاقها المفاجئ المتزاحمين الذين يَعُجّون من حولها ويطغى عليهم. لقد أصبحوا أحراراً، لقد تمَّ إنقاذهم، وفي غمرة تهليل الألوف المؤلّفة، الهادر، فوق الأسوار، تدخل الآن السفينة الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة، في الميناء الآمن، وترتفع سلسلة الحاجز المُدلاة مُصَلْصِلةً مرة أخرى لتحميها،

وتظل مجموعة السفن التركية وراءها عاجزة، متناثرة في البحر. ومرة أخرى يخيّم هتاف الأمل كسحائب أرجوانية على المدينة المكفهرّة اليائسة.

الأسطول يتنقّل فوق الجبل

ويدوم السرور الغامر عند المحاصرين طوال ليلة، إذ يظل الليل، وهو حافل بالخيال، يستثير الحواس ويُرْبك الأمل بسُمِّ الأحلام الحلو. ويظل المحاصَرون، طوال ليلة، يعتقدون أنهم في مأمن وأنهم قد نَجَواْ، إذ يحلمون أن سفناً جديدة سوف تأتي، أسبوعاً بعد أسبوع مثلما رَسَت هذه السفن الأربع بالجند والمؤونة ناجحة موفَّقة. فأوروبا لم تَنْسَهُم، وها هم أولاء يرون الحصار وقد ارتفع، في غمرة توقُّعاتهم المتسرِّعة، ويرون العدوَّ مُثَبَّط الهمة مهزوماً.

ولكن محمداً أيضاً حالمٌ من الحالمين، وهو بالطبع حالم من ذلك النوع المختلف والأكثر ندرة إلى حد بعيد، إنه ذلك النوع الذي يعرف كيف يُحَوِّل الأحلام بإرادته، إلى واقع، وبينما تظن تلك السفن الشراعية الحربية أنها آمنة في ميناء القرن الذهبي، يصمّم هو خطة تنطوي على جسارة يبلغ من روعتها أنها توضع، في إطار تاريخ الحروب، على قدم المساواة مع أجرأ أعمال هانيبال ونابليون، بحق وصدق. وكانت بيزنطة بين يديه مثل ثمرة ذهبيّة غير أنه لا يستطيع أن يتناولها: أمّا العقبة الرئيسية في وجه هذا الهجوم فيشكلها هذا اللسان البحري المحفور في الأعماق، وهو القرن الذهبي، هذا الخليج الذي يحاكي في شكله المصران الأعور والذي يؤمن أحد جناحَيْ القسطنطينية. والتغلغل في هذا الخليج غير ممكن من الوجهة العملية، إذ توجد عند مدخله مدينة جالاتا العائدة

إلى أهل جنِوة، والتي يلتزم محمد بالحياد تجاهها، ومنها تُشَدُّ سلسلة الحاجز الحديدية بالعرض إلى أن تبلغ مدينة العدو. ولذلك فلا يمكن لأسطوله أن يدخل الخليج بصدمة جبهية، بل لا يستطيع ذلك إلا من الحوض الداخلي، حيث تنتهي الأراضي الجنويّة، حيث يمكن الإمساك بالأسطول المسيحي. ولكن أنّى له أن يؤمِّن أسطولاً من أجل هذا الخليج الداخلي؟ لقد كان في وسع القوم أن ينشئوا مثل هذا الأسطول، بلا ريب، غير أن هذا خليقٌ أن يستغرق شهوراً، بعد شهور، ولا يريد هذا النافد الصبر أن ينتظر كل هذا الوقت الطويل.

هنالك يصوغ محمد الخطة العبقرية، وهي أن ينقل أسطوله من البحر الخارجي حيث لا يكون مجدياً، عبر اللسان البرّي، إلى الميناء الداخلي، ميناء القرن الذهبي. وهذه الفكرة الجريئة التي تبهر الأنفاس، وهي أن يجتاز بمئات السفن، برزخاً جبلياً، تبدو بصورة مسبقة، ضرباً من العبث، وغير ممكنة التنفيذ إلى حد جعل البيزنطيين وأهل جنوة في جالاتا لا يدخلونها في حسبانهم مثلما لم يدخل الرومان، ولا النمساويون من بعدهم، الانتقالات السريعة عبر الألب من قبل هاينبال ونابوليون. وبموجب كل تجاريب أهل الأرض لا تستطيع السفن أن تجري إلاّ في الماء، ولا يستطيع أسطول أبداً أن يجري على جبل، ومع ذلك فهذا على أية حال يمثل السِمة الحقيقية لإرادة شيطانية، وهي أنها تحوِّل المستحيل إلى واقع، ولا يستطيع المرء أن يميِّز العبقرية العسكرية دائماً إلاّ بأنها تهزأ، وهي في غمرة الحرب، بقواعد الحرب، وتعمد في اللحظة المعنية إلى تعبئة الارتجال الإبداعي بدلاً من الطرائق المجرَّبة، وتبدأ عملية هائلة لا يكاد يوجد لها مثيل يُقارن بها في حوليّات التاريخ.

وبكل سكينة وهدوء يوعز محمد باستدعاء حطابين لا حصر لهم يحضِّرون الأخشاب الأسطوانية، وبتحويل هذه من قبل عمال الورشات إلى ألواح يثبِّت القوم عليها بعد ذلك السفن المسحوبة من البحر كما تثبت هذه على حوض للسفن جاف متحرك، وفي الوقت ذاته يكون هناك آلاف من عمال الحفر يعملون على تسوية حافّة الدرب الضيِّق الذي يفضي إلى الصعود إلى تل پيرا، ثم يفضي إلى الهبوط منه من جديد، بحيث يكون ممهِّداً للنقل إلى أفضل حد ممكن. ولكن لكي يحجب السلطان عن العدوّ الحشد المفاجئ لهذا العدد الكبير من العاملين، يوعز في كل نهار وليل، بإطلاق قصف مدفعي رهيب من فوق مدينة جالاتا المحايدة، من مدافع الهاون، وهو قصف لا معنى له في حد ذاته، وليس له إلا معنى واحد وهو صرف الانتباه، وتغطية رحلة السفن في الجبل والوادي من مياه إلى أخرى. وبينما يكون الأعداء مشغولين ولا يتوقعون هجوماً إلاّ من البرّ، تتحرك الأخشاب الأسطوانية ذات العدد الذي لا يحصى، وقد أشربت بالزيت والدسم إلى حد بعيد، وعلى هذه الزحّافة العملاقة يجري الآن سحب سفينة بعد الأخرى فوق الجبل، وكل سفينة فوق قضيب انزلاجها، من قبل أزواج لا تحصى من الثيران، مع المساعدة في الدفع من قبل البحارة، ولا يكاد الليل يحجب كل نظرة، حتى يبدأ هذا النقل العجائبيّ، وتتمُّ أعجوبة العجائب، في صمت، مثلما يتمُّ كل شيء عظيم، وفي رويَّة واحتراس مثلما يتم كل شيء ينمُّ عن الذكاء: وينتقل أسطول كامل فوق الجبل.

على أن الأمر الحاسم في كل العمليات العسكرية الكبرى هو، دائماً، لحظة المفاجأة. وهنا أبْلَتْ عبقرية محمد الخصوصية بلاءاً رائعاً. فما من أحد يحسُّ بشيء من مقصده - «لو عرفت شعرة في لحيتي شيئاً

من مقصدي لاقتلعتها »، هذا ما قاله هذا الماكر إلى حد العبقرية عن نفسه ذات مرة. وفي نظام كامل إلى أقصى حدود الكمال، وبينما تقصف المدافع الأسوار قصفاً كدويّ الرعد من باب الصلف والمباهاة، يجري تنفيذ أمره، ويتمُّ في هذه الليلة الواحدة، ليلة الثاني والعشرين من نيسان، نقل سبعين سفينة، من بحر إلى آخر، عبر الجبل، والوادي، وخلال كروم العنب، والحقول والغابات. وفي الصباح التالي يعتقد مواطنو بيزنطة أنهم يحلمون: أسطول معاد، كأنما حملته أيادي الجن، يُبْحِر وعليه البيارق وفيه الرجال، في قلب خليجهم الذي يحسبون أنه لا سبيل إلى الدُنُوّ منه: وما زالوا يفركون عيونهم، ولا يفهمون من أين جاءت هذه الأعجوبة، ولكن الأبواق والصنوج والطبول تهلّل تحت سورهم الجانبي الذي كان حتى الآن يجد الحماية من قبل الميناء، وبات القرن الذهبي بأسره، باستثناء ذلك المجال الضيق، المحايد، مجال جالاتا، حيث يكمن الأسطول المسيحي مغلّفاً في إهابه، يعود للسلطان وجيشه من جراء هذه الضربة العبقرية. وبات في وسعه الآن أن يتقدَّم بقواته، على جسر القوارب عنده، نحو السور الأضعف، وبذلك يتعرَّض الجناح الضعيف للتهديد، وتتعرَّض للتخلخل سلسلة المدافعين التي هي قليلة العدد على أية حال، من جراء انتشارها على نطاق أوسع، وها هي ذي القبضة الحديدية يشتد إحكامُها على نحو مطرد الزيادة حول حنجرة الضحية.

الغوثَ، الغوثَ، يا أوروبا!

وما عاد المحاصَرون ينخدعون، فهم يعلمون، بعد أن تم الإمساك بهم من الجناح الذي انصدع أيضاً، أنهم لن يقاوموا وقتاً طويلاً وراء أسوارهم التي أضَرَّ بها إطلاق النيران، وهم ثمانية آلاف في مواجهة مائة

وخمسين ألفاً، إذا لم تأتهم نجدة في أقرب وقت ممكن. ولكن ألم تَعِدْ سنيورة البندقية بإرسال سفن؟ وهل يمكن للبابا أن يظل لا مبالياً حين يحدق الخطر بآياصوفيا، أروع كنائس الغرب، وهو خطر تحوُّلها إلى مسجد للكفر؟ أو ما زالت أوروبا، التي هي أسيرة المشاحنات وتفتّت وحدتها غيرة دُنْيا ذات مائة وجه، لا تدرك الخطر الذي يحيق بحضارة الغرب؟ ويعزِّي المحاصَرون أنفسهم قائلين: ربما كان أسطول الإنقاذ جاهزاً منذ عهد بعيد، ولا يتردَّد إلا من جراء الجهل، في نصب أشرعته، وربما يكفيهم أن يهزَّ المرء في وعيهم المسؤولية الهائلة المترتبة على هذا التلكؤ القاتل.

ولكن كيف السبيل إلى التفاهم مع الأسطول البندقاني؟ فبحر مرمرة مزروع بالسفن التركية. أمّا الانطلاق بالأسطول كله فخليق أن يعني تعريضه للهلاك، كما يعني، فضلاً عن ذلك، إضعاف الدفاع الذي يُحْسَبُ معه حسابٌ لكل فرد، بمقدار بضع مئات من الجند. وهكذا يقرِّر القوم أن لا يخاطروا إلاّ بسفينة صغيرة للغاية فيها عدد جدٌّ ضئيل من الرجال، وكانوا اثني عشر رجلاً على وجه الإجمال - ولو وُجِدَت عدالة في التاريخ لكان لابد لأسمائهم أن تبلغ من الشهرة ما بلغته أسماء أولئك المسافرين في سفينة أرغو (Argonauten)، ونحن لا نعرف بالفعل اسماً واحداً بعينه - تجرأوا على العمل البطولي - وكانت ترتفع على سفينة القتال القصيرة، ذات الصاريتين، الراية المعادية، وكانوا اثني عشر رجلاً في زيّ من النوع التركي، بالعمامة أو الطربوش لكيلا يثيروا انتباهاً. وفي الثالث من أيار تُرْخى سلسلة الحاجز في منتصف الليل، في الميناء، من دون جَلَبة، وبضربات مجاذيف مكتومة ينزلق القارب الصغير خارجاً، في حماية الظلام، وإذا الشيء العجيب يحدث، ومن دون أن يتم

تميز السفينة الضئيلة للغاية تعبر مضيق الدردنيل إلى أن تبلغ بحر إيجه، ويكون فَرْط الجرأة دائماً هو الذي يشلُّ الخصم. لقد فكَّر محمد في كل شيء، إلاّ في هذا الذي لا يمكن تصوُّره، وهو أن تجرؤ سفينة مفردة فيها اثنا عشر بطلاً على رحلة كهذه تضاهي رحلة المسافرين على سفينة أرغو في وسط أسطوله.

ولكن يا لها من خيبة أمل مأساوية: ما من شراع بندقاني يرسل ضوءه في بجر إيجه، وما من أسطول جاهز للتعبئة، لقد نسْوا بيزنطة جميعاً، البندقية والبابا، وكلهم يهملها، إذ يُشْغلون بسياسة محدودة الأفق قائمة على صغائر الأمور، الشرف والقَسَم، وتظل هذه اللحظات المأساوية تتكرَّر مرة بعد أخرى في التاريخ، إذ لا يستطيع الأمراء والدول أن يكتبوا خصوماتهم التافهة حيث يكون الحشد الأقصى لكل القوى الموحَّدة ضرورياً لحماية الحضارة الأوروبية، ولا لفترة يسيرة من الزمن. أمّا جنوة فالأهمّ عندها أن تَرُدَّ البندقية إلى الصف الخلفي، وأما البندقية فردُّ جنوة، مرة أخرى، إلى الوراء أهمُّ عندها من الاتحاد بضع ساعات لمحاربة العدوّ المشترك. لقد كان البحر خاوياً، ويجذِّف الشجعان يائسين على مركبهم الذي يضاهي قشرة جوزة، من جزيرة إلى جزيرة ولكن الموانئ محتلةٌ من قبل العدوّ في كل مكان، وما من سفينة صديقة تجرؤ بعدُ على دخول منطقة الحرب.

فما العمل الآن؟ لقد انتاب بعض الرجال الاثني عشر اليأس بحق. ففيمَ الرجوع إلى القسطنطينية، واجتياز الطريق الخطير مرة أخرى؟ أما الأمل فليس في وسعهم أن يأتوا به. وربما كانت المدينة سقطت، وعلى كل حال فإن ما ينتظرهم حين يعودون، هو الأسر أو الموت، ولكن

الأكثرية تقرر العودة مع ذلك - والأبطال رائعون دائماً، وهم الذين لا يعرفهم أحداً! لقد أسندت إليهم مهمة وعليهم أن يؤدّوها، لقد أرسلوا برسالة ولابدّ لهم أن يعودوا بها، وإن كانت الرسالة الأكثر إثارة للانقباض والكآبة على الإطلاق. وهكذا تجرؤ هذه السفينة الضئيلة وحدها على سلوك طريق العودة مرة أخرى، عبر الدردنيل، وبحر مرمرة، والأسطول المعادي. وفي الثالث والعشرين من أيار، أي بعد عشرين يوماً من رحلة الذهاب، وكان القوم في القسطنطينية قد سلّموا منذ عهد بعيد بضياع المركب، وما عاد أحد يفكر في الرسالة أو في العودة، هنالك يهزُّ الرايات، فجأة، من الأسوار، بعض الحرس، إذ تتوجه سفينة صغيرة، بضربات مجاذيف حادة، نحو القرن الذهبي، وحين يعلم الأتراك الآن، من جراء التهليل الراّعد للمحاصَرين، وقد انتابتهم الدهشة، أن هذه السفينة الصغيرة ذات الصاريتين التي مخرت عباب مياههم بطريقة وقحة، وهي ترفع العلم التركي، هي سفينة معادية، ينطلقون بزوارقهم من كل حدب وصوب ليمسكوا بها قبل أن تبلغ الميناء الذي يحميها، بقليل. وتظل بيزنطة لحظة من الزمان تهتزُّ بآلاف من صرخات التهليل بالأمل السعيد، أن تكون أوروبا قد تذكّرتهم ولم ترسل تلك السفن مُقَدَّماً إلاّ لتكون رسالة منها، وفي المساء فحسب تنتشر الحقيقة المنطوية على شَرٍّ مستطير. لقد نسيت المسيحية بيزنطة، والمحاصرون يظلون وحدهم، لقد ضاعوا، إذا لم ينقذوا أنفسهم بأنفسهم.

الليلة التي تسبق العاصفة

وبعد ستة أسابيع من الاشتباكات اليومية تقريباً ينفد صبر السلطان، لقد أتلفت مدافعه الأسوار في كثير من المواضع، ولكن كل

الهجمات العاصفة التي يأمر بها كانت تُصَدّ حتى الآن صداً دموياً، وبالنسبة لقائد عسكري لا يبقى هناك إلاّ إمكانيتان بعدُ: فإما أن يتخلى عن الحصار، وإما أن يبدأ، بعد الهجمات المتفرِّقة التي لا حصر لها، بالزحف العاصف الحاسم، ويستدعي محمد باشواته لمجلس حربي، وتنتصر إرادته الجامحة على كل الهواجس، ويتّخذ القرار بأن تكون العاصفة الكبيرة، الحاسمة في التاسع والعشرين من أيار، وبالتصميم المألوف يستكمل السلطان استعداداته، وتُتَّخذ الترتيبات من أجل يومٍ احتفالي، إذ يترتَّب على مائة وخمسين ألف رجل، من أولهم إلى آخرهم، أن يؤدّوا جميعاً الطقوس الاحتفالية التي يفرضها الإسلام، غسل الأعضاء السبعة، والصلاة الجامعة ثلاث مرات في اليوم. وما يظل متوافراً من البارود والقذائف يؤتى به من أجل هجوم بالمدفعية مُفْتَعَل ليجعل المدينة ناضجة للعاصفة، ويتم توزيع القوات المتفرقة من أجل الهجوم، كلاً على حِدَة، ولم يكن محمد يتيح لنفسه ساعة راحة من الصباح الباكر إلى الليل، ومن القرن الذهبي إلى بحر مرمرة، وعلى طول المعسكر الهائل بأكمله، يركب جواده متنقِّلاً من خيمة إلى أخرى، يشجع القادة في كل مكان بشخصه، ويبث نيران الحماسة في الجند، غير أنه يعرف، بحكم كونه عالماً متضلِّعاً بأمور النفس، أفضل الطرق لإضرام نار الرغبة في القتال في النفوس المائة والخمسين ألفاً، إلى أقصى الحدود، وهكذا يبذل وعداً رهيباً يقسم على إنجازه بشرفه وبغير شرفه على أكمل وجه. وهذا الوعد يؤذِّن به على قرع الطبول والأبواق، منادوه في كل اتجاهات الريح: إن محمداً يقسم باسم الله، وباسم محمد وباسم الأربعة

آلاف نبيّ، ويقسم بروح والده، السلطان مراد، وبرؤوس أولاده، وبسيفه، أنْ سيتاح لقواته بعد الإغارة على المدينة حق غير محدود في النهب مدة ثلاثة أيام، وسوف يعود إلى الجند المظفّرين كل ما يوجد داخل هذه الأسوار، من متاع منزليّ، وزينة، وحُلِيّ، وعملات وكنوز، ورجال، ونساء، وأطفال، وهو نفسه يتخلّى عن كل حصة إلاّ شرف فتحه هذا الحصن الأخير في دولة الروم الشرقية».

ويتقبل الجند هذا الإعلان الوحشيّ بتهليل جنوني، ويطغى الدَوِيّ الصاخب التهليل وصراخ (الله الله)، المُسْتعِر كعاصفة لينتقل إلى المدينة المروَّعة. «يَغْما، يَغْما»، وتتحول الكلمة إلى صرخة ميدانية، وتُقَرْقِر مع قرع الطبول، وتَهْدِر مع الصنوج والطبول، وفي الليل يتحول المعسكر إلى بحر من النور الاحتفاليّ، ويرى المحاصَرون من أسوارهم وقد أخذتهم الرعدة، كيف تتقد أعداد لا تحصى من الأضواء والمشاعل في السهل وعلى الروابي، وكيف يحتفل الأعداء بالنصر قبل النصر، بالأبواق والمزامير والطبول والدفوف. إنه شيء يضاهي الطقوس الصاخبة القاسية عند كهنة الوثنيين قبل تقديم القرابين. ولكن فجأة، وفي منتصف الليل، تنطفئ، بأمر محمد، بضربة واحدة، كل الأنوار، وعلى غير توقُّع ينتهي هذا الطنين الحارُّ الذي يأتلف من آلاف الأصوات، ولكن هذا الإخلاد المفاجئ، إلى الصمت، وهذا الظلام الجاثم يبعث الانقباض والكآبة بما فيه من تصميمٍ متوعِّد، في نفوس أولئك الذين يصيخون السمع وهم مشوَّشون، على نحو أكثر إثارة للرهبة من التهليل الجنوني في غمرة النور الصاخب.

ولا يحتاج المحاصَرون إلى مستطلعين ولاجئين إلى العدو، لكي يعرفوا ما ينتظرهم، إنهم يعرفون أنْ قد صدر الأمر بالهجوم العاصف، وكان شعور بالتزام بواجب هائل وخطر كبير يجثم على صدورهم كسحابة تنذر بعاصفة فوق المدينة بأسرها، ويتجمَّع السكان الذين كانت تمزِّقهم في العادات الانقسامات والنزاع الديني، في هذه الساعات الأخيرة - ومن شأن الحالات القصوى من المحن أن تحقق، هي قبل سواها، مسرحيات الوحدة الدنيوية التي لا تُضاهى، ولكي يكون في انتظار الناس جميعاً ما يترتَّب عليهم أن يدافعوا عنه: من العقيدة، والماضي العظيم، والحضارة المشتركة، يأمر الباسيلويْس (Ba-sileus) بإقامة طقس موثِّر وبناءً على أمره يجتمع الشعب كله، من الأرثوذكس والكاثوليك، والكهنة، ورجال الدنيا، والأطفال والشيوخ، في موكب واحد، وما من أحد يجوز له، أو يريد، أن يظل في البيت، ويصطفّون ويغنّون في خشوع وتقوى، من أغنى أغنيائهم إلى أفقر فقرائهم، نشيد الابتهال (kyrie eleison) في الموكب الاحتفاليّ الذي يطوف في داخل المدينة أولاً، ثم بالأسوار الخارجية أيضاً وتستخرج من الكنائس الأيقونات المقدَّسة والآثار التذكارية، وتُحمَل في المقدمة، وحيثما توجد ثغرة في السور يعلِّقون إحدى صور القديسين لكي تصدَّ غارة الكفار على نحو أفضل مما تفعله الأسلحة الدنيوية. وفي الوقت ذاته يجمع الأمبراطور قسطنطين حوله الشيوخ والأعيان والنبلاء والقادة، ليبث نار الحماسة في شجاعتهم بكلمة أخيرة، والحق أنه لا

يستطيع أن يَعِدَهم بغنيمة لا تُقَدَّر، مثلما يعد محمد، غير أنه يصف لهم الشرف الذي يحظون به في سبيل المسيحية والعالم الغربي بأسره إذا ما صَدُّوا هذه الغارة الأخيرة الحاسمة، والخطر، إذا ما سقطوا أمام أولئك الذين يحرقون ويقتلون: فمحمد وقسطنطين يعرفان كلاهما أن هذا اليوم يحسم المصير على مدى قرون من التاريخ.

ثم يبدأ المشهد الأخير، وهو أحد المشاهد الأعمق تأثيراً في أوروبا، إنها حالة وَجْدٍ لا تُنْسى، من حالات الهلاك والانهيار. ففي آياصوفيا التي كانت في تلك الأيام، ما تزال أروع الكاتدرائيات في العالم، والتي غودرت منذ ذلك اليوم، يوم التآخي بين الكنيستين، من قبل المؤمن ومن قبل غيره، يجتمع المحكوم عليهم بالموت، ويلتفُّ حول القيصر رجالُ البلاط كله، والنبلاء، والكهنة اليونان والرومان والجند والبحارة من أهل جنوة والبندقية، وكلهم بأسلحتهم وعتادهم، ووراءهم يجثو، بصمت وخشوع، ألوف مؤلفة من الظلال التي تغمغم - الشعب الراكع، والمنفعل من الخوف والهموم، والشموع التي تصارع قناطر القباب المتدلِّية، جاهدة، تضيء هذا الجمهور الراكع، بروح واحد، في صلاته، كأنه جسد واحد، إنه روح بيزنطة الذي يجأر هنا إلى الله بالدعاء. أما البطريرك فيرفع الآن عقيرته بقوة يستحث الناس، وتجيبه الجوقات بالغناء، ومرة أخرى يصدح الصوت المقدس الخالد، صوت الغرب والموسيقا، في هذه القاعة، ثم يتقدم واحد بعد آخر، وأولهم الامبراطور، من الهيكل، ليتلقى تعزية الإيمان، وتتجاوب في أرجاء القاعة العملاقة الأصوات فيكون صُداحُها حاداً ثاقباً، يوشك أن يبلغ أقواس القباب من حُرْقَةِ

الدعاء الذي لا ينقطع. لقد بدأ القداس الأخير، قداس موت دولة الروم الشرقية، إذ كانت هذه هي المرة الأخيرة التي عيشتْ فيها العقيدة المسيحية في كاتدرائية جستنيان.

وبعد هذا الطقس الذي يُهزُّ النفوس لا يعود الأمبراطور إلى قصره إلا مرة واحدة أخرى بصورة عابرة، ليرجو من كل مرؤوسيه وخدمه الصفح عن كل ظلم ارتكبه بحقهم في أي يوم من الأيام، ثم يلقي بنفسه على جواده، ويركب، مثلما فعل، على وجه الدقة، محمد، خصمه العظيم، في الساعة ذاتها، على طول الأسوار، من إحدى نهايتيها إلى الأخرى، يبثُّ نار الحماسة في الجند، وكان الليل قد أرخى سدوله منذ وقت طويل، وما عاد صوت يرتفع، ولا سلاح يصلصل. ولكن الآلاف ينتظرون النهار والموت، وقد استثيرت نفوسهم، داخل الأسوار.

كيركابورتا، الباب المَنْسِيّ

وفي الساعة الواحدة صباحاً يعطي السلطان إشارة الهجوم، وتُنْشر الراية عملاقة وبصرخة واحدة «الله، الله الله» ينقض مائة ألف من البشر بالأسلحة والسلالم والحبال والكلاليب، على الأسوار، بينما تدوي في الوقت ذاته كل الطبول، وتهدر كل الأبواق، وتتحد الطبول الكبيرة، والصنوج، والمزامير، بدويّها الحاد، مع الصرخات البشرية ورعود المدافع، لتشكّل إعصاراً واحداً. وفي البداية كان يُزجّ بالقوات غير المدرَّبة، وهي قوات الباش بُزُق، عند الأسوار - إذ كانت أجسادهم نصف العارية لا تفيد في خطة هجوم السلطان إلاّ من حيث كونها مَصَدّات إعاقة، يُقْصَد

بها إرهاق العدو وإضعافه، قبل أن تجري تعبئة نواة القوة للعاصفة الحاسمة، وبمائة سُلّم يعدو في الظلام أولئك الذين يُقْذَف بهم إلى الأمام نحو الأسوار، ويتسلّقون نحو السور المُسَنَّن، فيُطرحون نحو الأسفل، ويعودون إلى الاقتحام العاصف من جديد، ومن جديد دائماً، إذ لا يوجد لديهم طريق عودة، فوراءهم، وهم المادة البشرية غير ذات القيمة، المخصصة لمجرد التضحية، توجد قوات النواة، التي ما تفتأ تدفع بهم إلى الأمام، مرة بعد أخرى، إلى الموت المحقَّق تقريباً. وما زال المدافعون يحتفظون باليد العليا، إذ لا تستطيع السهام والحجارة التي لا تحصى أن تنال من دروعهم ذات الشباك المعدنية، غير أن خطرهم الحقيقي - وهذا ما قدَّره محمد على وجه الصحيح - هو أن يُصابوا بالإرهاق. ولمّا كان أهل الأسوار يقاتلون القوات الخفيفة التي ما تفتأ تتقدم، مرة بعد أخرى، على نحو متواصل، وهم في العتاد الثقيل، ويقفزون على الدوام من أحد مواضع الهجوم إلى موضع آخر فقد كانوا يستنفدون جزءاً غير قليل من طاقتهم في هذا الدفاع الذي يُفْرَض عليهم، وحين تتقدم الآن - وكان الصباح قد أخذ ينبلج بعد صراع دام ساعتين - قوةُ الزحف الصاعقِ الثانية، وهم الأناضوليّون، يكون القتال قد غدا أكثر خطورة، لأن هؤلاء الأناضوليين محاربون منظَّمون أولو تدريب حسن ويتمنطقون على النحو ذاته بدروع من الشبكات المعدنية، وهم فوق ذلك مستريحون كل الاستراحة في أغلبيّتهم، بينما يضطر المدافعون إلى حماية هذا الموضع حيناً والموضع الآخر حيناً آخر، من الاقتحام، ولكن ما زال المهاجمون يُرَدّون على أعقابهم في كل مكان، ويضطر السلطان إلى الزجّ بآخر

احتياطاته، وهم الإنكشارية، وهي القوة النواة، وطليعة الجيش العثماني ويضع شخصه في مقدمة الفتيان الاثني عشر ألفاً من الجند المختارين، وهم أفضل من تعرف أوروبا في تلك الأيام، وبصرخة واحدة يُلْقون بأنفسهم على الخصم المستنفد القوى وكان قد آن الأوان لكي تُقْرَع الأجراس كلها في المدينة لتستصرخ آخر القادرين على القتال ولو بصورة جزئية، للمجيء إلى الأسوار، ولكي يُسْتَحضَر البحارة من السفن إذ يبدأ الآن القتال الحقيقي الحاسم، وكان من المصائب الكبرى التي حلّت بالمدافعين أن ضربة بحجر تصيب قائد قوة الجنويين الجَسور، كوندوتييري غيوستينياتي الذي يصاب إصابة فادحة، ويُجَرُّ إلى السفن، ويؤدي سقوطه، لحظة من الزمان إلى إصابة قوة المدافعين بالترنُّح. ولكن ها هو ذا الامبراطور نفسه يقبل عليهم ليحول دون الاختراق الوشيك، وينجحون مرة أخرى في الإطاحة بسلالم الاقتحام: تصميمٌ يواجه تصميماً أخيراً، وتبدو بيزنطة وكأنها أنقذت مدة تكفي لالتقاط نَفَس. لقد انتصرت ذروة المحنة على أشد أشكال الهجوم ضراوة وجموحاً. هنالك يفصل في المسألة حادث عَرَضي مأساوي، ثانيةٌ من تلك الثواني المنطوية على السر، على نحوِ ما يُخْرِج التاريخُ أحياناً في قراراته التي لا يُسْبَرُ غورها، إذ يقرر مصير بيزنطة بضربة واحدة.

لقد حدث شيء ليس بالمحتمل البتّة، إذ تغلغل من إحدى الثغرات الكثيرة في الأسوار الخارجية، غير بعيد من وضع الهجوم الحقيقي، بعض الأتراك. أمّا الأسوار الداخلية فلا يجرؤون عليها، ولكن حين يتيهون وقد استحوذ عليهم الفضول، من دون خطة، بين سور المدينة

الأول وسورها الثاني، يكتشفون أن أحد الأبواب الصغرى في سور المدينة الداخلي، وهو ما يسمى كيركابورتا، قد تُرِكَ مفتوحاً من جراء سَهْوٍ بصرٍ غير مفهوم. على أنه ليس، في حد ذاته، سوى باب صغير يخصص للمشاة في أوقات السلم، وخلال تلك الساعات التي تكون فيها الأبواب الكبرى ما تزال مغلقة، وذلك على وجه الخصوص لأنها لا تنطوي على أهمية عسكرية، نسي القوم، في غمرة الانفعال العام في الليلة الأخيرة على ما يبدو، وجود هذا الباب. وكان من بواعث اندهاش الانكشارية أنهم يجدون الآن هذا الباب في وسط الصحن المستغلق الجامد، مفتوحاً لهم على نحو مريح. وفي البداية يتكهّنون بخدعة حربية، إذ يبدو لهم بعيداً عن الرجحان للغاية ذلك العبث المتمثل في أنه بينما تهوي، في العادة، أمام كل خَرْق، وكل ثغرة، وكل باب من أبواب الحصن آلاف الجثث وتتراكم كالأبراج، كما يتساقط الزيت المشتعل والسهام، ينفتح هنا الباب، باب كيركا بورتا، في سلام كسلام أيام الأحد، مفضياً إلى قلب المدينة وعلى كل حال فهم يصيحون طالبين الدعم، ومن دون أي مقاومة على الإطلاق تنطلق من هذا الباب ثُلّة كاملة، إلى داخل المدينة، لتغير على المدافعين عن السور الخارجيّ الذين لا علم لهم بشيء، على نحو مفاجئ، من وراء ظهورهم، ويلاحظ بعض المحاربين وجود الأتراك وراء صفوفهم، وعلى نحوٍ ينمُّ عن طامة كبرى، ترتفع تلك الصرخة التي هي في كل معركة، أكثر فتكاً من كل المَدافع، إنها صرخة الشائعة الكاذبة: «لقد أُخِذَت المدينة!» ويتابع الأتراك الآن هذا بتهليل عالٍ، وأعلى: «لقد أُخِذَت المدينة!» وهذه الصرخة تحطم كل المقاومة. أمّا قوات

المرتزقة التي تعتقد أنها تعرَّضت للخيانة، فتغادر مواقعها، لتنقذ نفسها باللجوء في الوقت المناسب إلى الميناء وإلى السفن، وعبثاً يرمي قسطنطين بنفسه مع بعض خلصائه في وجه المتغلغلين، فيسقط من دون أن يُعرَف، قتيلاً في وسط الزحام والهَرْج والمَرْج، ولن يستطيع القوم إلاّ في اليوم التالي، أن يقرِّروا، في وسط كومة من الجثث، وعن طريق الحِذاءَيْن الأرجوانيين المزدانين بنسر ذهبي، أن آخر أمبراطور لدولة الرومان الشرقية فقد حياته على نحو مُشَرِّف مع دولته. لقد فصلت في تاريخ العالم ذرة هَبَاء من المصادفة، هي باب كيركابورتا، الباب المنسيّ.

الصليب يهوي

وفي بعض الأحيان يعبث التاريخ بالأرقام، لأن نهب بيزنطة يبدأ، على وجه الدقة بعد ألف عام من نهب روما على أيدي الفاندال على نحو يذكره التاريخ. ويفي محمد المنتصر بوعده باراً بقَسَمِه. ومن دون تمييز يدع لمحاربيه المنازل والقصور والكنائس والأديرة والرجال والنساء والأطفال غنيمة لهم، بعد المجزرة الأولى، ومثل شياطين الجحيم ينطلق الآلاف في الحاراتِ والأزقة، يستبق كل منهم الآخر، وتنطلق العاصفة الأولى ضد الكنائس، فهناك تتوهَّج الأواني الذهبية، وتلتمع الجواهر، ولكن كانوا كلما اقتحموا منزلاً رفعوا رايتهم أمامه لكي يعلم القادمون من بعدهم أن الغنيمة محجوزة، وهذه الغنيمة لا تتألف من مجرد حجارة كريمة وأقمشة ومال ومتاع منقول، بل النساء أيضاً سلعة للسراي، والرجال والأطفال لسوق العبيد، ويتم إخراج الأشقياء المنكودين الذين لجأوا إلى الكنيسة،

بالسياط، قطعاناً بأسرها. أمّا الشيوخ الذين هم أَكَلَةٌ للطعام لا يُحْتاجُ إليهم، وعبء لا يمكن بيعه، فيقتلون، وأمّا الشباب فيُحْزمون في حُزَمٍ كما تُحْزَم الماشية، ويُجرُّون. وفي تزامن مع النهب تثور ثائرة التدمير، وما تركه الصليبيّون عند نهبهم الذي ربما كان لا يقل رَهْبة عن هذا، من الآثار التذكارية المقدسة القيّمة، والأعمال الفنية باقياً، يُحَطَّم من قبل المنتصرين الذين يُجَنُّ جنونهم، ويُمَزَّق إرباً، وتُقَطَّع أوصاله. وأمّا الصور النفيسة فيتم إتلافها، وأما التماثيل الأكثر روعة فتُحَطَّم بالمطارق، وأمّا الكتب التي كان مقدَّراً لها أن تُحفَظ فيها حكمة القرون، والثروة الخالدة للفكر والأدب الإغريقيَّيْن، إلى الأبد، فتُحْرَق أو ترمى بازدراء، ولن تعلم البشرية أبداً، علْماً كاملاً أيُّ وبال خرج في ساعة القدر تلك من خلال هذا الباب المفتوح، باب كيركا بورتا، ومقدار ما ضاع على عالم الفكر أثناء عمليات نهب روما والاسكندرية وبيزنطة.

ولا يدخل محمد المدينة المفتوحة إلاّ بعد ظهر يوم النصر الكبير إذ تكون المذابح قد انتهت. ويركب جواده الفخم مزهُواً، جاداً، ماراً بمشاهد النهب الوحشية من دون أن يحوِّل بصره، ويظل وفيّاً لعهده، أن لا يكدِّر على الجند، الذين ظفروا له بالنصر، عملهم الرهيب، غير أن طريقه الأول لا يتجه نحو الكسب، إذ ظفر بكل شيء، بل ينطلق على جواده مزهُواً، إلى الكاتدرائية، إلى هامة بيزنطة المشرقة. لقد لبث أكثر من خمسين يوماً يطل ببصره من خيامه على القبة المشرقة التي لا يمكن بلوغها، قبة آياصوفيا هذه، في شوق. الآن بات من حقه أن يجتاز بابها البرونزي، ولكن محمداً يلجمه نفاد صبره، مرة أخرى: فهو يريد أوَّلاً أن يحمد الله

قبل أن يدشّن هذه الكنيسة له إلى أبد الآبدين. وفي خشوع وتواضع ينزل السلطان عن جواده ويحني هامته انحناءة عميقة على الأرض، في صلاته. ثم يتناول حفنة من التراب، وينثرها على رأسه، ليتذكّر أنه هو نفسه من البشر الفانين، ولكيلا يتعاظم بانتصاره، والآن فحسب، وبعد أن أظهر السلطان لربه خشوعه وخضوعه، ينهض قائماً، ويدخل، بصفته أول عبدٍ من عباد الله، كاتدرائية جستنيان، كنيسة الحكمة المقدسة، كنيسة آيا صوفيا.

ويتأمل السلطان الدار الرائعة بفضول وتأثُّر، ويشاهد القناطر التي تلتمع بالمرمر والموازييك والأقواس الدقيقة اللطيفة التي تبرز من الظلمة إلى النور، ويشعر أن هذا الصرح المنيف الشامخ إلى أقصى الحدود لا يعود إليه، بل إلى ربِّه، وعلى الفور يأمر باستدعاء إمام يرتقي المنبر، ويعلن عن عقيدة محمد. وبينما يولي الباديشاه وجهه شطر مكة ينطلق بالدعاء الأول لله رب العالمين، في هذه الكاتدرائية المسيحية. ومنذ اليوم التالي يتلقى العمال التكليف بإبعاد كل رموز العقيدة السابقة؛ وتنتزع المذابح وتُغَطّى بالملاط قطع الموازييك الدينية، ويهوي الصليب الذي كان يرتفع عالياً فوق آيا صوفيا، ناشراً ذراعيه ألف عام، ليحيط بكل آلام المعمورة، في صوت مكتوم وجَلَبة، إلى الأرض.

ويدوي صوت الحجر عالياً في أرجاء الكنيسة ويتخطاها إلى مدى بعيد، فمن هذا الهُوِيّ يرتجف الغرب بأسره، ويتردد انعكاس الخبر مُفْزعاً في روما، وفي جنوة، وفي البندقية، وينساب كالرعد المُنْذِر منتقلاً إلى

فـرنسـا ، وإلى ألمانيـا ، وتدرك أوروبا وقـد انتـابتـهـا رِعْـدةٌ، أنه بسـبب لا مبالاتها الحـاملة انهالت من خلال البـاب المنسيّ المنطوي على الطامّـة قوة مدمـرة كقوة القدر سوف تظل قـروناً تَغُلُّ طاقاتها وتشلُّها ولكن للأسف؛ لا تَرُدُّ لحظةٌ ضـائعـة، لا في التـاريخ، ولا في حيـاة البـشر ، ولا يسـتطيع ألف عام أن يستعيد ما فَوَّتته ساعة واحدة.

انبعاث جورج فريدريش هيندِل

٢١ آب ١٧٤١

كان خادم جورج فريدريش هيندِل يقعد عند العصر من يوم الحادي والثلاثين من نيسان عام ١٧٣٧، مشغولاً أغرب انشغال قبالة نافذة الطابق الأرضي من المنزل في بروكستريت. وكان قد لاحظ، باستياء، أن مخزونه من التبغ قد نفد، ولم يكن عليه في الحقيقة سوى أن يجري مسافة شارعين فحسب، ليؤمن لنفسه في الظُلّة(*) العائدة لصديقته دوللي، تبغاً طازجاً، غير أنه لم يجرؤ على الخروج من المنزل بدافع الخوف من سيده ومعلمه السريع الغضب. وكان جورج فريدريش هيندِل قد أقبل عائداً من التجربة، إلى المنزل في غضب عارم، وقد انتفخ وجهه واحمرّ، وجاش الدم في عروقه، وانتفخت الشرايين على صدغيه، وكان قد صفق باب المنزل صفقة حادة مدوِّية، وبات الآن يتجوَّل، وكان في وسع الخادم أن يسمع هذا، بعنف بالغ، جيئة وذهاباً، حتى لقد اهتزّ السقف، ولم يكن من المستحسن في مثل أيام الغضب هذه أن يكون المرء خاملاً متكاسلاً.

ولذلك كان الخادم يبحث عن شُغْلٍ يسلّيه في ملله، إذ كان يدع فقاعات الصابون تتصاعد من غليونه القصير المصنوع من الصلصال،

* – الظُلّة من الخشب : الكشك .

بدلاً من الدخان الأزرق المتشابك في أشكال جميلة، وكان قد أعدّ لنفسه طستاً صغيراً من رغوة الصابون، وكان يستمتع بإخراج الفقاعات الملوَّنة إلى الشارع. وكان المارّة يظلون واقفين، وينثرون، في مزاحهم هذه الفقاعة أو الأخرى من الفقاعات الملوَّنة، وكانوا يضحكون ويلوِّحون، ولكن لم يكن يتولاهم العجب من ذلك. لأنه كان في وسع المرء أن يتوقع كل شيء من هذا المنزل في بروكستريت، وهنا كان البيانو القديم يدوّي فجأة في الليل، وكان المرء يسمع المغنيات يُعْوِلن ويشهقن، عندما يهددهن الألماني ذو المزاج الصفراوي في غمرة غضبته الوحشية، لأنهن غَنَّين بصوت أعلى أو أدنى بمقدار ثُمنِ الإيقاع. وبالقياس إلى جيران ساحة جروسفينور كان شارع بروك ٢٥ يعد منذ زمن بعيد، منزل المجانين.

وكان الخادم ينفخ بهدوء ومثابرة، فقاعاته الملوَّنة، وبعد بعض الوقت كانت براعته قد ازدادت إلى حد ملحوظ، إذ كانت الكُرات المرمرية تزداد ضخامة ورقَّة بشرة على نحو مطرد، وكانت سباحتها في الهواء تزداد ارتفاعاً وصعوداً على نحو مطرد، بل كانت واحدة منهن قد ارتفعت فوق القمة المنخفضة من سطوح المنزل المقابل، وإذا هو يتولاه الفزع فجأة، إذ اهتزّ المنزل كله من جراء ضربة مكتومة عميقة، وكان للكؤوس صليل، وتذبذبت الستائر، لابدّ أن شيئاً ضخماً وثقيلاً قد هوى وتحطم في الطابق العلوي، وإذا الخادم ينهض قائماً، ويرتقي الدرجات نحو حجرة العمل، في حافّة واحدة.

كان المقعد الذي يجلس عليه الأستاذ عند العمل خالياً، وكانت الحجرة خالية، وكان الخادم يهمّ بمتابعة الإسراع إلى حجرة النوم، حين اكتشف هيندلِ، راقداً على أرض الحجرة بغير حراك، والعينان مفتوحتان

جامدتان، والآن، حين وقف الخادم ساكناً في فَزْعَتِه الأولى، سمع حشرجة ثقيلة عميقة مكتومة، وكان الرجل القوي راقداً على ظهره يتنهَّد، أو بالأحرى: كان نَفَس يخرج منه متنهِّداً بدفعات تزداد وَهْناً على نحو مطرد.

وقال الخادم الذي تولاّه الفزع، في نفسه: إنه يموت، وجثا على عجل، لكي يساعد الرجلَ نصفَ المغمى عليه، وحاول أن ينهض به، وأن يحمله إلى الأريكة، غير أن جسد الرجل العملاق كان أكثر وَطْأً وثقلاً، فنضا عنه منديل العنق الذي كان يضيق عليه، وعلى الفور توقفت الحشرجة.

ولكن عندئذ كان قد أقبل من الطابق السفلي كريستوف شميت، الخادم مساعد الأستاذ، الذي كان قد وصل لتوه، لينقل بعض الأناشيد، وكان السقوط المكبوت قد أفزعه هو أيضاً. ورفع الاثنان الرجل الثقيل - وسقط الذراعان في فتور كذراعي ميت - ووسَّداه، مرفوع الرأس، وقال شميت يأمر الخادم «انْضُ عنه ثيابه، وسأجري إلى الطبيب، وانضحه بالماء إلى أن يُفيق».

وجرى كريستوف شميت من دون سترة، ولم يضيِّع وقتاً، عبر شارع بروك، نحو شارع بوند، وهو يلوِّح بيده لكل العربات التي كانت تمر به في خطوات مهيبة، من دون أن يلقي أدنى التفات إلى الرجل البدين، الذي يقعد القرفصاء وعلى يديه أكمام قميصه وأخيراً توقفت عربة، وكان حوذي اللورد شاندوز قد عرف شميت الذي نسي كل قواعد اللياقة وفتح باب العربة، وصاح بالدوق الذي كان يعرف فيه صديق الموسيقا الكبير، وأفضل أولياء نعمة الأستاذ المحبوب: «هيندل يحتضر، ولابدّ من الذهاب إلى طبيب، ودعاه الدوق على الفور إلى دخول العربة، وذاقت الخيول حدة ضربات السوط، وهكذا جاؤوا بالدكتور جينكينز من

حجرة في فليت ستريت، حيث كان لتوه مشغولاً أيّما انشغال باختبار بَوْل، وانطلق على الفور في عربته الهانسوم الخفيفة، مع شميت إلى شارع بروك. وقال الخادم يائساً شاكياً، بينما كانت العربة تجري: «أما الاستياء الكثير فقد عانى منه. لقد عذبوه حتى الموت، هؤلاء المغنون وأهل الأصوات المخصيَّة، هؤلاء المتزلّفون والعيّابون، وكل مجموعة الديدان المُقْرِفة. لقد كتب أربع أوبرات في هذا العام، لكي ينقذ المسرح غير أن الآخرين يختبئون وراء النساء والبلاط، على أن الإيطالي يجعلهم مجانين قبل كل من عداه، هذا الخصيُّ الملعون، هذا العيّاب الزعّاق، المتشنج. ويلاه، ماذا صنعوا بصاحبنا هِيندل الطيب! لقد بذل كل مدخراته، عشرة آلاف جنيه، والآن يعذبونه بقسائم الديون، ويستحثونه حتى الموت، ولم يسبق لرجل قط أن أنجز شيئاً رائعاً كهذا، ولا تفانى كل هذا التفاني مثله، ألا إن مثل هذا لخليق أن يحطِّم عملاقاً، آه! يا له من رجل! يا له من عبقري». وكان الدكتور جينكينز يصغي ببرود، مخلداً إلى الصمت. وقبل أن يدخلا المنزل جرّ عربته جرّة أخرى، ثم نفض الرماد عن الغليون. «كم يبلغ سنه؟»

وأجاب شميت قائلاً: «اثنين وخمسين عاماً»

«سنّ سيئة، لقد ظل يكدح كَدْح الثور، غير أنه في مثل قوة الثور، والآن سوف نرى ماذا نستطيع أن نفعل»

ومدّ الخادم يده بالطست، ورفع كريستوف شميت ذراع هيندلِ، ونقر الطبيب الشريان الآن، فانبعث تيار من الدم، أحمر، قانٍ، ساخن، وفي اللحظة التالية انبعثت تنهُّدة الارتياح من بين الشفتين المضمومتين. وتنفس هيندِل تنفساً عميقاً وفتح عينيه، وكانتا متعبتين بعد، وغريبتين، غير واعيتين، وكان البريق فيهما قد خبا.

وضمّد الطبيب الذراع، وما عاد ثمة كثير مما ينبغي عمله، وكان قد همَّ أن ينهض قائماً، حين لاحظ أن شفتي هيندل تتحركان. ودنا منه، كان خافتاً للغاية، مثل تنفُّس فحسب، وقال يحشرج: «لقد انتهيت... انتهت حياتي... ما عاد ثمة قوة... ولا أريد أن أعيش من دون قوة...» وانحنى الدكتور جينكينز فوقه انحناءة أشد انخفاضاً، ولاحظ أن إحدى عينيه، وهي اليمنى، كانت تنظر نظرة جامدة، وأن الأخرى كانت تنطوي على حيوية. وعلى سبيل التجربة رفع الذراع اليمنى فسقطت عائدة إلى مكانها كالميتة، ثم رفع اليسرى، وظلت اليسرى في الوضع الجديد، والآن بات الدكتور جينكينز يعرف المعرفة الكافية.

وحين كان قد غادر الحجرة تبعه شميت إلى الدَّرج، خائفاً، مشوَّش الذهن، وقال: «ما الأمر؟»

«سكتة دماغية. لقد بات الجانب الأيمن مشلولاً»

«وهل تراه - وتعثَّرت الكلمة في حلق شميث - «هل ترى أنه سيتماثل للشفاء؟»

وأخذ الدكتور جينكينز نفحة من نشوق التبغ بأسلوب متكلِّف. لم يكن يحب أمثال هذه الأسئلة.

«ربما، كل شيء ممكن»

«وهل يظل مشلولاً؟»

«على الأرجح، إذ لم تحدث معجزة»

ولكن شميت، المتواصل مع الأستاذ بكل شريان في جسده، لم يتوقف عن أسئلته.

«وهل تراه، هل تراه يستطيع على الأقل، أن يعود إلى العمل من جديد؟ فإنه لا يستطيع أن يعيش من دون أن يبدع»

وكان الدكتور جينكينز قد بات واقفاً على السُلّم.

«أما هذا فلن يعود أبداً» وقال ذلك بصوت جد خفيض. «ربما استطعنا أن نحافظ على حياة الرجل، أما الموسيقيّ فقد خسرناه. لقد وصلت الضربة إلى الدماغ»

وكان شميت يحملق فيه، وكان يتجلى في نظرته يأس هائل للغاية، حتى لقد شعر الطبيب بالصدمة، وقال مكرِّراً: «كما قلت، إذ لم تحدث معجزة، إذْ لم يحدث لي بعدُ أن رأيت معجزة بالطبع»

ويظل جورج فريدريش هيندِل يعيش أربعة أشهر من دون طاقة، وقد كانت الطاقة حياته. وظل النصف الأيمن من جسده ميتاً، ولم يستطع أن يمشي، ولم يكن يستطيع أن يكتب، ولا أن يجعل إصبعاً واحداً يَرن بيمناه، ولم يكن يستطيع الحديث، وكانت شفته تتدلى منحرفة من الصدع الرَهيب الذي سرى خلال جسده، ولم تكن الكلمة تنبجس من فمه إلاّ مع تأتأة وفأفأة، وبصوت مكبوت، وكان الأصدقاء إذا عزفوا له الموسيقا سرى شيء من النور في عينيه، ثم تحرك الجسد الثقيل الذي لم يكن يتمكن من نفسه، شأن مريض يحلُم، كان يريد أن يشارك في الإيقاع، ولكن كان ثمة صقيع كامن في أوصاله، وجمود قاس، وما عادت الأوتار والعضلات يطاوعْنه، وبات الرجل الذي كان فيما سلف عملاقاً يشعر أنه محجور عليه كأنه في قبر غير مرئي، لا يملك لنفسه حيلة، ولا تكاد الموسيقا تنتهي حتى يسقط جفناه في تثاقل، وإذا هو يعود إلى الرقاد كأنه جثة، وأخيراً أشار الطبيب، بدافع الحرج - إذ كان الأستاذ غير قابل للشفاء كما هو ظاهر للعيان - بإرسال المريض إلى حمامات آخن الحارة، فربَّا عادت عليه بشيء من التحسُّن.

ولكن كانت تعيش تحت ذلك الغلاف الجامد، على نحو مماثل لتلك المياه الحارة الحافلة بالأسرار، تحت الأرض، طاقة لا سبيل إلى إدراكها: إنها إرادة هيندل، الطاقة الأصلية في كيانه، وكانت الضربة المدمِّرة لم تمسسها بسوء، وكانت تريد أن لا تدع الخالد بعدُ يفنى في الجسد الفاني. وما زال الرجل العملاق لا يسلِّم بالهزيمة، وما زال يريد، وما زال يريد أن يعيش، يريد أن يبدع، وقد حققت هذه الإرادة الأعجوبة خلافاً لقانون الطبيعة. وفي آخن كان الأطباء يحذرونه تحذير المُلِحّ، من البقاء أكثر من ثلاث ساعات في الماء الحار، إذ كان قلبه خَليقاً ألاّ يطيق ذلك، وقد يقتله هذا. ولكن الإرادة تجرَّأت على الموت من أجل الحياة، من أجل أشد مُتَعه جموحاً: من أجل التماثل للشفاء. وكان هيندل يظل تسع ساعات في كل يوم في الحمام الحار مما كان يثير فزع الأطباء، ومع توافر الإرادة تنامت الطاقة عنده، فبعد أسبوع بات في وسعه أن يجرّ خطاه من جديد، وبعد أسبوعين بات في وسعه أن يحرِّك ذراعه، وكان من قبيل انتصار الإرادة الهائل والثقة بالنفس أنه انتزع نفسه من أحبولة الموت التي تبعث الشلل، ليشتمل على الحياة، وكان أكثر حرارة ولهيباً من أي وقت مضى، مصحوباً بذلك الإسعاد الذي لا يوصف، والذي لا يعرفه إلاّ من بَرِئَ وتماثل للشفاء.

وفي اليوم التالي، وكان قد غدا متمكِّناً من جسده كل التمكُّن، إذ كان عليه أن يعمل، من آخن، وتوقف هيندل أمام الكنيسة. لم يسبق له قط أنْ كان من أهل التقوى على وجه الخصوص، ولكن الآن، إذ كان يخطو في مشية حرة رُدَّت إليه من باب الرحمة والإنعام، صاعداً، إلى السوق، حيث كانت تنتصب آلة الأرغن، كان يشعر أن شيئاً لا يُسْبَر

غوره كان يدفعه، وحرّك أصابع الآلة بيسراه مجرِّباً، فصدحت، وصدحت بصوت رائق وصافٍ عبر قاعة الانتظار، والآن جرّب اليمنى متردداً، وهي التي ظلت زمناً طويلاً منقبضة وجامدة، وإذا الإيقاع يتواثب تحتها، هي أيضاً كينبوع من الفضة. وشيئاً فشيئاً شرع في العزف، والتخيُّل، وجرفه هذا معه في التدفق الكبير. وعلى نحو رائع كانت تتراكم وتبني نفسها فيما هو غير مرئي، الرباعياتُ الصادحة، وعلى نحو رائع، مرة أخرى، كانت ترتفع المباني الهوائية في عبقريته، بغير ظِل، نحو الأعالي، وكان سطوع لا جوهر فيه، ونور صادح، وفي الأسفل كانت الراهبات والأتقياء يصغون. لم يسبق لهم قط أن سمعوا أحداً من أبناء الأرض يعزف مثل هذا العزف. وكان هيندل يعزف ويعزف، خافض الهامة في خشوع. كان قد عثر من جديد على لغته التي كان يتحدث بها إلى الله، وإلى الأبدية، وإلى البشر، وبات في وسعه أن يعزف من جديد، وبات في وسعه أن يبدع من جديد. الآن فحسب يشعر أنه برئ من المرض.

وقال مزهُواً بنفسه: «لقد عدتُ من العالم الآخر»، وقد انشرح صدره العريض، ومدَّ ذراعيه القويتين، قال هذا جورج فريدريش هيندل الطبيب اللُّندني الذي لم يكن له بدٌّ أن تتولاه الدهشة من المعجزة الطبية، وبكل الطاقة، وبحُمَيّا العمل المتأجِّجة عنده، ألقى المتماثل للشفاء بنفسه، مرة أخرى، في خضمّ العمل، من دون مماطلة وبرغبة مضاعفة. وكانت متعة الكفاح القديمة قد عادت تستحوذ على ابن الثلاثة والخمسين مجدَّداً، فهو يكتب أوبرا - وتطاوعه اليد المتماثلة للشفاء مطاوعة رائعة - وأوبرا ثانية، وثالثة، ويكتب الموشحات الدينية الكبرى «شاؤول» و«يعقوب في مصر» و«القطعة السريعة للغاية - epeniera-

so» وكأنما كان ينبجس من ينبوع طال تخزينه كثيراً، فما عاد ينضب، المتعةُ الخلاقة متصاعدة. غير أن الزمن معاكس له، وذلك أن موت الملكة يقطع عمليات الإخراج، ثم تبدأ الحرب الإسبانية، ويحتشد الجمهور في الميادين العامة، في كل يوم، يهتفون ويغنّون، ولكن المسرح يظل خالياً، وتتراكم الديون، ثم يحل الشتاء القاسي، فيهبط على لندن ذلك البرد الذي يبلغ منه أن نهر التايمز يتجمَّد، وتجري الزحافات فوق السطح الذي يعكس الضوء كالمرآة بجلاجل ذات صليل، وتظل مغلقةً خلال هذا الزمن العصيب كل الصالات، إذ لم يكن ثمة موسيقا ملائكية تتحدى مثل هذا الصقيع القاسي في القاعات، ثم انتاب المغنين المرض، ولم يكن بدّ من إلغاء تقديمٍ بعد آخر، ويزداد وضع هيندل المعسر، على نحو مطرد، ويلحّ عليه الدائنون، ويسخر منه النقاد، ويظل الجمهور غير مُبالٍ، وصامتاً، وشيئاً فشيئاً تنهار جرأة ذلك الذي كان يصارع يائساً، وكان تقديم عرض على شكل حفلة خيرية قد أنقذه للتوّ من برج الديون، ولكن ياله من عار، أن يشتري المرء حياته متسوِّلاً ويظل هيندل يزداد انعزالاً على نحو مطرد، وتزداد نفسه تجهُّماً باطراد. ألم تكن إصابة الجانب الواحد من جسده بالشلل أفضل من إصابة نفسه كلها الآن بالشلل؟ ومنذ عام ١٧٤٠ يشعر هيندل مجدَّداً بأنه رجل مريض الجناح، مهزوم، وأن مجده السالف خَبَثٌ ورماد. وبشق النفس يستجمع بعدُ، من أعمال سابقة له، بعض المقطوعات، وفي بعض الأحيان يبدع بعدُ أعمالاً أقل شأناً، ولكن التدفُّق الكبير نضب معينه، وأدبرت الطاقة الأصيلة في الجسد الذي عاد سليماً معافى من جديد، ويشعر لأول مرة بالتعب، هذا الرجل العملاق، ولأول مرة يشعر المناضل الرائع بالهزيمة، ولأول مرة يشعر بأن النهر

المقدس، نهر متعة الإبداع قد توقف عن الجريان ونضب معينه، ويشعر المبدع منذ خمسة وثلاثين عاماً، بعالم يطمسه الطوفان. لقد انتهت المسألة، مرة أخرى، وهو يعلم، أو يحسَب أنه يعلم، ذلك اليائس كل اليأس، أنها النهاية، إلى الأبد، ويقول متنهِّداً: «لماذا بعثني الله من مرضي إذا كان البشر يدفنونني من جديد؟ لقد كان خيراً لي أن أموت، بدلاً من أن أُوَلِّي الأدبار حَبْواً في البرد، في خواء هذا العالم. وكان، في غمرة غضبه يغمغم أحياناً بكلمة ذلك الذي كان معلَّقاً على الصليب: «رباه، رباه! لماذا تخلَّيْتَ عني؟»

ويتيه هيندِل مساءً في لندن، جيئة وذهاباً، رجلاً مضيَّعاً، غير مؤمن بطاقته، وربما غير مؤمن بربه أيضاً، في تلك الأشهر، ولا يجرؤ على الخروج من المنزل إلاّ في ساعة متأخرة، لأن الدائنين ينتظرونه بأوراق ديونهم أمام الباب في النهار، ليمسكوا به، وفي الشارع تشمئز منه عيون البشر، اللامبالية والمزدرية، وفي بعض الأحيان يفكر قائلاً ألا ينبغي له أن يهرب إلى إيرلندة، حيث ما زال القوم يؤمنون بمجده - ويلاه، إنهم لا يعرفون كم تحطمت الطاقة في جسده -، أو إلى ألمانيا، إلى إيطاليا، فربما يذوب الصقيع الداخلي خارجاً من قارَّة الروح المخرَّبة، كلاَّ، إنه لا يطيق أن لا يتمكن من إبداع هذا الشيء الواحد، أو إحداثه، لا يحتمل أن يكون جورج فريدريش هيندِل مهزوماً. وفي بعض الأحيان يظل واقفاً أمام كنيسة، غير أنه من عرف السكر الرفيع، سكر الإبداع الروحي والنقي أثارت اشمئزازه الخمر الرديئة في الماء المقطَّر، وفي بعض الأحيان يحملق من جسر التايمز إلى أسفل، في التدفق الصامت المتشح بسواد الليل، قائلاً في نفسه أوليس من الأفضل أن ينفض عن نفسه كل

شيء بدفعة واحدة قائمة على التصميم! كل شيء إلاّ أن يحتمل المرء بعدُ عبءَ هذا الفراغ، كل شيء إلاّ الفزع من الوحدة وهجران الرب والبشر له.

وعاد من جديد، يتيه هنا وهناك، ليالي بطولها، وكان يوماً قائظاً يستعر حرارة، من أيام آب. هذا اليوم الذي صادف الحادي والعشرين من آب ١٧٤١، وكانت السماء تخيِّم على الأرض مثل معدن مصهور، ببخار وهواء ساخن ثقيل على لندن، ولم يخرج هيندل إلاّ في الليل، ليتنفس الهواء قليلاً في جرين بارك، وهناك، في ظل الأشجار الذي لا يُسْبَر غوره، حيث لم يكن في وسع أحد أن يراه، ولا أن يعذبه، كان قد قعد متعَباً، لأن هذا الإرهاق كان يجثم على كاهله الآن مثلما يجثم المرض، وليتحدث عن التعب، ويكتب عنه، ويعزف عنه، ويفكر فيه، ويشعر به، ويعيشه، وإلاّ ففيم التعب، ومن أجل مَنْ؟ ثم عاد إلى بيته في الشارع، مثل السكران، على طول شارع بول مول، وشارع القديس جيمس، لا تدفعه إلى ذلك إلاّ الفكرة الوحيدة التي استحوذت عليه: أن ينام وينام، وأن لا يعرف بعد شيئاً، أن يستريح فحسب، أن يقرّ قراره، وأفضل ذلك ما يكون إلى الأبد. وفي منزل شارع بروك ما عاد ثمة أحد يقظان. ورويداً، رويداً، ربّاه، لكم كان متعباً، ولكم استحثوه حتى بلغ من تعبه ما بلغ، هؤلاء البشر - وارتقى السلم الخشبي صاعداً، وكان الخشب يَصِرُّ مع كل خطوة من خطواته الثقيلة. وأخيراً بات في الحجرة! وأشعل القدّاحة ثم أشعل الشمعة على منصة الكتابة، وفعل ذلك من دون تفكير، بصورة آلية، كما ظل يفعله سنين، ليجلس إلى العمل، إذ كان يعود في تلك الأيام من كل نزهة بلحن، أو موضوع، وانبثقت تنهُّدة على شفته على غير إرادة منه، وكان يسجلها دائماً بعد ذلك على عجل،

لكيلا يضيِّع ما تفتَّق عنه فكره في النوم. أما الآن فكانت المائدة خالية، لم يكن هناك ورقة نوطة. وكانت عجلة الطاحونة المقدسة ساكنة في خضم النهر المتجمِّد، ولم يكن هناك شيء يبدأ فيه، ولا شيء يفرغ منه. كانت المائدة خاوية.

ولكن كلاَّ: إنها ليست خاوية! ألم يكن يضيء هناك، وفي المربع الساطع، شيء وَرَقيٌّ، وأبيض؟ ومدَّ هيندل يده إليه، وكان طرداً، وأحس بأن ثمة شيئاً مكتوباً فيه. وفضَّ الخاتم على عجل. كان ثمة رسالة في أعلاه، رسالة من يينين، الشاعر، الذي كتب له النص من أجل «شاؤول» و«يعقوب في مصر»، وكتب يقول إنه يرسل إليه بشعر جديد ويأمل أن يتفضَّل عبقري الموسيقا الرفيع المقام، وأبو الهول الموسيقي، بأن يشمل كلماته البائسة برعايته، وأن يحملها على جناحيه، عبر الأثير، أثير الخلود.

وانتفض هيندل غاضباً، كأنما مسَّه شيء مثير للاشمئزاز. أيريد هذا الفتى جيننز أن يتهكم عليه أيضاً، عليه، هو الذي مات. عليه، هو المشلول؟ ومزَّق الرسالة بجرَّةٍ واحدة، وألقى بها إلى الأرض مكوَّرة بجُمْعِ يده وداس عليها وقال مزمجراً «رقيع، وغد!» لقد طعنه هذا الأخرق في أعمق جروحه وأكثرها استعاراً، وفتح الجرح حتى المرارة، وبلغ إلى المرارة الأشد مرارة على الإطلاق في نفسه، ثم نفخ على الضوء فأطفأه، غاضباً، وجعل يتلمس الخطى داخلاً حجرة نومه، في ارتباك، وألقى بنفسه في المهجع: وانبثقت الدموع فجأة من عينيه، وجعل الجسد كله يرتعد من جراء غضبه لعجزه. ويلٌ لهذا العالم الذي ما زال المسلوب يتعرض من قبله للسخرية منه والتهكم عليه، ويتعرَّض المُعاني فيه للتعذيب! لماذا يظلون ينادون باسمه ما دام قلبه تجمَّد، وسُلِب الطاقة،

ولماذا يظلون بعدُ يطلبونه من أجل عمل، ما دامت نفسه قد شُلّت، وباتت حواسه مسلوبة الطاقة؟ الآن لا شيء إلاّ النوم، النوم العميق المتبلد شأن البهيمة، النسيان فحسب، الكفُّ عن الوجود فحسب! وكان يرقد ثقيلاً في مهجعه، هذا الرجل المشوّش، الضائع.

غير أن لم يستطع أن ينام، إذ كان يخالجه اضطراب، قد أثاره الغضب، كما تثير العاصفة البحر، وكان اضطراباً خبيثاً وحافلاً بالأسرار، وكان يلقي بنفسه من اليسار إلى اليمين، ومن اليمين إلى اليسار، من جديد، وكان يزداد يقظة شيئاً فشيئاً على نحو مطرد. ألا ينبغي له أن ينهض قائماً، ويختبر كلمات النص؟ كلاّ. فأي إمكانية كان في وسع الكلمة أن تمارسها بعدُ عليه، وهو الذي مات وانقرض! كلاّ، لم يكن هناك بعدُ عزاء له، هو الذي تركه الله يسقط في الأعماق، والذي انفصل عن تيار الحياة المقدس! ومع ذلك فما زال ثمة نبض يبثُّ طاقةً فيه، في فضول حافل بالأسرار، ولم يكن في وسع عجزه أن يغالبها، ونهض هيندل، وعاد إلى حجرته، وأشعل النور بيدين ترتعدان من الانفعال. ألم يسبق لأعجوبة ذات مرة أن نهضت به من شلل الجسد؟ ربما كان الرب يعرف أيضاً طاقة الروح الشافية وعزاءها، وأدنى هيندل الشمعة من الأوراق المكتوبة. كان مكتوباً على الصفحة الأولى «المسيح المنتظر». واعجباً، إنها موشحة، مرة أخرى! لقد أخفقت الموشحات الأخيرة، غير أنه قَلَب الصفحة، على ما كان يخالجه من الاضطراب، وبدأ.

ولم يلبث أن تولاّه الغضب عند الكلمة الأولى، إذ يبدأ النص المكتوب بعبارة: «فلتَتَعَزَّ!» - لقد كانت هذه الكلمة مثل ساحر - كلاّ، بل إنها لم تكن كلمة، بل كانت جواباً، صادراً عن الله، نداءً ملائكياً

صادراً من سماء تُغَشّيها السحب، في قلبه الذي فقد الثقة بنفسه. «فلتتعَزَّ!» كيف كان وَقْعُ هذا، وكيف أيقظ الروح الذي استحوذ عليه الوجل من سباته، من الداخل، إنها كلمة مبدِعة، خلاّقة، ولم يكد هيندل يقرؤها، ويتحسَّسُها، حتى سمعها موسيقا، تسبح في تجاوب الألحان، منادية، هَفْهافة، مغنِّية. أيتها السعادة، لقد كانت الأبواب مشرعة، وأحسَّ أنه بات يسمع من جديد، في الموسيقا!

وارتعدت يداه، وهو يقلّب الآن صفحة وراء صفحة. أجل، لقد كان مبعوثاً، يُنادى عليه. كانت كل كلمة تبلغ منه مبلغها بقوة لا تُقاوَم. «كذلك يقول الرب!» ألَم يكن هذا يقال له، وله وحده؟ ألم تكن هذه هي اليد ذاتها التي طرحته أرضاً، والتي ترفعه الآن، مُباركاً، عن الأرض؟ «ولسوف يطهِّرك» - أجل، هذا ما حدث له، لقد تمَّ، دفعةً واحدة، إخراج التجهُّم والانقباض من قلبه، وكان الإشراق قد اقتحم القلب، ومعه النقاء البلّوري الماثل في النور الصادح. ومَنْ غيرُه كان قد دفع مثل هذه القوة الرافعة للكلمة في ريشة جِينِن البائس، هذا الذي ينظم الشعر في جوبسال، إن لم يكن هو الرب نفسه، الذي يطلع على محنته هو وحده؟ («لكي يقدموا التضحيات إلى الرب») - أجل إنه إيقاد لهيب التضحية من القلب المستعر، لكي يصل بشعلته إلى عنان السماء، وهو تقديم الجواب عن هذا النداء الرائع. لقد قيل هذا له، له وحده «فلتتهف بكلمتك، بقوة» - آه، الهتاف بهذا، الهتاف بعنفوان الأبواق الهادرة، والجوقة الصاخبة، وبجلجلة الأرغن، لكي تبعث الكلمة، اللوغوس المقدس، البشر، جميعاً، الآخرين، الذين كانوا يسيرون في الظلام يائسين «وما زال الظلام يغشى الأرض، وما زالوا لم يطلعوا على سعادة

الخلاص، التي تهيَّأت له في هذه الساعة، ولم يكد يقرأ هذا حتى جاشت نفسه وراءه، مكتملَ الصياغة، نداءُ الشكر «مستشاري الرائع، الإله العلي القدير» - أجل، هكذا فَلْنُثْنِ عليه، الرائع، الذي يعرف النصح والعمل، هو الذي وهب السلام للقلب المشوَّش! «لأن ملاك الرب تقدم منهم - أجل، لقد هبط بجناح فضي، في القاعة، ولامسه، وخَلّصه، فأنىّ له أن لا يشكر هنا، وأنىّ له ألا يهتف هتاف الفرحة الطاغية، ويهلّل بألف صوت، بصوته الواحد والخاص، وكيف لا يغني ويُثْني: «المجد لله!»

ومال هيندل برأسه فوق الأوراق كأنما يحني رأسه لعاصفة كبيرة، كانت كل مظاهر التعب قد وَلَّت وأدبرت، ولم يسبق له قط أن شعر بطاقته على هذا النحو، ولم يسبق له قط، ولم يسبق له بعدُ أن أحس أنه مشبع بكل متعة الإبداع، وكانت الكلمات تنهال عليه كأنها دَفْقاتٌ من الضوء الدافئ، الذي يحرِّر ويخلِّص، وكلٌّ منها موجَّه إلى قلبه، يناشده، ويحرِّره! «فَلْتَقَرَّ عيناً» - بينما كان غناء هذه الجوقة ينفتح كأنما يخرج من صَدْع جدار، رائعاً، ورفع رأسه على غير إرادة منه، وتوتَّر الذراعان بعيدةً كل منهما عن الأخرى. «إنه المُعين الحقيقيّ» - أجل، هذا ما أراد أن يشهد به، كما لم يسبق لأحد من أهل الأرض أن فعل ذلك، وهَمَّ أن يرفع شهادته لتكون لوحة تشرق بنورها على العالم، ولا يعرف إلاّ من عانى كثيراً، السرورَ، ولا يحس إلاّ المُمْتَحَن، المُبْتَلى، بالفضيلة الأخيرة الكامنة في الإنعام، ومن حقه أن يشهد أمام الناس على الانبعاث، من أجل الموت الذي شهده. وحين قرأ هيندل هذه الكلمات «كان يلقى الازدراء» عاد إلى ذهنه تذكُّر ثقيل، في إيقاع غامض جاثم بشقله، متبدِّل. لقد حسبوا أنهم هزموه، وحسبوا أنهم دفنوا جسده الحي، ولاحقوه

بالتـهكُّم - «وهم الذين إذ يرونه، يضـحكون» - كـانوا يضـحكون إذ يرونه. وهنالك لم يكن ثمة أحد يقدم إلى الصابر العزاء». ولم يسعفه أحد، ولم يعزِّه أحد في عجزه، إلاّ الطاقة العجيبة «كان يثق بالله»، وإذا الله لا يدعه ثاوياً في قبره - «ولكنك لم تترك روحه في الجحيم - »، «كلاّ، لم تترك روحه في الجحيم» كلاّ، لم يدع الله روحه في قبر يأسه، ولا في جحيم عجزه، عجز امرئ مقيد، متوارٍ، كلاّ، بل بعثه، مرة أخرى، لكي يحمل رسالة البِشْر والبهجة إلى البشر. («ارفعوا رؤوسكم») - كما كان هذا يتدفق صادحاً، منه، إنه أمر الإعلان الكبير! وفجأة عرته رعدة، إذ كان يوجد هنا، مكتوباً بقلم البائس جينين (Jen-nenes): «وقال الله الكلمة».

وانحبس نَفَسُه. لقد قيلت هنا الحقيقة عن طريق فم إنسان كيفما اتفق: كان الله بعث إليه بالكلمة، وكانت الكلمة قد تنزّلت إليه من عَلُ. «وقال الله الكلمة»: منه جاءت الكلمة، ومنه جاء الجَرْس، ومنه جاءت النعمة! وإليه لابد أن تعود، وإليه لابد أن ترتفع من فيض القلب، وكان التغنّي بمدحه متعة كل مبدع وواجبه.

أوّاه! إن ما يُمْسك، ويقيم الأوَد، ويرفع، ويهزُّ، هو الكلمة، وإنها لتوسّع وتمدِّد، وتبعث التوتُّر حتى يتسع الشيء فكأنه العالم، وحتى إن الكلمة لتشتمل على كل هتاف الوجود، فيكْبُر كالإله الموجود. ربّاه! إنه تبديل الكلمة الفانية، الصائرة إلى الزوال، عن طريق الجمال واللهيب الداخلي، اللانهائي، وإعادتها إلى الخلود! وإذا هي مكتوبة هنا، وهنا صَدَحَت الكلمة، قابلةً للتكرار إلى ما لا نهاية له، وقابلة للتبديل، وهنا كانت: «هللويا! هللويا!». أجل، إنها لتلخّص كل أصوات هذه الأرض

فيها، الحادة والمكبوتة، صوت الرجل الذي يصرُّ صريراً، وصوت المرأة الليِّن المستجيب، وتملؤها وتصعِّدها، وتبدِّلها، وتقيِّدُها، وتحلُّها في جوقة إيقاعية، وتتركها تتصاعد، وتترك سُلَّم ياكوب للأصوات، يهبط شيئاً فشيئاً، وتهدِّئه بقوس الكمنجات الحلو، وتشعله بصدمة البوق الحادة، وتتركه يجيش ويصطخب في هدير الأرغن: هللويا! هللويا! هللويا. إنه إبداع هتاف من هذه الكلمة ومن هذا الشكر الذي كان يرجع عائداً بهديره ليصل إلى خالق الكون!

وغشيت الدموع عيني هيندل، وكان اللهيب الداخلي قد اندفع فيه اندفاعاً بالغ الهول وكان ما زال ثمة أوراق يجب قراءتها، هي القسم الثالث من الموشَّحة، ولكن بعد هذه «الهللويا، هللويا» ما عاد في وسعه أن يتابع القراءة، وكان هذا الهتاف المغتبط المُزَغْرد، يملؤه تماماً من وجهة الموسيقا الغنائية، وكان هذا يتمدَّد ويتوتَّر، وقد بات يؤلم مثل نار سائلة، كان النهر يهمُّ أن ينساب متسرِّباً، أوّاه، لكم كان يضيق ويزدحم به المكان، لأنه كان يريد أن يخرج منه، كان يريد أن يعرج إلى السماء ويعود أدراجه إليها، وبادر هيندل إلى ريشته على عجل، ودَوَّن نوطات. وبسرعة سحرية كانت تتشكل علامات فوق علامات. ولم يكن في وسعه أن يتوقف، كان الموقف يجترفه إلى الأمام فإلى الإمام، وكان الليل حواليه ساكناً، وكان الظلام الرطب جاثماً على المدينة الكبيرة في صمت، ولكن النور كان يتدفق في داخله وكانت الحجرة تهدر فيها موسيقا الكون هديراً غير مسموع.

وحين دخل الخادم في الصباح التالي، مُحاذراً كان هيندل مازال يقعد إلى منصة العمل، ويكتب، ولم يجب، حين سأله مساعده الثاني،

الشاب كريستوف شميت، بوجل، هل تراه يمكن أن يساعده في النسخ، ولم يزد على أن «دَمْدَم بصوت مكبوت يوحي بالخطورة». وما عاد أحد يجرؤ على الاقتراب منه، ولم يغادر الحجرة في هذه الأسابيع الثلاثة، وحين جاؤوه بالطعام، فَتَّ بيده اليسرى، على عجل، بضع من فتات الخبز، بينما كانت اليمنى تواصل الكتابة. وذلك لأنه ما عاد في وسعه أن يتوقف، وكان قد حلَّ به ما يشبه السُّكْرَ الكبير، وكان إذا نهض قائماً وسار في الحجرة جيئة وذهاباً، وهو يترنَّم ويوقِّع الألحان، نظرت عيناه نظرة غريبة. وكانوا إذا خاطبوه تولاه الفزع، وكان جوابه غير مستيقن ومختلطاً كل الاختلاط. ومرَّت بالخادم في هذه الأثناء أيام صعبة، وكان يأتي الدائنون ليستوفوا قسائم ديونهم. وكان يأتي المغنون يلتمسون منه مقطوعة غنائية ليوم العيد، وكان يأتي السعاة يدعون هيندل إلى القصر الملكي، ولم يكن بدٌّ للخادم أن يردَّهم جميعاً لأنه كان إذا حاول أن يتوجه إلى ذلك العامل المأخوذ بالحماسة، بمجرد كلمة، ثارت في وجهة غضبة المستثار كالأسد. كان جورج فريدريش هيندل ما عاد يعرف في تلك الأسابيع شيئاً عن الزمن والساعة، بل كان يحيا حياة كاملةً في ذلك الجوّ، وما عاد الزمن يقاس إلاّ بالنغم والإيقاع، وما عاد يموج صدره ويجيش إلاّ مأخوذاً بالحماسة للتدفُّق الذي ينبجس منه على نحو يزداد جموحاً ويزداد إقبالاً واندفاعاً كلما ازداد العمل اقتراباً من سرعة التيار المقدسة، من النهاية. وكان لا يزيد، دائماً، وهو حبيس ذاته وأسيرها، على أن يجتاز، بخطوات إيقاعية، السجن الذي أنشأه لنفسه بنفسه، سجن الحجرة، وكان يغني، ويلجأ إلى البيانو القديم (السيحبالو) ثم يجلس، ويكتب ويكتب، حتى تشتعل أصابعه، ولم يسبق

له قطُّ في حياته أن غلب عليه مثل هذا الانقضاض للإبداع، ولم يسبق له قطّ أن عاش حياة كهذه الحياة، وعانى مثل هذه المعاناة في الموسيقا.

وأخيراً، وبعد ثلاثة أسابيع مقتضبة - لا يمكن إدراك كنهها حتى اليوم، ولا في الأبد! - أي في الرابع عشر من أيلول، كان قد تم الفراغ من العمل، وكانت الكلمة قد أصبحت لحناً، وازدهر وصَدَح، ازدهاراً لا يعتريه ذبول، ما كان بعدُ جافاً، مجدباً، وكانت أعجوبة الإرادة قد أُنجِزت من قبل الروح الذي اتقد، مثلما أُنْجزَت، فيما سلف، من قبل الجسد المشلول، أعجوبة الانبعاث. وكل شيء كان مكتوباً، قد تم إنشاؤه وصياغته، باللحن والارتقاء - إلاّ أنّ ثمة كلمة كانت ما تزال تُفْتَقَد، وهي الكلمة الأخيرة في العمل: «آمين». ولكن هذين المقطعين الصوتيَّيْن المقتضبين، المتلاحقين، إنما صاغهما لبعض الأصوات ولبعضها الآخر في الجوقة المتبدِّلة، وكان يمدِّدهما، يمدِّد كلا المقطعين، ويظل أبداً ينتزع أحدهما من الآخر، ليظل، مرةً بعد أخرى، يصهرهما من جديد، وعلى نحو أكثر التهاباً بعد، وكان لهيبه الداخلي يسري مثل أنفاس الرب في هذه الكلمة الواقعة في نهاية النَغَم من دعائه الكبير، حتى إنه ليغدو واسعاً كالعالم ومترعاً بفيضه. هذه الكلمة الواحدة، هذه الكلمة الأخيرة، ولم تفارقه، ولم يتخلَّ عنها، وكان يبني هذه الكلمة «آمين» وَصْلة رائعة من حرف المدّ الأول وحرف (A) ذي الرنين والدويّ، الذي هو النغم الأصلي في البداية، إلى أن بات كاتدرائيةً أخرى، وصاعداً من جديد، وأخيراً تستحوذ عليه عاصفة الأرغن، وقد طَوَّح به في الأعالي عنفوانُ الأصوات المتحدة، مالئاً كل الأجواء، حتى باتت المسألة كأن الملائكة أيضاً تشارك في أغنية النصر والشكر هذه (المزجاة إلى أبولّو)،

وكأن قطع الخشب يتناثرن شظايا على هاماتها من هذه الكلمة الخالدة «آمين! آمين! آمين!».

ونهض هيندل مُجْهداً، وسقطت الريشة من يده. لم يكن يعرف أين كان، وما عاد يرى، ولا عاد يسمع، وما عاد يحس إلاّ بالتعب، التعب الذي لا يُسْبَر غوره، ولم يكن له بد أن يتماسك بالاعتماد على الجدران، فسار مترنحاً، وكانت الطاقة قد زايلته، وبات الجسد متعباً حتى الموت، وحواسُّه مضطربة مشوَّشة، وكان يتحسس طريقه كالكفيف على طول الجدار. ثم سقط على السرير، ونام كالميت.

وكان الخادم قد قرع الجرس ثلاث مرات على مدى فترة ما قبل الظهيرة، قرعاً خفيضاً. وكان الأستاذ ما زال نائماً، بغير حَراك، وكان وجهه المستغلق يبدو كأنما نُحِتَ من الحجر الأصفر الشاحب. وعند الظهر حاول الخادم مرة رابعة أن يوقظه، وتنحنح بصوتٍ عالٍ، وقرع قرعاً مسموعاً، ولكن لم يتسرب صوت، ولا وصلت كلمة إليه في عمق هذا النوم الذي لا يسبر غوره. وجاء كريستوف شميت بعد الظهر لبذل المعونة، وما زال هيندل راقداً في هذا الجمود، وانحنى فوق النائم، الذي كان مثل بطل ميت في ميدان الجهاد بعد إحراز النصر، هكذا كان يرقد، مُنْهَك القوى من التعب بعد عمل لا يوصف. ولكن كريستوف شميث والخادم لم يكونا يعرفان العمل والنصر، ولم يخطر ببالهما إلا الفزع، إذ رأياه راقداً طوال هذا الوقت، لا يبدي حراكاً، إلى حد رهيب، وخشيا أن تكون سكتة قد حطمته مراراً، وحين أبى هيندل أن يستيقظ في المساء بعدُ على الرغم من كل الهزِّ - وكان قد ظل راقداً سبع عشرة ساعة في هذه الحالة من العمق والجمود، جرى كريستوف شميت مرة أخرى إلى

الطبيب، فلم يجده على الفور، لأن الدكتور جينكينز كان قد ذهب إلى ضفة التايمز، مستغلاً الأمسية اللطيفة في صيد السمك، ودمدم متذمراً إذ عثر عليه أخيراً، من الإزعاج غير المستحب، ولم يُلَمْلِم حبله وآلة صيده إلاّ حين علم أن المسألة من أجل هيندِل، وجاء بأوائله الجراحية - وانقضى كثير من الوقت - لإجراء عملية الفصد الشرياني الضرورية على الأرجح، وأخيراً سار الجواد سَيْر الخَبَبَ بكلَيْهما إلى شارع بروك.

ولكن كان هنا الخادم يلوِّح لهما بكلتا ذراعيه من ضفة الشارع الأخرى، وصاح بهما، وما زال في الطرف الثاني من الشارع، قائلاً: «والآن يأكل قدرَ ما يأكل ستة من الحمّالين. لقد ابتلع نصف الفخذ اليوركشايري دفعة واحدة، ولم يكن لي بد أن أملأ له نصف غالون من البيرة ويظل يريد المزيد منها».

وهذا ما كان بالفعل، إذ كان هيندل يجلس مثل ملك الفاصولياء(*) أمام المائدة التي تغص بالمآكل، ومثلما نام في ليلة ونهار نومة ثلاثة أسابيع، كان يأكل الآن ويشرب بكل استمتاع وعنفوان في جسده العملاق، وكأنه كان يريد أن يستدعي من جديد، مرة أخرى، دفعة واحدة، ما أنفقه من طاقة على عمله، ولم يكد يبصر الدكتور حتى شرع في الضحك، وتحول الضحك، شيئاً فشيئاً إلى ضحك هائل، مُجَلْجِل، مُرْعِد، (hyperbolisch)، وتذكر شميت أنه لم ير ابتسامة حول شفتي هيندل في كل هذه الأسابيع، بل لم يَرَ إلاّ التوتر والغضب، والآن ينفجر السرور غلاّباً. هذا السرور الأصيل المختزن في طبيعته، وكان يجلجل

* - من التقاليد الشعبية وليمة فطائر الفاصولياء وملك الفاصولياء هو الذي يجد في فطائره حبوب الفاصولياء . (المترجم) .

كالطوفان في وجه الصخر، وكان يزبد. ويتحوَّل إلى أصوات متدحرجة، ولم يضحك هيندلِ في حياته ضحكاً عفوياً كهذا الذي ضحِكَه الآن، إذ أبصر الطبيبَ في الساعة الذي عرف فيها أنه سليم معافى كما لم يكن من قبلُ أبداً، وكانت متعة الحياة تنساب متدفقة في أوصاله. ورفع الإبريق عالياً ولوَّح به لذلك المتشح بالسواد يحييه. وقال الدكتور جينكينز، وقد تولاّه العجب: فليذهب بي هذا أو ذاك، ما هي الحكاية معك؟ وأيّ إكسير شربت؟ إنك لتنفجر من الضحك! ماذا دهاك؟»

ونظر إليه هيندل، وهو يضحك، وعيناه تتوهجان، ثم أخذ يتَّسم بسمة الجد شيئاً فشيئاً. ونهض قائماً ببطء وخطا نحو البيانو القديم، وجلس إليه، وكانت يداه تسيران أول الأمر خاويتين فوق الأصابع. ثم التفت، وابتسم ابتسامة غريبة، ثم شرع بصوت خفيض، بين الحديث العادي والغناء، في لحن نشيد («اسمعوا، سوف أبوح بسرّ») - وكانت هذه هي الكلمات المأخوذة من «المسيح المنتظر» وكانت قد بُدِئ بها بداية هزلية مازحة. ولكن لم يكد يغوص بأصابعه في الهواء حتى اجتذبه معه. وكان هيندل ينسى، في غمرة العزفِ، الآخرين، وينسى نفسه، إذ كان تياره الخاص يجرفه على نحو رائع. وفجأة بات في غمار عمله، فأخذ يغني، ويعزف أناشيد الجوقة الأخيرة التي لم يكن يصوغها حتى الآن إلاّ في الحلم: أمّا الآن فقد بات يسمعها وهو يقظان للمرة الأولى (أيها الموت، أين شوكتك)، وكان يشعر في قرارة نفسه أنه قد أُشْرِبَ من ناريّة الحياة. وبات يرفع الصوت بدرجة أقوى، حتى صوت الجوقة، الهاتف المهلِّل، الصائح المغتبط، وراح يواصل العزف بعدُ، ويعزف، ويغنّي، حتى وصل إلى عبارة «آمين، آمين، آمين»، وأوشك أن يتحطّم

المكان من جراء الأصوات. فبمثل هذه القوة، وبمثل هذا العنفوان كان يزج بطاقته في خضم الموسيقا.

وكان الدكتور جينكينز يقف كالمصعوق، وحين نهض هيندل أخيراً، قال في حرج، مُعْجَباً، لمجرد أن يقول شيئاً: «يا رجل، أنا لم أسمع شيئاً كهذا قطُّ من قبل. إن العفريت ليستكنُّ في جسدك».

ولكن هنالك تجهّم وجه هيندل، وكان هو أيضاً قد تولاّه الفزع حيال هذا العمل، وحيال النعمة التي هبطت عليه مثلما يأتي المرءَ آتٍ في المنام، وكان هو أيضاً يشعر بالخجل، فأعرض بوجهه، وقال بصوت خفيض لا يكاد الآخرون يستطيعون سماعه: «بل أعتقد، بالأحرى، أن الله كان معي».

وبعد بضعة شهور قَرَعَ باب المنزل المستأجَر في شارع آبي سيِّدان في هندام حسن، وكان الضيف النبيل القادم من لندن، الأستاذ الكبير هيندل، قد اتخذ مسكناً في دوبلن، وتقدما بالتماسهما باحترام شديد، قائلَيْن إن هيندل قد أدخل البهجة في هذه الشهور في عاصمة إيرلندة بأعمال بالغة الروعة لا يُسْمَع مثلُها أبداً هنا في هذه البلاد، وقالا إنهما قد سمعا الآن أنه يعتزم أيضاً عرض موشَّحه الجديد «المسيح المنتظر» أول مرة هنا، وقالا إنه لشرف ليس بالقليل أن يولي هذه المدينة على وجه الخصوص، وقبل لندن أيضاً، شرف تقديم أحدث إبداعٍ له، وإنه بالنظر إلى التميُّز الفائق لتلك الحفلة الموسيقية فإنه يمكن للمرء أن يتوقع عائداً خصوصياً، وقالا إنهما جاءا يسألان ألا يريد الأستاذ، بشهامته الفائقة الشهرة، أن يوجِّه هذا العائد من ذلك العرض الأول للمؤسسات الخيرية التي يتشرفان بتمثيلها.

ونظر هيندل إليهما بمودة، فهو يحب هذه المدينة، لأنها وهبت له الحب، وكان قلبه مفتوحاً، وقال إنه يسره أن يوافق على ذلك، وقال وهو يبتسم إن في وسعهما أن يقولا فحسب ما هي المؤسسات التي يفترض أن يعود إليها الدخل». وقال الأول: «مؤسسات مؤازرة المساجين في السجون المختلفة»، وكان هذا رجلاً طيب القلب، أبيض الشعر، وأضاف الآخر قائلاً: «وللمرضى في مستشفى مرسيير»، ولكن من البدهي أن هذا التقديم يتعلق بدخل العرض الأول فحسب، بينما تبقى الدخول الأخرى للأستاذ.

ولكن هيندل قال معارضاً، بصوت خفيض: «كلاً، لا مال لقاء هذا العمل، لن آخذ أبداً مالاً لقاء هذا، ولن آخذه أبداً في أي يوم من الأيام، أبداً، فأنا هنا مدين لامرئ آخر، وينبغي أن يظل المال أبداً يعود إلى المرضى والمساجين، لأنني كنت أنا نفسي مريضاً، وأنا الذي شفيت بذلك، وقد كنت سجيناً، وقد حررني هذا».

ورفع كلا الرجلين طرفهما وقد تولاهما شيء من العجب، ولم يفهما كل الفهم، ولكنهما شكرا له بعد ذلك كل الشكر وانحنيا تحية له، ومضيا لينشرا الرسالة السارة في دبلن.

وفي السابع من نيسان ١٧٤٢ كان قد تمَّ أخيراً تحديد موعد التجربة الأخيرة، ولم يسمح بالدخول إلاّ لقلائل من أقرباء مغني الجوقة، من كلتا الكاتدرائيتين، للاستماع، ولم يضيؤوا قاعة الموسيقا في شارع فيش أمبل إلاّ إضاءة ضعيفة، بقصد التوفير، وكان الحاضرون يجلسون فرادى ومتناثرين، فزوجٌ هنا، ومجموعة هناك، على المقاعد الطويلة الخالية، ليستمعوا إلى العمل الجديد للأستاذ القادم من لندن، وكان

القاعة الفسيحة يشيع فيها جو ضبابي مظلم وبارد. ولكن حدث شيء غريب يلفت النظر، فلم تكد الجوقات التي تضاهي الشلالات الصادحة، تنهمر عاصفتها حتى تدانت المجموعات المتفرقة على المقاعد الطويلة بعضها من بعض، وتكتّلت، شيئاً فشيئاً لتشكل كتلة واحدة مظلمة، للاستماع والاندهاش، إذ كان كلٌّ يخَيَّل إليه أنَّ عنفوان هذه الموسيقا التي لم تُسْمَع من قبل أبداً، بالنسبة إليه، وهو الفرد، أكثر من أن تجترفه وتطوف به وتكتسحه، وكانوا يزدادون، على نحو مطرد، تزاحماً، بعضهم على بعض، وكان الأمر كما لو أنهم يريدون أن يتلقوا بقلب واحد، وبحكم كونهم رهطاً واحداً، يتسم بالتقوى، كلمةَ الثقة والطمأنينة، التي كانت عاصفتها تنبعث نحوهم بهديرها، إذ تتم صياغتها على نحو مختلف في كل مرة، من الأصوات المتشابكة المتداخلة. وكان كلٌّ منهم يشعر بضعفه حيال هذه القوة الأصيلة، ويشعر، مع ذلك، بالسعادة والغبطة، إذ تستحوذ عليه وتحمله. وسرت في أوصالهم جميعاً رعدة من المتعة كأنما تسري في جسد واحد، وحين أرعد نشيد «الهلّلويا» أول مرة ارتفع بهم إلى خالِق، وارتفعوا معه جميعاً كأنما بدفعة واحدة، وكانوا يشعرون أن المرء لا يستطيع أن يلتصق بالأرض، وحين استحوذت عليهم هذه القوة نهضوا قائمين، بأصواتهم، أقرب إلى الله شبراً، وليقدموا إليه خشوعهم، عابدين له، ثم ذهبوا وتحدثوا، من باب إلى باب، قائلين إن عملاً من أعمال الموسيقا قد تم إبداعه لم يجر إبداع مثله أبداً على وجه البسيطة، وتتزلزل المدينة بأسرها من التوتر والسرور بالاستماع إلى هذه المأثرة.

وبعد ستة أيام، في الثالث عشر من نيسان، مساءً كان الجمهور

يحتشد أمام الأبواب، وكانت السيدات قد أقبلن من دون أثواب فضفاضة، والفرسان من دون رماح ليتمكن مزيدٌ من المستعمين من العثور على مكان في القاعة، وكانوا سبعمائة نسمة، وهو رقم لم يتحقق بلوغه أبداً، يتدافعون مقبلين عليها، وبهذه السرعة كانت شهرة هذا العمل قد انتشرت سلفاً، ولكن لم يكن يُسْمَع نَفَس حين بدأت الموسيقا وكان الإصغاء يزداد سكوناً وخلواً من اللَّغط على نحو مطرد، ولكن الجوقات انهالت بعد ذلك، وكان عنفواناً بركانياً، وأخذت القلوب في الارتعاد. وكان هيندل واقفاً لدى الأرغن، كان يريد أن يسهر على عمله ويقوده، غير أنه انتزع نفسه منه، وضاع فيه، وبات الأمر غريباً عليه كأنْ لم يسمعه أبداً، ولا أبدعه، ولا شَكَّله، ولطالما كان يتدفَّق مشاركاً في تياره الخاص. وحين بدأت كلمة (آمين) في النهاية، انفتحت شفتاه وهو لا يدري، وشارك في الغناء مع الجوقة، وغنى كما لم يسبق له أن غنى أبداً في حياته. ولكن بعد ذلك، ولم يكد هتاف الآخرين يملأ القاعة بزمجرته، تسلَّل مُنْتَحِياً جانباً بهدوء، لكيلا يشكر للناس الذين كانوا يريدون أن يشكروا له هذا العمل، بل ليشكر الرحمة التي وهبت له هذا العمل.

وكانت الأمطار قد هطلت، وبات النهر الكبير الصاخب يتدفق الآن على مدى السنين والسنين مرة أخرى، وما عاد شيء يقدر منذ الآن فصاعداً على أن يحني هامة هيندل، وما عاد شيء يقدر على أن يقهر القائم على قدميه من جديد، وتعرَّضت شركة الأوبرا التي أسسها في لندن، للإفلاس مراراً، وطارده الدائنون مراراً بالديون، غير أنه كان يقف الآن منتصب القامة، وصمد لكل الظروف المعاكسة، وكان ابن الستين يخطو في طريقه ماراً بالصُّوى التي تفضي إلى الأعمال غير عابئ

بشيء، وكانوا يثيرون في وجهه الصعوبات، غير أنه كان يعرف كيف يهزمها مكلّلاً بالمجد، وكانت السِن تطحن طاقته طحناً وتستنفدها، وشُلّت ذراعاه، وكان النقرس يُشَنِّج ساقيه، غير أنه كان يواصل الإبداع ويبدع بروح لا يعتريها الكلل. وأخيراً خذله ضوء عينيه، فبينما كان يكتب عمله «ييفتا» كُفَّ بصره، ومع ذلك واصل الإبداع وواصل، بعينين موصدتين، مثلما كان يفعل بيتهوفن بأذنه الموصَدة، لا يعتريه الكلل، ولا يمكن إلحاق الهزيمة به، وكان لا يزداد إلاّ خضوعاً بين يدي ربه كلما ازدادت انتصاراته على الأرض روعة.

وكما هو شأن كل الفنانين الحقيقيين، الصارمين، لم يكن يفخر بأعماله هو، غير أنه كان يُؤْثِر واحداً منها بالحب، وهو «المسيح المنتظر، إذ أحب هذا العمل بدافع الامتنان لأنه أنقذه من هاويته الخاصة، ولأنه يخلِّص فيه نفسه، وظل يعزفه في لندن عاماً بعد عام، ويحصل في كل مرة على العائد الكامل، محوِّلاً، في كل مرة خمسمائة جنيه لصالح المستشفى، إسداءَ المتماثل للشفاء إلى العاجزين المهيضي الجناح، والمتحرر، إلى أولئك الذين ما زالوا يرسفون في الأغلال، وبهذا العمل الذي خرج به من العالم الآخر، كان يريد أن يودِّع أيضاً. وفي السادس من نيسان، عام ١٧٥٩، وكان قد أَلَمَّ به داء عضال، أوعز ابن الرابعة والسبعين بأن يؤخذ، مرة أخرى إلى دير كوفينت جاردن، على المنصة العالية. وهناك وقف، الرجل العملاق، الضرير، وسط أصدقائه الخُلّص، وبين الموسيقيين والمغنين، ولم يكن في وسع عينيه الخاويتين، المنطفئتين، أن تراهم، ولكن حين دَرَجَت إليه الآن أمواج الألحان، في حُمَيّا عظيمة، عاصفة هادرة، وحين فاض نحوه تهليل اليقين كالإعصار صادراً عن

مئات الأصوات، هنالك أشرق الوجه المتعَب، واستنار، ومدَّ ذراعيه يواكب الإيقاع، وشارك في الغناء بجد وإيمان بالغين، وكأنه يقف وقفة الكاهن عند رأس تابوته هو، وصلّى مع الحضور جميعاً من أجل خلاصه وخلاصهم جميعاً، ولم يختلج إلاّ مرة واحدة، حين شرعت المزامير في الغرف بحدة عند نداء «فليصدح البوق»، ونظر بعينيه الجامدتين إلى الأعلى، وكأنه بات منذ الآن على أهبة الاستعداد ليوم الحساب. كان يعرف أنه قد أحسن أداء عمله، ولم يكن في وسعه أن يتقدم بين يدي الرب مرفوع الهامة.

وقاد الأصدقاء الضرير إلى منزله، متأثِّرين، وكانوا، هم أيضاً، يشعرون: أنه كان وداعاً. وعلى السرير كان ما يزال يحرك شفتيه بصوت خفيض، وكان يغمغم قائلاً إنه يود أن يموت في يوم الجمعة الحزينة، ودُهِش الأطباء، ولم يفهموا، إذ لم يكونوا يعرفون أن يوم الجمعة الحزينة هذا كان يصادف يوم الثالث عشر من نيسان، اليوم الذي طرحته اليد الثقيلة فيه أرضاً، واليوم الذي تردد فيه أول مرة صدى «مسيحه المنتظر» في أرجاء العالم. ففي اليوم الذي كان كل شيء فيه قد مات، بُعِث إلى الحياة، وفي اليوم الذي بُعِثَ فيه كان يريد أن يموت، ليحظى باليقين، يقين الانبعاث إلى الحياة الأبدية.

وبالفعل كانت هذه الإرادة الوحيدة مازالت تتمتع بسلطان على الموت أيضاً مثلما كانت تتمتع بسلطان على الحياة. ففي الثالث عشر من نيسان فارقت هيندل قواه، فما عاد يرى شيئاً، وما عاد يسمع شيئاً، وبات الجسد الضخم راقداً، في الوسادة بغير حراك، قوقعةً خاوية ثقيلة. ولكن مثلما يدوّي هزيم المحارة من صخب البحر وجَيَشانه، كانت موسيقا

ينبعث صخبها في الداخل انبعاثاً غير مسموع، أغربَ، وأروعَ مما سمعه في أي يوم من الأيام. ورويداً رويداً كانت الروح تحلُّ عُرى فيضها المتزاحم الدفَّاق عن الجسد المتعب، لتحمله إلى أعلى، وتدخل به إلى ما لا وزن له. طوفاناً في طوفان، وجَرْساً خالداً في الجو الخالد. وفي اليوم التالي، وكانت أجراس عيد الفصح لمّا تستيقظ بعد، مات آخر الأمر، وولّى، ما كان فانياً في جورج فريدريش هيندِل.

عبقرية ليلة

مؤلف نشيد المارسيليز، ٢٥ نيسان، ١٧٩٢

العام عام ١٧٩٢، وما هو إلاّ شهران، أو ثلاثة، ويتأرجح في الجمعية الوطنية الفرنسية، قرار الحسم: الحرب على ائتلاف الأباطرة والملوك، أو السلام، ولويس السادس عشر ذاته لم يحزم أمره، فهو يحس بخطر انتصار للثوريين، ويحسّ بخطر هزيمتهم، على أن الأحزاب أيضاً غير مستيقنة. أمّا الجيرونديون فيلحّون على الحرب ليحتفظوا بالسلطة. وأما روبسبير واليعاقبة فيقاتلون من أجل السلام لينتزعوا السلطة لأنفسهم في هذه الأثناء، ويزداد الوضع توتُّراً من يوم إلى آخر، وتَصْخَب الصحف، وتتناقش بها على نحو مطرد. وكما يكون دائماً في حالة قرار الحسم، الذي يعد نوعاً من التحرير؛ يعلن ملك فرنسا، في العشرين من نيسان، أخيراً، الحرب على امبراطورية النمسا وملك بروسيا.

وفي هذه الأسابيع كان التوتر الكهربائي يجثم على باريس ثقيلاً ومشوِّشاً للنفوس، ولكن الاستثارة في مدن الحدود كانت تتسم بمزيد من الحرارة الباعثة على الاختناق؛ وبمزيد من الضغط والتهديد. وكانت القوات قد احتشدت في كل المعسكرات الخارجية، وفي كل قرية، وفي كل مدينة، كان يجري تجهيز المتطوِّعين وأفراد الحرس الوطني، ويجري

في كل مكان إصلاح التحصينات، ويعرف الناس في الإلزاس على وجه الخصوص، أن الحسم الأول سيقع على تراب وطنهم، كما هو الحال دائماً بين فرنسا وألمانيا. وعلى ضفاف الراين يوجد العدو، والخصم، ليس، كما هو الحال في باريس، مفهوماً عائماً، عاطفياً - بلاغياً، بل حضوراً مرئياً، محسوساً: لأن المرأ يستطيع، عند رأس الجسر المحصَّن، أن يتبيّن كتائب البروسيين الزاحفة بالعين المجردة، من برج الكاتدرائية، وفي الليل تحمل الريح أصوات عربات المدفعية المعادية وهي تدرُج، وصليل السلاح، والإشارات بالنفير فوق النهر الكبير الذي يلتمع غير مبالٍ في ضوء القمر. والناس كلهم يعرفون: لا حاجة إلاّ إلى كلمة واحدة، إلى مرسوم واحد، وينطلق من الفم الصامت للمدافع البروسية، الرعدُ والبرق، وقد بدأ قتال الألف عام بين ألمانيا وفرنسا مراراً - هذه المرة باسم الحرية الجديدة من ناحية أولى، وباسم النظام القديم من الناحية الأخرى.

ومن أجل ذلك كان يوماً لا يُضاهى، إذ يأتي السُّعاة على ظهور الخيل، في الخامس والعشرين من نيسان عام ١٧٩٢ بخبر إعلان الحرب، من باريس إلى شتراسبورج. وعلى الفور يتدفق من كل الأزقة والبيوت، الشعبُ على الميادين المكشوفة، وتزحف الحامية بأكملها وهي على أهبة الاستعداد للحرب، للاستعراض الأخير، كتيبة بعد كتيبة. وفي الميدان الرئيسي ينتظرها العمدة ديتريش، والوشاح المثلث الألوان حول جسده، وعلى قبعته الشارة التي يلوِّح بها للجنود يحيّيهم، ويتولى النداءُ بالبوق، ودقات الطبول، التذكيرَ بوجوب التزام السكون. وبصوت عالٍ يتلو ديتريش، في هذا الميدان وفي كل الميادين الأخرى في المدينة، بالفرنسية والألمانية، نصَّ إعلان الحرب. وتفيد كلماته الأخيرة أن

موسيقيي الكتائب يترنّمون بنشيد الحرب الأول، المؤقت، الثوري، نشيد «Ca ira» وهو في الحقيقة لحن راقص تهكُّمي، يدغدغ الحواسّ، ويتسم بالمجون، غير أن الخطوات المرعدة، ذات الصليل، خطوات الكتائب التي خرجت تزحف، تضفي عليه إيقاعاً عسكرياً، ثم «يتفرَّق الجمهور، وهو يحمل الحماسة التي تم إيقادها إلى كل الأزقة والبيوت، وفي المقاهي والنوادي تُلقى كلمات لاهبة، وتوزّع إعلانات ونداءات. «إلى السلاح، أيها المواطنون! وفي كل الأحاديث، وفي كل الصحف، وعلى كل ملصقات الجدران، وعلى كل الشفاه، تتكرر أمثال هذه النداءات الإيقاعية، ذات السطوة والشوكة، مثل: «إلى السلاح، أيها المواطنون! فليرتجف الطغاة المتوَّجون! ولنزحف، يا أبناء الحرية» وفي كل مرة يهتف الجمهور يهتف مهلّلاً للكلمات النارية.

ويظل الجمهور الغفير يهتف مهلّلاً في الشوارع والميادين عند إعلان الحرب، ولكن تظل تتحرك في أمثال هذه اللحظات من هتاف الشوارع أصوات أيضاً، أصوات أكثر خفوتاً، وجانبية، كما ينبعث الخوف، وكذلك يستيقظ القلق، إلا أنه يهمس بالسرّ في الحجرات، أو يخلد إلى الصمت بشفتين شاحبتين. فهناك إلى الأبد أمهات يقلن في أنفسهن: ألن يقتل الجنود الأجانب أطفالي، وفي كل البلدان يوجد الفلاحون الذين يحرصون على متاعهم، وحقولهم، وأكواخهم، ومواشيهم، ومحصولهم. ألن توطأ بالأقدام بذورهم، ألن تنهب دارهم من قبل الهمج المتوحشين، ألن تسمَّد بالدم حقول عملهم؟ ولكن عمدة شتراسبورغ، فريدريش بارون ديتريش، وهو في الحقيقة أرستقراطي، ولكنه متفان بكل روحه، في خدمة قضية الحرية الجديدة، شأن الأرستقراطية المثلى في تلك الأيام، لا يريد أن

تكون الكلمة إلا للأصوات العالية، الأصوات الرنّانة، المعبرة عن الثقة والطمأنينة، ويحولّ عن وعي وقصد، يوم إعلان الحرب، إلى عيد عام، ويهرع، والوشاح يلفّ صدره، من مؤتمر إلى آخر، يستصرخ السكان، ويوعز بتوزيع الخمر والطعام على الجند الزاحفين، وفي المساء يجمع في منزله الفسيح، في ميدان دي بروغلي، الجنرالات، والضباط، وأهمّ الشخصيات الرسمية، إلى مأدبة وداع، تضفي عليها الحماسة بصورة مسبقة، سمة مأدبة الاحتفال بالنصر، ويترأس القادة، وهم الواثقون من النصر، شأن القادة دائماً، صغار الضباط الذين يرون في الحرب معنى حياتهم وقد تحقق، ويتمتعون بحرية الكلمة. ويهتف الواحد منهم للآخر مشجّعاً، ويستلون السيوف، ويتعانقون، ويشرب بعضهم أنخاب بعض، ويلقون، مع الخمر الجيدة، خطباً وجدانية حماسية تزداد حماسة على نحو مطرد، وتظل تتردد الكلمات الحافزة ذاتها، كلمات الصحف، والنداءات، في كل الخطب: «هيا إلى السلاح، أيها المواطنون، فلنزحف! ولننقذ الوطن! وعما قريب سوف يرتجفون، هؤلاء الطغاة المتوّجون. والآن إذا انتشرت راية النصر، أقبل اليوم الذي تُنشر، فيه الراية المثلثة الألوان على العالم! ولابدّ لكل امرئ أن يبذل أفضل ما في وسعه، من أجل الملك، من أجل العَلَم، من أجل الحرية، الشعب كله، والبلاد كلها، تريد في أمثال هذه اللحظات أن تغدو وحدة مقدسة، بالإيمان بالنصر، وبالحماسة لقضية الحرية.

وفجأة، وفي غمرة الخُطَب وشرب الأنخاب، يلتفت العمدة ديتريش إلى نقيب شاب من فيلق الحصن، يدعى روجيه، كان يقعد إلى جانبه، وقد تذكّر أن هذا الضابط اللطيف، الذي ليس بالوسيم على وجه

الخصوص، ولكنه متعاطف، قد كتب، قبل نصف عام، بمناسبة إعلان الدستور، نشيداً جميلاً حقاً، نشيداً إلى الحرية لحّنه على الفور موسيقيّ الكتيبة، بلاييّل، وتبين أن هذا العمل المتواضع قابل للإنشاد، وكانت الفرقة الموسيقية العسكرية قد تعلّمته، وعزفوه في الساحة العامة وأنشدوه بالجوقة. أوَ لم يكن الآن إعلان الحرب والزحف العسكري يشكلان حافزاً متاحاً لإخراج احتفال مماثل؟ وكذلك يسأل العمدة ديتريش، بلهجة فاترة مسترخية تماماً، مثلما يلتمس المرء، على أية حال من أحد معارفه الطيّبين، إسداء معروف، يسأل الكابتن روجيه: (الذي أضفى على اسمه بأسلوب خالٍ من أي وجه حق تماماً، لقب النبالة، وصار يسمي نفسه دي ليسْل - ألا يعتزم أن يلاحظ الحافز الوطني، وينظم شيئاً من الشعر للقوات الزاحفة، نشيداً حربياً لجيش الراين الذي يفترض أن يخرج غداً للقاء العدو.

أما روجيه، وهو رجل متواضع، غير ذي أهمية، لا يرى نفسه أبداً مؤلفاً موسيقياً كبيراً - إذ لم تطبع أشعاره أبداً، وكانت أوبراته تلقى الرفض - فيعلم أن من السهل أن تنساب من قلمه أشعار المناسبات، ولكي يحظى بمرضاة الشخصية الرسمية والصديق الطيب، يعلن استعداده، أجل، إنه يريد أن يحاول ذلك، ويقول جنرال يقعد قبالته، وهو يشرب نخبه: «أحسنت، يا روجيه»، ويذكِّره بوجوب إرسال هذا النشيد فوراً إلى الميدان، لأن من الممكن أن يحتاج جيش الراين بالفعل إلى نشيد زحف وطني، يُجنّح خطاه، كائناً ما كان. وفي هذه الأثناء يشرع آخر في إلقاء كلمة، وتُشرب الأنخاب مرة أخرى، وتكون جلبة، وشراب، وفي موجة عاتية تتجاوز الحماسة العامة والحوار المصغّر الذي يحدث

بطريق المصادفة، إطار الحماسة العامة، وتزداد المأدبة وجداً، وتزداد الأصوات ارتفاعاً وعصفاً على نحو مطرد، ويكون الوقت قد تخطى، إلى حد بعيد، ساعة متأخرة بعد منتصف الليل، حين يغادر الأضياف منزل العمدة.

في ساعة متأخرة بعد منتصف الليل، ويوم الخامس والعشرين من نيسان، وهو يوم إعلان الحرب المثير بالنسبة لشتراسبورج، قد مضى، وقد بدأ السادس والعشرون من نيسان، وظلام الليل يخيّم على المنازل، ولكن هذا الظلام خدّاع، لأن المدينة ما زالت محمومة من الاستثارة، وفي الثكنات يتجهّز الجند للخروج، وربما كان بعض المحاذرين وراء الحوانيت الموصدة قد تجهز سراً للهرب. وفي الشوارع تسير طوابير متفرقة من المدفعيين، وفيما بين ذلك تمرق حوافر خيل السعاة التي تضرب الأرض بنعالها، ثم يعود طابور ثقيل من المدفعية، بصليل سلاحه مقبلاً. ويظل يتردد، المرة بعد الأخرى، على نحو رتيب، نداء الحرس من موقع إلى موقع. لقد بات العدو مفرطاً في القرب، وباتت النفوس في المدينة مفرطة في انعدام الثقة والطمأنينة والاستثارة، حتى إنها ما عادت تجد النوم في مثل هذه اللحظة الحاسمة.

وكذلك يشعر روجيه الذي يصعد الآن إلى حجرته الصغيرة المتواضعة، في شارع جراند ١٢٦ على السلم المستدير، يشعر بالاستثارة على نحو يلفت النظر. ولم ينس وعده أن يحاول بأسرع ما يمكنه، أن ينظم نشيد زحف، نشيداً حربياً، لجيش الراين. ويظل يروح ويجيء مقلقلاً في حجرته الضيقة، وهو يضرب الأرض بقدميه، كيف أبدأ؟ كيف أبدأ؟ وما زالت تطنّ في أذنيه كل نداءات الإعلانات التي تؤجج نيران

الحماسة، ونداءات الخطب، وتخطر بباله الأنخاب مختلطاً بعضها ببعض في ذهنه: إلى السلاح، أيها المواطنون!... فلنزحف، يا أبناء الحرية!... ولنسحق الطغيان!... لقد انتشرت راية الحرية!...» غير أنه يتذكر أيضاً الكلمات الأخرى التي يسمعها حين مروره، وأصوات النساء اللواتي يرتعدن من الخوف على أبنائهن، وقلق الفلاحين من أن توطأ بالأقدام حقول فرنسا، وتسمّد بالدماء من قبل الفصائل الأجنبية. وفي حالةٍ بين الوعي واللاوعي يكتب السطرين الأوّلين اللذين ليسا سوى التجاوب والصدى والتكرار لتلك الصيحات.

فلنذهب، يا أبناء الوطن،

فقد أقبل يوم المجد!

ثم يُمسك، ويتردد. هذه بدايةٌ حسنة، والآن ما هو إلا العثور على الإيقاع الصحيح فحسب، على اللحن الملائم للكلمات، ويتناول كمنجته من الخزانة، ويجرب، ويا للعجب: فمنذ الإيقاعين الأولين، ينسجم الإيقاع كل الانسجام مع الكلمات. ويواصل الكتابة على عجل، وقد بات الآن محمولاً من قبل الطاقة التي سرت فيه، وجرفته معها، ويتدفق كل شيء بعضه مع بعض، دفعة واحدة: كل المشاعر التي يتم تفريغ شحنتها في هذه الساعة، وكل الكلمات التي سمعها في المأدبة، والكراهية للطغاة، والخوف على تراب الوطن، والثقة بالنصر وحب الحرية. وروجيه ليس في حاجة على الإطلاق لأن ينظم الشعر، ويخترع، لا يحتاج إلاّ إلى أن ينظم في القوافي، وأن يضع الكلمات في الإيقاع الجارف للحنه، وهي الكلمات التي كان يتم تناقلها اليوم، في هذا اليوم الوحيد، من فم إلى

فم، وقد عبَّر عن كل شيء، وأفصح عن كل شيء، وترنّم بكل ما كانت الأمة تحس به في أعمق أعماق روحها، وهو لا يحتاج إلى التركيب الموسيقى، لأن إيقاع الشارع والساعة كان يتسرّب من خلال مصاريع النوافذ الموصدة، هذا الإيقاع الخاص بالعناد والتحدي، الذي يكمن في خطوة زحف الجنود ودويّ الأبواق، وقعقعة المدافع، وربما لم يكن هو يسمعه بنفسه، لم يكن يسمعه بأذنه هو، الأذن اليقظى، ولكن عبقرية الساعة التي اتخذت مستقراً لها في جسده الفاني خلال هذه الليلة الوحيدة، تناهى هذا الإيقاع إلى مسمعها. ويظل اللحن يزداد على نحو مطّرد، مطاوعة للإيقاع الذي يضرب كالمطرقة، ويهتف ويهلل، والذي هو نبض شعب بأسره، ويكتب روجيه الكلمات والنوطات وكأنه يتلقى إملاءً من طرف آخر، على عجل، وبسرعة تزداد على نحو مطرد، فقد ألمَّت به عاصفة، لم يسبق لروحه المحدودة الضيقة المدنية أن اخترقتها بدويِّها عاصفةٌ مثلها، وكان إفراطاً وحماسة، ليسا إفراطه ولا حماسته، إذ كانا قوة سحرية، قد تكوّرت وتجمعت في ثانية انفجارية وحيدة، تجرف المسكين، غير الخبير، بما يربو بمئات ألوف الأضعاف على مستواه الخاص، وتقذف به مثل صاروخ - مدة ثانية من النور واللهيب المشرق - الذي يصل إلى النجوم. لقد أتيحت ليلة للملازم الكابتن روجيه دي ليسل، ليغدو واحداً من إخوة الخالدين: فمن النداءات المنقولة من الشارع ونداءات البداية المستعارة من الصحف تتشكل له كلمة إبداعية، وترتقي هذه إلى شطرة بيت، تعدّ، في صياغتها الشعرية، خالدة، مثلما يعد اللحن خالداً.

الحب المقدس للوطن،
يوجّه، ويساند، أذرعنا المنتقمة!
أيتها الحرية، الحرية العزيزة،
هلاّ قاتلتِ مع المدافعين عنك!
Amour sacré de la patrie,
Conduis, soutiens nos bras vengeurs,
Liberté, liberté cherie,
Combast avec tes defenseurs!

ثم يأتي شطر آخر، هو الأخير، وتتم صياغته من استشارة واحدة، وفي قالب واحد، يربط كلمة اللحن ربطاً كاملاً، ويكتمل النشيد الخالد حتى قبل انبلاج الصباح، ويطفئ روجيه النور، ويلقي بنفسه على سريره. على أن ثمة شيئاً ما، كان ارتقى به إلى إشراق في حواسه لم يشعر به قطّ، وثمة شيء ما، كائناً ما كان، يطرحه الآن أرضاً، في حالة استنفادٍ للطاقة عميق. وينام نوماً عميقاً جداً يضاهي الموت. وبالفعل كان المبدع، والشاعر، والعبقري، فيه، قد مات، ولكن كان يوجد على المكتب العمل المكتمل، متحرراً من النائم الذي كانت هذه الأعجوبة قد ألّمت به حقاً في السكر المقدس، ولا تكاد توجد مرة ثانية في تاريخ الشعوب قاطبة. أصبح فيها نشيد، بهذه السرعة، وبهذا الاكتمال، كلمةً وموسيقا في وقتٍ معاً.

وها هي ذي أجراس منستر ذاتها تنبئ، كشأنها دائماً، عن الصباح الجديد، وتحمل الريح من حين إلى آخر، من الراين، بعض الطلقات. لقد

بدأت المناوشات الأولى. ويستيقظ روجيه، وبشقّ النفس يتلمس طريقه للصعود من هاوية نومه، وكان يخالجه شعور غامض بأن شيئاً ما قد حدث، حدث له، لا يتذكره إلا على نحو يشوبه الغموض، وبعد ذلك فحسب يلاحظ على المكتب الورقة المكتوبة حديثاً. أشعار؟ متى كتبت هذه؟ موسيقا بخط يدي أنا؟ متى ألّفت هذا؟ آه، أجل، النشيد الذي التمسه الصديق ديتريش، نشيد الزحف لجيش الراين! ويقرأ روجيه أبياته، ويدندن معها باللحن، غير أنه يشعر، كما يشعر المبدع دائماً بين يدي العمل الذي أبدعه لتوه، أنه يفتقر إلى اليقين كل الافتقار. ولكن كان يسكن إلى جانبه رفيق من كتيبته، يعرضها عليه، وينشدها أمامه. ويبدو الصديق راضياً، ولا يقترح إلاّ بضع تغييرات يسيرة. وبهذا الإقرار الأول يظفر روجيه بثقة معينة. وبكل نفاد الصبر عند كاتب، وباعتداده بنفسه حيال ما أنجز من وعده على جناح السرعة، يقتحم على الفور، على العمدة ديتريش، منزله، وكان هذا يمارس نزهة الصباح في الحديقة، ويفكر في أثناء ذلك في خطبة جديدة. ماذا وراءك يا روجيه؟ أتراك انتهيت؟ إذاً فلنقم بتجربة على الفور. ويخرج كلاهما من الحديقة إلى صالون المنزل، ويجلس ديتريش إلى البيانو، ويعزف اللحن المرافق، وينشد روجيه النص، وتقبل زوجة العمدة إلى الحجرة وقد اجتذبتها موسيقا الصباح غير المنتظرة، وتعد باستنساخ نسخ من النشيد الجديد، وبحكم كونها الموسيقية المتضلعة تَعِدُ بمعالجة اللحن المرافق ليتمكنوا من إنشاده منذ هذه الليلة، في حفلة المساء، لأصدقاء المنزل ضمن أناشيد أخرى شتى، ويتولى العمدة ديتريش، المزهوّ بصوت لحنه الجميل، دراسة

النشيد الآن دراسة أكثر استقصاءاً وعمقاً. وفي السادس والعشرين من نيسان، وفي مساء اليوم ذاته الذي نُظم النشيد في ساعات الصباح منه، وتمّ تلحينه، يتم إنشاده أوّل مرة على مجموعة مختارة بطريق المصادفة في صالون العمدة.

ويبدو أن المستمعين صفقوا استحساناً ومودة، وعلى الأرجح لم يكن الأمر يفتقر إلى طائفة شتى من عبارات الثناء المهذبة على المؤلف الحاضر. ولكن من البدهي أن نزلاء فندق بروغلي في الميدان الكبير لم يخامرهم أدنى إحساس بأن لحناً خالداً قد حطّ بجناحين غير مرئيين في وسط حضورهم الأرضي. وقلّما يدرك المعاصرون لدى الوهلة الأولى عظمة إنسان أو عظمة عمل. أما مدى قلة ما كانت زوجة العمدة تعيه من تلك اللحظة الباعثة للدهشة والعجب، فذلك ما تثبته برسالتها إلى أخيها إذ تبتذل أعجوبة فتنزل بها إلى درك حدثٍ اجتماعي. «أنت تعرف أننا نستقبل في المنزل كثيراً من الناس، وأنه لابدّ للمرء أن يبتكر دائماً شيئاً ما ابتغاء التغيير في التسلية، وهكذا خطرت ببال زوجي فكرة الإيعاز بتلحين نشيد من أناشيد المناسبات، كائناً ما كان، وقام الكابتن فريق الهندسة، روجيه دي ليسل، وهو شاعر محبوب ومؤلف موسيقي، بوضع هذه الموسيقا لنشيد حربي بسرعة بالغة، وقام زوجي، الذي يتمتع بصوتٍ تلحيني جيد، بإنشاد هذه المقطوعة على الفور، وهي جاذبة جداً وتكشف عن تميّز معين، وإنها لمقطوعة مثلى، وأكثر حيوية واحتفالاً بالحياة، وأنا، بدوري، أتمتع بموهبة في التوزيع الموسيقي استعملتها في هذا الصدد، وتوليت ترتيب النوتة الموسيقية من أجل البيانو والآلات الأخرى، حتى لقد بات لديّ كثير مما

يجب عمله، وتمّ عزف المقطوعة عندنا فكان ذلك باعثاً للرضى الكبير عند أهل الحفل بأسرهم».

أما أن يكون هذا باعثاً للرضى الكبير عند أهل الحفل بأسرهم فذلك ما يبدو لنا اليوم بارداً برودة مفاجئة، ولكن الانطباع الودي فحسب، والإقرار الفاتر فحسب، أمران مفهومان، لأن نشيد المارسيلليز لم يتمكن بعدُ من الكشف، لدى هذا التقديم الأول، عن طاقته حقاً، فالمارسيلليز ليس مقطوعة تتلى، من أجل صوت تلحيني باعث للراحة، وليس بالمخصص للإنشاد في صالون موسوم بسمة البرجوازية الصغيرة، وسط الرومانسيات والأغاني الإيطالية المصحوبة بالألحان، مع صوت غنائي منفرد. وذلك أن الأنشودة التي تُسكر بالإيقاعات التي تضرب ضرب المطارق وتجنح، وتُهيب «إلى السلاح، أيها المواطنون» إنما تتوجه إلى جمهور، إلى حشد، وتوزيعها الموسيقي الحقيقي هو الأسلحة ذات القعقعة والصليل، والأبواق التي تحطّم، والكتائب الزاحفة، ولم يكن يقصد بها مستمعون، أناسٌ قاعدون يستمتعون مرتاحين، بل كان يُقصد بها مشاركون في الفعل، مشاركون في القتال، ولم تُغَنَّ بصوت الندي المنفرد (Sopran) ، أو بصوت التينور، بل بصوت الجمهور الذي ينشد بآلاف الحناجر، أنشودة الزحف الأنموذجية، نشيد النصر، ونشيد الموت، ونشيد الوطن، النشيد الوطني لشعب بأسره. ولا يضفي على أنشودة روجيه العنفوان الباعث للحماسة، أوّل ما يضفيها، سوى الحماسة التي وُلدت منها في بادئ الأمر. وما زالت الأنشودة لم تتقد، وما زالت الكلمات، في تجاوبها السحري، واللحن، لما يبلغا روح الأمة، وما زال

الجيش لا يعرف أنشودة زحفه، ونشيد انتصاره، وما زالت الثورة لا تعرف نشيد نصرها الخالد (مرفوعاً إلى أبولو).

وحتى هو نفسه، الذي حدثت له هذه الأعجوبة في ليلة عابرة، أي روجيه دي ليسل، لا يدري، شأن الآخرين، ما قدّم، وهو في حالة السائر في نومه، من عبقرية لا وفاء لها، وما قد أبدع في تلك الليلة الخالدة، وهو يقرّ عيناً بالطبع، من أعماق قلبه، وهو الرجل الطيّب، اللطيف، غير الخبير، بأن الأضياف المدعوين صفقوا له تصفيق الاستحسان الحاد، وأن القوم أثنوا عليه بأسلوب مهذّب، بحكم كونه مؤلِّفاً. ويحاول استغلال هذا النجاح اليسير، بالغرور الضئيل الماثل في إنسان متواضع بسيط، في محيط إقليمه الصغير، بجد ونشاط، فهو يتلو في المقاهي، على رفاقه، اللحن الجديد، ويطلب إعداد نسخ منه، ويبعث بها إلى قادة جيش الراين. وفي هذه الأثناء كانت الفرقة الموسيقية الستراسبورجية قد درست «نشيد الحرب لجيش الراين بأمر من العمدة وبتوصية من الجهات العسكرية، وبعد أربعة أيام، عند زحف القوات، تعزف الفرقة الموسيقية التابعة للحرس الوطني، في الميدان الكبير، نشيد الزحف الجديد، وبأسلوب وطني يعلن الناشر الستراسبورجي أيضاً استعداده لطبع «نشيد الحرية لجيش الراين» الذي يتقدّم، باحترام، للجنرال لوكنر، من قبل مرؤوسه العسكري، ولكن ما من واحد من قادة جيش الراين يفكر في الإيعاز بعزفه أو إنشاده عند الزحف بالفعل، وهكذا يبدو النجاح الصالوني لنشيد «هيا، يا أبناء الوطن» وكأنه يظل نجاح يوم واحد، وشأناً من شؤون الأقاليم والأرياف، ويُنسى بهذا الاعتبار.

ولكن الطاقة الفطرية لعملٍ ما لا يمكن إخفاؤها أبداً على المدى الطويل أو كتمانها. وذلك أن العمل الفني يمكن أن ينساه الزمن، ويمكن أن يحظر ويدفن، غير أن العمل الذي يعود إلى قوة طبيعية عظمى يفرض لنفسه النصر دائماً على ما هو عابر سريع الزوال. ويظل الناس شهراً أو شهرين لا يسمعون شيئاً عن النشيد الحربي لجيش الراين. وتتوافر النسخ المطبوعة والمكتوبة بخط اليد، وتتنقّل هنا وهناك في أيدٍ لا مبالية. ولكن يكفي دائماً أن يثير عمل ما حتى مجرد حماسة إنسان واحد فحسب، حق الإثارة، لأن كل حماسة أصيلة تتحول هي ذاتها إلى حماسة إبداعية. وفي النهاية الأخرى من فرنسا، في مرسيليا، يقيم نادي أصدقاء الدستور، في الثاني والعشرين من حزيران، مأدبة للمتطوعين الزاحفين ويجلس إلى مائدة طويلة خمسمائة فتى، أناس ناريون، في حللهم الرسمية الجديدة، حلل الحرس الوطني، وفي محيطهم تستَعِر، على نحو مماثل بالضبط لما كان في الخامس والعشرين من نيسان من جراء الطبع الجنوبي في أهل مرسيليا، وما عادوا على ذلك الجانب من الغرور في ثقتهم بالنصر كما كانوا في تلك الساعة الأولى من ساعات إعلان الحرب: ذلك لأن المسألة لم تكن كما كان أولئك الجنرالات يلفّقون ويختلقون، قائلين إن القوات الفرنسية زحفت من فورها على الراين، وكانت تُستقبل في كل مكان بأذرع مفتوحة، بل كان العدو، على النقيض من ذلك، قد أوغل إيغالاً عميقاً في الأرض الفرنسية، وتتعرَّض الحرية للتهديد، وتصبح قضية الحرية في خطر.

وفجأة، وفي غمرة المأدبة، يقرع أحدهم، وكان اسمه ميرو، وهو

طالب طب في جامعة مونبلييه، قدحه وينهض. ويصمتون جميعاً وينظرون إليه، ويتوقع القوم خطبة وكلمة، غير أن الفتى يرفع يمناه عالياً، ويشرع في نشيد، نشيد جديد لا يعرفونه، كلهم، ولا يعرف أحد كيف وقع في يده «هيا، يا أبناء الوطن». وهنا تتقد الشرارة وكأن برميلاً في البارود قد سقط. وكان شعور وشعور، القطبان الخالدان يتماسّان. ويحس كل هؤلاء الشباب، الذين يخرجون غداً، والذين يريدون أن يقاتلوا في سبيل الحرية والمستعدون للموت من أجل الوطن، يحسّون أن صميم إرادتهم، وأشد أفكارهم خصوصية يتم التعبير عنه في هذه الكلمات، وبقوة لا تقاوم يرتفع بهم الإيقاع إلى حماسة وجدية ينعقد الإجماع عليها، وينطلق الهتاف والتهليل للشطرات، شطرة فشطرة، ويضطرون إلى تكرار النشيد مرة أخرى، ومرة ثانية، وإذا اللحن قد بات لحنهم، وها هم أولاء ينشدون وقد وثبوا قائمين، ورفعوا الأقداح. يشاركون في الهدير الراعد باللازمة «إلى السلاح، أيها المواطنون! رصّوا كتائبكم!» ويُقبل من الشارع أناس يتدافعون يحدوهم الفضول ليسمعوا ما يجري إنشاده هنا بمثل هذه الحماسة، وإذا هؤلاء أنفسهم يشاركون في الإنشاد، وإذا اللحن في اليوم التالي على شفاه الألوف وعشرات الألوف، وهذه طبعة جديدة تنشره، وعندما ينطلق المتطوعون الخمسمائة في الثاني من تموز، يتنقّل النشيد معهم، فكانوا إذا أصابهم التعب في الطريق الزراعي وتراخت خطواتهم لم يحتج المرء إلا إلى الشروع في النشيد، وإذا إيقاعه الجارف يهب لهم جميعاً عنفواناً متجدداً. وكانوا إذا مرّوا بقرية زاحفين وتجمّع سكانها حولهم مندهشين في فضول يأخذون في

إنشاده بالجوقة. لقد أصبح نشيدهم. وأخذوا بالنشيد من دون أن يعلموا أنه كان مخصصاً لجيش الراين، ومن دون أن يدروا مَنْ نظمه، ومتى نظمه، وبات نشيد كتائبهم وعقيدة يعيشون عليها ويموتون، وهو ينتمي إليهم شأن العَلَم وهم يريدون أن يرفعوه على العالم في زحف حماسي عارم، إلى الأمام.

ويكون أول نصر كبير للمارسيليز - لأن هذا هو الاسم الذي سيطلق عما قريب على نشيد روجيه - باريس. ففي الثلاثين من تموز تزحف الكتيبة إلى داخل ضاحية فوبورج Faubourgs تتقدمها رايتها ونشيدها. وتقف الألوف وعشرات الألوف ينتظرون في الشوارع ليستقبلوهم استقبالاً احتفالياً. وعندما يتقدم المارسيليّون الآن، خمسمائة رجل، ينشدون النشيد كأنما ينبعث من حنجرة واحدة بخطوة إيقاعية، ويظلون ينشدونه مرةً بعد أخرى، يصغي الجمهور، فأي نشيد رائع، جارف، ذلك الذي ينشده المارسليون هنا؟ وأي نداء نفير هذا الذي يسري في القلوب جميعاً، تواكبه ضربات الطبول المجلجلة «إلى السلاح، أيها المواطنون!» وبعد ساعتين، وبعد ثلاث ساعات، إذا هذه اللازمة يتردّدُ صداها في كل الحارات والأزقة. لقد نسي الناس نشيد «ca ira» ونسوا أناشيد الزحف القديمة، أناشيد الدوبيت المستهلكة: فلقد عرفت الثورة صوتها الخصوصي وعثرت الثورة على نشيدها.

ويغدو الانتشار الآن كالتيار الجارف، ومسيرة النصر لا سبيل إلى صدّها، ويُنشد النشيدُ في المأدبات، وفي المسارح والنوادي، بل ينشد بعد ذلك حتى في الكنائس بعد ترنيمة المدح، ولا يلبث أن يُنشد بدلاً من

ترنيمة الثناء. وخلال شهر، وشهرين بات المارسيلليز نشيد الشعب، والجيش بأسره، ويدرك سيرڤان، أول وزير حرب جمهوري، بنظرة تنم عن الذكاء، الطاقة الصوتية والتصعيدية لنشيد حربي وطني فريد كهذا، وفي أمر سريع، يأمر بتحويل مائة ألف نسخة منه إلى كل القيادات، وفي ليلتين أو ثلاث ليال يغدو نشيد المجهول أكثر انتشاراً من كل أعمال موليير، وراسين، وڤولتير، وما من احتفال لا يُختتم بالمارسيلليز، وما من معركة لا يدندن فيها موسيقيو الكتيبة بالنشيد الحربي، نشيد الحرية. وعند ييكاپّ، ونيرڤيندنِ تنظِّم الكتائب صفوفها في وسط نشيد الجوقة من أجل الاقتحام الحاسم. أما قادة الأعداء الذين لا يستطيعون أن يثيروا جنودهم إلاّ بالوصفة القديمة، وصفة التقنين المعيَّن، المضاعف، من البراندي، فيرُون وقد تولاهم الفزع، أنهم لا يملكون شيئاً يواجهون به هذه الطاقة الانفجارية التي ينطوي عليها هذا النشيد «الرهيب»، عندما يتم إنشاده من قبل الألوف المؤلَّفة في وقت واحد، ويعصف بصفوفهم كأنه موجة صادحة مجلجلة. ويفيض المارسيلليز الآن على كل معارك فرنسا، سابحاً في الهواء، جارفاً معه أناساً لا يُحصون عدداً، إلى الحماسة والموت، مثل نايْكا، آلهة النصر المجنَّحة.

وفي أثناء ذلك يقعد في الحامية الصغيرة، في هوننجن نقيب مجهول إلى أقصى الحدود في إدارة التحصين، هو روجيه، ويصمم، بروح طيبة، سدوداً ترابية واستحكامات، وربما كان نسي «نشيد حرب جيش الراين الذي كان أبدعه في تلك الليلة الضائعة، السادسة والعشرين من نيسان عام ١٧٩٢ ولا يجرؤ على الإطلاق على أن يحس مجرد إحساس،

عندما يقرأ في المجلات، عن ذلك النشيد الآخر، ذلك النشيد الحربي الآخر، الذي يغزو باريس في غمرة العاصفة، أن نشيد المارسيلليز هذا المظفّر ليس شيئاً آخر، في نصه الحرفيّ وفي إيقاعه المفصل، سوى أعجوبة تلك الليلة التي حدثت فيها وعلى يديه. ذلك لأن من سخرية القدر القاسية - التي يُدوّي هديرها في كل السماوات ويرتفع هديرها إلى النجوم - أن ثمة إنساناً وحيداً فحسب لا يرتفع به هذا اللحن، وأعني ذلك الإنسان الذي ابتدعه. فما من أحد في فرنسا بأسرها يحفل بالنقيب روجيه دي ليسل، والمجدُ العظيم إلى أقصى الحدود، الذي عرفه أيٌّ نشيد من الأناشيد كائناً ما كان، يظل مقصوراً على النشيد ذاته ولا يسقط ظلٌّ منه على مبدعه روجيه، ولا يطبع اسمه معه على النصوص، على أنه كان ذاته خليقاً أن يظل امرءاً لا يُلتفتُ إليه أبداً عند سادة تلك الساعة، لولا أنه أورد نفسه بنفسه في ذكرى باعثة للاستياء. ذلك لأن من التناقضات المعجزة التي لا يستطيع أن يبدعها إلاّ التاريخ - أن مبدع نشيد الثورة ليس ثورياً، بل على النقيض: وذلك أن الذي دفع بالثورة قُدُماً إلى الأمام، بنشيده الخالد، كما لم يفعل ذلك امرؤٌ آخر، يودُّ الآن لو يردّها على أعقابها من جديد بكل طاقاته. فحين يعصف أهل مرسيليا وغوغاء باريس - ونشيده على شفاههم - بقصور التويليري، ويُخْلَع الملك، يكون روجيه دي ليسل قد شبع من الثورة. ويرفض أداء يمين الإخلاص للجمهورية، ويؤثر ترك الخدمة على البقاء في خدمة اليعاقبة. وذلك أن عبارة «الحرية العزيزة» في نشيده، ليست بالكلمة الفارغة عند هذا الرجل الصادق المستقيم، فهو يشمئز من الطغاة

والمستبدين الجدد في الجمعية الوطنية اشمئزازاً لا يقل عن كراهيته للمتوَّجين والمضمَّخين بالأدهان والعطور وراء الحدود. ويَهَب، بصراحة، متنفّساً لاستيائه من لجنة الرعاية الاجتماعية، حين يُجَرُّ صديقه، العمدة ديتريش، عرّاب المارسيلليز، والجنرال لوكنر، الذي يُهدى إليه النشيد، حين يجرُّ كل الضباط والنبلاء، الذين كانوا في تلك الأمسية أوائل مستعميه، إلى المقصلة، وسرعان ما يحدث الموقف الشنيع، إذ يؤسَر شاعر الثورة على أنه معادٍ للثورة، وترفع ضده، ضده هو على وجه الخصوص، قضية تنطوي على اتهام بخيانة وطنه. ولم ينقذ الثورةَ الفرنسيةَ إلا التاسعُ من تيرميدور الذي فتح أبواب السجون بسقوط روبسبيير، إذ وفَّر عليها عار إسْلامِ شاعر نشيدها الخالد إلى «شفرة الحلاقة الوطنية».

وعلى كل حال فقد كان مثل هذا الموت خليقاً أن يكون موتاً بطولياً، لا زجّاً باعثاً للرثاء في غياهب الظلام، كما يقدِّر لروجيه. ذلك لأن روجيه التعيس يعيش أكثر من أربعين عاماً، ألوفاً مؤلَّفة من الأيام بعد يوم الإبداع الحقيقي الوحيد في حياته. لقد خلعوا عنه بزته العسكرية، وقطعوا عنه المعاش، ولا تطبع القصائد والأوبرات والنصوص التي يكتبها، ولاتمثَّل، ولا يغفر القدر لذلك الهاوي غير الخبير أنه حشر نفسه، غير مدعوّ، في صفوف الخالدين. ويزجي الرجل المسكين حياة البؤس والضنك بأعمال شتى يائسة، ليست بالنظيفة دائماً. وعبثاً يحاول كارنو، ومن بعده بونابرت، أن يساعدوه بدافع الرثاء، ولكن شيئاً ما قد تسمّم في شخصية روجيه إلى حد لا سبيل معه إلى الإنقاذ، وبات

منحرفاً غريب الأطوار من جراء قسوة تلك المصادفة التي أسلمه لها الرب والملاك الحارس مدة ثلاث ساعات، ثم ألقيا به من جديد في عَدَمه الخاص، بازدراء. وهو يصارع كل القوى ويتشاجر معها، ويكتب إلى بونابرت الذي يريد أن يساعده، رسائل وقحة ووجدانية مؤثِّرة، ويفخر علانية بأنه صوَّت ضده في الاستفتاء الشعبي، وتورِّطه أعماله في شؤون مشبوهة غامضة، بل يضطر، من جراء كمبيالة غير مدفوعة، إلى التعرُّف على سجن الديون في سان پيلارجي. ولما كان غير محبوب في كل الأماكن، يطارده الدائنون، وتراقبه الشرطة على الدوام، فإنه ينزوي آخر الأمر في مكان ما في الريف، ويصغي، وكأنما خرج من قبر، في عزلته، مَنْسِياً، من هناك، إلى مصير نشيده الخالد، ويشهد من بعد أيضاً، أن نشيد المارسيلليز يعصف بكل بلدان أوروبا مع الجيوش المظفَّرة، ثم يشهد أيضاً أن نابليون لم يكد يصبح امبراطوراً حتى أوعز بشطبه من كل البرامج لأنه مفرط في ثوريّته، وأن آل بوربون يحظرونه بعد ذلك كل الحظر، ولا تنتاب الشيخ المفعم بالمرارة إلا دهشة حين توعز ثورة تموز عام ١٨٣٠، بعد جيل من الزمان بترك كلماته ولحنه ينتصبان قائمين بطاقتهما القديمة عند متاريس باريس، ويخصص له الملك البورجوازي لويس فيليب، بحكم كونه الشاعر الذي نظمه معاشاً تقاعدياً ضئيلاً، وتبدو لذلك الضائع المنسي كالحلم حقيقة أن الناس ما يزالوا يذكرونه على وجه الإطلاق، ولكنه ليس إلا تذكّراً ضئيلاً، وعندما يموت ابن السادسة والسبعين آخر الأمر في شوازي - ليروا في عام ١٨٣٦ ما عاد امرؤ يعرف اسمه ولا يذكره. ولابد للجيل أن يتبدّد

مرتين: الأولى في الحرب العالمية، حين يبدو المارسيلليز الذي بات منذ عهد بعيد نشيداً وطنياً، حربياً مرة أخرى، تصدر تعليمات بأن تُسجّى جثة النقيب المتواضع روجيه في الموضع نفسه تحت قبة الأنفاليد، شأن جثة الملازم المتواضع بونابرت. وهكذا يثوي آخر الأمر المبدع المغمور إلى أقصى الحدود لنشيد خالد في سرداب مقبرة الأماجد في وطنه، مستجماً من خيبة الأمل المتمثلة في أنه لم يكن سوى شاعر ليلة واحدة.

دقيقة واترلو في تاريخ العالم

نابليون ١٨ حزيران ١٨١٥

إنما يلازم القدرَ الميل إلى الجبابرة والمتجبِّرين، فقد لبث أعواماً يوالي موالاة التابع فرداً بعينه: قيصر، الاسكندر، نابليون، ذلك لأنه يحب الإنسان الأصيل الذي يضاهِئ قوة من قوى الطبيعة العظيمة، والذي يغدو مماثلاً له هو، العنصر الذي لا سبيل إلى إدراكه.

غير أنه يعمد في بعض الأحيان، في حالات نادرة كل الندرة في كل العصور، إلى الإلقاء بنفسه، في مزاج غريب، على امرئٍ ما، كيفما اتفق. وفي بعض الأحيان - وهذه هي اللحظات الأكثر إثارة للدهشة في تاريخ العالم - يقع خيط القضاء والقدر، مدة دقيقة متشنِّجة راجفة، في يد امرئٍ تافهٍ كل التفاهة. وعندها يظل أمثال هؤلاء البشر دائماً أقرب إلى الفزع منهم إلى السعادة بعاصفة المسؤولية التي تَزُجُّ بهم في حمأة اللعبة العالمية البطولية، وعلى نحو دائم تقريباً، يفلتون القدر المَرْمِيَّ لديهم من قبضة يدهم وهم يرتجفون. ولا يكون إلاّ من النادر أن يرتفع أحدهم بالمسألة ارتفاعاً شديد البأس ويرتفع هو نفسه معها، ذلك لأن الأمر العظيم لا يتاح للمرء الضئيل إلاّ مدة ثانية، ومن يُفَوِّتْها لا تَرْحَمْه من بعدُ أبداً مرة ثانية.

غروشي

وفي غمرة الرقص، والغراميات، والمؤامرات، والنزاع والجدل في مؤتمر ڤينا، يسقط، مثل رصاصة المدفع الساحقة، إذ يئزُّ في الهواء، خبر مؤدّاه أن نابليون، الأسدَ الراسف في الأغلال، قد أفلت من قفصه في إلبا، ولا تلبث أن تنطلق وراءه عصاً أخرى من عُصِيّ سباق التتابع، فقد غزا ليون، وطرد الملك، وها هي ذي القوات تتحوَّل إليه براياتها المتعصبة، وها هوذا في باريس، في قصور التويليري. عبثاً كانت لايبتسيج والسنوات العشرون من الحرب التي تفتك بالبشر، وينتفض الوزراء الذين كانوا يتصارعون ويتشاكسون لتوِّهم، وكأن مخلب طائر أمسك بهم، ويتم على جناح السرعة، تجهيز جيش انكليزي، وجيش بروسيّ، ونمساويّ، وروسيّ، لتحطيم مغتصب السلطة مرة أخرى، وعلى نحو حاسم الآن. ولم يسبق لأوروبا الشرعية، أوروبا الملوك والأباطرة أنْ كانت موحَّدة أكثر مما كانت عليه في هذه الساعة، ساعة الفزع الأول. ومن الشمال يتقدم ولينغتون نحو فرنسا، وإلى جانبه يتحرك جيش بروسيّ بقيادة بلوشر، مساعِداً، وعلى الراين يتجهَّز شفارتسِينبرج، وعلى سبيل الاحتياط تزحف عبر ألمانيا الكتائب الروسية، بطيئة وثقيلة.

وينظر نابليون، بنظرة واحدة شاملة، إلى الخطر القاتل، وهو يعلم أنه لم يبق وقت للانتظار إلى أن تتجمَّع العصابة، ولابد له أن يبعثرها، وأن يهاجم كلاً منها على حدة، البروسيين والإنكليز، والنمساويين، قبل أن يتحوَّلوا إلى جيش أوروبي، وإلى هلاك لامبراطوريته، ولابدّ له أن يسارع، لأنه لو لم يفعل ذلك لاستيقظ الساخطون في بلاده، ولابد له أن يكون انتصر قبل أن يشتد بأس الجمهوريين ويتحالفوا مع الملكيين، وقبل

أن يعمد فوشيه، ذو اللسانين والرجل الذي لا سبيل إلى إدراك كهنه، إلى قطع أوتار عضلاته، في تحالفه مع تاليران، منافسه، وصورته المنعكسة في المرآة، بطريق الغدر، ولابدَّ له أن يعمد، في اندفاعة واحدة، إلى الانطلاق، مستغلاً الحماسة المُسْكِرة عند جيشه، ضد أعدائه، فكل يوم خسارة، وكل ساعة تمر فهي خطر، وكذلك يلقي بالنَّرْد المُجَلْجِل على عجل في أكثر معارك أوروبا دمويّةً، في بلجيكا. ففي الخامس عشر من حزيران، وفي الساعة الثالثة صباحاً، تتخطى طلائع الجيش الكبير - والوحيد الآن أيضاً - أي جيش نابليون، الحدود. وفي السادس عشر من حزيران تجري عند ليني باتجاه الجيش البروسي، وتردُّه على أعقابه. إنها ضربة المخالب الأولى يضربها الأسد الذي أفلت من عقاله، وكانت ضربة رهيبة، ولكنها غير قاتلة، وينسحب الجيش البروسي إلى بروكسل مقهوراً، ولكنه لم يتعرَّض للإبادة.

والآن يتخذ نابليون أهبته للضربة الثانية، ضد ولينغتون، فإنه لا يجوز له أن يلتقط أنفاسه، ولا يستردَّها، لأن كل يوم يعود على الخصم باشتداد البأس، والبلاد من ورائه، الشعب الفرنسي الذي استنفدت دماؤه، وبات مقلقاً، لابد من إسكاره بالخمر الزعاف، الخمر الناري الكامن في نشرات أخبار النصر. وحتى في السابع عشر من حزيران يزحف بكل جيشه حتى مرتفعات كاتْرِبْرا، حيث كان ولينغتون، الخصم البارد، ذو الأعصاب الفولاذية، قد تحصَّن. ولم تكن مواقف نابليون قطُّ أكثر رزانة وتأنِّيا، ولا كانت أوامره العسكرية أكثر وضوحاً مما كانت عليه في هذا اليوم: فهو لا ينظر في الهجوم فحسب، بل ينظر في أخطاره، وذلك أن جيش بلوشر الذي انكسر ولكنه لم ينته إلى الإبادة،

كان من الممكن أن يتحد مع جيش ولينغتون. وليحول دون هذا فصل جزءاً من جيشه، ليطارد الجيش البروسيّ، خطوة خطوة، أمامه، وليحول دون اتحاده مع الإنكليز.

ويسلم قيادة جيش المطاردة هذا إلى المارشال غروشي. وغروشي رجل متوسط، طيب، مستقيم، ذو بلاء حسن ويعتمد عليه، وقائد للفرسان كثيراً ما أثبت حسن بلائه، غير أنه قائد فرسان، لا أكثر. ولم يكن فارساً وحشياً جذّاباً، حامي الوطيس، مثل مراد، ولم يكن استراتيجياً مثل سان سير وبرتييه، ولا بطلاً مثل ناي، ولم يكن هناك درع فروسية يزيّن صدره، ولم تكن هناك أسطورة تغدق الرتب على شخصيته، ولا تميُّزٌ ظاهر يَهَبُ له الشهرة والمكانة في العالم البطولي، عالم الأسطورة النابليونية: فلم يعد عليه بالشهرة إلاّ سوء حظه وطالعه. لقد ظل يقاتل عشرين عاماً، في كل المعارك، من إسبانيا إلى روسيا، ومن هولندة إلى إيطاليا، ولبث يرتقي سلم المراتب حتى رتبة المارشالية، ولم يكن ذلك عن غير استحقاق، ولكن من دون إنجاز متميِّز خصوصي. أما رصاص النمساويين، وشمس مصر، وخناجر العرب، وصقيع روسيا، فقد ذَهَب بهنّ عنه أسلافه، ديساي في مارينغو وكليبر في القاهرة، ولانْ في واجرام: وأما الطريق إلى أعلى الرُّتَب فلم يقتحمه اقتحاماً بل أخلت له السبيل إليه طلقاتُ الرصاص خلال عشرين عاماً من الحرب.

أما أنه لم يكن له في غروشي بطل، ولا استراتيجي، بل مجرد رجل يعتمد عليه، مخلص، طيب، يقظ، فذلك ما يعرفه نابليون حق المعرفة، ولكن نصف قادته كانوا يرقدون تحت التراب، أما الآخرون فظلوا في مزارعهم، متبرِّمين، قد تعبوا من المبيت في المعسكرات في

العراء بغير انقطاع، ولذلك يضطر إلى أن يعهد إلى رجل متوسط بعمل حاسم.

وفي السابع عشر من حزيران، في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، أي بعد يوم من الانتصار عند لينيي، وقبل يوم من واترلو، يسلّم نابليون الماريشال غروشي أول مرة قيادة مستقلة. ويخرج غروشي المتواضع، لحظةً من الزمان، أو يوماً، من سُلَّم التراتبُ العسكري ليدخل في تاريخ العالم. يفعل ذلك لحظة من الزمان فحسب، ولكن يا لها من لحظة! أمّا أوامر نابليون فواضحة. فبينما يبادر هو نفسه إلى الانقضاض على الإنكليز، ينبغي لغروشي أن يطارد الجيش البروسي بثلث الجيش، وهي مهمة بسيطة على ما يبدو، مباشرة، لا لَبْس فيها، ولكنها مرنة، مطّاطة وذات حدَّيْن كالسيف، لأنه يوصي غروشي في الوقت ذاته، مع هذه المطاردة بأن يظل على اتصال مع الجيش الرئيسي على الدوام.

ويتلقى الماريشال الأمر في تردد، إذ لم يكن قد اعتاد أن يعمل بصفة مستقلة، ولا تشعر رزانتُه وتبصرُّه بالعواقب، من دون مبادرة، أنها في مأمن إلاّ عندما تتولى توجيهها نظرةُ الامبراطور العبقرية. وهو يحسّ، فضلاً عن ذلك، من وراء ظهره، باستياء قادته، وربما كان يحسّ أيضاً بضربة القدر الجانبية الغامضة. ولا يبعث الطمأنينة في نفسه إلا قربه من ساحة المعركة الرئيسية: إذ لا يفصل جيشه عن الجيش الامبراطوري إلاّ ثلاث ساعات من المسير السريع.

ويودِّع غروشي تحت وابل من المطر. ويسير جنوده ببطء في الأرض الاسفنجية، الطينية وراء البروسيين، أو على الأقل في الاتجاه الذي يتكهنون بأن بلوشر وجماعته يسيرون فيه.

الليلة في كايّو

ويظل مطر الشمال ينسكب بلا نهاية، وتتقدم كتائب نابليون مثل قطيع مبلَّل في الظلام، بخطىً ثقيلة متخاذلة، وعلى نَعْلَي كل رجل رطلان من الوسخ، لا يجدون مأوى في أي مكان، فلا بيت ولا سقف. أما القش فأكثر هشاشة واسفنجيّةً من أن يرقد المرء عليه - وهكذا يتلاحم دائماً عشرة أو اثنا عشر من الجنود، معاً، وينامون، جالسين جلسة مستقيمة، ظهراً إلى ظهر، تحت المطر الدافق، وحتى الامبراطور نفسه لا يخلد إلى الراحة، ويطارده مزاج عصبي كلما هبط أو صعد، لأن عمليات الاستطلاع تعجز أمام عدم شفافية الطقس، والمستطلعون يقدِّمون في أقصى الأحوال تقريراً مشوَّشاً مختلطاً، وما زال لا يعرف هل يقبل ولينغتون المعركة، ومن جانب غروشي يُفْتَقَدُ الخبرُ عن البروسيين. وهكذا يخطو الأمبراطور هو نفسه في الساعة الواحدة ليلاً - غير مبالٍ بأنَّ - المطر العاصف - على طول المواقع الأمامية إلى أن يصل إلى المدى المجدي لمدافع المعسكرات الخارجية الإنكليزية، التي تكشف أدراجه إلى الكوخ الصغير في كايّو إلاّ مع انبلاج الصباح، إلى مقره الرئيسي البائس، حيث يجد أوائل برقيات غروشي، أخبار غامضة عن انسحاب البرويسيين، ولكن هناك على أية حال الوعد الباعث للقلق والاضطراب، بمطاردتهم. وشيئاً فشيئاً يتوقف المطر وما يفتأ الامبراطور يروح ويجيء في الحجرة نافد الصبر، محملقاً في الأفق الأصفر، لعلَّ المدى البعيد يكشف عن نفسه آخر الأمر، ويكشف بذلك عن الحَسْم.

وفي الساعة الخامسة صباحاً - وكان المطر قد توقَّف - تنقشع أيضاً سحابة التصميم الداخلية. ويُعْطى الأمر بأن يتقدم الجيش كله في

التاسعة جاهزاً للانقضاض. وتنطلق التعليمات كالانفجار في كل الاتجاهات، وسرعان ما تجلجل الطبول للاجتماع. والآن فحسب يستلقي نابليون على سريره الميداني، لينام ساعتين.

الصباح في واترلو

الساعة التاسعة صباحاً، ولكن القوات لم تجتمع بعد بكامل عددها، وكانت الأرض التي جعلها مطر الأيام الثلاثة رخوة تجعل كل حركة صعبة وتعوق تحريك المدفعية، ولا تظهر الشمس إلا شيئاً فشيئاً وتضيء مع وجود ريح شديدة، ولكنها ليست شمس أوسترليتس، إذ تلكم تضيء بيضاء مبشرة بحظ عظيم، وإنما هنا مجرد بريق باهث مصفّر، يلتمع بهذا الضوء الشمالي التماعاً باعثاً للتذمُّر والضجر. وأخيراً باتت القوات مستعدة، والآن، وقبل أن تبدأ المعركة، يمتطي نابليون صهوة مهرته البيضاء مرة أخرى، على طول الجبهة بأسرها. وكانت النسور على الرايات منكَّسة كأنما تواجه ريحاً صَرْصراً، والفرسان يهزون سيوفهم بطريقة حربية، والمشاة، يرفعون، على سبيل التحية، قبعاتهم المتَّخذة من فراء الدببة على رؤوس حرابهم، وكل الطبول تعصف دقاتها في جنون، وتطلق الأبواق أصواتها معبّرة عن فرحتها الطاغية بالقائد، ولكن كل هذه الأصوات البرّاقة يطغى عليها بهديره ورَعْده صراخ التهليل الذي ينساب من فوق الكتائب، مُجَلْجِلاً، صادراً عن سبعين ألف حنجرة من حناجر الجند، يهتف بصوتهم الجَهْوَري الرنّان: «عاش الامبراطور!».

ولم يكن هناك، في سنوات نابليون العشرين، استعراض أعظم، ولا أحْفَل بالحماسة، من هذا الاستعراض الأخير، ولم تكد تتردَّد الصيحات،

في الحادية عشرة، بعد ساعتين مما كان مرسوماً، وهو تأخُّر بمقدار ساعتين، تُخشى عواقبه - حتى سرى إلى المدفعيين الأمر، بإطلاق الرصاص على أهل الحُلَل الحمر عند التلِ، ثم يتقدم نايْ «شجاع الشجعان» بالمشاة، وتبدأ ساعة نابليون الحاسمة. لقد وُصفَت هذه المعركة مراتٍ لا تحصى، غير أن الناس لا يعتريهم التعب من قراءة أحوالها المتبدِّلة المثيرة، في عرض والترسكوت الرائع حيناً، وفي عرض ستندال الذي يعرضها في صورة الحدث العابر أحياناً أخرى، فهي عظيمة، متعددة الجوانب، على القرب وعلى البعد، وسواء أكانت تُرى من تَلٍّ القائد، أم كانت تُرى من سَرْجِ الفارس المدجَّج بالسلاح. فهي قطعة فنية حافلة بالتشويق والدراميّة بما فيها من التبدُّل الذي لا يتوقف، بين الخوف والأمل الذي ينحلُّ فجأة في لحظةٍ كارثية إلى أقصى الحدود، وهي أنموذج لتراجيديا حقيقية، لأن مصير أوروبا كلها يتقرر في هذا المصير بمفرده. وتنتفض الألعاب النارية المثيرة للخيال والمرتبطة بحياة نابليون، رائعة مهيبة، مرة أخرى، كالصاروخ، في كل السَّموات، قبل أن تنطفئ في سقوط مصحوب بالوميض، إلى الأبد.

وتظل الكتائب الفرنسية تقتحم المرتفعات من الحادية عشرة إلى الواحدة، وتستولي على القرى والمواقع، ثم تُطارَد من جديد، ثم تقتحم الأعالي مرة أخرى. وكان عشرة آلاف قتيل يُغَطّون المرتفع الطيني، المبلَّل في الأرض الخاوية، ولمّا يتحقق شيء سوى استنفاد القوى هنا وهناك. لقد تعب الجيشان، وأصاب القلق كلا القائدين، وكلاهما يعرف أن النصر لمن يتلقى المساندة قبل سواه، فإما أن يتلقاها ولينغتون من بلوشر وإما أن يتلقاها نابليون من غروشي، وما يفتأ نابليون يلجأ إلى المنظار المُقَرِّب

في مزاج عصبي، متطلّعاً أبداً إلى مراسلات عسكرية جديدة من الجانب الآخر، فإذا جاء مارشالُه في الوقت المناسب أشرقت على فرنسا شمس أوسترليتس مرة أخرى.

مسيرة غروشي الخاطئة

أما غروشي، الذي كان يمسك، وهو غير واعٍ، بمصير نابليون في يديه، فقد انطلق في هذه الأثناء، حسب الأوامر، في السابع عشر من مساء حزيران، وهو يجري، حسب الاتجاه المرسوم، على أثر البروسيين. وكان المطر قد توقّف، وتمضي الكتائب الشابة كأنما تسير في أرض السلام متسكّعة، وهي التي ذاقت طعم البارود بالأمس أول مرة: وما زال العدو لا يلوح في الأفق وما زال من غير الممكن العثور على أثر للجيش البروسي المنكسر.

وفجأة، وعلى وجه الخصوص في الوقت الذي كان المارشال فيه يتناول إفطاره في بيت فلاح، تهتز الأرض اهتزازاً يسيراً تحت أقدامهم، ويصيخون السمع، ومرةً بعد أخرى ينساب الصوت عميقاً وقد تلاشى، في اتجاههم: إنها مدافع، بطاريات تطلق النار عن بُعد، ومع ذلك فهي ليست بالمفرطة في البعد، بل هي على بعد ثلاث ساعات على الأكثر، وها هم أولاء ضباط يلقون بأنفسهم على الأرض على طريقة الهنود الحمر، لكي يصغوا إلى الاتجاه بوضوح. ويظل هذا الصدى البعيد يهدر على الدوام وعلى نحو عميق، إنه القصف المدفعي من سان جان، مبتدأ واترلو. ويعقد غروشي مجلساً للتشاور، ويطالب جيرارد، آمر القوات من بعده، قائلاً «يجب الزحف بالمدافع» بسرعة في اتجاه نيران المدافع!

ويقول ضابط آخر، موافقاً: «هيّا، ولكن بسرعة إلى هناك!» فإن مما لا شك فيه بالقياس إليهم جميعاً، أن الامبراطور قد اصطدم بالإنكليز وبدأ معركة طاحنة. وينتاب غروشي الشك والاضطراب. ولمّا كان قد اعتاد الطاعة، فإنه يلتزم بالورقة المكتوبة، بأمر الامبراطور بملاحقة البروسيين في انسحابهم. ويزداد جيرارد عنفاً حين يرى تردده: «فلنزحف إلى المدافع!» - ويبدو كالأمر مطلبُ الآمر المساعد أمام عشرين من الضباط والمدنيين، لا التماساً أو رجاءً. وهذا ما يثير استياء غروشي. فيعلن بصوت أقسى وأكثر صرامة أنه لا يجوز له أن يحيد عن واجبه ما لم يصل أمر مضاد من الامبراطور، ويشعر الضباط بخيبة الأمل، وتزمجر المدافع وسط صمت مشؤوم.

هنالك يحاول جيرارد بذل آخر ما في وسعه: فيلتمس، متضرِّعاً، أن يسمح له على الأقل، مع فرقته وبعض الفرسان بالانتقال إلى ميدان المعركة ويلتزم بأن يحضر إلى مكانه في الوقت المناسب. ويفكر غروشي. يفكر مدة ثانية.

تاريخ العالم في لحظة واحدة

ويفكر غروشي ثانيةً واحدة، وهذه الثانية الواحدة تصوغ مصيره هو، ومصير نابليون ومصير العالم. هذه الثانية في بيت الفلاح في قرية ڤالهايم، تحسم المصير على مدى القرن التاسع عشر بأسره. والخلود معلّق بشفتي إنسان طيب حقاً، مبتذَل حقاً، يرقد ضحلاً ومكشوفاً في اليدين اللتين تُكَرْمِشان ورقة الأمر المشؤوم في عصبية وتَقُدّانها. فلو استطاع غروشي أن يلملم أطراف شجاعته، وأن يكون جريئاً، وغيرَ مطيع للأمر بدافعٍ من الإيمان

بنفسه، وبالإشارة المرئية، لأُنقذت فرنسا، ولكن الإنسان المتواضع الخاضع يطيع المكتوب والمرسوم دائماً ولا يستجيب أبداً لنداء القدر.

وكذلك يلوِّح غروشي بيده رافضاً، كلاّ، فلو تمّ هذا لكان منافياً للمسؤولية، أن يقسم فيلقاً صغيراً كهذا إلى قسمين مرة أخرى. فمهمته تأمره أن يطارد البروسيين، ولا شيء سوى هذا. وهو يرفض أن يتصرف خلافاً لأمر الامبراطور، ويخلد الضباط إلى الصمت متبرِّمين. وينشأ سكون حوله، وفي هذا السكون يتبدَّد على نحو لا سبيل معه إلى الرجعة، ما لا تستطيع الكلمات والأفعال بعدُ أبداً أن تحيط به - الثانية الحاسمة. لقد انتصر ولينغتون.

وهكذا يواصلون سيرهم، أما جيرارد وڤاندام فقبضاتهما مكوَّرة من الغضب، وأمّا غروشي فسرعان ما يعتريه الاضطراب، ويزداد قلقاً واضطراباً من ساعة إلى ساعة: فمن الغريب أن البروسيين ما زالوا لا يظهرون، ومن الواضح أنهم غادروا الاتجاه الذي يفضي إلى بروكسيل وسرعان ما يبلغ المراسلون عن علائم تثير الشبهة، وهي أن انسحابهم تحوَّل إلى زحف جانبي إلى ميدان المعركة. وما زال الوقت مناسباً للمجيء لمساعدة الامبراطور بأقصى سرعة ممكنة. ويظل غروشي ينتظر الرسالة بصبر يزداد نفاداً مع الزمن، ينتظر الأمر بأن يعود أدراجه، ولكن ما من خبر يأتي. وليس هناك، من الجانب المقابل سوى المدافع على الأرض التي ترتجف: إنها مكعبات نَرْد واترلو الحديدية.

بعد الظهر في واترلو

وفي هذه الأثناء كانت الساعة قد بلغت الواحدة. والحق أنه كان قد تمّ دَحْرُ أربع هجمات، غير أنها كانت قد أوْهَنَت قلب جيش ولينغتون

إلى حد بالغ. وها هو ذا نابليون يتجهّز للاقتحام الحاسم، فيوعز بتدعيم البطاريات قبالة بيل -ألْيانس، وقبل أن يجر قتال المدافع ستاره السحائبيّ بين التلال، يلقي نابليون نظرة أخرى على ميدان المعركة.

هنالك يلاحظ ظلاً يتقدم في غموض، ويبدو أنه ينساب خارجاً من الغابات: قوات جديدة! وعلى الفور تتجه كل نظّارة مُقَرِّبة نحوه. أتراه غروشي الذي تجاوز الأمر بجرأة، وهو يأتي الآن رائعاً في الساعة الملائمة؟ كلاّ، إذ يبلغه أسير جيء به أنها طليعة جيش الجنرال بلوشر، قوات بروسية. ويدرك الأمبراطور أول مرة أن ذلك الجيش البروسيّ المضروب لابدّ أنه أفلت من المطاردة، ليتّحد مع الإنكليز قبل أن يفوته الوقت، بينما يناور ثلث قواته بغير طائل هائماً على وجهه في الفراغ. وعلى الفور يكتب رسالة إلى غروشي يكلفه فيها بالمحافظة على الاتصال معه بأي ثمن، وبالحيلولة دون تدخُّل البروسيين في المعركة.

وفي الوقت ذاته يتلقى الماريشال ناي الأمر بالهجوم، فلابد من دحر ولينغتون على أعقابه قبل أن يصل البروسيّون: وما عاد ثمة مَدَدٌ يبدو أنه يجرؤ على المجيء مع هذه الفرص التي تتضاءل فجأة. والآن تلي فترة ما بعد الظهيرة بأسرها تلك الهجمات الرهيبة على الهضبة بمشاة يُزَج بهم في المعركة من الجدد على الدوام، ويظل هؤلاء يقتحمون القرى المدمَّرة بالطلقات. ويظل المشاة يُحَطَّمون المرة بعد الأخرى. وتظل الموجة تنهض، المرة بعد الأخرى، نحو صفوفِ العدو التي تم تحطيمها بضربات كالمطارق، برايات ترفرف. ولكن لينغتون مازال يصمد، وما زال لا يأتي خبر من غروشي. «أين غروشي، وأين يظل غروشي؟». كذلك كان الامبراطور يغمغم في عصبية وهو يرى البروسيين يَعْدون عَدْوَ الخبب

متدخلين، شيئاً فشيئاً، وكذلك ينفد صبر القادة التابعين له، ويصمم الماريشال ناي على وضع نهاية بالقوة، فيقذف - وهو الجسور إلى حد الجنون، مثل غروشي، والمتدبِّر المتأني إلى حد الإفراط (إذ يُرْدى ثلاثة من الخيل، قتلى تحت جسده) - دفعة واحدة، بسلاح الفرسان الفرنسي بأسره في هجمة واحدة. ويجرِّب عشرة آلاف من الفرسان المدجَّجين بالسلاح وجنود سلاح الفرسان مسيرة الموت هذه الرهيبة، فيحطمون karrees صفوف العدو، ويضربون جنود المدفعية، وينسفون الصفوف الأولى. والحق أنهم يُرَدّون، هم أنفسهم، على أعقابهم، ولكن قوة الجيش الإنكليزي تأخذ في التلاشي، وتأخذ القبضة التي تُنْشِب مخالبها في ذلك التل، في الاسترخاء، وحين يتنحى الآن سلاح الفرسان الفرنسي المدمَّر أمام المدافع، يتقدم الاحتياط الأخير لنابليون، الحرس القديم، بخطوة ثقيلة وبطيئة، ليقتحم التل الذي يضمن الاستيلاءُ عليه مصير أوروبا.

الحسم

وتظل أربعمائة مدفع تُرْعِدُ بهديرها بغير توقُّف منذ الصباح على كلا الجانبين. وعلى الجبهة تصلصل مواكب الفرسان في سلاح الفرسان منقضة على صفوف الأعداء التي تطلق النار، ودقات الطبول تجلجل على الجلد الرّاعِدِ، والسهل كله يَتَزَلْزَلُ بأصداء شتى! ولكن في الأعلى، على كلتا الرابيتين يصيخ كلا القائدين، من فوق عاصفة البشر، إنهما يُصيخان كلاهما، إلى صوتٍ أكثر خفوتاً.

فثمة ساعتان تدقان بصوت خافت، كقلوب الطير في يديهما فوق الكتل العاصفة: نابليون وولينغتون، كلاهما يلجأ إلى عدّاد الوقت بغير

انقطاع، ويعدان الساعات، والدقائق التي لابدَّ أن تأتيهما بذلك العَوْن الأخير الحاسم. أمّا ولينغتون فيعرف أن بلوشر قريب، ونابليون يأمل في غروشي، وكلاهما ما عاد لديه احتياطي، ومن يصل أوّلاً يحسم المعركة. وكلاهما يتطلع بالمنظار المقرب نحو حافة الغابة حيث يبدأ الآن عَدْوَ الخبب البروسي في الظهور كسحابة خفيفة. ولكن أتراهم مجرد مناوشين، أم هو الجيش ذاته، هارباً من غروشي؟ لقد بات الإنكليز يقاومون مقاومة أخيرة فحسب، ولكن القوات الفرنسية أيضاً ينتابها الإجهاد، ويواجه كل منهما الآخر كمصارعين، لاهثين، بأذرع أدركها الشلل، يلتقطان أنفاسهما، قبل أن يمسك أحدهما بالآخر مرة أخيرة: لقد حانت الآن جولة الحسم التي لا رجعة فيها.

هنالك تُرْعِد آخر الأمر مدافع على جانب البروسيين: مناوشات! ونيران طلقات!» «أخيراً غروشي!». «أخيراً غروشي!» قال نابليون ذلك وهو يتنفس الصعداء. وفي ثقة منه بالجناح المُؤَمَّن الآن يجمع آخر رجاله ويلقي بهم مرة أخرى في قلب جيش ولينغتون ليحطم المزلاج الإنكليزي أمام بروكسل، ولينسف بوابة أوروبا.

ولكن نيران البنادق تلك كانت مجرد مناوشة خاطئة، كان البروسيون الزاحفون قد بدأوها ضد الهانوفريين، إذ شوَّشت أذهانهم الحلة الرسمية الأخرى: فسرعان ما يوقفون إطلاق النار الخاطئة، وينبعثون الآن كالينبوع الدافق، بغير عائق، مستعدين وأقوياء، تنبعث الآن كُتَلُهم من الغابة. كلاّ، إنه ليس غروشي ذلك الذي يزحف بقواته، بل هو بلوشر، وبذلك تكون الطامّة. وسرعان ما تنتشر الرسالة في صفوف القوات الامبراطورية، فيأخذون في التراجع في نظام باعث للأسى أيضاً، ولكن

ولينغتون ينتهز اللحظة الحرجة، فيمتطي جواده إلى أن يبلغ حافة التل الذي دافع عنه دفاعاً مظفَّراً، ويرفع قبعته ويلوِّح بها فوق رأسه تجاه العدو المتراجع. وعلى الفور يفهم جنده إيماءة الانتصار، وبحركة واحدة ينهض ما تبقى بعدُ من القوات الإنكليزية ويلقي بنفسه على الكتلة التي أصابها الوَهْن والاسترخاء، وينقض من الجانب في الوقت ذاته سلاح الفرسان البروسيّ على الجيش الذي أصابه الإرهاق وبات حطاماً، وتصكّ المسامع صرخة تنادي بنداء الموت: «فَلْيَنْجُ من استطاع النجاة! Sewve qui peut!». وما هي إلاّ بضع دقائق وما عاد الجيش الكبير شيئاً سوى نهر من الخوف يغدو مطلق العنان يجرف معه كل شيء، حتى نابليون نفسه. ومثلما يكون الحال في ماء لا دفاع له ولا شعور يضرب سلاح الفرسان ضربته في هذا النهر المتراجع على عجل وانسياب، وفي حملة غير مُحْكَمة يقتنصون عربة نابليون الفاخرة، كنز الجيش، وسلاح المدفعية بأسره من زَبَد الخوف الصارخ والفزع ولا ينقذ حياة الامبراطور وحريته إلاّ الليل الذي يرخي سدوله، ولكن الذي يستلقي بعد ذلك في منتصف الليل في الكرسي في حانة قرية منخفضة ملطخاً بالأوساخ مذهولاً قد بلغ منه الإجهاد، ما عاد امبراطوراً، وانتهت مملكته، وأسرته الحاكمة، ومصيره. لقد حطّم جبن إنسان متواضع، غير ذي أهمية، ما بنى الإنسان الأكثر جرأة والأبعد نظراً على وجه الإطلاق في عشرين سنة من سنوات البطولة.

الارتكاس في اليوميّ

ولم يكد الهجوم الإنكليزي يحطم نابليون حتى هرع رجل كان في تلك الأيام لا يكاد يكون له اسم على عربة حنطور استثنائية يقطع

الطريق إلى بروكسل، ومن بروكسل إلى البحر، حيث تنتظره سفينة، ويبحر إلى الجانب الآخر، إلى لندن، لكي يصل إلى هناك عن طريق سباق التتابع العائد إلى الحكومة، ويتاح له، بفضل الخبر الذي مازال مجهولاً، أن ينسف البورصة: إنه روتشيلد الذي يؤسس بهذه الحملة العبقرية، امبراطورية أخرى، وأسرة حاكمة جديدة. وفي اليوم التالي تطّلع إنكلترا على النصر، ويطّلع على الهزيمة في باريس فوشيه، الخائن أبداً: وها هي ذي أجراس النصر تدوّي في بروكسل وألمانيا.

ولم يكن هناك إلاّ واحد في الصباح التالي لا يعرف بعدُ شيئاً عن واترلو، على الرغم من أنه لم يكن يبعد إلاّ أربع ساعات عن مكان المصير: إنه غروشي المنكود، لقد ظل يلاحق البروسيين بمثابرة وبموجب خطة، حسب الأمر بالضبط، ولكن الغريب أنه لا يعثر عليهم في أي مكان، وهذا ما يبعث الاضطراب والقلق في باله. وما زالت المدافع تجلجل عن كثب بصوت يزداد ارتفاعاً على نحو مطرد، وكأنما كانت تصرخ في طلب النجدة، ويشعرون أن الأرض تتزلزل ويحسون بكل طلقة كأنها في قلوبهم. وكلهم يعرف الآن أن المسألة لا تتعلق بمناوشة، بل نشبت معركة هائلة، معركة الحسم.

ويذهب غروشي على صهوة جواده بين ضباطه في عصبية. إنهم يتحاشون المناقشة معه: فقد رفضت مشورتهم.

ولذلك فالخلاص، كما هو عند ڤافر، آخر الأمر، أن يصطدموا بفيلق روسيّ واحد، في مؤخرة بلوشر. ويقتحمون الاستحكامات كالمجانين وجيرارد في مقدمتهم جميعاً، كأنما يبحث عن الموت إذ يدفعه حرصٌ ينطوي على التشاؤم، وترديه رصاصة قتيلاً: لقد أخلد إلى الصمت

أعلى المُذكِّرين صوتاً. ومع حلول الظلام يقتحمون القرية، غير أنهم يشعرون أن هذا النصر الضئيل ما عاد له معنى، لأن الهدوء خيَّم دفعة واحدة هناك في الجانب المقابل، ميتاً. وكلهم يحس بأن جَرْيَ عجلات المدافع كان أفضل بعدُ من هذا اللايقين الذي يفترس الأعصاب. لابد أن المعركة قد حسمت، المعركة عند واترلو، التي تلقى منها آخر الأمر غروشي (بعد فوات الأوان!) بطاقة نابليون التي تستعجل العون. لابدّ أنها حسمت، تلك المعركة الهائلة، ولكن لصالح من؟ إنهم ينتظرون الليل كله، عبثاً! فلا رسالة تأتي من هناك، ويبدو الأمر كما لو أن الجيش الكبير نسيهم، وكأنهم يقفون وقفة فارغة ولا معنى لها في الفضاء الذي لا يَشِفُّ عن شيء. وفي الصباح ينقضون معسكرهم الخارجي، ويستأنفون المسير، يموتون من التعب، وقد وَعَواْ منذ عهد بعيد أن مسيرهم ومناورتهم باتا عديمي الجدوى. هنالك يتقدم آخر الأمر ضابط من الأركان العامة مندفعاً، ويساعدونه لينزل عن جواده، ويمطرونه بوابل من الأسئلة، غير أنه لا يستجمع، وقد اكفهر محيّاه من الهول وتبلّل شعره عند صدغيه، وهو يرتعد من إجهاد هو فوق ما يحتمل البشر، سوى كلمات غير مفهومة، كلمات لا يفهمونها، ولا يستطيعون فهمها ولا يريدون. ويحسبونه مجنوناً، أو سكران، ما عاد هناك امبراطور فيما يقول، ولا جيش امبراطوري، وقد ضاعت فرنسا. ولكن شيئاً فشيئاً ينتزعون منه الحقيقة الكاملة، الساحقة، والخبر الذي يشلُّ حتى الموت، ويقف غروشي شاحباً، ويتكئ، مرتعداً، على سيفه: إنه يعلم أن شهادة حياته تبدأ الآن، غير أنه يحمل على عاتقه، بتصميم، مهمة الإثم الكامل الذي لا ينطوي على امتنان. فالتابع الخاضع الذليل، الجبان الذي

عجز في الثانية العظيمة، ثانية الحسم غير المرئي، يعود الآن في مواجهة خطر وشيك، رجلٍ من جديد، ويكاد يعود بطلاً، فيجمع على الفور كل الضباط، ويلقي - ودموع الغضب والحزن في عينيه - كلمة وجيزة يبرر فيها تردده ويشكو منه في الوقت ذاته، ويستمع إليه ضباطه صامتين، وهم الذين حنقوا عليه بالأمس. كان في وسع كلٍّ منهم أن يتهمه، وأن يمجِّد نفسه إذ كان يرى رأياً أفضل، ولكن ما من أحد يجرؤ على ذلك أو يريده. ويصمتون ويصمتون، ويجعل الحزن الجنوني منهم جميعاً خُرْساً.

وفي تلك الساعة على وجه الخصوص، بعد ثانيته التي فَوَّتها يكشف غروشي - بعد أن فات الأوان الآن - عن كل طاقته العسكرية. وتتضح كل فضائله الكبيرة، من التعقُّل، والبراعة، والرَّوِيّة، والضمير الحي، منذ أن وثق بنفسه وما عاد يعهد بنفسه إلى أمر مكتوب. وإذ يتغيَّر وضعه بتفوُّق يبلغ الخمسة أضعاف، يقود - وهذا إنجاز تكتيكي رائع - في وسط الأعداء، قواته عائداً بها، من دون أن يخسر مدفعاً أو رجلاً، وينقذ فرنسا، وينقذ للامبراطورية جيشها الأخير، ولكن لا يكون هناك امبراطور بعدُ، حين يعود، ليشكر له، ولا عدو يستطيع أن يضع قواته في مواجهته. لقد جاء متأخراً، متأخراً إلى الأبد، ولئن ظلت حياته ترتقي بعدُ باتجاه الخارج، ويُعَيَّن قائداً أعلى وعضواً في طبقة كبار النبلاء في فرنسا، ويثبت حُسْنَ بلائه في كل منصب، ببراعته ورجولته، فما من شيء يستطيع أن يشتري له بعدُ هذه اللحظة ويردَّها إليه، وهي اللحظة التي جعلت منه سيد المصير، والتي لم يكن ناضجاً لها.

وعلى هذا النحو الرهيب تنتقم لنفسها الثانية العظيمة، وهي التي من النادر أن تنزل إلى حياة أهل الأرض، إلى ذلك الذي نُدِب بغير وجه

حق، والذي لا يعرف كيف ينتهزها. فكل الفضائل المدنية، من الحذر والطاعة والجدّ والتروّي، كل هذه جميعاً تنصهر عاجزة في لهيب لحظة القدر الكبيرة التي لا تتطلب دائماً إلاّ العبقري، وتصوغ منه صورة دائمة، وهو يردُّ الجبناء إلى الوراء بازدراء، ولا يرتقي إلاّ بالجسور الذي هو إله آخر للأرض، بذراعيه الناريتين، إلى سماء الأبطال.

مرثية مارييـنباد

جوته بين كارلسباد وڤايمار - ٥ أيلول ١٨٢٣

في الخامس من أيلول، عام ١٨٢٣ كانت تشير عربة سفر ببطء على الطريق الزراعي من كارلسباد إلى إيجَر: والصباح يثير رعدة برودة خريفية، والريح العاتية تجوس في الحقول الحصيدة، ولكن السماء تنتصب زرقاء فوق المنظر الطبيعي الفسيح الأرجاء، وكان يجلس في الحنطور ثلاثة رجال، مستشار الأرشيدوق زاكسن - ڤايمار وأمين سره، فوق جوته (كما تدوِّن اسمه لائحة الإمارة الناخبة في كارلسباد من باب التمجيد، وكلا الصديقين المؤتمَنَيْن، شتادِلْمن، الشاعر الشيخ، وجون، أمين السر، الذي خَطَّت يده كل أعمال جوته في القرن التاسع عشر تقريباً، أول مرة، ولا ينبس أحد من كلِيْهما ببنت شفة، لأن شفة الرجل الطاعن في السن لم تتحرك - منذ مغادرة كارلسباد، حيث تزاحمت الصبايا والفتيات على الراحلين بالتحية والقبلة، فهو يقعد في العربة بغير حراك، إلاّ أن النظرة المتأمِّلة، التي كانت حبيسة ذاتها، تشير إلى حركة داخلية. وفي أول محطة لتبديل الخيل ينزل هو، وينظر كلا الرفيقين إليه على وجه السرعة، وهو يكتب بريشة الرصاص كلمات على ورقة كيفما اتفق. ويتكرر الشيء ذاته في كل الطريق حتى ڤايمار، في الرحيل

والاستراحة. ففي تسڤوتاوْ، لم يكد يصل، وفي قصر هارتنبرج في اليوم التالي، وفي إيجر، ثم في بوسْنِكْ، وفي كل مكان، يكون أول ما يفعله أن يدوِّن ملاحظة في كتابة مستعجلة عن ذلك المغمور بأشعة الشمس في العربة التي كانت تسير. وكتاب اليوميات لا يفصح إلاّ إفصاحاً مقتضباً: «الصياغة في القصيدة» (٦ أيلول)، «وفي يوم الأحد استئناف الصياغة في القصيدة» (٧ أيلول)، «تصفُّح القصيدة مراراً في الطريق» (١٢ أيلول). وفي ڤايمار، حيث الهدف، اكتمل العمل، وهو عمل ليس بأقل من «مرثية ماريينباد» القصيدة الأهمّ على الإطلاق، والأكثر حميمية بالنسبة إليه من الوجهة الشخصية، والتي تعدُّ، من أجل ذلك أيضاً، أحب قصائده إليه في شيخوخته، إنه وداعه البطولي، وبدايته الجديدة البطولية.

لقد أطلق جوته ذات مرة، أثناء حوار، على هذه القصيدة، اسم «مذكرات أحوال داخلية» وقد لا توجد صفحة في مذكرات حياته بمثابة هذه الصراحة، وهذا الوضوح في الأصل والنشوء، بين أيدينا، مثل هذه الوثيقة التي تتساءل بأسلوب تراجيدي، وتشكو بأسلوب تراجيدي حول أكثر مشاعره صميمية. وما من سَبْك غنائي في سنوات صباه نشأ بهذا الأسلوب المباشر من حيث الباعث والحدث، وما من عمل نستطيع أن نراه يتكوَّن إلى هذا المدى، خطاً فخطاً، وشطرة فشطرة، وساعة فساعة، مثل هذه «الأنشودة الرائعة التي تجهزنا وتحضِّرنا»، هذه القصيدة الأعمق على الإطلاق، والأكثر نضجاً، قصيدة الناضج أخيراً، الذي يلتهب التهاباً خريفياً حقاً، في الرابعة والسبعين من عمره. ولمّا كانت نتاج «حالة عاطفية جامحة إلى أقصى الحدود»، كما سمّاها أمام إيكرمَن،

فهي تجمع أيضاً في الوقت نفسه بين أسمى أساليب ترويض الشكل، وإن من الواضح الجليّ، ومن الأمور الحافلة بالأسرار في الوقت ذاته، أنها تتحول إلى لحظة الحياة الأكثر نارية على الإطلاق من حيث الصياغة. وحتى في هذا اليوم، وبعد أكثر من مائة عام، لم يذبل شيء، ولم يبهت وميضه في هذه الصفحة الرائعة من حياته المُسْكرة ذات التشعُّب الواسع، ويظل هذا اليوم، الخامس من أيلول، بعد قرون من الزمان، خالداً في ذاكرة الجيل الألماني القادم وفي شعوره.

وفوق هذه الصفحة، وهذه القصيدة، وهذا الإنسان، وهذه الساعة، يتألَّق نجم الولادة الجديدة النادر. ففي شباط من عام ١٨٢٢ كان على جوته أن يصمد لمرض ثقيل ممض إلى أقصى الحدود، فثمة رعدة حمى عنيفة تزلزل الجسد، وفي بعض الساعات يكون الوعي قد غاب، وهو نفسه لا يبدو أقل غيبوبة. أمّا الأطباء الذين لا يتبيّنون عَرَضاً واضحاً، ولا يحسّون إلاّ بالخطر، فحائرون. ولكن فجأة تتوارى العلة، كما جاءت: ففي حزيران يذهب جوته إلى مارييباد، متبدلاً تبدلاً كاملاً، إذ كان الأمر يكاد يبدو وكأن تلك النوبة لم تكن إلاّ عَرَضاً دالاً على تجدُّد شباب من الداخل، وعلى بلوغ جديد "neuw pubertat”. وذلك أن الرجل المنغلق، المتصلّب، المتحذلق، الذي كان الشعريُّ فيه يتحول بأكمله إلى عِلْم أو تعلُّم بحكم تكوُّنِ القشرة القاسية التي تُغَشّيه، ما عاد، منذ عقود من الزمان يستجيب إلا للشعور استجابة كاملة، مرة أخرى. وها هي ذي الموسيقا «تُفَتِّح مطاويه ومغاليقه»، كما يقول، فما عاد يستطيع أن يسمع عزف البيانو، ولاسيما بيد امرأة فائقة الحُسْن، مثل تسيما نوقسكا؛ من دون أن تترقرق الدموع في عينيه: فهو يقصد إلى الشباب

بدافع من أعمق الدوافع، وتنتاب الرفاق الدهشة وهم يرون رفيقهم، ابن الرابعة والسبعين، يظل حتى منتصف الليل، متحمساً للحديث مع النساء، ويرون كيف يأتي، منذ سنين، إلى الرقص مرة أخرى، حيث يأتي بين يديه، كما يروي مَزْهواً «عند تبديل السيدات، معظم البنات ذوات الحُسْن». لقد انصهر كيانه الجامد في هذا الصيف انصهاراً سحرياً، وانفتح، وكانت نفسه، على ما كانت عليه الآن، تقع ضحية للسحر القديم، السحر الأبدي. وتكشف اليوميات، بأسلوب غادر، عن «أحلام متسامحة»، ويعود فِرْتَر القديم فيه إلى اليقظة: فالقرب من النساء يثير حماسته إلى قصائد وجيزة، ومعابثات ومداعبات كتلك التي كان يمارسها قبل نصف قرن مع ليلي شونيمَنْ. وما زال الاختيار يميل، مضطرباً، صوب الأنثوي: فهو يختار في البداية پولين الجميلة ثم أولريكه فون ليڤستوف، ابنة التاسعة عشرة، التي يوجه إليها كل وجدانه المتماثل للشفاء. وكان قد أحب أمها قبل خمسة عشر عاماً، وكان يبجِّلها، وما زال قبل عام، يداعب «البُنَيّة الصغيرة» مجرد مداعبة أبوية. ولكن الآن يتنامى الميل فجأة إلى الهوى الجامح، وإذا هو الآن مرض آخر يستحوذ على كيانه كله ويهزُّه في عالم الشعور البركاني هزة أعمق مما كانت تفعل منذ سنين تجربةٌ من التجاريب. وتنتاب ابن الرابعة والسبعين الحماسة كأنما عاد فتىً: فلا يكاد يسمع الصوت الضاحك في النزهة حتى يدع العمل، ويسرع من دون قبعة ولا عصا إلى بُنَيَّةٍ مَرِحة مستبشرة، غير أنه يخطب أيضاً شأن الفتى، وشأن الرجل: إنها المسرحية الشوْهاء، تنفتح ساخرة هجائية إلى حد ما، مختلطة بالمأساوي، وبعد أن تشاور مع الطبيب سراً، يفضي جوته إلى أكبر رفاقه سناً، وهو

الأرشيدوق، راجياً منه أن يتكرَّم عليه لدى السيدة ليڤتسوف بخطبة ابنتها أولريكه، ويبادر الأرشيدوق، وهو يذكر بعض لياليه مع النساء، تلك الليالي الجنونية، المشتركة معه، قبل خمسين عاماً، وربما كان ذلك بهدوء، وهو يبتسم في سرور بالأذى، ضاحكاً من الرجل الذي تبجله ألمانيا، وأوروبا على أنه أحكم الحكماء، والفكر الأكثر نضجاً وصفاءً في القرن - إلى تقلُّد النجمة والأوسمة بالأسلوب الاحتفالي، ويذهب ليطلب، من أجل ابنة الرابعة والسبعين، يد الفتاة ابنة التاسعة عشرة من أمها - ولا يُعْرَف شيء دقيق عن الجواب - وتبدو متربصة تجنح إلى المماطلة والتأجيل، وهكذا حال جوته، خاطب من غير يقين، يسعده مجرد القبلة العابرة، والكلمات ذات المقصد الحسن، بينما تضطرم في داخله على نحو يزداد جموحاً على نحو مطرد، الرغبة في أن يستحوذ مرة أخرى على قامة على هذا القدر من الرقة واللطف، ويصارع النافدُ الصبر فيه أبداً من أجل الحصول على الخطوة القصوى في لحظته الراهنة: وفي إخلاص ووفاء يتبع الحبيبة من مارييباد إلى كارلسباد. وهنا أيضاً لا يجد سوى اللايقين بالنسبة لنارية رغبته، ومع شمس الصيف الآفلة يزداد عذابه، وأخيراً يقترب الوداع فلا يوعَدُ بشيء، ولا يُبَشَّرُ إلاّ بالقليل، وحين تدرُج العربة الآن، يشعر صاحب الحدس الكبير أن شيئاً هائلاً في حياته ينتهي الآن. ولكن الرفيق الخالد لأعمق ألوان الألم هو في الساعة المُدْلَهِمّة، المُعَزّي القديم: فعلى المُعاني ينحني العبقري، والذي لا يجد العزاء في الأرضي، يستصرخ الربّ، ومرة أخرى يهرب جوته، كما فعل من قبلُ مراتٍ لا تحصى، وكما يفعل الآن آخر مرة، من التجربة إلى الشعر. وفي امتنان رائع لهذه النعمة الأخيرة، يكتب ابن الرابعة

والسبعين، حول قصيدته هذه أشعار صاحبه تاسو، التي كان نظمها قبل أربعين عاماً، ليعانيها مرة أخرى وقد تولاّه العجب:

وإذا أخلد الإنسان إلى الصمت، في غمرة عذابه،
فقد وهب لي إلهُ أن أقول ما أعاني منه

ويقعد الشيخ الآن متفكراً، في العربة التي تسير، وقد أثار في نفسه الاستياء ما تنطوي عليه أسئلته الباطنية من اللايقين. وكانت أولريكه قد هُرعت إليه حتى في الصباح الباكر، مع أختها، عند «الوداع الصاخب، وقبّله الفم الفتيّ، المحبوب، ولكن أترى هذه القبلة كانت رقيقة، نَبَوِيَّة؟ وهل ستستطيع أن تحبه، ولن تنساه؟ وابنه، وبنت حميه، اللذان ينتظران الإرث متربصين، أتراهما يصبران على زواج له؟ والعالم، ألَن يتهكّم عليه؟ ألَن يكون ابتعد عنها وولى أدباره في العالم التالي لأنه طعن في السن؟ وإذا رآها فماذا يحق له أن يأمل من هذا اللقاء؟

وتموج الأسئلة مضطربة في باله. وفجأة يتشكّل سؤاله، هو الأكثر جوهرية، ينسجم في سطر، في شطرة بيت - السؤال، حيث تتحول المحنة إلى قصيدة، «وهبها له الله» «لأقول ما أعاني منه». وينبثق السؤال، مباشراً، بل عارياً على وجه الخصوص، تنبثق الصرخة في القصيدة، اندفاعاً هائلاً لحركة داخلية:

ماذا ينبغي الآن أن أؤمِّل من اللقاء؛
من زهرة هذا اليوم التي مازالت موصدة؟
الفردوس، بل الجحيم، مفتوح أمامك؛
وما أكثر تَقَلْقُل الأفكار التي تجيش بها النفس! -
والآن يتدفق الألم في شطراتٍ كريستالية، وقد تطهر تطهُّراً دائماً

من بلبلته الخاصة. وعندما يتيه شاعر ظَرْفه الداخلي في محنة العَماء، في «الجوّ الرطب الخانق»، يرتفع طَرْفُه بطريق المصادفة، ومن العربة التي تسير عجلاتها يرى المنظر الطبيعي في بوهيميا في سكونه الصباحيّ، وقد وضع السكينة الربانية في مقابل اضطرابه وقلقه، وإذا الصورة التي رآها لتوّه تنسكب على قصيدته:

أوَ ما بقي العالم يا ترى؟ وما عادت الجدران الصخرية؟
متوَّجة بالظل المقدس؟
والمحصول، ألا ينضج؟ والأرض الخضراء
ألا تمتد على النهر، عبر الأحراش والمراعي؟
ثم، أوَلا ينتصب منحنى العظيم المتعالي على العالم،
الغنيّ بالصور، الذي لا يلبث أن يغدو عديم الصور؟
ولكن هذا العالم هو بالقياس إليه مفرط في الخلو من الروح.

وفي مثل هذه الثانية المشحونة بالعاطفة الجامحة لا يقدر على إدراك كل شيء إلاّ في ارتباطه بالحبيبة، وتتكشف الذكرى على نحو سحري لتتحول إلى تجدُّد باعث للضياء والإشراق:

لقد كنتَ تراها، كأنها منسوجة من نسيج خفيف، مزوَّق
سابحةً في الهواء كملاك الدعاء في التوراة
خارجة من جوقة السحائب الجدّية،
وكانت الجوقة تضاهيها، في الأثير الأزرق، في الجانب المقابل
صورةً هيفاء تنبعث صاعدةً من عبير، في رابعة النهار؛
تنصرَّف في رقص بهيج،
وهي الأحبُّ إلى النفوس من بين الشخصيات الحبيبة.

ولكن لم يكن يحق لك أن تجرؤ على أن تراها،
إلاّ لحظاتٍ، بدلاً من أن تتشبَّث بها؛ تشكيلاً في الهواء؛
فلتعد إلى القلب! فستراها هناك رؤية أفضل،
فهناك تتحرك في صور متبدِّلة:
وهناك تتحوَّل صورة واحدة إلى صور مفرطة في كثرتها،
آلاف المرات، تزداد ظرفاً، مع مرور الزمن.

ولكن لا تكاد صورة أولريكه تُسْتحضَر حتى تتشكل وقد باتت في صياغة محسوسة. وهو يصف كيف استقبلته وأسعدته «على مراحل»، وكيف بادرت بعد القبلة الأخيرة، إلى طبع القبلة «بعد الأخيرة» على شفتيه، ويصف الآن بالشعر إسعاد كلٍّ منهما للآخر، بأكثر الصور تسامياً، من حيث كونه الأستاذ الشيخ في شطرة من أكثر الأبيات نقاءاً، حول الشعور بالتفاني والحب، التي أبدعتها اللغة الألمانية أو أية لغة أخرى:

وفي نقاء صدرنا يموج طموح،
إلى ما هو أعلى، وأنقى، وما لا يعرف
إلى التفاني طوعاً، بدافع الامتنان،
في ذلك الذي لا يُسمّى أبداً، مخيِّبين للآمال.
ونحن نطلق اسم التقوى! - على ذلك،
وإني لأشعر أني ظفرت، إذا وقفت قبالة ذلك السمو.

ولكن في الشعور اللاحق المتعلق بهذا الظَرْف البالغ الإسعاد، على وجه الخصوص، يعاني الشاعر المهجور من فصل الحاضر عنه، والآن ينبثق أَلَمٌ يكاد يمزق الحالة النفسية المتصلة بالقصيدة الرائعة تمزيقاً، إنها

صراحة في الإحساس لا يحقق مثلها إلاّ التبدُّل التلقائي العفوي في تجربة مباشرة مرة واحدة خلال السنين، وإن هذه الشكوى لتهز النفس هزاً:

لقد بتُّ الآن بعيداً! عن الدقيقة الآنيّة،
أمّا ما يليق بهذه الدقيقة، فلست أَعرفه.
وإنها لتقدم إليَّ، مما هو جميل، بعض الخصال المستحسنة؛
غير أن هذا يُثْقِل على كاهلي، ولابدّ لي أن أتحرَّر منه.
وإنما يدفعني إلى التخبُّط على غير هدى شوق لا سبيل إلى كَبْته

ثم تتصاعد الصرخة الأخيرة، الأكثر إثارة للفزع، وهي التي لا تكاد تقدر على التصاعد:

ألا فغادريني، يا رفيقة الطريق الأمينة
ودعيني وحدي على الصخرة، في المستنقع وسط الطحلب!
ألا فليكن ذلك! فإن العالم قد انفتح لكَ،
والأرض على اتساعها، وفي مثل عُلُوِّ السماء واتساعها؛
فلتنظروا، ولتبحثوا ولتجمعوا الدقائق والتفاصيل،
ولْتَرْووا عن الطبيعة ما تفضي به من سرِّها، متلعثمة
أمّا أنا فكل هذا يُخَيِّل إليّ أنني فقدت نفسي ذاتها،
وأنا الذي كنت ما أزال الأثيرَ الأول عند الآلهة:
وهي، التي بَلَتْني، ووهبت لي عُلَب الباندورا(*)
ومهما أكن غنياً بمتاع الدنيا، فأنا بالخطر أغنى؛
لقد ازدحموا على فمي الذي يُسْعَدُ بالعطاء،
وهم يفصلونني – ويحطمونني.

* – Pandora في الأسطورة اليونانية امرأة خلقها زيوس في حالة غضب ، ومعها علبة فتحتها فانطلقت منها كل الشرور وتخلّف فيها شيء واحد هو الأمل . (المترجم) .

ولم يسبق قطُّ لذلك المتحفظ في العادة أن صدرت عنه شطرةٌ مماثلة. وذلك أن الفتى الذي كان يعرف كيف يُواري نفسه، والرجل الذي كان يعرف كيف يتحفظ، والذي كان، على الدوام، تقريباً، لا يكشف عن أعمق أسراره إلاّ في صُوَر منعكسة أو أخيلة، أو رموز، يبوح هنا وهو شيخ، أول مرة، بشعوره بحرية بَوْحاً رائعاً. وربما لم يكن الإنسان المرهف الحس، والشاعر الغنائي الكبير فيه أكثر حياة مما كانه في هذه الصفحة التي لا تنسى، في نقطة التحوُّل هذه التي يذكرها التاريخ، في حياته.

وقد أحس جوته نفسه أيضاً بهذه القصيدة إحساسه بشيء حافل بالأسرار إلى حد بالغ، وكأنه نعمة نادرة من نِعَم القدر، فلم يكد يعود إلى ڤايمار حتى كان أول ما فعل، حتى قبل أن يلتفت إلى أي عمل آخر أو رموز منزلية، أنه خطَّ بيده نسخة فنية من المرثية، وبعد ثلاثة أيام يدوِّن القصيدة على ورق يتم اختياره لذلك خصيصاً، بحروف كبيرة، احتفالية، فعْلَ راهب في صومعته، ويخفيها حتى عن أقرب رفاقه في المنزل، وحتى أكثرهم ظفراً بثقته، على أنها سر، وحتى عمل المجلِّد ينجزه هو لكيلا ينتشر الخبر عن طريق الثرثرة، بطريق التهوُّر والتسرع. ويثبِّت المخطوطَ بخيط حريري في غلاف من جلد الماعز المراكشي الأحمر ليوعز بعد ذلك بتبديله بغلاف من قماش الكتان أزرق رائع، ما زال يُرى حتى اليوم في محفوظات جوته وشيللر). والأيام باعثة للاستياء واعتلال المزاج، فلم تلق خطة الزواج في المنزل إلاّ السخرية، بل انتهت بابنه إلى حالات انفجار للكراهية المكشوفة؛ ولا يستطيع أن يقيم مع المخلوق الحبيب إلاّ في كلامه الشاعريّ، ولا يتجدد الشعور بأيام مارييناد المشرقة إلا حين تأتي الجميلة بولين، من آل تسيمانوفسكا،

لزيارته مرة أخرى، وتحمله على التبسُّط في الحديث. وفي السابع والعشرين من تشرين الأول يدعو إيكرمَن إلى المجيء إليه أخيراً، وتتجلى المسألة من مجرد الاحتفالية التي يمهد بها للإنشاد، إذ تُكشف هذه على منصة الكتابة – وبعد ذلك فحسب يطلب إلى إيكرْمَن أن يتخذ مكانه أمام الشمعدانين وأن يقرأ المرثية، وشيئاً فشيئاً يسمعها الآخرون أيضاً، ولكن أكثرهم ائتماناً فحسب، لأن جوته يصونها «كأنها أثر مقدس»، على حد تعبير إيكرمن. أما أنها تتمتع بأهمية خصوصية بالنسبة لحياته فذلك ما تكشف عنه الشهور التالية. وذلك أن حالة الارتياح والعافية المُصَعَّدة الناجمة عن تجدُّد الشباب سرعان ما يعقبها انهيار. ويبدو قريباً من الموت مرة أخرى، ويجر نفسه من السرير إلى الكرسي ذي المسند، ومن الكرسي ذي المسند إلى السرير، من دون أن يجد الراحة؛ وابنة حميه على سفر، وابنه مترع بالكراهية له، وما من أَحَد يُعْنى بالمريض المهجور أو يشاوره. هنالك يأتي تسيلتر من برلين، مدعُوّاً على ما يبدو من قبل الأصدقاء، وهو أليف قلبه المؤتمن إلى أقصى الحدود، ويتبيّن على الفور الحريق الداخلي. ويكتب قائلاً وقد تولته الدهشة: «ماذا أجد، أجد امرءاً يبدو كأنه يحب، كل الحب، بكل ما ينطوي عليه من عذاب الشباب بجسدهم». ولكي يشفيه يتلو عليه المرة، بعد المرة، على الدوام، قصيدته هو «بمشاركة من أعماق قلبه» ولا ينتاب جوته الكلل من سماعها، ويكتب الرجل الذي تماثل للشفاء بعد ذلك قائلاً: «لقد كان من الأمور الخاصة المتميِّزة أنك أسمعتني من خلال عضو سمعك الحسّاس الرقيق مراراً ما هو محبَّب إليَّ بدرجةٍ ما، وهو الأمر الذي قد لا أعترف به أنا لنفسي». ويكتب بعدها قائلاً: «لا يجوز

لي أن أدعها تخرج من يدي، ولكن ما دمنا نعيش معاً فما كان لك بدٌّ أن تتلوها عليّ وتنشدها إلى أن تستطيع أن تحفظها عن ظهر قلب».

وهكذا يأتي «الشفاء، كما يقول تسيلتر، من الحَرْبَة التي أصابته بالداء» وينقذ جوته نفسه - كما يجوز للمرء أن يقول هذا - بهذه القصيدة، وأخيراً تم التغلُّب على العذاب ويتم إلحاق الهزيمة بالأمل المأساوي الأخير، الحُلُم بحياة زوجيّةٍ مع «البُنَيَّة» المحبوبة وهو يعرف أنه لن يذهب بعدُ أبداً إلى مارييناباد، أو إلى كارلسباد، ولن يعود أبداً إلى عالم اللهو الحافل بالبِشْر، عالم الذين لا هَمَّ لهم، ومنذ الآن فصاعداً ستكون حياته موقوفة للعمل وحده. أمّا البداية الجديدة للمصير فقد زَهِدَ فيها المُمْتَحَن، وتدخل مقابلها كلمة كبيرة أخرى في محيط حياته هي «التكميل vallenden»، ويجدّ يعود بنظره القهقرى إلى عمله الذي يمتد على مدى ستين عاماً، فيراه مفرَّقاً متناثراً، ويقرِّر، إذْ ما عاد في وسعه الآن أن ينشئ المزيد منه، أن يقوم بالجمع على الأقل؛ ويتم إبرام العقد من أجل «الأعمال الكاملة» ويتم الحصول على حق الحماية لحقوق المؤلف. ومرة أخرى يتوجّه حبه الذي كان لتوه تائهاً في حب فتاة في التاسعة عشرة، إلى أقدم رفيقين لشبابه: «فيلهلم مايستر» و«فاوست»، ويقبل على العمل بهمة ونشاط، ويتم تجديد خطة القرن الماضي من الأوراق المصفرَّة، وقبل أن يبلغ الثمانين تكون «سنوات التجوال» قد اختُتمت. وبجرأة بطولية يتقدم ابن الحادية والثمانين إلى «العمل الرئيسي» في حياته، إلى «فاوست» التي يستكملها بعد سبع سنوات من هذه الأيام المصيرية المأساوية، أيام المرثية ويوصد عليها الأبواب أمام العالم بالختم والسرّية، بمثل الروح التَّقَويّ الخاشع الذي يفعل ذلك به في حالة المرثية.

وبين هذين الجَوَّين من أجواء الوجدان، بين الرغبة الأخيرة، والزهد الأخير، بين الابتداء والاستكمال، يكمن هذا الخامس من أيلول، وداع كارلسباد، ووداع الحب، الذي يشكّل نقطة الذروة (أوسَمْتَ الرأس)، لحظةً لا تنسى من لحظات الانعطاف الداخلي، متحولة إلى أبَد، من جراء الشكوى التي تُزَلْزِل النفس. ويحق لنا أن نعدَّ هذا اليوم يوماً يذكره التاريخ. ذلك لأن الأدب الألماني لم يشهد منذ ذلك الوقت ساعةً أروع من ساعة فيض الشعور العام الأصيل في هذه القصيدة العظيمة.

اكتشاف إلدورادو

ج. أ. سوتر، كاليفورنيا، كانون الثاني ١٨٤٨

المُتْعَب من أوروبا

في عام ١٨٣٤: تتوجه باخرة أمريكية من الهافر إلى نيويورك. وكان بين اليائسين، واحد بين المئات يقال له يوهان أوغست سوتر، الذي يرجع موطنه إلى رينيبرج عند بازل (بال)، ويبلغ من العمر واحداً وثلاثين عاماً، وكان في حاجة مستعجلة قصوى، إلى أن يخلِّف وراءه المحيط بينه وبين المحاكم الأوروبية، وكان، وهو المفلس، واللص، ومزوِّر العملات، قد تخلى عن زوجته وعن ثلاثة من الأطفال، ببساطة، ودبَّر لنفسه في باريس، ببطاقة شخصية خادعة، شيئاً من المال، وهو الآن يبحث عن حياة جديدة. وفي السابع من تموز ينزل في نيويورك، ويمارس هناك، على مدى عامين، كل الأعمال، الممكنة وغير الممكنة، فيغدو حَزّاماً للطرود، وعطّاراً، وطبيب أسنان، وبائع أدوية، وصاحب حانة، وأخيراً، وبعد أن استقر به المقام إلى حد ما، يستقر في فندق، ثم يبيعه من جديد ويتوجه إلى ميسوري مواكباً تيار العصر، وهناك يصبح فلاحاً، ويؤمن لنفسه خلال وقت قصير، مُلْكاً يسيراً، وبات في وسعه أن يعيش هناك بهدوء. ولكن ما يفتأ الناس يمرون ببيته مسرعين، تجار الفراء، والصيادون، والمغامرون، والجند، يرتحلون إلى

الغرب. وشيئاً فشيئاً تكتسب هذه الكلمة، (الغرب) إيقاعاً سحرياً، وكان هناك أول الأمر، فيما يعرف الناس، العتبات، وفيها قطعان الثيران الهائلة، على اتساع مسيرة أيام، أو أسابيع، خالية من البشر، لا يمرّ بها، سوى أهل البشرة الحمراء، مسرعين، ثم تأتي جبال، عالية، لم يرتق إليها إنسان، وأخيراً تلك البلاد الأخرى التي لا يعرف عنها أحد شيئاً دقيقاً، والتي يُشاد بثروتها الأسطورية، إنها كاليفورنيا التي لمّا يجر تقصّيها، إنها البلاد التي يجري فيها اللبن والعسل، متاحَيْن لكل من أراد أن يأخذ منهما، إلاّ أنها بعيدة، بعيدة بعداً لا نهاية له، والوصول إليها ينطوي على خطر على الحياة.

ولكن يوهان أوغست سوتر يجري في عروقه دم المغامرين، ولا يغريه أن يقعد ساكناً، ويزرع أرضه الطيبة. وذات يوم، في عام ١٨٣٧، يبيع كل ما يملك، ويجهِّز بعثة لها عربة وجوادان وقطيع من الثيران، وينطلق من فورت إنديبندانس إلى المجهول.

المسير إلى كاليفورنيا

١٨٣٨ ضابطان وخمسة من المبشرين، وثلاث نساء، يخرجون في عربات تجرّها الثيران إلى الخلاء الذي لا نهاية له، ويتجهون، من خلال عَتَبات وعتبات، وأخيراً من فوق الجبال نحو المحيط الهادئ. ويظلون يرتحلون طوال ثلاثة أشهر، ليصلوا، في نهاية تشرين الأول إلى فورت فان كوفر، وكان الضابطان قد غادرا سوتر من قبل. أما المبشرون فلا يواصلون المسير، وأمّا النساء الثلاث فكنَّ قد قضين نحبهن من جراء ألوان الاستغناء والحرمان.

وبات سوتر وحده، وعبثاً يحاول بعض الناس أن يردّوه، وفي فان كوفر تتاح له وظيفة، ويرفض كل شيء، إذ يستقر إغراء الاسم السحريّ في دمه. وبقارب شراعي وحيد الشراع يعبر المحيط الهادي أولاً إلى جزر ساندويش، وينزل، بعد صعوبات لا نهاية لها، ماراً بسواحل ألاسكا، وفي مكان مهجور يقال له سان فرانسيسكو، وسان فرانسيسكو - وليس مدينة اليوم - التي ارتفع تعداد سكانها، بعد التعداد، بنموّ مضاعف - إلى أرقام بالملايين، كلاً، فهي مجرد قرية بائسة من قرى الصيادين، أطلق عليها هذا الاسم تبعاً لبعثة الفرنسيسكان، وليست حتى عاصمة إقليم كاليفورنيا، ذلك الاقليم المكسيكي المجهول، المتروك بوراً، يباباً، مهملاً، بلا نظام ولا ازدهار، في أكثر مناطق القارة الجديدة امتلاءً بالخضرة الوارفة.

وكانت تسود الفوضى الإسبانية التي يزيد فيها غياب أي سلطة، والثورات، والنقص في ثيران العمل وفي البشر، والنقص في طاقة الجر. ويستأجر سوتر جواداً ويسوقه إلى الأعلى، في الوادي الخصيب، وادي سكرامينتو، إذ يكفي يوم ليُريَه أنه لا يتوافر هنا مكان لمزرعة فحسب، أو لعزبة كبيرة، بل يتوافر مكان من أجل مملكة. وفي اليوم التالي يذهب راكباً إلى مونتي راي، إلى العاصمة البائسة، ويقدم نفسه إلى حاكمها ألفيرادو ويعلن له عن رغبته في جعل هذه الأرض صالحة للزراعة، وكان قد جاء معه برجال من المحيط الهادي، من الجزر، ويقول إنه يريد أن يدع هؤلاء الملونين الناشطين، العاملين يتناسلون على نحو نظامي، ويتعهَّد بإنشاء مستوطنات ومملكة صغيرة، من أجل تأسيس هيلفيتيا الجديدة.

ويسأل الحاكم: ولماذا «هيلفيتيا الجديدة»؟

ويجيب سوتر قائلاً: «أنا سويسري، وجمهوري».

«لا بأس، فلتفعل ما تشاء، سأعطيك امتيازاً لمدة عشر سنوات».

ويرى الناس أن الصفقات هنا تعقد على عجل، فعلى بعد ألف ميل عن كل حضارة تتمتع طاقة إنسان فرد بسعر مختلف عن سعرها في الوطن.

هيلفيتيا الجديدة

قافلة تقطع الطريق رويداً رويداً على طول ضفة وادي سكرامينتو، صاعدة. وفي المقدمة سوتر على ظهر جواده، يتنكّب بندقيه، ووراءه اثنان، أو ثلاثة من الأوروبيين، ثم مائة وخمسون من رجال جزر المحيط الهادئ في قميص قصير، ثم ثلاثون من عربات تجرها الثيران، تحمل المواد الغذائية، والبذور الزراعية والمؤونة، وخمسون جواداً، وخمسةٌ وسبعون بغلاً، وبقرات وخراف، ثم مؤخرة صغيرة، وهذا هو الجيش الذي يريد سوتر أن يفتتح به هيلفيتيا الجديدة.

وكانت تدرج أمامهم موجة هائلة من النار، وكانوا يشعلون الغابات، وهي طريقة مريحة أكثر من استئصالها. وكان اللهيب العملاق لا يكاد يجري على الأرض وعلى جذوع الأشجار الداخنة، حتى يكونوا قد شرعوا في عملهم. وكانت تبنى المخازن وتحفر الآبار، وتُبْذَر الأرض التي لم تكن في حاجة إلى حراثة، وتُؤَمَّن الحظائر من أجل القطعان التي لا نهاية لها، وشيئاً فشيئاً تتدفق من الأماكن المجاورة زيادة من مستعمرات التبشير المهجورة.

ويكون النجاح عملاقاً. وتؤتي البذور ثمارها على الفور بنسبة خمسمائة في المائة، وتنفجر مخازن الغلال، وسرعان ما يبلغ تعداد

القطعان الألوف المؤلفة، وبغض النظر عن الصعوبات المستمرة في الأرض، والحملات ضد السكان الأصليين الذين ما يفتأون يتجرأون على الإغارات على المستعمرة المزدهرة، تتطور هيلفيتيا الجديدة لتبلغ الحجم الاستوائي الهائل، ويتم إنشاء القنوات والمطاحن والمصانع، وفي الأنهار تجري السفن ضد التيار وفي اتجاهه. ولا يقوم سوتر بتزويد ڤان كوفر وجزر ساندويش فحسب، بل يزوِّد أيضاً ركاب القوارب الشراعية الذين يستثمرون في كاليفورنيا، وكان يزرع الفواكه، فواكه كاليفورنيا ذات الشهرة الواسعة اليوم، والتي تحظى بالكثير من الإعجاب، وإذا هي تزدهر، وهكذا يوعز باستيراد الكرمة من فرنسا ومن الراين، وبعد قليل من السنين تغطي الكرمة مساحات شاسعة من الأراضي، وكان يبني لنفسه بنفسه منازل وينشئ مزارع وارفة الظلال ويوعز بجلب بيانو من بلاييل، مسافة رحلة مائة وثمانين يوماً، من باريس، تحمله باخرة بقوة ستين جاموساً من نيويورك على طول القارة بأكملها، ويبيت وله قروض وممتلكات لدى البيوت المصرفية الكبرى في إنكلترا وفرنسا. والآن، وبعد أن بلغ الخامسة والأربعين، أي في ذروة انتصاره، يتذكر أنه ترك، قبل أربعة عشر عاماً، زوجة وثلاثة من الأطفال في مكان ما من العالم. ويكتب إليهم ويدعوهم إليه في أمارته، ذلك لأنه يشعر الآن أنه بات يملك الفيض في يديه، فهو سيد هيلفيتيا الجديدة، وهو واحد من أغنى الرجال في العالم، وسيظل كذلك. وأخيراً تنتزع الولايات المتحدة أيضاً المستعمرة المهملة من أيدي المكسيك، والآن بات كل شيء مضموناً ومكفولاً. وما هي إلاّ بضع سنوات أخرى ويغدو سوتر أغنى رجل في العالم قاطبة.

طعنة المِسْحاة المشؤومة

١٨٤٨، كانون الثاني، فجأة يأتي جيمس و. مارشال، النجار التابع ليوهان أوغست سوتر، منفعلاً، مقتحماً عليه المنزل، ويقول إنه لابد له أن يتحدث إليه، وتنتاب سوتر الدهشة، إذ كان قد أرسل بالأمس فحسب مارشال إلى مزرعته في كولوما، ليؤسس هناك منشرة جديدة. والآن يعود الرجل من دون إذن، من حيث جاء، ويمثل أمامه مرتعداً من الانفعال، ويقتحم عليه حجرته، ويوصد الباب، ويخرج من جيبه حفنة من الرمل فيها بضع حبات صُفْر، ويقول إنه قد لفت نظره بالأمس أثناء الحفر هذا المعدن الغريب، وهو يعتقد أنه ذهب، ولكن الآخرين ضحكوا منه، وينتاب سوتر الجدّ، ويأخذ الحبّات، ويقوم بالتجربة الحاسمة: إنه الذهب، ويصمم على الصعود إلى المزرعة على الفور، في اليوم التالي، مع مارشال. ولكن النجار المعلم أول من يصاب بالحمى الرهيبة التي سرعان ما تهزُّ العالم: ففي الليلة ذاتها، وفي غمرة العاصفة، يركب عائداً أدراجه، باحثاً عن اليقين، نافد الصبر.

وفي الصباح التالي يكون الكولونيل سوتر في كولوما، ويسدّون القناة ويفحصون الرمل. ولا يحتاج المرء إلاّ إلى أن يتناول غربالاً ويهزه قليلاً يمنة ويسرة، وتتخلّف ذرات الذهب صافية فوق الشبكة المضفورة السوداء. ويجمع سوتر الرجال البيض حواليه، ويأخذ عليهم كلمة الشرف أن يصمتوا إلى أن تكون المنشرة قد اكتملت، ثم يركب عائداً إلى مزرعته بجدّ وتصميم. وتعتمل في داخله أفكار مهولة: فعلى قدر ما يستطيع المرء أن يتذكر، لم يسبق لأحد أن رأى الذهب في متناول اليد

أبداً بهذه السهولة، ومكشوفاً على هذا النحو في الأرض، وهذه الأرض له، هي ملك سوتر. ويبدو أنه تم القيام بقفزة على مدى عقد من الزمان في ليلة واحدة: لقد بات أغنى رجل في العالم.

الهَجْمة

أهو الرجل الأغنى؟ كلاً - بل الأفقر، والأدعى للرثاء، والمتسوِّل الأكثر خيبة على وجه البسيطة. فبعد ثمانية أيام يكون السر قد انكشف. وذلك أن امرأة - وهي المرأة دائماً! - رَوَتْ ذلك لعابر سبيل، كائناً ما كان، وأعطته بضع حبّات من الذهب، وما يحدث الآن، لا مثيل له. فعلى الفور يدع كل رجال سوتر عملهم، ويغادر الحدادون ورشتهم، ويغادر الرعاة قطعانهم، ويغادر زُرّاع الكرمة كرومهم، ويتخلى الجند عن بنادقهم، ويغدو القوم جميعاً كالمهووسين، ويَعْدون بغرابيل وقدور يأتون بها على عجل، إلى المنشرة، ليغربلوا الذهب من الرمل، وخلال ليلة واحدة تغدو البلاد بأسرها مهجورة، والبقرات الحلوب، التي لا يحلبها أحد، تزمجر وتنفق، أما قطعان الثيران فتخرِّب حظائرها وتخبط أظلافها في الحقول، حيث تتعطن الثمار على أعوادها، ومعامل الجبن لا تعمل. وتنهار مخازن الغلال، وتخلد المسنَّنات الهائلة إلى السكون في المصنع العملاق، وتتولى البرقيات نشر الوعد الذهبيّ عبر البلدان والبحار، وإذا الناس يُقْبِلون صاعدين، من المدن والموانئ، وإذا البحارة يغادرون سفنهم، وموظفو الحكومة يغادرون وظائفهم، ويسير الناس في طوابير طويلة لا تنتهي، من

الشـرق، والغـرب، مـشـاة، وعلى ظهـور الخـيـل، وفي العـربات، إنـهـا الهجمة، سِرْبُ الجراد، المنقِّبون عن الذهب. ثُلَّة من الهمج مطلقة العنان لا تعرف شريعة سوى قبضة اليد، ولا وصية سوى مسدسها، تتدفَّق على المستعمرة المزدهرة. وكل شيء بالقياس إليها لا صاحب له ولا سيِّد، وما من أحد يجرؤ على التصدِّي لهؤلاء اليائسين. ويذبحون بقرات سوتر، ويخرِّبون مخازن غلاله، ليبنوا لأنفسهم بيوتاً، ويدوسون بأقدامهم أرضه الزراعية، فيفسدونها، ويسرقون آلاته - وبين عشية وضحاها بات يوهان أوغست سوتر فقيراً يُحْوِجه فقره إلى التسوُّل، كالملك ميداس الذي يختنق في ذهبه.

وتظل هذه العاصفة التي تهبُّ في طلب الذهب، والتي لا مثيل لها، تزداد جبروتاً، ويتسرَّب الخبر إلى العالم، ومن نيويورك وحدها تنطلق مائة سفينة، ومن ألمانيا، ومن إنكلترا، ومن فرنسا، ومن إسبانيا تأتي في الأعوام ١٨٤٨، ١٨٤٩، ١٨٥٠، ١٨٥١ جيوش همجية هائلة من المغامرين قادمة إلى هنا، وبعضها يسير حول رأس هورن، ولكن هذا مفرط في الطول بالقياس إلى أقلهم صبراً، ولذلك يختارون أخطر الطرق، عبر برزخ بناما. وثمة شركة تعقد عزمها على جناح السرعة تنشئ بهمة ونشاط، على البرزخ، خطاً حديدياً يهلك فيه الألوف من العمال في الحمى لمجرد أن يتم توفير ثلاثة أسابيع إلى أربعة على نافدي الصبر، وليصلوا في وقت أَبْكَر إلى الذهب. وتسير عبر القارة قوافل هائلة، أناس من كل الأعراق واللغات وكلهم ينقِّب في مُلْك يوهان أوغست سوتر، وكأنه ينقِّب في أرضه الخاصة. وعلى

تراب سان فرانسيسكو، الذي يعود إليه بفعل الوثيقة الرسمية المختومة من قبل الحكومة تنمو بسرعة كما في الأحلام مدينة، وإذا أناس غرباء يبيع بعضهم لبعض أرضه وعقاره، أما اسم هلفيتيا الجديدة التي هي مملكته، فيتوارى وراء الكلمة السحرية: إلدورادو(*)، كاليفورنيا.

ويحملق يوهان أوغست سوتر، الذي عاد مفلساً مرة أخرى، كالمشلول، في هذه البذرة الأفعوانية العملاقة. وفي بادئ الأمر يحاول أن يشارك في التنقيب، وأن يستغل بنفسه، مع خدمه ورفاقه، هذه الثروة، ولكنهم يهجرونه جميعاً، ولذلك ينحسب انسحاباً كاملاً من منطقة الذهب، إلى مزرعة منعزلة، قريبة من الجبال، بعيدة عن النهر الملعون والرمل غير المقدس، إلى مزرعته إيريميتاج. وهناك تصل إليه زوجته مع أولاد ترعرعوا، ولكن لا يكادون يصلون حتى تموت هي نتيجة لإجهاد الرحلة ولكن هناك الآن ثلاثة أولاد، وثماني أذرع، وبهم يبدأ يوهان أوغست الزراعة، مرة أخرى، مع ثلاثة أبناء، ويشق طريقه صعوداً بالعمل، في هدوء وسكينة، وجَلَد، ويستفيد من الخصوبة الخيالية في هذه التربة. ومرة أخرى ينطوي على خطة كبرى.

القضية

١٨٥٠ قبلت كاليفورنيا في اتحاد الولايات المتحدة، وأخيراً، وبموجب نظام الولايات الصارم يسود أخيراً النظام في البلاد المجنونة

* – Eldorado: موطن أسطوريّ الثروة، المورد.

بالذهب، ويتم إلجام الفوضى، ويعود القانون إلى نصابه.

والآن يتقدم يوهان أوفست سوتر فجأة بحقوقه ومطاليبه، ويقول في طلبه إن كل الأرض التي بنيت عليها مدينة سان فرانسيسكو تعود إليه بموجب الحق والقانون وإن الدولة ملزمة بتعويض الضرر الذي عانى منه من جراء سرقة ملكه، ويطالب قبل كل شيء بحصته من الذهب الذي يجري استخراجه من أرضه. وتبدأ قضية بأبعاد لم تعرف مثلها البشرية قبله أبداً، ويرفع دعوى على سبعة عشر ألفاً ومائتين من المزارعين الذين استوطنوا في مزارعه، ويطالبهم بإخلاء الأرض المسروقة، ويطالب ولاية كاليفورنيا بخمسة وعشرين مليون دولار لأنها استملكت ببساطة، ما أنشأ من الطرق والقنوات والجسور والخزانات والمطاحن، ويطالب الاتحاد بخمسة وعشرين مليون دولار تعويضاً عن الأملاك المخرَّبة. ويطالب فضلاً عن ذلك بحصته من الذهب الذي يجري استخراجه، وكان قد ترك ابنه، إميل، يدرس الحقوق في واشنطن، لمتابعة القضية، ويستعمل الواردات الهائلة من مزارعه الجديدة لتغذية هذه القضية الباهظة التكاليف، ويظل طوال أربع سنوات يتابعها على كل درجات التقاضي.

وفي ١٥ آذار من عام ١٨٥٥ يتم أخيراً إصدار الحكم. إذ يعترف القاضي النزيه ثومبسون، وهو أعلى موظف في كاليفورنيا بحقوق يوهان أوغست سوتر في الأرض، اعترافاً كاملاً على أنها حقوق لها ما يبررها ولا يجوز المساس بها. وفي هذا اليوم يصل يوهان أوغست سوتر إلى هدفه، وهو أغنى رجل في العالم قاطبة.

النهاية

أغنى رجل في العالم؟ كلاً، وأقولها مراراً، بل هو أفقر متسوِّل وأكثر الناس تعاسة، وهو المهيض الجناح إلى أقصى الحدود. ومرة أخرى يسوق القدر ضده واحداً من تلك المقالب، غير أنه الآن مقلب يطرحه أرضاً إلى الأبد. فعلى أثر الخبر الخاص بالحكم تهب عاصفة في سان فرانسيسكو وفي البلاد بأسرها، إذ يحتشد عشرات الألوف، كل المالكين المهدَّدين، وغوغاء الشارع، والرعاع الذي يُسَرُّون أبداً بالنهب، ويقتحمون قصر العدل، ويحرقونه ويخرِّبونه، ويبحثون عن القاضي ليشنقوه، ويقومون جماعةً هائلة لينهبوا كل ممتلكات يوهان أوغست سوتر. أمّا ابنه الأكبر فيطلق النار على نفسه، إذ يحصُره قطّاع الطرق، وأمّا الثاني فيقتل، وأمّا الثالث فيهرب ويغرق أثناء عودته. وتهب موجة من النار على هيلفيتيا الجديدة، فتحترق مزارع سوتر، وتداس أشجار كرمته بالأقدام، ويُنْهَب أثاثه، ومجموعاته، ونقوده، ويتحول المُلْكُ الهائل إلى يباب، في موجة غضب لا ترحم. أما سوتر نفسه فينجو بنفسه بجهد جهيد.

ولم يفق يوهان أوغست سوتر من هذه الضربة أبداً. فأبيد عمله، وماتت زوجته وأولاده، وتشوَّش عقله، وما عاد هناك إلاّ فكرة مازالت تومض مشوَّشة في دماغه الذي بات منقبضاً تنبعث منه رائحة العفونة: ألا وهي الحق، والقضية.

ويظل بعد ذلك رجلاً شيخاً، ضعيف العقل، مهلهل الثياب، يتيه خمسة وعشرين عاماً في واشنطن، حواليْ قصر العدل. ويعرف الناس

في كل المكاتب هناك «الجنرال» في معطفه الوسخ، وبالحذاء الممزّق، يطالب بملياراته. ويظل يوجد، المرة، بعد الأخرى، محامون، ومغامرون، ونصّابون، يَخْتلسون منه آخر ما تبقى من معاشه، ويدفعونه من جديد إلى القضية. على أنه لا يريد، هو نفسه، مالاً، وهو يكره الذهب الذي يفقره، والذي يقتل له ثلاثة أولاد، ويدمِّر حياته. إنه لا يريد إلا حقه، ويجري وراءه، بالمرارة الكثيرة التبرُّم والشكوى التي يتسم بها امرؤٌ مهووس بفكرة وحيدة. ويشكو إلى مجلس الشيوخ، ويشكو إلى الكونجرس، ويفضي بأمره إلى ألوان شتى من المساعدين يُلْبِسونه حلة جنرال، ويجرّون المنكود الحظ، كما يُجَرُّ البُعْبُع، من دائرة إلى أخرى، ومن نائب إلى آخر. ويدوم هذا عشرين عاماً، من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٨٨٠. سنوات تسوُّلٍ عشرون تبعث على الرثاء، ويظلُّ، يوماً فيوماً، يتسكّع حول قصر الكونجرس، أضحوكة كل الموظفين، وألعوبة بين يدي كل أولاد الأزقّة، هو الذي تعود إليه أغنى بلاد على وجه الأرض، والذي تقوم على أرضه وعقاره العاصمة الثانية للدولة العملاقة، وهي تنمو في كل ساعة. غير أن القوم يدعون الرجل المزعج ينتظر، وهناك، على سلّم قصر الكونجرس تلقاه في النهاية، في السابع عشر من حزيران ١٨٨٠، بعد الظهر، النوبة القلبية المنقذة، ويتولّى القوم إبعاد متسوِّل ميت. متسوِّل ميت، ولكنه يحمل في جيبه استدعاءً رسمياً يضمن له ولورثته، بموجب كل قوانين الدنيا، الحق في أكبر ثروة في تاريخ العالم.

ولم يطالب أحد حتى الآن بتركة سوتر، ولم يبلّغ أحد من نسله عن

حق في الميراث. وما زالت سان فرانسيسكو قائمة، وما زالت بلاد بأسرها قائمة على أرض أجنبية، وما زال الحكم بالحق لم يصدر القول فيه هنا، إلاّ أن فناناً، هو بليزساندرارز، وهب ليوهان أوغست سوتر، الحق في مصير عظيم على الأقل، الحق في تذكار مترع بالدهشة للعالم من بعده.

لحظة بطولية

دوستوييفسكي، بطرسبرج، ميدان سيمينوفسك
٢٢ كانون الأول ١٨٤٩

انتزعوه من نومه في الليل
وكان صليل السيوف ينبعث في الملاجئ المقاومة للقنابل
وأصوات تصدر الأمر، في اللايقين.
وتختلج ظلال تهدِّد، كالأشباح.
ويدفعون به إلى الأمام. وتتثاءب هُوَّة عميقة
طويلة ومظلمة، مظلمة وطويلة.
ويرتفع زعيق مِزْلاج، وصرير باب.
ثم يحس بالهواء والهواء الجليدي
وثمة عربة تنتظر، قبرٌ يدرج على عجلات.
يُدْفَع فيه على عجل.

وإلى جانبه الرفاق العشرة
موصداً عليهم في الحد القاسي
صامتين، قد شحبت وجوههم

وما من أحد يتكلم.
لأن كلاً منهم يحسّ
إلى أين تنتهي به العربة.
وأن هذه العجلة التي تدرج في الأسفل
تطوي حياتهم بين أعوادها.

هنالك تتوقف
العربة ذات الجَعْجَعَة، ويَصرُّ الباب
ومن خلال السور المفتوح يحملق
في قطعة مظلمة من العالم.
في نظرة ناعسة، متكدِّرة،
مربَّع من المنازل،
والسقوف منخفضة
مغطَّاة بالصقيع، مع الأقذار،
يحيط بميدان حافل بالظلام والثلج.
والمحكمة العليا،
يحيط بها الضباب كدقائق الزهر، يلفُّها بنسيج أبيض
وحول الكنيسة الذهبية فحسب
يجرُّ الصباح ذيوله بضوء مشرَب بحمرة الدم النازف الصقيعيّ.

ويتقدمون جميعاً، صامتين
وينطق ملازم بالحكم الصادر في حقهم.

الموت، جزاء الخيانة، بالبارود والرصاص،
الموت!
ويكون للكلمة وَقْع كالحجر الضخم
إذ يقع في مرآة السكون الصقيعيّ
ويكون لها صدى حاد
وكأن شيئاً ينكَسِر
ثم يغوص الصدى الخاوي، في القبر الذي لا صوت فيه
في سكون الصباح الجليديّ

وكما في الحلم
يحسّ بكل شيء يحدث له
وكل ما يعرفه أنه لابدّ له أن يموت الآن.
ويتقدم واحد منهم، ويلقي عليه، في صمت
قميص موتٍ أبيضَ، فضفاض
وكلمة أخيرة تحيي الرفاق
في نظرة حارّة
وفي صرخة خرساء
يُقَبِّل المسيح على الصليب
الذي يقدمه إليه القسيس الأرثوذكسي، جاداً ومذكِّراً

ثم يُبَرْشَمون جميعاً
العشرة، كل اثنين أو ثلاثة
بحبال إلى أوتادهم

وإذا
قوزاقيٌّ قادم على عجل
ليعصب عينيه لكيلا تبصرا البندقية
هنالك يلجأ - وهو يعرف ذلك: أنها المرة الأخيرة! -
النظرُ، قبل أن يصاب بعماه الكبير، في شَرَه
إلى تلك القطعة الضئيلة من العالم، أمامه،
التي تعرضها عليه السماء من الجهة المقابلة.
وفي بريق الصباح الباكر يرى الكنيسة تستعر:
ويتوهَّج سطحها الخارجي،
كأنما يحدث ذلك من أجل العشاء الرباني المبارك الأخير.
وقد أُتْرِع بشفق الصباح الأحمر المقدَّس.
ويلجأ إليه بسعادة مفاجئة
مثلما يفعل بعد حياة الرب وراء الموت...

هنالك يشدّون وَثاق الليل حول بصره
ولكن في الداخل
يأخذ الدم الآن في الجريان، ملوَّناً
في طوفان عاكس، كالمرآة
وتتصاعد من الدم
حياةً متشكِّلة،
وهو يشعر،
أن هذه الثانية، التي يدشنها الموت،

وكل ضروب الماضي المفقود
تنساب في أرجاء نفسه، مرة أخرى، فتغسلها:
ويقود حياته بأسرها، مرة أخرى، إلى اليقظة
وتطوفُ كالشبح، في صُوَرٍ، في جوانحه؛
أما الطفولة فاحبة، مضيَّعة، قاتمة،
وأبوه، وأمه، وأخوه، وزوجه،
والقليل، القليل، من الصداقة، وكأسان من المتعة،
وحُلُم بالمجد والشهرة، وصُرَّة من المهانة والعار؛
والاندفاع التصويريّ يدرُج على عجلاته، نارياً
على طول شرايين الشباب الضائع.
ويشعر بكل وجوده، مرة أخرى، في عمق الداخل
حتى الثانية،
التي شدّوا فيها وثاقه إلى الوتد.
ثم يلقي تفكُّرٌ ما،
أسودُ، ثقيل
بظلاله على النفس.

وهنا
يحسّ بأن أحدهم يتقدَّم منه،
يحسّ بخطوة سوداء صامتة،
قريبة، كل القرب.
وحين يضع يده على قلبه،

بأن دقاته تغدو أضعف.. فأضعف... ثم ما عاد يدق على الإطلاق–
وما هي إلاّ دقيقة أخرى – ويكون كل شيء قد انقضى.
والقوزاق
يتشكّلون، في الجهة المقابلة، صفاً ناجحاً...
والسُّيور تعلو وتهبط... والأيدي تنهال...
والطبول تجلجل في الهواء فتكسره.
والثانية تجعل عمر المرء آلافاً من السنين.

هنالك تنطلق صرخة:
أمسكوا!
والضابط
يتقدم، وفي يده تومض ورقة بيضاء
وصوته يقطع السكون، جلياً واضحاً
في السكون المتواصل:
لقد ألغى القيصر الحكم
برحمة إرادته المقدسة
واستبدل به عقوبة أقلّ.

والكلمات ما زال لها
وقع غريب: فهو لا يستطيع أن يتصور معناه،
ولكن الدم
في شرايينه يحمرُّ من جديد،

وينهض قائماً، ويأخذ في الغناء بصوت خفيض كل الانخفاض.
والموت.
يزحف خارجاً، على تردُّد، من المفاصل المتجمِّدة.
والعينان تحسّان، وما زالتا معصوبتين لا تريان إلاّ السواد.
أن تحية من النور الأبدي تُحْدِق بهما

ويتولى مدير القضاء العسكري
قطعَ الحبل وهو صامت
وتقوم يدان برفع العصابة البيضاء
وكأنَّها تَقْشُران لحاءً متشققاً من شجر البتولا
عن صَدْغَيْه الملتهبَيْن.
وتخرج العينان من القبر وهما تترنَّحان
وتتلمسان الطريق، في غير براعة، مبهورتين، واهِنتَيْن.
في الوجود الذي تركتاه لتوِّهما
من جديد.
وإذا هو يرى
سقف الكنيسة الذهبي ذاته
الذي يلتهب الآن، صوفيّاً
في بريق شفق جمرة الصباح الباكر، الذي يصعد الآن

والورود الناضجة في حمرة شفق الصباح
تحيط بالسقف، كأنما يحدث هذا في صلاة خاشعة

ومقبض السيف البرّاق
يشير بيده المُصَلَّبة،
وهو سيف مقدس، مرتفعاً، في حافة السحائب
التي احمرَّت احمراراً باعثاً للبهجة.
وهناك، تنمو، فوق الكنيسة كاتدرائية الرب
باعثة للنشوة، في سطوع الصباح.
ونَهْرٌ
من النور، يُطَوِّح بموجته اللاهبة
عالياً، في كل السموات الصادحة

وأمواج الضباب
تصعد، داخنةً، وكأنها
محمَّلة بكل ظلمة الأرض
داخلة في رونق الصباح الإلهي.
وانبعاث الأصوات يفيض صاعداً من الأعماق
وكأن ألف صوت
ينسَجِمْنَ في جوقة واحدة

وهنا يسمع، أول مرة
كيف يبعث العذاب الأرضي بأسره
بمعاناته اللاهبة
صارخاً بها، من أعماق القلب، من فوق الأرض

ويسمع أصوات المساكين والضعفاء،
والنساء اللواتي يبذلن أنفسهن عبثاً،
والعواهر، اللواتي يتضاحكن من أنفسهن،
ويسمع ضغينة المتكدِّرين أبداً،
والمعتزلين الذين لم تمسسهم ابتسامة
ويسمع الأطفال، الذين ينشجون، ويشكون
والعجز الصارخ عند من تعرَّضوا للإغواء في السر
يسمعهم جميعاً، أولئك الذين يحملون عبء الآلام
والمجذومين، وأهل الرطوبة الباعثة للانقباض، والمتعرِّضين للسخرية
وغير المتوَّجين
وشهداء كل الأزقة، والأيام
يسمع صوتهم، ويسمع كيف يرتقون
في السماء المفتوحة
بلحن ذي قوة فطرية أصيلة
ويرى
أن المعاناة وحدها هي التي تنهض بالمرء إلى ربّه
بينما تُلْصِق الآخرين، الحياةُ الثقيلة
بسعادة ثقيلة الوطأة، بالتراب
ولكن النور يَنْفَسِخ بلا نهاية في الأعالي
وتحت الفيض
فيض الجوقات الصاعدة
من المعاناة الأرضية

وهو يعرف، يعرفهم جميعاً،
وسوف يسمعهم الرب جميعاً،
فسمواته تصدح بصوت الرحمة!

والفقراء
لا يقيم الرب لهم محكمة،
فالرحمة التي لا نهاية لها
تخترق بلهيبها قاعاته، بضوء أبدي.
وفرسان نهاية العالم ينثرون الغبار حواليهم، بعيداً
وتتحول الآلام إلى متعة، والسعادة إلى عذاب.
لذلك الذي يشهد الحياة في الموت
وإذا قلاك ناريّ يسبح في الهواء
باتجاه الأرض
ويحفر له شعاع الحب المقدس
المولود من الألم.
حفراً عميقاً، مُشعّاً في القلب المرتعد
هنالك ينهار جاثياً على ركبتيه، كأنما سقط
ويشعر، دفعة واحدة، بالعالم كله
حقيقياً، وفي معاناته التي لا نهاية لها
ويرتعد جسده
والزبد الأبيض يغسل أسنانه
لقد شوّه التشلّج ملامحه،

ولكن الدموع
تخضِّب كفنه، في سعادة
لأنه يشعر أن قلبه
لا يشعر بحلاوة الحياة
إلاّ منذ أن لامس شفاه الموت المريرة
وروحه يتحرَّق شوقاً إلى العذاب والجروح،
ويتبيَّن له
أنه كان، في تلك الثانية الواحدة،
ذلك الآخر،
الذي مَثَل على الصليب، قبل ألف عام
وأنه، مثله،
لابدّ أن يحب الحياة من أجل المعاناة
منذ قبلة الموت، تلك اللاهبة المستعرة.

وينتزعه الجند بعيداً عن الوتد
ويدفعون به، في القطار العائد، بفظاظة
شاحباً
وكأنَّ وجهه انطفأ
ونظرته
غريبة، موجهة نحو الداخل كل التوجيه،
وقد تعلّقت حول شفتيه المختلجتين
الضحكة الصفراء، ضحكة آل كرامازوف

الكلمة الأولى عَبْر المحيط

سايروس و. فيلد، ٢٨ تموز ١٨٥٨

الإيقاع الجديد

لم يكن يجري، خلال كل الآلاف من السنين، وربما مئات الألوف من السنين، منذ أن خطا المخلوق الغريب، الذي يقال له الإنسان، على وجه الأرض، إيلاءُ الاعتبار، لمقياسٍ للحركة الانتقالية على الأرض، أعلى، إلاّ لعَدْوِ الخيل، والعجلة التي تدرج على الأرض، أو السفينة التي يُجَذَّف بها، أو تذهب بها الأشرعة، وكل هذا الفيض من التقدم التقني، داخل ذلك المجال الضيِّق الذي ينيره الوعيُ، والذي نسميه تاريخ العالم، لم يُسْفِر عن تسريع في إيقاع الحركة. وكانت جيوش ڤالنشتاين لا تكاد تتقدم بأسرع من فرق قيصر، ولم تكن جيوش نابليون تنطلق بأسرع ممّا كانت تنطلق به جيوش الهَمَج من أصحاب جنكيز خان، على أن السفن الحربية المتوسطة أيام نيلسون ليست بأسرع من قوارب قرصنة الڤايكنج وسفن الفينيقيين التجارية إلا قليلاً. وثمة رجل يقال له لورد بايرون لا يتمكّن من رحلته التي تضاهي رحلات تشيلدهارولد بسرعة تزيد على سرعة أوڤيد، في طريقه إلى المنفى البونتي، أكثر من ميلين في اليوم. ويرتحل جوته، في القرن الثامن عشر، على نحو ليس بأكثر راحة، في

جوهره، أو أسرع، من رحلة الرسول بولس في مستهل الألفيّة، وتظل البلدان تقع بعضها من بعض، في المكان والزمان، متباعدة، في عصر نابليون، مثلما كانت في أيام امبراطورية الرومان، وما زالت مقاومة المادة تنتصر على إرادة الإنسان.

وكان القرن التاسع عشرَ أول من يغير المقياس والإيقاع على وجه الأرض، تغييراً أساسياً. ففي العقد الأول والثاني منه تتدانى البلدان بعضها من بعض، بأسرع مما كان يحدث خلال آلاف السنين، فعن طريق الخط الحديدي، وعن طريق المركب البخاري، يتم التمكن من الرحلات اليومية التي كانت من قبل تتم في يوم واحد، وتتم الرحلات التي كانت تجري حتى اليوم في ساعات سفر لا نهاية لها، خلال ربع ساعة، ودقائق. ولكن مهما كانت هذه الألوان الجديدة من التسريع يجري الإحساس بها من قبل المعاصرين على أنها مظفَّرة، عن طريق الخط الحديدي، والمركب البخاري، فإن هذه الاختراعات مازالت تقع على كل حال، في مجال المعقول، ذلك لأن وسائط النقل هذه ضاعفت السرعة التي كانت معروفة حتى الآن، خمسة أضعاف، وعشرة أضعاف، وعشرين ضعفاً، فحسب، بلا ريب، وكانت النظرة الخارجية والإحساس الداخلي مايزالان قادريْن على متابعتها، وعلى أن يفسِّر لنفسيهما ما كان أعجوبة في ظاهره. غير أن الإنجازات الأولى للكهرباء تظهر مفاجئة كل المفاجأة في آثارها، إذ تتصادم مع كل القوانين التي كانت موجودة حتى الآن، وتعادل هرقل في علوّ شأنها وهي بعدُ في مهدها، وتحطِّم كل المقاييس. ولن نستطيع أبداً، نحن المتأخرين، أن نقدِّر الإحساس بالاندهاش لدى تلك الأجيال تجاه الإنجازات الأولى للبرقية الكهربائية، والذهول الهائل والمفعم

بالحماسة، تجاه كون تلك الشرارة الكهربائية الصغيرة ذاتها، التي لا يكاد المرء يشعر بها، والتي تمكنت بالأمس، من الانتقال بأزيزها من زجاجة لَيْدِن، مسافة شبر آخر على وجه الخصوص، حتى وصلت إلى عظام الأصابع، واكتسبت دفعة واحدة، القوة الشيطانية التي تمكنها من القفز فوق البلدان، والجبال، وفوق قارات بأسرها. وأن الفكرة التي لم يكد يتم الفراغ من تصوُّرها، والتي ما زالت كلمة مدوَّنة بمداد رَطْبٍ يتم استقبالها في الثانية نفسها، على مسافة آلاف الأميال، ويمكن قراءتها، وفهمها، وأن التيار غير المرئي الذي يتذبذب بين كلا القطبين، قطبَيْ عمودَيْ الڤولتاج الضئيلين يستطيع أن يتمدد فوق المعمورة كلها، من إحدى نهايتَيْها إلى النهاية الأخرى، وأنَّ جهاز لعبة الحجرة الفيزيائية، كان بالأمس قادراً على وجه الخصوص، عن طريق حَكٍّ قرص من الزجاج، على أن يجذب إليه بضع قطع صغيرة من الورق، وأنه يمكن تقويته إلى ملايين الأضعاف، وإلى مليارات الأضعاف، من قوة العضلة البشرية وسرعتها، آتياً بالرسائل، يشقّ الطرق، ويضيء الطرقات والمنازل، ويسبح في الهواء شأن آريل(*). ومع هذا الاكتشاف فحسب عرفت العلاقة بين المكان والزمان، أكثر التغيُّرات حسماً منذ خَلْقِ العالم.

وهذه السنة ذات الأهمية بالقياس إلى العالم، سنة ١٨٣٧، التي جعلت فيها البرقيةُ، أول مرة، التجربةَ البشرية التي كانت معزولة حتى الآن، تجربةً يشهدها الناس جميعاً في وقتٍ معاً، من النادر أن تُلاحَظ في كتبنا المدرسية مجرد ملاحظة أيضاً، وهي الكتب التي من المؤسف أنها، ما زالت ترى بعدُ أبداً أنّ مما هو أكثر أهميةً الحديثُ عن حروب بعض

* – Ariel : القمر الداخلي من أقمار أورانوس الأربعة. (المترجم).

الأمم والقادة وانتصاراتهم، بدلاً من الحديث عن الانتصارات الحقيقية، لأنها انتصارات مشتركة للبشرية. ولا ريب في أنه ما من تأريخ من تواريخ تاريخنا الأحدث عهداً يمكن مضاهاته، من حيث اتساع مدى تأثيره النفسي، بهذا التغيُّر في قيمة الزمن. لقد تغيَّر العالم منذ أن بات من الممكن أن يعرف المرء في باريس، في الوقت نفسه، ما يحدث في أمستردام، وموسكو، ونابولي، ولشبونة، في الدقيقة ذاتها. ولم يبق إلا خطوة أخيرة يقدمون عليها، وعندئذ يتم إدخال القارات الأخرى أيضاً في ذلك السياق الرائع، ويتم خلق وعي مشترك بين البشر قاطبة.

ولكن الطبيعة مازالت تكره هذا الاتحاد الأخير، وما زالت تقيم عائقاً في وجهه، وتظل، على مدى عقدَيْن من الزمان، معطِّلةً كلُّ تلك البلدان التي ينفصل بعضها عن بعض من جراء البحر، بينما تواصل الشرارة الكهربائية في قضبان البَرْقِ القفز من دون عائق، بفضل فناجين البورسلان العازلة، يقوم المرء بامتصاص التيار الكهربائي، ويظل التمديد خلال البحر غير ممكن إذ لم تكن قد اختُرِعَت بعدُ وسيلة لعزل الأسلاك النحاسية والحديدية داخل العنصر النَّديّ عزلاً كاملاً.

ومن حسن الحظ أن يمدّ الآن، في أيام التقدم، اختراع من الاختراعات، من قبل الآخرين، يده لإسداء العَوْن، إذ يكتشف الغاتابَرْشا(*) بعد سنوات قلائل من تسيير البرقيات على البرّ، ليكون المادة المباركة التي تتولى عزل التمديدات الكهربائية في الماء، والآن يستطيع المرء أن يشرع في ضم أهل البلدان على الجانب الآخر من القارة، وهو إنكلترا، إلى شبكة البرق الأوروبية، ويقوم مهندس يدعى بريتّ،

* – مادة شبيهة بالمطاط تستخرج من بعض الأشجار الماليزية .

بوضع السلك الأول في الموضع ذاته الذي يكون فيه بيرليور في الأيام اللاحقة، أول من يطير بطائرة فوق القنال. على أن حدثاً عارضاً يتسم بالتفعيل وانعدام اللباقة، يحبط النجاح الفوريّ أيضاً، وذلك أن صياد سمك في بولونيي(*) يحسب أنه عثر على سمكة من سمك الحيّات دسمة على نحو خاص ينتزع السلك الذي كان قد تمّ ترقيده للتوّ. ولكن في الثالث عشر من تشرين الثاني ١٨٥١ تنجح المحاولة الثانية، وبذلك تنضم إنكلترا، وبذلك تصبح أؤروبا أوروبا حقيقية أول مرة، وتغدو كياناً يشهد، بدماغ واحد وبقلب واحد، كل أحداث العصر في وقت واحد.

ومن البديهي أن نجاحاً هائلاً للغاية خلال أعوام قلائل، وهل يعني عقد من الزمان شيئاً سوى طرفة عين في تاريخ البشرية؟ - لابدّ أنه بعث جرأة لا حدَّ لها في ذلك الجيل، فكل ما يحاوله المرء يصيب نجاحاً، وكل شيء يتم كما في الأحلام، وبسرعة. وما هي إلا سنوات وانكلترا ترتبط من جانبها بإيرلندا، والدانمرك بالسويد، وكورسيكا بالقارة، ارتباطاً برقياً، وإذا القوم يتلمسون الطريق لضم مصر، ومن ثم، الهند، إلى الشبكة. ولكن قارة من القارات، وهي في الحقيقة أكثرها أهمية على وجه الخصوص، تبدو كأنما حُكِمَ عليها بالاستبعاد الدائم من هذه السلسلة التي تشمل العالم. ألا وهي أمريكا. فكيف يتهيأ إدخال المحيط الأطلسي أو الهادئ، اللذيْن لا يسمح كلاهما، بعرضهما الذي لا نهاية له، بمحطات توقُّف أو انتقال، بسلكٍ واحد؟ وفي سنوات طفولة الكهرباء تلك كانت كل العوامل ما زالت غير معروفة. وكان البحر ما زال لم يُسْبَر

* - Boulogne : أكبر مرافئ صيد السمك الفرنسية، ومدينة تجارية، ومركز عبور إلى انكلترا وأمريكا. (المترجم).

غورُه، وما زال المرء لا يعرف البنية الجيولوجية للمحيط إلاّ على نحو غير دقيق، وهل يمكن لسلك يتم طرحه في مثل هذا العمق أن يحتمل ضغط كتل الماء المكوَّمة على نحو لا نهاية له. وحتى لو كان من الممكن من الوجهة التقنيّة أن يُوَسَّد سلك غليظ لا نهاية له على هذا النحو بأمان في أمثال هذه الأعماق، فأين توجد السفينة التي تبلغ الحجم الذي يمكِّنُها من استيعاب حمولة من الحديد والنحاس من أجل ألفَيْ ميل؟ وأين توجد مولدات بمثل هذه القوة التي تُمَكِّنها من إرسال تيار كهربائي لا ينقطع، مسافة كان اجتيازها بالمركب البخاري يحتاج بعدُ إلى أسبوعين أو ثلاثة، على الأقل؟ كل الشروط الأولية مفتقدة. وما زال من غير المعروف أنه يوجد في أعماق المحيط تيارات مغناطيسية تجوبها ويمكنها أن تحوِّل اتجاه التيار الكهربائي، وما زال الناس لا يملكون عزلاً كافياً، ولا أجهزة قياس صحيحة، وما زال المرء لا يعرف سوى القوانين البدئية للكهرباء، التي كانت قد فتحت لتوِّها العيون، وأخرجتها من نومة المائة عام، نومة اللاوعي. ولذلك يلوِّح العلماء بأيديهم مُعْرَضين في عنف بمجرد أن يأتي المرء على ذكر خطة إدخال المحيط في الشبكة، فحسب. وكان أولو الجرأة الأكبر بين الفنيين يقولون: «ربما، فيما بعد»، وحتى مورس، الرجل الذي تدين له البرقية حتى الآن بأكبر اكتمال لها، تبدو له هذه الخطة جسارة غير قابلة للحسبان غير أنه يضيف قائلاً على سبيل التنبّؤ، إنه «في حالة النجاح سيكون تمديد سلك التوصيل عبر الأطلسي عمل القرن البطولي العظيم»، بل سيعني مأثرة القرن الأكثر انطواءاً على المجد فيه، على الإطلاق.

ولكي تكتمل معجزة أو شيء عجيب رائع يكون التمهيد الأول

دائماً هو إيمان فرد بهذه المعجزة، فالجسارة الساذجة عند امرئ غير قابل للتوجيه والنصح تستطيع أن تهب الصدمة الدافعة الخلاّقة على وجه الخصوص في الموضع الذي يتردَّد فيه العلماء، ومثلما كان الأمر في معظم الأحيان، تبعث هنا أيضاً مصادفة بسيطة، الهمة في المشروع العظيم. وذلك أن مهندساً إنكليزياً، يدعى جيزبورن، يريد في عام ١٨٥٤، أن يمد سلك توصيل من نيويورك إلى النقطة الشرقية من أمريكا، وهي نيوفوندلاند، لكي يكون من الممكن تلقِّي الأخبار عن السفن قبل وصولها ببضعة أيام، يضطر إلى التوقف عن عمله وهو في منتصفه، لأن وسائله المالية استنفدت. وهكذا يرتحل إلى نيويورك ليعثر هناك على أناس من أهل المال. وهناك يلتقي، بمحض المصادفة، بذلك الأب الذي يتبنى الكثير من الأشياء المجيدة، يلتقي بشاب، هو سايروس و. فيلد، وهو ابن أحد رعاة الكنيسة الذي يحرز الكثير من التوفيق في مشروعات الأعمال وبسرعة يبلغ منها أنه بات في وسعه، وهو بعدُ في سنوات الشباب، أن ينسحب إلى حياته الخاصة بقدر كبير من الثروة. وهذا الذي خلت يده من الأعمال، والذي ما زال غضَّ الإهاب وأكثر طاقة وحيوية من أن يخلد إلى البطالة الدائمة، هو الذي يبحث عنه جيزبورن ليظفر به من أجل إنجاز تمديد سلك التوصيل من نيويورك إلى نيوفوندلاند، على أن سايروس و. فيلد ليس من أهل التقنية ويوشك المرء أن يقول: من حسن الحظ، وليس بالخبير. وهو لا يفهم شيئاً من الكهرباء، ولم يسبق له أن رأى سلك توصيل أبداً ولكن ابن الراعي الكنسيّ يستكن في دمه إيمان حار، كما تستكن في دم الأمريكي الجرأة المفعمة بالحيوية والطاقة، وفي الوقت الذي ينظر فيه المهندس الفني

جيـزبورن إلى الهـدف المباشـر فـحـسب، وهو أن يتم ربط نيـويورك بنيوفوندلاند، يتابع الإنسان الشاب المؤهَّل للحماسة، النظرَ على الفور. لماذا لا تُرْبَط، على الفور بعد ذلك، نيـوفـوندلاند، بسلك توصـيل تحت البحر، مع إيرلندة؟ وبطاقة مبنية على العزم والتصميم على التغلب على كل عـقـبـة، يجـري الرجل، في هذه السنوات، فـوق المحيـط، بين كلتـا القارتين إحدى وثلاثين مرة، جيئة وذهاباً -، ويقبل سايروس ف. فيلد على العمل فوراً، بعزيمة كالفولاذ، مصمِّماً منذ هذه اللحظة على تعبئة كل ما فيه وما حوله من أجل هذه المأثرة، وبذلك يكون قد تمّ إيقاد تلك الجذوة الحاسمة التي تكتسب بفضلها فكرة من الأفكار، طاقة متفجِّرة في الواقع. لقـد ارتبطت الطاقـة الجـديدة، الكـهـربائيـة التي تقـتـرف العـجـائب بعنصـر الحيـاة الدنيـاميّ الآخر الأقـوى على الإطلاق: بإرادة البشر. كان ثمة رجل قد عثر على رسالة حياته، وكان ثمة رسالة قد عثرت على رجلها.

التمهيد

وبطاقـة بعـيـدة عن مـجـال التـصـوُّر يقـبـل سـايروس و. فـيلد على العـمـل، ويتـصـل بكل الخـبـراء ويلاحق الحكومـات بعـواصف من أجل التنازلات، ويقود في كلتا القارتين جملة لجمع المال الضروري، ويبلغ من قوة الدفع التي تنبعث من هذا الرجل المجهول كل الجهل، ومن قـوة إيمانه الباطني الباعث للحماسة والهوى، وعنفوان الإيمان بالكهرباء من حيث كونها طاقة عجائبية جديدة، أن رأس المال الأساسي يتم الاكتتاب به كاملاً، وقدره ثلاثمائة وخمسون ألف جنيه في إنكلترا خلال أيام قلائل،

ويكفي، في ليڤربول، وفي مانشستر، ولندن، دعوة أغنى التجار إلى تأسيس شركة تركيب الخطوط البرقية وصيانتها، وتنهال الأموال. ولكن المرء يجد أيضاً أسماء ثاكري والليدي بايرون، الذين يريدون، من دون أي مقصد جانبي تجاريّ، أن يشجعوا هذا المشروع بدافع الحماسة الأخلاقية، بين المُكْتتبين. وما من شيء يجسِّد بهذا القَيْد، التفاؤل بصدد كل ما هو تقنيٌّ وآليّ، ذلك التفاؤل الذي كان يُفْعم النفوس في عصر ستيفنسون وبرونل وكبار مهندسي إنكلترا الآخرين، أكثر من أنَّ نداءاً واحداً كان يكفي من أجل تحضير مبلغ هائل للغاية يُرْصد من أجل معاش مدى الحياة لمشروع خياليٍّ تماماً.

ذلك لأن التكاليف التقريبية لمد أسلاك التوصيل، تُعَدُّ، إلى هذا المدى، بمثابة الشيء الوحيد الذي يمكن حُسْبانه حساباً يمكن الاعتماد عليه في هذا الابتداء. أما التنفيذ الحقيقي فلا يوجد له مثال سابق بحال من الأحوال. ولم يجرِ التفكير، ولا التخطيط، بأبعاد مماثلة، في القرن التاسع عشر بعدُ أبداً، وإلاّ فكيف تكون هذه الإحاطة بمحيط بأكمله إذا ما قورنت بعبور ذلك الشريط المائي الضيق بين دوڤر وكاليه؟ فهناك كان قد كفى أن يَفُكَّ المرء من ظهرٍ مكشوف لباخرة ذات مجاذيف عادية مسافة ثلاثين أو أربعين ميلاً، وكان سلك التوصيل يدرج على نحو مريح كما تدرج المرساة من ملفافها. وفي حالة ترقيد سلك التوصيل في القنال الإنكليزي كان في وسع المرء أن ينتظر بهدوء يوماً هادئاً على وجه الخصوص، وكان المرء يعرف على وجه الدقة عمق قاع البحر، وكان يظل على الدوام على مرأى من هذه الضفة أو الأخرى، وبذلك يظل بمنأى عن كل مصادفة خطيرة. وكان في وسع المرء أن ينجز الاتصال على نحو

مريح خلال يوم واحد، ولكن أثناء انتقال بالبحر يفترض على الأقل ثلاثة أسابيع من السفر المتواصل لا يمكن لِملْفافٍ أطول بمئات المرات، وأثقل بمئات المرات أن يظل مكشوفاً فوق ظهر السفينة، معرَّضاً لكل مساوئ الطقس، وفضلاً عن ذلك فما من سفينة في ذلك العصر كانت كبيرة بما يكفي لكي تتمكن من أن تستوعب في قاعِ شحنها هذه الشرنقة الهائلة، العملاقة، من الحديد والنحاس والغاتابَرْشا، وما من سفينة كانت قوية بما يكفي لكي تحتمل هذا العبء، وستمس الحاجة إلى سفينتين على الأقل، ولابد لهاتين السفينتين الرئيسيتين، أن تكونا مصحوبتين، مرة أخرى، بسفن أخريات، لكي يتم الالتزام بأقصر مسار على وجه الدقة، وليكون من الممكن تقديم العون في حالات الطوارئ العارضة. والحق أن الحكومة الإنكليزية تضع تحت التصرف السفينة «آغاممنون»، وهي من أكبر سفنها الحربية، وكانت قد قابلت بصفة السفينة التي تحمل الراية قبالة سيباستوبول، وتضع الحكومةُ الأمريكية تحت التصرف الفرقاطة «نياغارا»، وحمولتها خمسة آلاف طن (وكان هذا هو المدى الأكثر عنفواناً في تلك الأيام) ولكن لم يكن بدٌّ لكلتا السفينتين أن يتمّ تعديل بنيانهما أولاً على نحو خصوصي، لكي يُشْحَن في كلٍّ منهما نصف السلسلة التي لا نهاية لها، والتي يفترض أن تربط كل قارة بالأخرى. وتظل المشكلة الرئيسية تتمثل، بالطبع، في سلك التوصيل نفسه. لقد طُرِح مطلب لا يمكن تصوره على هذا الحبل السُّرِّي العملاق بين قارتين. ذلك لأن سلك التوصيل هذا لابدَّ له أن يكون متيناً غير قابل للتمزُّق، مثل حبل فولاذي، من ناحية، وأن يظل في الوقت نفسه مَرِناً، ليكون من الممكن سحبه بسهولة، ولابدّ له أن يتحمل كل ضغط، وأن يصمد

لكل عبء، وأن يكون من الممكن مع ذلك، وَصْلُه وَصْلةً ملساء ناعمة، كخيط من الحرير، ويجب أن يكون عظيم الكتلة وأن لا يكون مع ذلك مفرطاً في الامتلاء والثقل، وأن يكون صلباً من ناحية، وأن يبلغ، من ناحية أخرى من الدقة، ما يمكّنه من نقل ذبذبة أُخْفَت موجة كهربائية فوق ألفَيْ ميل. على أن أكثر الصدوع ضآلة، وأكثر أشكال عدم الاستواء دقّةً، في أي موضوع كان، بمفرده، من هذا القسم العملاق يستطيع وحده أَن يفسد نقل الموجة الكهربائية على هذا الطريق الذي يستغرق أربعة عشر يوماً.

ولكنهم يتجاسرون على هذا! وفي الليل تحوك الآن المصانع ما تحوك، والإرادةالشيطانية لهذا الإنسان الواحد تدفع بكل العجلات إلى الأمام، وتستهلك مناجم بأسرها من الحديد والنحاس من أجل هذا الحبل الواحد، وتضطر غابات بأسرها من أشجار المطاط إلى أن تنزف دمها لتنشئ إهاب الغاتابَرْشا على هذه المسافة الهائلة. وما من شيء يجسِّد، الأبعاد الهائلة للمشروع، تجسيداً أكثر حسِّية من أن يقال إن ثلاثمائة وسبعة وستين ألف ميل من سلك مفرد تُضْفَر في سلك التوصيل هذا، وهذا يعدل ثلاثة عشر ضعف المسافة التي تكفي لكي تحيط بالأرض بأسرها، وتكفي لكي تربط الأرض مع القمر بخط واحد. ولم تجرؤ البشرية على شيء أعظم وأجل من هذا، بمعناه التقني، منذ برج بابل.

الانطلاقة الأولى

وتظل الآلات تهدر هديرها طوال سنة، وبغير انقطاع يلتف سلك التوصيل كخيط دقيق ينساب من المصانع إلى داخل كلتا السفينتين،

وأخيراً، وبعد ألوف اللفّات يغدو النصف من سلك التوصيل في كلٍّ من السفينتين وقد انطوى ملفوفاً في بَكرة، وتمّ تركيب الآلات الجديدة ذات الوقع الثقيل وباتت منصوبة، وكانت مزوَّدة بكوابح وحركة دوران عكسيّ، وكان يفترض فيها الآن أن تُدَلّي سلك التوصيل في جَرَّة واحدة على مدى أسبوع، أو أسبوعين، أو ثلاثة أسابيع، بغير انقطاع، في أعماق المحيط، وقد اجتمعوا على ظهر السفينة وفيهم مورس نفسه، ليقوموا بالرقابة على نحو متواصل، بأجهزتهم خلال عملية مدّ سلك التوصيل بأكملها، ولينظروا هل يتعثَّر التيار الكهربائي، وكان المراسلون والرسّامون قد وضعوا أنفسهم تحت تصرُّف الأسطول، لكي يصفوا، بالكلمة والكتابة، هذه الانطلاقة الأكثر إثارة للانفعال على وجه الإطلاق منذ أيام كولومبوس وماجالهايس.

وأخيراً بات كل شيء جاهزاً للانطلاق، وبينما كان المتشككون يحتفظون حتى الآن باليد العليا، يتوجَّه الاهتمام العمومي كله نحو إنكلترا، بحرارة، نحو هذا المشروع، وتُحْدِق المئات من الزوارق والسفن الصغيرة، في الخامس من آب، ١٨٥٧، في المرفأ الإيرلندي الصغير، ڤالينشيا، بأسطول سلك التوصيل، ليشهدوا تلك اللحظة من تاريخ العالم مع من يشهدها، وليروا كيف يتم إيصال إحدى نهايتَيْ سلك التوصيل من قبل الزوارق إلى الساحل، وتُشْبَك في تراب أوروبا الصلب. وعلى نحو عفوي يتشكل الوداع فيتحوَّل إلى احتفال كبير. وكانت الحكومة قد بعثت بممثلين لها، وتُلْقى الخطب، وفي حديث يمسُّ شغاف القلوب يلتمس الكاهن مباركة الله من أجل المغامرة الجريئة، ويشرع قائلاً: «أيْ ربنا الخالد، الذي نصبت قبة السماء وحدك، والذي

يتحكم في هياج البحر، وأنت الذي يستجيب له الملفاف والطوفان، انظر بعين الرحمة إلى عبادك... ولْتَأمر بأمرك كل عَقَبة فتزول، ولتخلِّصْنا من كل مقاومة يمكن أن تعوقنا عن إنجاز هذا العمل العظيم». ثم تُلَوِّح من الساحل بعدُ ومن البحر، ألوف الأيدي والقبعات، وشيئاً فشيئاً تَغْشى البَرَّ ظلمة الغسق، ويحاول حُلُم من أجرأ الأحلام عند البشر أن يتحوَّل إلى حقيقة.

سوء الحظ

وكان قد تمّ التخطيط في الأصل لكي تقلع كلتا السفينتين الكبيرتين، «آغاممنون» و«نياغارا» اللتان تحمل كل منهما نصف سلك التوصيل، معاً، إلى نقطة في وسط المحيط يمكن حسبانها بصورة مسبقة، وأن لا تحدث البَرْشَمة بين النصفين إلاّ هناك، ثم يكون على إحدى السفينتين أن تتوجه نحو نيوفوندلاند، وعلى الأخرى أن تتوجه نحو الشرق، إلى إيرلندا، ولكن بدا أن مما هو مفرط في الجرأة أن يجازف المرء على الفور بكل سلك التوصيل الثمين في هذه المحاولة الأولى، ولذلك فضّلوا أن يمدّوا المسافة الأولى بالانطلاق من القارّة، وما داموا لا يعرفون بعدُ على وجه اليقين هل يؤدي نقل البرقيات عن طريق قاع البحر، وظيفته على أمثال هذه المسافات أداءً صحيحاً.

وقد أسندت إلى إحدى السفينتين، وهي «نياغارا»، مهمة تمديد سلك التوصيل انطلاقاً من القارة إلى منتصف البحر، وتتوجه الفرقاطة الأمريكية ببطء، وحذر، إلى هناك، مخلّفة وراءها هذا الخيط على نحو متواصل، ينبعث من جسدها الهائل كأنها العنكبوت. وتظل آلة التمديد

تُجَعْجِع على ظهر السفينة، بطيئة، بانتظام، إنها الجلبة القديمة، جلبة حبل المرساة الذي يدرج كالعجلة، والمعروفة حق المعرفة عند كل البحارة، وهو الحبل الذي ينساب من الملفاف. وبعد ساعات قلائل لا يعود الناس القائمون على ظهر السفينة ينتبهون إلى هذه الجلبة التي تضاهي جعجعة المطحنة إلاّ على قدر ما ينتبهون إلى دقات قلوبهم.

ويمضي الحبل، ويمضي، خارجاً إلى البحر، دائماً، دائماً، حيث ينساب السلك، وراء حَيْزوم السفينة. ولا تبدو هذه المغامرة مغامرةً على الإطلاق، وفي حجرة خصوصية فحسب يجلس الكهربائيون ويصغون وهم يتبادلون على الدوام الإشارات مع اليابسة الإيرلندية، على أن العجيب الرائع هو أن نقل البرقية يؤدي عمله على سلك التوصيل الغائص تحت الماء بوضوح يعادل في دقته تفاهم المرء من مدينة أوروبية إلى أخرى. وها هم أولاء يغادورن المياه الضحلة، وإذا هذا الذي يسمونه هضبة أعماق البحر، التي ترتفع وراء إيرلندا، قد تمّ عبوره جزئياً، وما زال الحبل المعدني ينساب أبداً كما ينساب الرمل من الساعة الرملية على نحو منتظم، من وراء حَيْزوم السفينة، وهو يرسل في الوقت ذاته رسالة ويتلقى رسالة.

وها قد تمّ مَدُّ الأميال الثلاثمائة والخمسة والثلاثين، أي أكثر من عشرة أضعاف المسافة من دوفر إلى كاليه، وإذا هم يجتازون الأيام الخمسة، والليالي الخمس التي تتسم بانعدام اليقين الأول، وإذا سايروس و. فيلد، يُخْلِد، في الأمسية الثالثة، أي في الحادي عشر من آب، إلى راحة يستحقها بعد عمل الكثير من الساعات، وفجأة - ما الذي حدث؟ - تتوقف الجَلَبة الناجمة عن جعجعة الآلة. ومثلما يفيقُ النائم في القطار

فجأة عندما تتوقف القاطرة على غير توقُّع، ومثلما ينهض الطحان في سريره مذعوراً، عندما تسكنُ عجلة المطحنة على نحو مفاجئ، يستيقظ القوم جميعاً في مثل لمح البصر في السفينة، ويندفعون إلى ظهرها، وتكشف النظرة الأولى على الآلة عن أنَّ انسياب سلك التوصيل انتهى لقد انزلق سلك التوصيل فجأة عن الملفاف، وكان من المستحيل تعليق النهاية المنتزعة في الوقت المناسب أيضاً، وبات مما هو أكثر استحالة الآن العثورُ على النهاية الضائعة في أعماق البحر، والإتيان بها إلى الأعلى من جديد. لقد حدث الأمر المُفْزِع. لقد بدَّد خطأ فني ضئيل عمل سنوات، ويعود المنطلقون بكل تلك الجرأة منهزمين، إلى إنكلترا، حيث هيّأ الصمت المفاجئ لكل العلائم والإشارات، النفوس لنبأ غير سار.

سوء حظ، مرة أخرى

ويقوم سايروس فيلد، وهو وحده الذي لا يتزعزع، وهو البطل والتاجر معاً، بتسوية حساباته، ما الذي بات مفتقداً؟ ثلاثمائة ميل من سلك التوصيل، أي نحو مائة ألف جنيه من رأسمال الأسهم، على أن الأمر الذي ربما يؤثر فيه أكثر من ذلك أيضاً، هو سنة كاملة، سنة لا سبيل إلى تعويضها، لأن البعثة لا تستطيع أن تأمل في طقس ملائم إلاّ في الصيف. وفي هذه المرة كان الفصل قد أوغل في التقدم. وكان يوجد على الصفحة الأخرى ربح ضئيل. فقد حظي القوم بقدر لا بأس به من الخبرة العلمية بهذه المحاولة الأولى. وذلك أن سلك التوصيل نفسه، الذي ثبت أنه صالح، يمكن نشره وتخزينه من أجل البعثة التالية، ولا يجب إلا تغيير آلات السحب التي تسببّت في الانقطاع المشؤوم.

وهكذا ينصرم عام من الانتظار والأعمال التحضيرية، مرة أخرى، ولا تستطيع السفن ذاتها أن تنطلق إلاّ في العاشر من حزيران ١٨٥٨، بجرأة جديدة، محمَّلة بسلك التوصيل القديم، ولمّا كان نقل الإشارات الكهربائية يؤدي عمله دونما شائبة في الرحلة الأولى، فقد عاد القوم إلى الخطة القديمة، وهي البدء في مَدّ السلك من منتصف المحيط إلى كلا الجانبين، وتنصرم الأيام الأولى من هذه الرحلة الجديدة بغير معنى. وفي اليوم السابع فحسب يفترض أن يبدأ مَدُّ الشريط في الموضع المحسوب من قبل، وبذلك يبدأ العمل الحقيقي. وحتى الآن يكون، أو يبدو كل شيء، وكأنه نزهة. فالآلات واقفة دونما عمل، وكان ما زال في وسع البحّارة أن يستريحوا، وأن يُسَرّوا بالطقس اللطيف، فالسماء صافية ساكنة، وربما كان البحر مفرطاً في السكون.

ولكن في اليوم الثالث يشعر القبطان في «آغاممنون» بقلق دفين، فقد كشفت له نظرة إلى ميزان الضغط عن مقدار السرعة الباعثة للخوف التي يهبط بها عمود الزئبق. لابدّ أن هناك عاصفة من نوع خصوصيّ توشك أن تصل، وبالفعل تنطلق في اليوم الأول عاصفة لم يشهد مثلها أكثر البحارة حنكة وتجربة في المحيط الأطلسي إلاّ فيما ندر. وكان أكثر الأمور بعثاً للتشاؤم أن هذا الإعصار يواجه سفينة السحب، «آغاممنون»، ولما كانت هذه في حد ذاتها وسيلة دفع ممتازة سبق لها أن صمدت في وجه أقسى التجاريب في كل البحار، وحتى في الحرب، فإنه لم يكن بدٌّ لسفينة الأميرالية التابعة للبحرية الإنكليزية أن تكون أهلاً لمواجهة هذا الطقس الرديء أيضاً. ولكن كان من بواعث الشؤم أن السفينة المخصصة لسحب سلك التوصيل كان قد تمّ تعديل بنائها بصورة

كاملة لكي تتمكن من إخفاء الحمولة الهائلة في داخلها. ولم يكن في وسع المرء هنا أن يوزِّع الوزن على كل الجوانب بصورة متعادلة في مجال الشحن، بل كان يجثم في الوسط كل وزن البكرة الهائلة. ولم يُدْخِل القوم في مقدمة السفينة إلاّ جزءاً منها، وهو الأمر الذي نجمت عنه النتيجة المزعجة أيضاً، وهي أن تتضاعف ذبذبة البندول عند كل ارتفاع وانخفاض، وهكذا تستطيع العاصفة أن تمارس أخطر ضروب العبث مع ضحيتها، فإلى اليمين، ونحو اليسار، وإلى الأمام، وإلى الخلف ترتفع السفينة إلى زاوية تبلغ خمساً وأربعين درجة، وتفيض أمواج السيل الجارفة على ظهر السفينة، وتتحطّم كل الأشياء. وثمة طامّة جديدة - ففي إحدى الصدمات الأكثر هولاً، التي تزلزل السفينة من حَيْزومها إلى الصارية، تسترخي الحجرة الخشبية لحمولة الفحم المكوَّمة أمام الضغط. وفي غمرة وابل من البَرَد الأسود تتهشَّم الكتلة كلها كضربة بحجر على البحارة الذين كانوا ينزفون على أية حال وقد استنفدت طاقاتهم. ويصاب بعضهم بجروح أثناء السقوط، ويصاب آخرون في المطبخ بحروق من جراء المراجل التي يتساقط بعضها فوق بعض، ويصاب أحد البحارة بالجنون في غمرة عاصفة تدوم عشرة أيام، وإذا القوم يفكرون بأقصى ما يرد في الحسبان: أن يطرحوا جزءاً من حمولة سلك التوصيل المشؤومة على ظهر السفينة. ومن حسن الحظ أن القبطان يكره أن يتحمل هذه المسؤولية، وهو على حق. أما السفينة «آغاممنون» فتخرج سالمة، بعد محن لا توصف، من العاصفة التي تدوم عشرة أيام، وتستطيع، على الرغم من تأخُّرها البالغ، أن تعثر على السفن الأخرى في الموضع المتفق عليه من المحيط، الذي يفترض أن يبدأ عنده سحب سلك التوصيل.

ولكن الآن فحسب يتبَيَّن كم عانت الحمولة النفيسة والحسَّاسة، من حمولة الأسلاك التي تداخل بعضها في بعض ألوف المرات، من جراء التقاذف المتواصل. وفي بعض المواضع كانت القضبان قد اختلط بعضها ببعض، وتآكل إهاب الغاتابَرْشا، أو تمزَّق. وبقليل من الثقة يقدم القوم على بعض المحاولات لسحب سلك التوصيل على الرغم من ذلك، ولكنهم لا يزيدون على أن ينتهوا إلى نتيجة مؤدّاها خسارة مائتي ميل من سلك التوصيل تتوارى في البحر بغير فائدة. ويكون من حظهم، مرة ثانية، أن يُنْزلوا العلم ويعودوا إلى ديارهم بغير مجد، بدلاً من العودة منتصرين.

الرحلة الثالثة

وبوجوه ممتقعة ينتظر حملة الأسهم في لندن زعيمهم ومَغْوِيَهم، سايروس و. فيلد، وقد تمّ إبلاغهم بخبر المصيبة. لقد تبدَّد نصف رأسمال الأسهم في هاتين الرحلتين، ولم يجرِ إثبات شيء، ولا بلوغ شيء، ويُفْهَم الآن أن معظمهم يقولون الآن: كفى! وينصح الرئيس بإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ويوافق على المجيء ببقية سلك التوصيل غير المستعمل، من السفن وبيعه في حالة الضرورة بخسارة أيضاً، ثم يُشْطَب على هذه الخطة العقيمة لإدخال المحيط في المجال البرقيّ، وينضم إليه نائب الرئيس، ويبعث باستقالته خطياً ليوضح أنه ما عاد يريد أن تكون له من بعدُ علاقة بهذا المشروع. غير أن ما ينطوي عليه سايروس و. فيلد من الجَلَد والمثالية لا سبيل إلى زعزعته، ويعلن أنه ما من خسارة قد وقعت، وأن سلك التوصيل ذاته قد اجتاز الاجتياز اجتيازاً باهراً، وما زال يوجد منه على ظهر السفينة ما يكفي لتجديد المحاولة، وأن الأسطول تجمَّع

واستأجر الفرَق، وأن الزوبعة العاصفة، غير المألوفة في الرحلة الأخيرة، هذه العاصفة على وجه الخصوص، تفسح المجال الآن للأمل في فترة من الأيام الجميلة ذات الرياح الساكنة، وأن عليهم أن يعتصموا بالجرأة، الجرأة مرة أخرى! الآن، وإلاّ فلن تتاح من بعد ذلك أبداً فرصة لكي يجرؤ المرء على آخر ما في الجعبة.

وتزداد نظرة حملة الأسهم قلقاً واضطراباً على نحو مطرد: هل ينبغي لهم أن يعهدوا بآخر ما تبقّى من رأس المال المدفوع إلى هذا المجنون؟ ولكن حين تظل هنا إرادة قوية تجرف آخر الأمر معها المتردِّدين، فإن سايروس و. فيلد يفرض الانطلاق الجديدة. وفي السابع عشر من تموز ١٨٥٨، أي بعد خمسة أسابيع من الرحلة الثانية، المخيِّبة يغادر الأسطول الميناء الإنكليزي مرة ثالثة.

والآن تتأكد الخبرة القديمة مراراً، وهي أن الأشياء الحاسمة تنجح على الدوام تقريباً في الخفاء. وفي هذه المرة تتم الانطلاقة من دون أن تلاحظ على الإطلاق، فليس هناك زوارق، ولا قوارب تحدق بالسفن تتمنى لها التوفيق، ولا جمهور يحتشد على الشاطئ، ولا تقام موائد وداعية احتفالية، ولا تلقى خطب، وما من كاهن يناشد الله أن يتنزّل بتأييده وعونه، وتقلع السفن وكأنها خارجة لمشروع قرصنة، وفي وجل وصمت، غير أن البحر ينتظرها في مودّة وتستطيع السفينتان «آغاممنون» و«نياغارا» أن تشرعا في العمل الكبير، في الموضع المتفق عليه، في وسط المحيط، وفي اليوم المتفق عليه على وجه الدقة، أي في الثامن والعشرين من تموز، بعد أحد عشر يوماً من الإقلاع من كوينزتاون.

ألا إنها لمسرحية غريبة - فالسفينتان تتجهان كلٌّ منهما نحو الأخرى، مؤخرة تجاه مؤخرة، وتتمُّ الآن، بين كلتيهما، بَرْشَمَة نهايتَيْ سلك التوصيل، ومن دون أية مراسم، بل من دون أن يوليّ الناس على ظهر السفينة لهذا الحدث اهتماماً جوهرياً (إذ كانوا قد أصابهم الإرهاق من التجاريب غير الناجحة، يغوص الحبل الحديدي والحبل النحاسي، بين كلتا السفينتين، في الأعماق، حتى يبلغ المستوى الأدنى في المحيط، ذلك المستوى الذي لم يجرِ استقصاؤه بعدُ بمسبار، ثم يلي ذلك تحية من ظهر سفينة إلى أخرى، ومن راية إلى راية، وتتجه السفينة الإنكليزية إلى انكلترا والسفينة الأمريكية إلى أمريكا، وبينما تنأى كل منهما عن الأخرى، نقطتَيْن جوّالتَيْن في المحيط الذي لا نهاية له، يظل سلك التوصيل يربط بينهما، وتلك أول مرة يذكرها البشر تستطيع فيها سفينتان أن تتفاهما من فوق الريح والأمواج وعلى مدى الفضاء والأبعاد، في المجال اللامرئي. وفي كل بضع ساعات تبلغ إحدى السفينتين، بالإشارة الكهربائية، من أعماق المحيط عمّا سلخت من الأميال، وفي كل مرة تؤكد الأخرى أنها أنجزت المسافة ذاتها أيضاً بفضل الطقس الممتاز، وهكذا ينقضي يوم، وثانٍ، وثالث، ورابع، وفي الخامس من آب تستطيع النياغارا، أخيراً، أن تبلِّغ أنها ترى، في خليج الثالوث، في نيوفوندلاند، الساحل الأمريكي أمامها، بعد أن كانت قد نشرت ما لا يقل عن ألف وثلاثين ميلاً من سلك التوصيل، وكذلك تستطيع السفينة «آغاممنون» أن تنتصر، وهي التي وسَّدَت في الأعماق أيضاً ما يصل إلى ألف ميل على وجه اليقين، وتقول إنها ترى، من جانبها، الساحل الإيرلندي. ولأول مرة تنتقل الآن الكلمة البشرية من بلد

إلى بلد، من أمريكا إلى أوروبا، ولكن لا يعلم إلاّ هاتان السفينتان، وهؤلاء النفر من البشر في وكُنْتِهم الخشبية، أن هذه المأثرة قد أُنْجِزَت، كما يعلم بذلك أيضاً العالم الذي نسي هذه المغامرة منذ عهد بعيد، ولم يكن ثمة أحد ينتظرهم على الشاطئ، لا في نيوفوندلاند، ولا في إيرلندا، ولكن في الثانية الواحدة التي ينضم فيها سلك التوصيل الجديد في المحيط إلى سلك التوصيل في البرّ، سوف تطّلع البشرية بأسرها على انتصارهم المشترك الهائل.

صيحة التهليل الكبرى

ولأن برق السرور هذا يتنَزّل من سماء مشرقة كل الإشراق، لهذا السبب على وجه الخصوص، يتوقّد هذا البرق توقُّداً مهولاً للغاية. وفي الساعة ذاتها تقريباً من أيام آب الأولى تطلّع القارة القديمة والقارة الجديدة على رسالة العمل الذي نجح، أما مفعوله فمفعول لا يوصف. ففي إنكلترا تكتب التايمز التي تلتزم الرزانة للغاية، في مقالتها الافتتاحية، قائلة: «لم يَجْرِ، منذ اكتشاف كولومبوس، إنجاز شيء قابل للمقارنة، بأي طريقة، مع التوسُّع الهائل الذي طرأ بهذه الطريقة، على مجال النشاط البشري». والمدينة في أكثر أشكال الاستثارة والانفعال إشراقاً، ولكن سرور إنكلترا هذا الذي ينطوي على الفخر يبدو على جانب من الوجل والغموض، إذا ما قورن بحماسة أمريكا التي تضاهي الإعصار، إذ لم تكد تنقل الأنباء إلى هناك حتى غُصَّت المحلات والشوارع، وفاضت بالبشر، المتسائلين، الصاخبين، المتناقشين. وبين عشية وضحاها تحوَّل رجل مجهول كل الجهل، هو سايروس و. فيلد، إلى

بطل قومي لشعب بأسره، ويُؤكّد على أنه سوف يوضع على قدم سواء إلى جانب فرانكلين وكولومبوس، وتتزلزل المدينة بأسرها، ومن ورائها مائة مدينة أخرى وتُرْعِد من التوقُّع الذي يؤمِّل الناس أن يرونه من جرّاء «التزاوج بين أمريكا الفتية وبين العالم القديم، الذي حققه القوم بتصميمهم. ولكن الحماسة لمّا تبلغ أقصى درجاتها، إذ لم يصل شيء سوى مجرَّد الخبر في الوقت الحاضر، ومفاده أن سلك التوصيل قد جرى تمديده. ولكن هل تراه يستطيع الحديث؟ وهل نجحت المأثرة، المأثرة الحقيقية؟ مسرحية عظمى - مدينة بأسرها، وبلاد بأسرها، ينتظران، ويصيخان السمع إلى كلمة واحدة، إلى الكلمة الأولى من وراء المحيط، والناس يعرفون أن الملكة الإنكليزية، سوف تدلي برسالتها، وتهنئتها، في مقدمة الناس جميعاً. وفي كل ساعة ينتظرها الناس بصبر يزداد نفاداً على نحو مطرد. ولكنْ تنقضي أيام ومن بعدها أيام، لأن الحبل الذي ينتهي إلى نيوفوندلاند قد تعرَّضَ للتشويش، هو على وجه الخصوص، ويستغرق الأمر إلى السادس عشر من آب، إلى أن تصل رسالة الملكة فيكتوريا في ساعات المساء، إلى نيويورك.

ولما كان النبأ الرسمي قد بلغ من التأخر ما يتعذَّر معه أن تورده الصحف، فقد وصل النبأ الذي تاق الناس إليه، وهو أنه لا يمكن أن يُدَقَّ إلاّ في دوائر البرق وإدارات التحرير، وعلى الفور تحتشد جماهير هائلة، وتضطر الصحف إلى أن تشق طريقها وسط المعمعة عن طريق الأولاد، وفي المسارح، وفي المطاعم، تُعْلَن الرسالة، وينهال الآلاف، الذين ما زالوا لا يستطيعون أن يدركوا أن البرقية تسبق أسرع السفن بمقدار أيام، على ميناء بروكلن، ليؤدّوا التحية لسفينة أبطال هذا الانتصار السلميّ،

«النياغارا»، ثم في اليوم التالي، في السابع عشر من آب، تهلّل الصحف بعناوين غليظة كقبضة اليد: «سلك التوصيل يؤدي عمله بنظام كامل» «الناس جميعاً يُجَنُّ جنونهم من الفرح» «آن الآن أوان من أجل احتفال عالميّ»، «حماسة عارمة في أرجاء المدينة». وإنه لانتصار لا مثيل له: فمنذ بداية كل تفكير على وجه الأرض حَلّقت فكرة بسرعتها الخاصة فوق المحيط، وها هي ذي البطاريّة تطلق مائة طلقة مدفعية، إعلاناً منها بأن رئيس الولايات المتحدة أجاب الملكة. الآن ما عاد أحد يجرؤ على أن يشك. وفي المساء تتلألأ الأنوار في نيويورك وكل المدن الأخرى بعشرات الألوف من الأضواء والمشاعل، وكل نافذة مضاءة، لا يكاد يكدِّر السرور أنَّ قبة قاعة المدينة تشتعل من الحريق، ذلك لأن مجرد اليوم التالي يأتي بعيدٍ متجدِّد، فقد وصلت «النياغارا»، وسايروس و. فيبد، أكبر الأبطال، حاضر هنا! وفي غمرة النصر يتم تمديد بقية سلك التوصيل خلال المدينة، ويستضاف فريق العمل، وتتكرر المظاهرات الآن في كل مدينة، من المحيط الهادئ إلى خليج المكسيك، وكأن أمريكا تحتفل بعيد اكتشافها مرة ثانية.

ولكن هذا لا يكفي، وما كان له أن يكفي! فموكب النصر الحقيقيّ ينبغي أن يكون أعظم من هذا بعدُ! وأن يكون الموكب الأروع الذي رأته القارة الجديدة في أي يوم من الأيام على الإطلاق. وتستغرق الأعمال التمهيدية أسبوعين، ولكن بعد ذلك، في الحادي والثلاثين من آب، تحتفل مدينة بأسرها بإنسان وحيد، هو سايروس و. فيلد، احتفالاً قلّما أقيم مثله لمنتصر، من قبل شعبه. ويتم تجهيز موكب احتفالي في هذا اليوم الخريفي الرائع يبلغ من طوله أنه يحتاج إلى ست ساعات ليصل من أحد طرفَيْ

المدينة إلى الطرف الآخر. وتسير الكتائب في الطليعة، بأعلامها وراياتها، خلال الشوارع المكلّلة بالرايات، ويلي هؤلاء الفرق الهارمونية، واللوحات الغنائية، واتحادات المغنين، ورجال الإطفاء، والمدارس، والمحاربون القدماء، في موكب لا نهاية له. وكان يمشي كل من يستطيع أن يمشي، ويغني كل من يستطيع أن يغني، ويهلّل كل من يستطيع أن يهلّل، وكان يقاد من ورائهم، في عربة ذات أربعة من الجياد، مثل منتصر من العصر القديم، سايروس و. فيلد، وفي عربة أخرى، قائد «النياغارا»، وفي عربة ثالثة، رئيس الولايات المتحدة؛ ووراء هؤلاء العمدة، والموظفون، والأساتذة الجامعيون، ولم يكن ينقطع تتابع الخطب، والمآدب، ومواكب المشاعل، وكانت أجراس الكناس تقرع، وكانت المدافع تُرْعِد. ويظل سِكْر التهليل، من جديد، ومن جديد، يُحدِق بكولومبوس الجديد، مَوَحِّد العالمين، وقاهر المكان، والرجل الذي بات في هذه الساعة، الرجل الأكثر مجداً، والأكثر تأليهاً في أمريكا؛ سايروس و. فيلد.

المصلوب الكبير

وتظل تصخب الألوف والملايين من الأصوات وتهلّل في هذا اليوم، ولكن صوتاً واحداً، هو الصوت الأهمّ، يظل خلال هذا الاحتفال صامتاً على نحو يلفت النظر - ألا وهو البرق الكهربائي. وربما كان سايروس و. فيلد يحدثه قلبه، في غمرة التهليل والهتاف، بالحقيقة الرهيبة، ولا بدٌّ لهذا أن يكون رهيباً لديه، أن يكون الوحيد الذي يعرف أن سلك التوصيل في المحيط الأطلسي قد توقَّف عن أداء وظيفته في هذا اليوم على وجه الخصوص، وبعد أن كانت قد جاءت إشارات مختلطة، لا تكاد

تقرأ، صعَّدَ السلك أنفاسه الأخيرة مُحَشْرِجاً بصورة نهائية، ولفظ نَفَس المُحْتَضَر الأخير. وما زال لا يعرف، ولا يحسُّ في سريرة نفسه، بهذا العجز التدريجيّ، في كل أمريكا، إلاّ نفر من البشر كانوا يتحكَّمون في استقبال الإرسالات في نيوفوندلاند، وحتى هؤلاء ظلوا يترددون أياماً وأياماً، بالنظر إلى الحماسة التي لا حدَّ لها، في الإفضاء إلى أولئك المهلِّلين بالنبأ المرير. ولكن سرعان ما يلفت النظر أن الأخبار التي كانت تصل كانت ضئيلة للغاية، وكانت أمريكا تتوقع أن تُبْرَق رسالة في كل ساعة عبر المحيط - وبدلاً من ذلك يصل في بعض الأحيان مجرد نبأ غامض لا يمكن ضبطه، ولم يستغرقِ الأمر طويلاً، وإذا شائعة يتهامس بها الناس، مفادها أن القوم قد أرسلوا، في غمرة الحماسة ونفاد الصبر على وصول عمليات أفضل للانتقال بالبرق، شحناتٍ كهربائية مفرطة في القوة، وبذلك أفسدوا سلك التوصيل، الذي كان على كل حال غير ذي طائل، كلَّ الإفساد، وأن القوم ما زالوا يأملون أن يزيلوا الخلل، ولكن سرعان ما بات مما لا سبيل إلى إنكاره أن الإشارات كانت تزداد تلعثماً، وعدم قابلية للفهم على نحو مطرد. وبعد ذلك الصباح الاحتفاليّ الذي بعث الصداع من فرط السُّكْر، أي في الأول من أيلول على وجه الخصوص، ما عاد يأتي صوت واضح، ولا ذبذبة نقية عن البحر.

وما من شيء يقل صفح البشر عنه الآن، مثل أن يتم إيقاظهم من سكرهم وحماستهم الصادقة، وأن يروا أنفسهم قد تعرَّضت لخيبة الأمل بأسلوب غادر من قبل رجل كانوا ينتظرون منه كل شيء، ولم يكد يثبت صدق الشائعة، ويعجز جهاز البرق الذي طالما أشيد به، حتى ترتَدَّ الموجة العاصفة من التهليل الآن، في صدمة ارتدادية نحو المذنب البريء، في

صورة مرارة خبيثة، نحو سايروس و. فيلد. لقد خدع مدينة، بل بلداً، بل خدع عالماً، وقيل إنه كان يعرف منذ عهد بعيد عجز جهاز البرق، كما زعموا في المدينة، ولكنه ترك الناس، بحكم أنانيته يهتفون من حوله ويهلّلون، واستغل في أثناء ذلك، الوقتَ ليتخلّص من الأسهم العائدة إليه ببيعها بربح هائل، بل أبْلِغ عن ألوان من الاغتياب في حقه أكثر خبثاً، ومنها الأكثر لفتاً للأنظار قاطبة، وهو الذي يزعم بصورة مسبقة، قبل غيره، أن جهاز البرق في الأطلسي لم يؤد عمله قط على الوجه الصحيح، على الإطلاق، وأن كل الأنباء كانت نصباً وخداعاً وكلاماً فارغاً، وأن برقية ملكة إنكلترا قد سبقت صياغتها من قبل، ولم تنقل أبداً عن طريق جهاز البرق عبر المحيط، وتمضي الشائعة قائلة إنه ما من خبر واحد قد وصل، طوال هذا الوقت مفهوماً بالفعل عبر البحر. وأن المدراء لم يزيدوا على أن دبَّجوا برقيات خيالية مأخوذة عن تكهُّنات وإشارات قد انتزعت انتزاعاً، وتنبثق فضيحة فعلية. على أن أولئك الذين كانوا هم الأعلى صوتاً بالهتاف والتهليل باتوا الآن هم الأكثر جنوناً وسُعاراً، وينتاب الشعور بالخجل والعار مدينة بأسرها، بل بلداً بأكمله، من حماسته الفائقة الحرارة والمتهوِّرة. ويقع الاختيار على سايروس و. فيلد ليكون ضحية لهذا الغضب، وهو الذي كان يُعَدُّ بالأمس، بعدُ، بطلاً قومياً من الأبطال المعدودين، وأخاً لفرانكلين وسليل كولومبوس، ويضطر إلى أن يتوارى عن أصدقائه وممجِّديه السابقين، كما يفعل المجرم. لقد أبدع يوم واحد كل شيء، وأفسد يوم واحد كل شيء. ولا يُعْرَف لهذه الهزيمة مدى، ويضيع رأس المال، وتتبدَّد الثقة، ويرقد سلك التوصيل الذي لا يجدي فتيلاً في أعماق المحيط التي لا يصل إليها البصر.

ستُّ سنوات من الصمت

ويظل سلك التوصيل المنسيّ بغير جدوى، راقداً في المحيط، ويظل الصمت، الصمت البارد، يسود ست سنوات بين القارتين اللتين لبثتا مدة ساعة من تاريخ العالم، تتبادلان النبضات، نبضةً بنبضة، وعاد الذين كانوا قريبين بعضهم إلى بعض، مدةَ التقاط نَفَس، وعلى مدى بضع مئات من الكلمات، يفصل بينهم، مثلما كان ذلك منذ آلاف السنين، مسافة شاسعة لا سبيل إلى التغلُّب عليها. على أن الخطة الأكثر جرأة في القرن التاسع عشر، والتي باتت بالأمس حقيقة واقعة، عادت أسطورة، مرة أخرى، أسطورة من الأساطير. وبحكم البدهية لا يفكِّر أحد في تجديد العمل الذي أصاب نصف النجاح، لأن الهزيمة الرهيبة شلّت كل القوى، وخنقت كل حماسة. أما في أمريكا فتصرف الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب الأمريكيَّيْن عن كل اهتمام بما عداها، وأمّا في إنكلترا فما زالت تنعقد لجان في بعض الأحيان غير أنها تحتاج إلى سنتين لتقرر محض الادعاء بأن سلك التوصيل في قاع البحر أمر ممكن، ولكن الانطلاق من هذا التقرير الأكاديمي إلى العمل الفعلي يمرّ بطريق لا يفكر امرؤ في سلوكه، ويظل كل عمل ساكناً مدة ست سنوات، سكوناً كاملاً، مثل سِلْك التوصيل في قاع البحر.

ولكن السنوات الست عندما تكون في إطار مجال التاريخ العملاق ليست إلاّ لحظة عابرة، وهي تعني، في إطار علمٍ فتيٍّ مثل الكهرباء، ألف عام، وكل عام، وكل شهر، يفضيان في هذا المضمار إلى اكتشافات جديدة، وتزداد المولّدات طاقة، ودقة على نحو مطرد، ويزداد استعمالها تعقيداً، وتزداد أجهزتها دقة، وها هي ذي شبكة البرق تغطي المجال

الداخلي لكل القارات، وها هو ذا البحر المتوسط يتم عبوره، وإذا أفريقيا وأوربا مترابطتان، وهكذا تفقد خطة عبور المحيط الأطلسي المزيد فالمزيد من جانبها الخياليّ، من عام إلى عام، على نحو مطرد، وغير ملحوظ، وهو الجانب الذي ظل كل هذا الوقت عالقاً بها، ولم يكن هناك بدٌّ من أن تأتي الساعة التي تجدِّد المحاولة، وما عاد يُفْتَقَد إلاّ الرجل الذي يُشْرِب الخطة القديمة بطاقة جديدة.

وإذا هذا الرجل حاضر بغتةً، إنه سايروس و. فيلد، الشيخ، ذاته، صاحب الإيمان ذاته بالثقة ذاتها، قد انبعث من قبر المنفى الصامت والازدراء الشامت، وكان قد عبر المحيط للمرة الثلاثين ويعود للظهور في لندن، ويتاح له أن يزوِّد الامتيازات القديمة برأس مال جديد يبلغ ستة أضعاف الستمائة ألف جنيه، وأخيراً تحضر إلى الموقع أيضاً السفينة العملاقة التي طال الحُلُم بها، والتي تستطيع أن تستوعب الحمولة الهائلة في داخلها، وهي سفينة «جريت إيسترن» الشهيرة بحمولتها التي تبلغ ٢٢ ألف طن، ومداخنها الأربعة التي بناها إسامبار برونل، وإذا هي أعجوبة على أعجوبة: فهي موجودة في هذا العام، ١٨٦٥، وانكسرت، لأنها كانت، على النحو ذاته، مفرطة في الجرأة على استباق عصرها في التخطيط، وخلال يومين يتمّ التمكن من شرائها وتجهيزها للبعثة.

والآن بات سهلاً كلُّ ما كان من قبل صَعباً على نحو لا يقبل القياس. وفي الثالث والعشرين من تموز ١٨٦٥ تغادر السفينة العملاقة نهر التايمز بسلك توصيل جديد، ولئن أخفقت التجربة الأولى أيضاً، ولئن أخفق التمديد، من جراء صَدْعٍ قبل يومين من الهدف، وابتلع المحيط الذي لا يشبع، مرة أخرى، ستة أضعاف المائة ألف جنيه استرليني، فإن

التقنية باتت أكثر ثقة بقضيتها من أن يمكن تثبيط همتها. وعندما تنطلق السفينة «جريت إيسترن» في ١٣ تموز ١٨٦٦ للمرة الثانية، تتحول الرحلة إلى انتصار. وفي هذه المرة يتحدث سلك التوصيل إلى أوروبا حديثاً صافياً وواضحاً. وبعد أيام قلائل يتم العثور على سلك التوصيل القديم، المفقود، ويغدو هناك الآن قضيبان يربطان العالم القديم بالعالم الجديد ليجعلا منه عالماً مشتركاً واحداً. وتحوّلت أعجوبة الأمس إلى بدهية اليوم. ومنذ هذه اللحظة فصاعداً باتت الأرض وكأن لها خفقة قلب واحد، وتعيش البشرية الآن، تستمع إلى نفسها، وتنظر إلى نفسها، وتتفاهم فيما بينها، في وقت معاً، من إحدى نهايتي الأرض إلى النهاية الأخرى، حاضرة في كل مكان، حضور الآلهة، بطاقتها المبدعة. ولقد كانت خليقةً أن تكون رائعة باتحادها، بفضل انتصارها على المكان والزمان الآن، وإلى آخر كل العصور، لَوْ لَمْ يُشَوِّشْها المرة بعد الأخرى، من جديد، الجنون المشؤوم، الذي يحملها على إفساد هذه الوحدة العظيمة بغير انقطاع، وتدمير نفسها بالوسائل ذاتها التي تهب لها سلطاناً على العناصر.

الهرب إلى الله

نهاية تشرين الأول ١٩١٠

تعقيب على مسرحية ليو تولستوي غير المكتملة

«والنور يسطع في الظلام»

تمهيد

في عام ١٨٩٠ كان يشرع ليو تولستوي في كتابة سيرة ذاتية مسرحية تصل فيما بعد إلى النشر والعرض المسرحي بصفتها جزءاً متقطعاً من مخلّفاته، بعنوان: «والنور يسطع في الظلام. وهذه المسرحية غير المكتملة، (كما يكشف عن ذلك المشهدُ الأول منها)، ليست شيئاً آخر سوى التصوير الحميمي إلى أقصى الحدود لمأساته في بيته، وقد كتبها على ما يبدو واضحةً للعيان لتكون تبريراً ذاتياً لمحاولة هرب ينتويها، ولتكون في الوقت ذاته اعتذاراً إلى زوجته، أي أنها عمل من أعمال التوازن الأخلاقي الكامل في غمرة تمزُّق نفسي وصل إلى حده الأقصى.

وكان تولستوي قد عرض نفسه من خلال شخصية نيكولاي ميشيلا ييڤياش سارينزيف التي تصوِّر نفسه تصويراً يتّسم بالشفافية، وما من شك في أنه لا يجوز أن يُفْتَرَض أنه قد اختلق في هذه المأساة إلاّ أقل القليل. ولا ريب في أن ليو تولستوي لم يقم بصياغتها إلاّ ليستبق لنفسه الحل

الضروريّ لمشكلة حياته عن طريق الأدب، ولكن تولستوي لم يجد الجرأة، ولا الصيغة الخاصة بالعزم والقرار، لا في عمله، ولا في حياته، ولا في تلك الأيام من عام ١٨٩٠، ولا بعد عشر سنين، أي في عام ١٩٠٠، وبسبب من استسلام الإرادة فقد بقيت هذه القطعة مجتزأة، إذ تنتهي بالحيرة الكاملة عند البطل الذي لم يَزِدْ على أن رفع يديه إلى الله مبتهلاً، يرجو منه أن يقف إلى جانبه، وأن ينهي الانفصام الداخلي لصالحه.

أما الفصل الأخير المفتقد من المأساة فما عاد تولستوي إلى كتابته فيما بعدُ أيضاً، غير أنَّ الأهم من هذا أنه عاشه. ففي الأيام الأخيرة من تشرين الأول من عام ١٩١٠ يتحول التأرجُحُ الذي دام ربع قرن، آخر الأمر، إلى عزم وتصميم، وتتحوَّل الأزمة إلى تحرُّر: وذلك أن تولستوي يفرّ، بعد بضع مجالات مسرحية إلى حد مهول، ويهرب في الوقت المناسب تماماً، ليجد ذلك الموت الرائع والأنموذجي الذي يضفي على مصير حياته الصياغة المكتملة، والقدسية.

وما من شيء بدا لي أكثر طبيعية من أن أضيف النهايةَ المُعاشة للتراجيديا إلى القطعة المجتزأة المكتوبة. فهذا، وهذا وحده، هو الذي حاوَلْتُه في مواجهة الوقائع والوثائق، بأكبر قدر ممكن من الصدق التاريخيّ ومراعاة حرمة الوقائع والوثائق. وإني لأعلم أنني امرؤ لا تتوافر لديَّ الجرأة على استكمال اعتراف ليو تولستوي بأسلوب المستبدِّ المتحكِّم، الذي يرى في نفسه نداً مكافئاً، فأنا لا أنضوي تحت لواء هذا العمل، بل أريد أن أخدمه فحسب. وما أحاوله هنا قد لا يكون، من أجل ذلك، تكميلاً، بل خاتمة قائمة بذاتها لعمل غير مكتمل، وصراع لم يتهيَّأ له حل، وهو مخصَّص على سبيل الحصر لإضفاء نهاية احتفالية

على تلك المأساة غير المكتملة، عسى أن يتحقَّق بذلك معنى هذه الخاتمة ومعنى جهدي المُتَهيِّب. ولابدَّ أن يتم، بصدد العرض الذي يتهيّأ في كل الأحوال، تأكيدُ أن هذه الخاتمة تجري أحداثها، من الوجهة الزمنية بعد ستة عشر عاماً من أحداث «والضوء يسطع في الظلام»، وأن هذا لابدَّ أن يتجلّى من حيث المظهر الخارجي، في مظر ليو تولستوي على نحو مطلق. وذلك أن الصور الجميلة العائدة إلى سنوات حياته الأخيرة يمكن أن تكون أنموذجية، ولاسيما تلك الصور التي تظهره في دير شامار دينو مع أخته، والصورة الفوتوغرافية على سرير الموت. وحتى حجرة العمل كان مُقَدَّراً لها أن تُشَكَّل وَفْقاً للأنموذج التاريخي، تشكيلاً مفعماً بالاحترام، ببساطتها التي تهز النفوس. ولقد تمَنَّيْتُ أن أرى هذه الخاتمة (التي تسمِّي تولستوي باسمه، ولا تعود تخفيه وراء شخصية صورةٍ منه، هي شخصية سارينزيف) وقد أُلْحقَت، بعد وقفة مستفيضة، بالفصل الرابع من القطعة المسرحية المجتزأة «والضوء يسطع في الظلام». وليس لديَّ رغبة في عرضٍ مستقل لهذه الخاتمة.

شخصيات الخاتمة

ليونيكولايڤيتش تولستوي (في السنة الثالثة والثمانين من عمره).
صوفيا أندر ييفنا تولستوي، زوجته.
ألكسندرا لڤوڤنا (المدعوة ساشا)، ابنته.
أمين السر.
دوشان بيتروڤيتش، طبيب الأسرة، وصديق تولستوي.
ناظر محطة أستابوڤو، إيڤان إيڤانو ڤيتش أوسرلينغ
قائد شرطة أستابوڤو، سيريل جريجورو ڤيتش.

طالب أول

طالب ثان

ثلاثة مسافرين

المشهدان الأوّلان يجريان في الأيام الأخيرة من تشرين الأول، من عام ١٩١٠، في حجرة عمل ياسنايا بوليانا، والمشهد الأخير يجري في ٣١ تشرين الأول من عام ١٩١٠ في قاعة الانتظار في محطة أستابوڤو.

المشهد الأول

نهاية تشرين الأول، ١٩١٠، في ياسنايا بوليانا

حجرة عمل تولستوي، بسيطة وخالية من الزخرف، مطابقة للصورة المعروفة تماماً.

أمين السر يُدْخِل طالبين، في صُدَيْريين أسودين مغلقين من الأعلى، على الطراز الروسي، وكلاهما شاب، له وجه حاد الملامح، وهما يتحركان بأسلوب الواثق بنفسه كل الثقة، وهما أقرب إلى التطاوُل منهما إلى الوَجَل.

أمين السر: فلتقعدا في هذه الأثناء، فلن يدعكما ليو تولستوي طويلاً في انتظاره، إلاّ أنني أود أن أرجوكما أن تَرْعَيا حق شيخوخته! لقد بلغ من حب ليو تولستوي للمناقشة أنه كثيراً ما ينسى قابليته للإصابة بالإرهاق.

الطالب الأول: ليس لدينا إلاّ القليل من الأسئلة التي نطرحها على ليو تولستوي - إنه سؤال وحيد فحسب، وهو بالطبع سؤال حاسم بالقياس إلينا وبالقياس إليه، وأنا أعدك أن لا أطيل المُكْث - على شرط أن يُباح لنا أن نتحدث بحرية.

أمين السر: الحرية الكاملة، وكلما نَأيْتُما عن الشكليّات كان ذلك أفضل، وقبل كل شيء لا تخاطباه بلقب النبالة - فإنه لا يحب ذلك.

الطالب الثاني (ضاحكاً) لا داعي لأن تخشى منا هذا، كل شيء إلاّ هذا.

أمين السر: ها هوذا يصعد السُلَّم مقبلاً إلينا.

(يدخل تولستوي، بخطوات سريعة، كالريح إذ تخفُق، وهو رشيق الحركة وعصبي على الرغم من شيخوخته، وفي أثناء حديثه كثيراً ما يدير قلم رصاص في يده، أو يفتِّت صفحة من الورق، من جراء نفاد صبره ولهفته على الإمساك بزمام الحديث، ويُقْبِل على كلَيْهما بسرعة، ويصافحهما، وينظر إلى كل واحد منهما، لحظة من الزمان، نظرة حادَّة ثاقبة، ويستقر في مجلسه بعد ذلك على الكرسيّ ذي المساند من الجلد المشمَّع، قبالتهما)

تولستوي: أنتما الطالبان، اللذان بعثت بهما اللجنة إليّ، أليس كذلك... (يبحث في رسالة). أرجو المعذرة لأنني نسيت اسمكما...

الطالب الأول: نرجوك أن تنظر إلى اسمَيْنا نظرتك إلى أمر غير ذي بال. فنحن لا نأتي إليك إلاّ اثنين من بين مئات الألوف.

تولستوي: (وهو ينظر إليه نظرة حادّة) هل لديك أية أسئلة تطرحها عليّ؟

الطالب الأول: سؤال واحد.

تولستوي (للثاني) وأنت؟

الطالب الثاني: السؤال ذاته، فنحن جميعاً ليس لدينا إلاّ سؤال واحد نطرحه عليك، يا ليو نيكولاييفيتش تولستوي، نحن جميعاً، شبيبة

روسيا الثورية بأسرها - وليس هناك سؤال غيره: لماذا أنت لست معنا؟

تولستوي: (بهدوء بالغ): لقد عَبَّرت عن هذا، كما آمل، بوضوح في كتبي، وفضلاً عن ذلك في بعض الرسائل، التي أتيح لها في هذه الأثناء أن تغدو في متناول الأيدي - ولست أدري أتُراك قرأت كتبي، أنتَ شخصياً؟

الطالب الأول: (منفعلاً) تسألنا هل قرأنا كتبك، يا ليو تولستوي؟ إنّ ما تسألنا عنه هنا لسؤال غريب. أمّا أن نكون قرأناه - فذلك خليق أن يكون أقلَّ مما ينبغي. لقد عِشْنا على كتبك، منذ طفولتنا، وحين أصبحنا شباباً، هنالك بعثت القلب في أجسادنا، وإذا لم يكن هذا أنتَ فمن يكون سواك الذي علّمنا ما ينطوي عليه توزيع كل الثروات البشرية من الظلم - إنها كتبك، أنتَ وحدك الذي انتزعت قلوبنا من دولة، وكنيسة، وحاكم يحمي الظلم اللاحق بالبشر، بدلاً من أن يحمي البشر. أنتَ، وأنت وحدك الذي أمرتنا أن نعبئ حياتنا بأسرها إلى أن يتم تدمير هذا النظام الفاسد نهائياً...

تولستوي (يريد أن يقاطع، ويقول) ولكن ليس عن طريق العنف...

الطالب الأول (لا يلوي على شيء، مواصلاً بصوت يطغى على صوته): منذ أن تحدثنا بلغتنا، لم نولِ أحداً من الثقة مثلَ الذي أوليناك، وكُنّا إذا تساءلنا من عساه يقضي على هذا الظلم، قلنا لأنفسنا: إنه هو! وكنا إذا سألنا من عساه ينهض ذات مرة ويطيح بهذه الدناءة، قلنا: إنه سوف يفعل هذا، ليو تولستوي. كنا تلاميذك، وخدمك، وعبيدك، وإني لأعتقد أنني كنت خليقاً في تلك الأيام أن أموت بإشارة من يدك، ولَوْ قَدْ أتيح لي، قبل بضعة أعوام أن أدخل هذا المنزل لكنت خليقاً أن

أنحني بين يديك كما ينحني المرء أمام قديس؛ هذا ماكُنْتَه بالقياس إلينا، يا ليو تولستوي، بالقياس إلى مئات الألوف منا، وبالقياس إلى الشبيبة الروسية بأسرها، حتى قبل أعوام قلائل - ونحن نشكو من ذلك، نحن نشكو جميعاً مِنْ أنَّك أصبحت بالقياس إلينا، منذ ذلك الوقت بعيداً، وقد أوشكت أن تصبح خصمنا.

تولستوي: (بلهجة أرَقّ): وما الذي كان يجب عليَّ عمله، فيما ترى، لكي أظل مرتبطاً بكم؟

الطالب الأول: أنا لا أملك الجرأة على اعتزام تعليمك، فأنت تعرف بنفسك ما الذي نأى بك عنا، نحن الشبيبة الروسية بأسرها.

الطالب الثاني: والآن، فِيمَ عدم التصريح بهذا، فقضيَّتنا أكثر أهمية من أن تحول دونها ألوان التهذيب والمجاملات، ولابدَّ لك آخر الأمر أن تفتح عينيك ذات مرة، وما عاد يجوز لك أن تظل فاتراً متهاوناً إزاء جرائم الحكومة الفظيعة بحق شعبنا. يجب عليك آخر الأمر أن تنهض عن منصة كتابتك، وأن تقف إلى جانب الثورة بصراحة ووضوح ومن دون قيد ولا شرط، فأنت تعلم، يا ليو تولستوي بأي قسوة سحقوا حركتنا، وبات مزيد من الناس ينتابهم العَطَن الآن في السجون مثلما تتعطَّن أوراق الأشجار في حدائقها، وأنت، أنتَ، تشارك في رؤية هذا، وربما تكتب، كما يقولون، من حين إلى آخر، في صحيفة إنكليزية، أية مقالة كانت، عن قدسية الحياة البشرية، غير أنك تعلم، أن الكلمات ما عادت تجدي فتيلاً أمام هذا الإرهاب الدموي، وإنك لتعلم، مثلما نعلم، أن الحاجة تمسُّ الآن إلى انقلاب كامل فحسب، إلى ثورة، وكلمتك وحدها يمكنها أن تنشئ لها جيشاً. لقد جعلتَ منا ثوريين، والآن، إذْ أزفَت ساعتك، تُعْرِض عنا في حذر وتُقِرُّ العنف بذلك.

تولستوي: لم يَسْبِق لي قطُّ أن أقرَرْتُ العنف، أبداً! لقد تركت عملي منذ ثلاثين عاماً، لا لشيء إلاّ لأكافح جرائم كل أهل السلطة. منذ ثلاثين عاماً - ولم تكونوا وُلِدْتُم بعد - كنت أطالب، مطالبة أكثر جذريّةً منكم، لا بالتحسين فحسب، بل بالتنظيم الجديد الكامل للعلاقات الاجتماعية.

الطالب الثاني (يقاطعه): ثم ماذا؟ بماذا أقرّوا لك، وماذا أعطانا القوم منذ ثلاثين عاماً؟ السوط لأهل التقوى، الذين أدّوا رسالتهم، وست رصاصاتٍ في الصدر، وما الذي أصبح أفضل، في روسيا، من جرّاء إلحاحكم الرفيق الحليم، وعن طريق كتبكم وكتيِّباتكم؟ أفَلا يتبَيَّن لك آخر الأمر أنك ما زلت تعين أولئك الذين يمارسون الاضطهاد والقمع إذ تحمل الشعب على التحلّي بالحُلُم والصبر وتعزّيه بمملكة الألف عام؟ كلاّ، يا ليو تولستوي، فإن مما لا يجدي فتيلاً أن تناشد هذا الجنس المتغطرس باسم المحبة، ولو نطقت بألسنة الملائكة! وعبيد القياصرة هؤلاء لن يخرجوا من جيبهم روبلاً واحداً من أجل مسيحهم، ولن يتراجعوا شبراً واحداً قبل أن نمشي إليهم وقبضاتنا موجهة إلى حناجرهم، وحسبُ الشعب طولُ ما انتظر محبتهم الأخوية، والآن ما عُدْنا ننتظر أطول من هذا، الآن دقت ساعة الفعْل.

تولستوي: (بعنف بالغ): بل إني لأعرف فعْلاً مقدساً»، تذكرونه في نداءاتكم، فعلاً مقدساً، ألا وهو «استثارة الكراهية»، غير أني لا أعرف كراهية، ولا أريد أن أعرفها، حتى ولا لأولئك الذين يقترفون الآثام بحق شعبنا، ذلك لأن من يقترف الشر هو أكثر تعاسة في نفسه ممَّنْ يحتمل الشر - وإني لأرثي له، غير أني لا أكرهه.

الطالب الأول: أمّا أنا فأكرههم جميعاً، أولئك الذين يقترفون الظلم

بحق البشرية - كراهية لا هوادة فيها، مثلما أكره الوحوش التي تسفك الدماء، أكره كل فرد منهم! كلاً يا ليو تولستوي، فلن تعلمني أبداً أن أتعاطف مع هولاء المجرمين.

تولستوي: والمجرم أيضاً يظل أخي.

الطالب الأول: ولو كان أخي، وابن أمي، وجَرَّ الآلام على البشرية لسحقته مثلما يفعل المرء بكلب مسعور. كلاّ، لا تعاطف بعدُ مع الذين لا يشعرون بالتعاطف! ولن تسود السكينة في هذه الأرض الروسية قبل أن تُدْفَن جثث القياصرة والبارونات تحتها، ولن يكون هناك نظام أخلاقي قبل أن نرغمهم إرغاماً.

تولستوي: ما من نظام أخلاقي يمكن فرضه عن طريق العنف، لأن كل عنف يسفر، لا محالة، عن عنف، مرة أخرى، وبمجرّد أن تلجأوا إلى السلاح تنشئون استبداداً جديداً، وبدلاً من تدمير الاستبداد تخلدونه تخليداً.

الطالب الأول: ولكن لا توجد وسيلة ضد الأقوياء سوى تدمير قوتهم.

تولستوي: هذا أمر مسلَّم به، ولكن لا يجوز للمرء أبداً أن يتخذ وسيلة لا يقرّها هو نفسه. والقوة الحقيقية، صَدِّقْني، لا تردُّ على العنف بالعنف، بل تجرِّد من القوة عن طريق المطاوعة واللين. لقد جاء في الإنجيل...

الطالب الثاني: (مقاطعاً): دع الإنجيل بربك، فلطالما صنع البابوات منه الكونياك، ليبلِّدوا أحاسيس الشعب، لقد كان موضع الاعتبار قبل ألفي عام ولم يسعف أحداً منذ تلك الأيام، وإلاّ لما كان العالم مترعاً بالبؤس والدم إتراع القدح إلى حافّتيه، يا ليو تولستوي، اليومَ ما عاد من الممكن ردم الهوَّة بين السادة والعبيد: فما يوجد بين هاتين الضفتين

من البؤس مفرط في الكثرة، وهناك المئات، بل الألوف، من البشر المؤمنين، من أولي المروءة والنجدة، يتضوَّرون اليوم من الجوع في سيبريا وفي السجون، وغداً سيكونون آلافاً، وعشرات الألوف. وأنا أسألك: هل ينبغي بالفعل لكل هؤلاء الملايين من الأبرياء أن يظلوا من بعدُ يعانون من أجل خاطر حفنة من الآثمين؟

تولستوي: (وهو يتمالك نفسه) لأنْ يعانوا خيرٌ من أن تسفك الدماء مرة أخرى، فالمعاناة البريئة على وجه الخصوص ذاتُ عَوْن على الظلم ومضادَّة له.

الطالب الثاني: (في جموح) أنت تعدُّ المعاناة خيراً، معاناة الشعب الروسي التي لا نهاية لها، والتي تبلغ من العمر ألف سنة؟ والآن: بهذه الطريقة يذهبون إلى السجون، هلاّ سألت الذين يُجْلَدون بالسياط، وهلاّ سألت المتضوِّرين جوعاً في مدننا وقرانا هل يرون المعاناة مستحسنة بالفعل إلى هذا المدى.

تولستوي: ما من شك في أنها خير من عنفكم، وهل تراكم تعتقدون بالفعل أنكم تزيلون الشر من العالم بقنابلكم ومسدساتكم على نحو حاسم؟ كلاّ، فإن الشر سوف يحدث مفعوله بعد ذلك في نفوسكم أنتم، وأنا أكرّر لكما أن معاناة المرء في سبيل عقيدة ما خير مائة مرة من أن يمارس القتل من أجلها.

الطالب الأول: (غاضباً مثله): كلاّ، إذا كانت المعاناة طيبة مستحسنة إلى هذا المدى ونافعة، يا ليو تولستوي، إذاً فلماذا لا تعاني، أنت نفسك، ولماذا تمجِّد، دائماً الاستشهاد عند الآخرين، وتجلس أنت نفسك مستمتعاً بالدفء في بيتك الخاص وتمارس الأكل بأدوات المائدة

الفضيّة، بينما يذهب فلاحوك - وقد رأيت ذلك - في الأطمار البالية يرتعدون من البرد وقد أوشكوا أن يموتوا من الجوع في أكواخهم؟ لماذا لا توعز بأن تُضْرَب أنت بالسياط بدلاً منهم، هؤلاء الأتقياءُ الورِعون، الذين يتعرَّضون للتعذيب من أجل تعاليمك؟ ولماذا لا تغادر، أخيراً، بيت الأمراء هذا، ولماذا لا تخرج إلى الشارع، لتتعرف بنفسك، في جوّ الرياح والصقيع والمطر، على الفقر الذي يزعمون أنه لذيذ وستعذب إلى هذا المدى؟ ولماذا تكتفي، دائماً، بالحديث، بدلاً من أن تتصرَّف، أنت نفسك، بموجب تعاليمك؟ ولماذا لا تقدِّم، أنت نفسك، آخر الأمر، مثالاً؟

تولستوي: (يتراجع، أمين السر يقفز متصدِّياً للطالب، ويريد أن يردهّ، بمرارة، إلى حدوده، ولكن تولستوي يكون قد تمالك نفسه، ويزيح أمين السر جانباً، برفق): دَعْ عنك هذا! فإن السؤال الذي وجَّهه هذا الشاب إلى ضميري سؤال وجيه... سؤال جيد، سؤال ممتاز تماماً، سؤال ضروري حقاً. وسوف أجتهد في الإجابة عنه بإخلاص. (يقترب خطوة، ويتردد، ويستجمع قواه، ويَخْشَوْشِنُ صوته، ويغدو مكتوماً): تسألني لماذا لا أحمل المعاناة على عاتقي، بموجب تعاليمي وكلامي؟ وأجيبك عن ذلك بأقصى قدر من الخجل: إذا كنتُ تهرَّبتُ حتى الآن من أقدس واجباتي... فقد كان هذا... لأنني... كنت مفرطاً في الجبن، مفرطاً في الضعف، أو مفرطاً في عدم الإخلاص والاستقامة، كنت إنساناً أدنى، إنساناً تافهاً، آثماً...، لأن الله لا يُسْبِغ عليَّ حتى اليوم، المقدرة على الإقدام على ما لا سبيل إلى تأجيله، أخيراً. إنك لتتحدث بحديث رهيب، أيها الإنسان الشاب، الغريب، تسكبه في ضميري، وأنا أعلم أنني لم أقدم على عُشر مِعْشار ما تمسُّ الحاجة إليه، وأنا أعترف،

والخجل يتولاّني، أنْ قَدْ كان واجبي يقتضيني منذ عهد بعيد أن أفارق ترف هذا المنزل وطِراز حياتي الذي يبعث على الرثاء، والذي أحس أنه خطيئة، وأن أخرج إلى الشوارع، حاجّاً، كما تقول تماماً، ولست أعرف جواباً سوى أن أشعر بالخجل في أعمق أعماق نفسي، وأنحني ذليلاً أمام بؤسي الذي يبعث على الرثاء (الطالبان يتراجعان خطوة ويخلدان إلى الصمت متأثّرَيْن وتكون لحظة سكون. ثم يمضي تولستوي في حديثه، بصوت أكثر انخفاضاً): ولكن ربما... ربّما كنت أعاني مع ذلك... ربما كنت أعاني على أية حال من كوني أفتقر إلى القوة والصدق الكافيَيْن من أجل تنفيذ كلمتي أمام الناس. وربما كنت أعاني هنا، على أية حال، في ضميري، أكثر مما يعاني المرء من التعذيب الرهيب للجسد، وربما صنع الله لي هذا الصليب على وجه الخصوص، وجعل هذا المنزل أَحْفَلَ بالعذاب مما لو كنت في السجن وقدماي تَرْسُفان في الأغلال... ولكن أنت على حق، فهذه المعاناة تظل بغير طائل، لأنها معاناة لي وحدي، وأنا أتعالى، إذا شئت أن أشعر بالزُّهُوِّ بعدُ من جراء ذلك.

الطالب الأول (بشيء من الخجل): أستميحك العفو، يا ليو نيكولايفيتش تولستوي، إذا ذهبت في حماستي مذهباً شخصياً...

تولستوي: كلاّ، كلاّ، بل على النقيض من ذلك، أنا أشكرُ لك! فمن يَهُزّ ضميرنا، ولو كان ذلك بقبضات الأيدي، فقد أَحْسَنَ إلينا (صمت، يعود تولستوي إلى الحديث مرة أخرى بصوت هادئ: هل يوجد لديكما، معاً، سؤال آخر يُوَجَّه إليّ؟

الطالب الأول: كلاّ، كان هذا سؤالنا الوحيد، وأنا أعتقد أن من سوء حظ روسيا والبشرية بأسرها أن ترفض وقوفك إلى جانبنا، ذلك لأنه ما من

أحد سوف يقف هذا الانقلاب، وهذه الثورة أكثر من هذا، وأنا أشعر أنها ستكون رهيبة، وأكثر إثارة للرهبة من كل ثورات هذه الأرض. أمّا أولئك الذين كُتِبَ لهم أن يقودوها فسيكونون رجالاً من الفولاذ، رجال العزم والتصميم الذي لا هوادة فيه، رجالاً من دون رحمة، ولو كنت في طليعتنا لظفرت قدوتك بالملايين، ولكان لابد أن يكون عدد الضحايا أقلّ.

تولستوي: ولو كانت حياة واحدة فحسب أبوء أنا بإثم وفاتها لما كان في وسعي أن احتمل مسؤوليتها أمام ضميري.

(يسمع صوت الجرس المنزلي من الطابق السفلي)

أمين السر (لتولستوي، لكي ينهي الحديث): صوت الجرس يرن إيذاناً بحلول الظهيرة.

تولستوي: (بمرارة): أجل، الأكل، والثرثرة، والأكل، والنوم، والاستراحة، والثرثرة هكذا نعيش حياة التعطُّل

(يتوجه نحو الشابّيْن من جديد)

الطالب الثاني: إذاً فلن نعود إلى أصدقائنا بشيء سوى جوابك السلبي؟ ألن تهب لنا كلمة تشجيع؟

تولستوي (ينظر إليه نظرة حادّة، ويفكر): قولوا لأصدقائكم ما يلي باسمي: أنا أحبكم واحترمكم، يا شباب روسيا لأنكم تحسّون بمعاناة إخوانكم بكل هذه القوة وتريدون أن تقفوا حياتكم لتحسين حياتهم (يغدو صوته قاسياً، قوياً، غليظاً) غير أني لا أقدر على متابعتكم إلى أبعد من هذا، وأنا أرفض أن أكون معكم بمجرد أن تتنكَّروا لمحبة البشر والمحبة الأخوية للناس جميعاً.

الطالبان يخلدان إلى الصمت، ثم يتقدم الطالب الثاني بعزم وتصميم ويقول بقسوة):

الطالب الثاني: نشكر لك أنّك استقبلتنا، ونشكر لك إخلاصك. ولن أواجهك مِنْ بعدُ أبداً - ولذلك فاسمح لي، أنا، اللاشيء المجهول، أيضاً، بكلمة صريحة من باب الوداع. أنا أقول لك، يا ليو تولستوي، إنك تخطئ حين تحسَبُ أن العلاقات البشرية يمكن إصلاحها عن طريق المحبة وحدها: فهذا شيء يمكن أن يكون له اعتبار بالقياس إلى الأغنياء، والذين لا هَمَّ لهم. غير أنّ أولئك الذين شبّوا على الجوع منذ طفولتهم، وقد ظلوا طوال حياتهم يرسفون في الأغلال تحت سلطان أسيادهم، هؤلاء أصابهم الإرهاق فما عادوا يستطيعون بعد هذا أن ينتظروا أن تتنزَّل هذه المحبة الأخوية من السماء المسيحية، بل يُؤْثِرون أن يعتمدوا على قبضات أيديهم، ولذلك أقول لك عشية وفاتك، يا ليو نيكولايفيتش تولستوي: إن العالم سوف يغرق في الدماء، ولن يقتلوا الأسياد فحسب، بل سيقتلون أطفالهم ويمزقونهم إرباً، لكيلا تتوقّع المعمورة أيضاً من أولئك شيئاً من السوء بعد هذا، وأرجو أن تُصانَ من هذا، وأن لا تكون عندئذ، أيضاً، شاهد عيان على خَطَئِك - هذا ما أتمناه لك من قلبي! فليهب الله لك موتاً وديعاً!

(كان تولستوي قد تراجع إلى الوراء، وقد تولاّه الفزع البالغ من عنفوان الشاب اللاهب. ثم يتمالك نفسه، ويُقْبِل عليه، ويقول، ببساطة):

تولستوي: أشكر لك على وجه الخصوص كلماتك الأخيرة: لقد تمنيك لي ما كنت أتوق إليه منذ ثلاثين عاماً - موتاً في سلام مع الله، ومع البشر جميعاً. (ينحني كلاهما ويذهبان، تولستوي يتابعهما بعينيه وقتاً أطول، ثم يأخذ في المشي جيئة وذهاباً وهو منفعل، ويقول لأمين

سره متحمساً: يا لهذين من شابين رائعين، ويا لجرأتهم وزهوهم بأنفسهم وقوتهم، هؤلاء الشباب، شباب روسيا! ألا إنها لرائعة، هذه الشبيبة المؤمنة، اللاهبة! هكذا عرفتهم أمام سيباستوبول، قبل ستين عاماً. كانوا يتقدمون نحو الموت بالنظرة الطَّلْقة الجسورة ذاتها، نحو كل خطر – وهم مستعدون بعنادهم، لأن يموتوا وعلى ثغورهم ابتسامة، من أجل لاشيء، ولأنْ يَطَّرِحوا حياتهم، هذه الحياة الفتيّة الرائعة، من أجل جَوْزَة فارغة، من أجل كلمات من دون مضمون، من أجل فكرة من دون حقيقة، لمجرد السرور بالبذل والتفاني. ألا إنها لرائعة، هذه الشبيبة الروسية الخالدة! وإنها لتخدم بكل هذا اللهيب وهذه الطاقة، الكراهية والقتل، مثلما يخدم المرء قضيّةً مقدسة! ومع ذلك فها هم أولاء قد أحسنوا إليّ! لقد بعثني من سُباتي هذان الشابان، ذلك لأنهما على صواب، فثمة حاجة إلى أن أنهض أخيراً نافضاً عنّي ضعفي، وأقف إلى جانب كلمتي! ما هي إلاّ خطوتان بيني وبين الموت، وما زلت أتردَّد! حقاً، إن المرء لا يتعلم ما هو صحيح إلاّ من الشباب، من الشباب فحسب!

(الباب يفتح بعنف، والكونتيسة تقتحم الغرفة كتيّار من الريح عاصف، عصبيّةً، مستثارة، أما حركاتها فغير واثقة، وتظل عيناها تتيهان في اضطراب وقلق، من شيء إلى آخر، ويحسّ المرء أنها تفكر في شيء آخر غير الذي تتحدث به، وقد أتى عليها اضطراب داخلي ابتُعِثَ من سُباته. وهي تنظر إلى أمين السر بينما تمرُّ به، عامدة، وكأنه هواء، ولا تتحدث إلاَّ إلى زوجها، وقد دخلت وراءها ساشا، ابنتها، على عجل، ويحس المرء بانطباع مؤدّاه أنها لحقت بأمها لتَرْقُبها).

الكونتيسة: لقد قرع الجرس من أجل طعام الغداء، ومنذ نصف

ساعة ينتظر أحدهم في الأسفل منك من «الديلي تليغراف» بسبب مقالتك ضد عقوبة الإعدام وأنت تدعه واقفاً بسبب أولئك الغلمان. فيالهم من أناس وقحين ليس لهم سلوك مهذب! وفي الأسفل، حين سألهم الخادم هل أبلغ الكونت عن قدومهم، أجاب الأول قائلاً: لقد أُبْلِغَ الكونت بقدومنا: فقد طلبنا ليو تولستوي، وأنت تسترسل في الحديث مع أمثال هؤلاء الفضوليين المعجبين بأنفسهم الذين تعد أحب الأمور إلى أنفسهم أن يروا العالم مشوَّشاً مضطرباً مثل رؤوسهم هم! (تنظر حواليها في الحجرة، في قلق) كيف توضع الأشياء كلها هنا وهناك، الكتب على الأرض، وكل شيء مختلط بعضه في بعض، مترع بالغبار، حقاً، إن هذا لعار، لو جاء أحد أفضل من هؤلاء، تذهب صوب الكرسي ذي المسند، وتلمسه) لقد تمزّق النسيج المشمَّع تماماً، ولابد أن يشعر المرء بالخجل، كلاّ، ما عاد هذا يصلح لأن ينظر المرء إليه)، ومن حسن الحظ أن المُنَجِّد سيأتي إلى بيتنا غداً، ومن تولا، ولابدَّ له أن يقوم على الفور بإصلاح الكرسي ذي المساند (ما من أحد يجيبها)، وتنظر إلى هنا وهناك) تعالَوْا الآن! لا يستطيع المرء أن يدعهم ينتظرون أكثر من ذلك.

تولستوي: (ينتابه الشحوب والاضطراب، فجأة): أنا قادم فوراً، لم يبق لديَّ سوى... شيء أرتِّبُه... وسوف تعينني ساشا في هذا... فلتكوني في هذه الأثناء في صحبة هذا السيد، واعتذري عني، فأنا آتٍ على الفور (تنصرف الكونتيسة، بعد أن تكون ألقت نظرة أخرى، زائغة، على الحجرة بأسرها، ويلقي تولستوي بنفسه نحو الباب، بمجرد أن تخرج من الحجرة، ويدير قفل الباب على عجل).

ساشا (وقد تولاها الفزع من عنفه) ماذا دهاك؟

تولستوي (في ذروة الانفعال، وهو يضغط يده على قلبه، متلعثماً): المُنَجِّد غداً... الحمد لله... مازال ثمة وقت... والحمد لله.

ساشا: ولكن ما الأمر...

تولستوي: (بانفعال) عليّ بسكين، سكين على عجل، أو مقصّ... (يناوله أمين السر، بنظرة مندهشة، من منصّة الكتابة، مقص ورق، ويبدأ تولستوي، في سرعة عصبية، وهو ينظر أحياناً إلى الباب الموصَد في خوف، في توسيع مكان التمزُّق في الكرسي ذي المساند، بالمقص، ثم يجس بيديه، في قلق، شعر الحصان المنبثق، إلى أن يستخرج أخيراً رسالة مختومة. هذه - أليس كذلك؟... إنه لأمر مضحك... مضحك وغير محتمل... مثلما يحدث في رواية فرنسية بائسة، من روايا التسلية... إنه عار لا نهاية له... وكذلك يجب عليَّ، وأنا رجل أتمتع بحواسيّ النقية الصافية، في بيتي الخاص، وفي عامي الثالث والثمانين، أن أخفي أهمَّ أوراقي، لأن كل شيء يجري التنقيب عنه، لأن القوم يجرون ورائي، وراء كل كلمة وسر! آه، يا له من عار، وأي جحيم آلت إليه حياتي هنا في هذا المنزل، ويا لها من أكذوبة! (يزداد هدوءاً، ويفتح الرسالة، ويقرأها (لساشا): لقد كتبت هذه الرسالة قبل ثلاثة عشر عاماً، في تلك الأيام، حين هممت أن أفارق أمك وأخرج من هذا البيت الجحيميّ. وكانت هذه رسالة الوداع إليها، الوداع الذي لم أجد الجرأة عليه بعد ذلك (يفض الرسالة بيديه المرتعشتين فيصدر عنها حفيف، ويقرأ بصوت بين الارتفاع والانخفاض لنفسه): «... ومع ذلك فما عاد من الممكن بالقياس إليّ، أن أستأنف هذه الحياة التي أعيشها هنا منذ ستة عشر عاماً، وهي حياة أكافح فيها ضدكم، ولابدّ لي أن أستثيركم،

ولذلك أقرر أن أفعل ما كان ينبغي لي أن أفعله منذ عهد بعيد، وهو أن أهرب... ولو فعلت ذلك بصراحة لكانت هناك مرارة، وربما انتابني الوَهْن وما نفْذت قراري وهو قرار لابُدَّ أن يُنَفَّذ. إذاً فاغفري لي، وأرجوك من أجل ذلك، إذا كانت خطوتي تسبب لك الألم، وأطلقي سراحي، أنتِ، يا سونيا، قبل كل من عداكِ، من قلبك، راضيةً طائعة، ولا تبحثي عني، ولا تَشْكي مني، ولا تُدينيني» (يتنفَّس بصعوبة): آه، لقد مضى على هذا الآن ثلاثة عشر عاماً، وظللت منذ ذلك الوقت أواصل تعذيب نفسي، وكل كلمة ما زالت صحيحة كما كانت في تلك الأيام، وحياتي اليوم ما زالت على وجه الدقة في مثل الجبن والضعف اللذيْن كانت تتسم بهما، ومازلت، مازلت، لم أهرب، مازلت أنتظر وأنتظر، ولا أعرف ماذا أنتظر. لقد كنت أعرف دائماً كل شيء بوضوح، وأتصرَّف التصرف الخاطئ دائماً، وكنت دائماً مفرطاً في الضعف، ومن دون إرادة ضدها دائماً! لقد أخفيت الرسالة هنا مثلما يخفي صبيٌّ في مدرسة كتاباً قذراً عن المعلم. أما الوصية التي رجوت منها فيها في تلك الأيام أن تهب ملكية أعمالي إلى البشرية بأسرها، فقد وضعتها في يدها لا لشيء إلاّ لكي أحظى بالسلام في بيتي، بدلاً من السلام في ضميري.

(فترة سكون)

أمين السر: وهل تعتقد، يا ليو نيكولايفيتش تولستوي، وأنت تسمح لي فيما أعتقد بهذا السؤال، إذ ينشأ الحافز إليه على نحو مفاجئ كل المفاجأة... هل تعتقد... أن هذه رغبتك الأخيرة، الأكثر إلحاحاً على الإطلاق، عندما يُقَدَّر لك... أن يدعوك ربك إلى جواره، وهي أن تتخلى عن ملكية أعمالك، بالفعل أيضاً؟

تولستوي (فَزِعاً) هذا بَدَهي... هذا يعني (مضطرباً): كلاّ، أنا لا أعرف حقاً... ما هو رأيك يا ساشا؟

(ساشا تُعْرَض عنه وتصمت).

تولستوي: يا إلهي، هذا ما لم أفكر فيه، أولا: ها أنذا أعود، ها أنذا أعود فأكون غير صادق كل الصدق، كلاّ، فكل ما في الأمر أنني لم أشأ أن أفكر في ذلك، لقد عدت فتهرَّبت كما أتهرَّب دائماً من كل حسم واضح ومستقيم (ينظر إلى أمين السر نظرة حادّة. كلاّ، أنا أعلم، أعلم حق اليقين، أن زوجتي وأبنائي، لن يحترموا إرادتي الأخيرة أكثر مما يحترمون إيماني الأخير وواجبي الروحي، ولسوف يتاجرون بأعمالي، وحتى بعد موتي سوف أقف وقفة الكاذب بحق كلمتي أمام الناس (يقوم بحركة تدل على التصميم)، ولكن لا ينبغي أن يكون هذا، ولا يجوز أن يكون! وأخيراً فليكن هناك وضوح! ماذا قال هذا الطالب اليوم، هذا الإنسان الصادق المخلص؟ العالم يطالبني بفعل، فليكن هناك وضوح أخيراً، قرار واضح، خالص، وصريح، كانت هذه علامة! حين يبلغ المرء الثالثة والثمانين لا يجوز له بعد أن يغمض عينيه أمام الموت، بل يجب عليه أن ينظر إليه في محيّاه، وأن يتَّخذ قراره صريحاً قاطعاً. أجل، لقد حذَّرني التحذير الحَسَن هذان الغريبان: كل تعطّل لا يخفي إلا جُبْن النفس دائماً. لابدّ للمرء أن يكون واضحاً، وأريد أن أكون كذلك أخيراً، الآن في ساعتي الثانية عشرة، وفي عامي الثالث والثمانين (يتجه نحو أمين السر وابنته). يا ساشا، وڤلاديمير جور جفيتش، غداً أكتب وصيتي، واضحة، حازمة، ملزمة، ولا يرقى إليها الشك، فأهدي دخل كل كتاباتي، كل المال القذر الذي يُسْتَثْمَر منها، إلى الناس جميعاً، إلى

البشرية بأسرها - لا يجوز أن يُتاجر بالكلمة التي قلتها وكتبتُها صادراً فيها عن محنة ضميري؛ تعال غداً قبل الظهر، وائْتِ معك بشاهد ثانٍ - لا يجوز لي بعدُ أن أتردَّد، وإلاّ فربما عاقني عن ذلك الموت وغَلَّ يدي.

ساشا: رُوَيْدَك لحظة أخرى، يا أبتِ - وليست المسألة أنني أريد أن أصرفك عن هذا، ولكنني أخاف من صعوبات إذا ما رأتنا أمي معاً نحن الأربعة هنا، وذلك أنها سوف تشتبه بنا على الفور، وربما زعزعت إرادتك في اللحظة الأخيرة بعد.

تولستوي: (مطرقاً، يفكر: أنت على حق! كلاّ، هنا، في هذا المنزل لا أستطيع إنجاز شيء طاهر، ولا أن آتي بشيء على وجهه الصحيح: هنا تتحوَّل الحياة بأسرها إلى أكذوبة. (لأمين السر): رتِّب أمورك بحيث تلقاني غداً في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، في غابة غرومون، عند الشجرة الكبيرة إلى اليسار، وسوف أتظاهر بأنني أقوم بنزهتي المعتادة، ولْتحضِّروا كل شيء، وهنا سيهب الله لي، كما آمُل، الثبات لكي أتحرر أخيراً من القيد الأخير.

(جرس الظهيرة يَرِنُّ بصوت أعنف، مرة ثانية)

أمين السر: ولكن لا تدعْ الآن الكونتيسة تلاحظ شيئاً، وإلاّ ضاع كل شيء.

تولستوي (وهو يتنفس بصعوبة) إنه لأمر مريع، أن يضطر المرء مرة بعد مرة، إلى أن يتظاهر ويمثل، وأن يتخفّى مرة بعد أخرى، والمرء يريد أن يكون صادقاً أمام العالم، وأن يكون صادقاً أمام الله، ويريد أن يكون صادقاً مع نفسه، ولا يجوز له أن يكون كذلك مع زوجته وأبنائه! كلاّ، ما هكذا يستطيع المرء أن يعيش، ما هكذا يستطيع المرء أن يعيش!

ساشا (مذعورة): أمي!

(أمين السر يفتح قفل الباب على عجل، وتولستوي يذهب إلى منصة الكتابة ليواري انفعاله، ويظل مُولِّياً ظهره للداخلة).

تولستوي (متنهِّداً): الكذب في هذا المنزل يسممني - آه، لو أمكن للمرء أن يكون صادقاً تماماً، ولو مرة واحدة، صادقاً قبل موته على الأقل!

الكونتيسة (وهي تدخل على عجل): ما لكم لا تأتون؟ دائماً تحتاج إلى كل هذا الوقت.

تولستوي (وهو يتوجه نحوها، وقد بات تعبير وجهه هادئاً كل الهدوء، ويقول ببطء، وبتوكيد لا يفهمه إلاّ الآخرون): أجل، أنتِ على صواب، فأنا أحتاج إلى الوقت الطويل دائماً، ومن أجل كل شيء، ولكن المهم مع ذلك هو هذا الشيء الواحد: أن يتوفر الإنسان الوقت لكي يفعل ما هو صحيح في وقته المناسب.

المشهد الثاني

(في الحجرة ذاتها، في ساعة متأخرة من ليلة اليوم التالي)

أمين السر: ينبغي لك اليوم أن ترقد في فراشك في وقت مبكر، يا ليو نيكولايفيتش، لابدَّ أنك مُرهَق بعد ركوب الخيل الطويل وألوان الانفعال.

تولستوي: كلاّ، لست مُرْهَقاً على الإطلاق، وما يرهق الإنسان ليس إلاّ شيئاً واحداً: ألا وهو التذبذب وعدم اليقين، فكل فعل يُحَرِّره، وحتى الفعل السيء خير من اللاّفِعل (يروح ويغدو في الحجرة) لست أدري

أتُراني تصرفت على الوجه الصحيح، لابدّ لي أول الأمر أن أسائل ضميري. أمّا أنني رَدَدْتُ عملي إلى الناس جميعاً فذلك ما خفَّف العبء عن نفسي، غير أني أعتقد أنه ما كان يجوز لي أن أجعل هذه الوصية سرية، بل كان من الواجب أن تكون صريحة مكشوفة أمام الناس جميعاً، وبجرأة الإيمان. ربما جرّدت من المكانة والاعتبار ما كان يجب أن يُؤدّى صريحاً من أجل الحقيقة - ولكن الحمد لله، على أن هذا الأمر حدث على أية حال، وهي مرحلة أبعد، من مراحل الحياة، ومرحلة أقرب إلى الموت. والآن لا يبقى بعدُ إلاّ الشيء الأثقل، والأخير: أن يزحف المرء في الساعة المناسبة، إلى الدغل الكثيف مثل حيوان، حين تحين النهاية، لأن موتي في هذا المنزل سيكون غير صادق مثلما كانت حياتي، أنا في سن الثالثة والثمانين، ومازلت لا أجد أبداً، مازلت لا أجد أبداً، القدرة على الانعتاق الكامل مما هو أرضيّ، وربما فاتتني الساعة المناسبة.

أمين السر: ومن تُراه يعرف ساعته! لو كان المرء يعرف هذه الساعة لكان كل شيء على ما يُرام.

تولستوي: كلاّ، يا ڤلاديمير جورڤيتش، ما كان هذا ليكون على ما يرام على الإطلاق. هل تعرف الأسطورة القديمة، لقد رواها لي فلاح ذات مرة، وهي كيف أخذ المسيح المعرفة بالموت من الناس؟ وكان كل امرئ قبل ذلك يعرف سلفاً ساعة أجله، وحين جاء المسيح إلى الأرض لاحظ أن بعض الفلاحين لا يزرعون أراضيهم، ولاحظ كيف يعيش الخاطئون. فلام واحداً منهم على خموله، ولكن الرجل الشقيّ لم يَزِدْ على أن غمغم قائلاً: لمن ينبغي له بعدُ أن يصب البذرة في الأرض ما دام لن يشهد بعد ذلك محصولها. هنالك أدرك المسيح أنه ليس من المستحسن للناس أن

يعرفوا ساعة أجلهم سلفاً، وجرّدهم من معرفتها، ومنذ ذلك الوقت لم يكن بُدٌّ للفلاحين أن يزرعوا حقولهم حتى اليوم الأخير، وكأنهم يعيشون أبداً، وهذا حق لأن المرء لا يكون له حظ من الخلود إلاّ عن طريق العمل، ولذلك أريد أن أزرع حقلي اليومي حتى اليوم - (يشير إلى يومياته).

(خطوات عنيفة من الخارج، تدخل الكونتيسة وقد باتت في ثياب السهرة وتلقي نظرة شريرة على أمين السر).

الكونتيسة: واعجباً... لقد حَسِبْتُ أنك وحدك أخيراً... وكنت أريد الحديث معك...

أمين السر: (ينحني) ها أنذا ذاهب.

تولستوي: صَحِبَتْك السلامة، يا عزيزي فلاديمير جورجفيتش.

الكونتيسة: (ولمّا يكد الباب يوصَد وراءه): إنه حواليك دائماً، يتعلق بك كالعَلَقة... أمّا أنا، أمّا أنا فيكرهني، وهو يريد أن يبعدني عنك، هذا الإنسان الفاسد، الخبيث.

تولستوي: أنت غير منصفة تجاهه، يا سونيا.

الكونتيسة: لا أريد أن أكون منصفة! لقد حشر نفسه بيننا، وسرقك مني، وأقصى أولادك. أما أنا فما عادت لي مكانة منذ أن بات هنا، فالبيت، وأنت نفسك تعود الآن إلى العالم بأسره، إلاّ نحن فأنت لا تنتمي إلينا، نحن أقرب الناس إليك.

تولستوي: ألاليتني استطعت ذلك في الحقيقة! فإن الله يشاء على أية حال أن يعود المرء إلى الناس جميعاً، ولا يحتفظ بشيء لنفسه ولذويه.

الكونتيسة: أجل، أنا أعرف، هذا ما يقنعك به، هذا اللص الذي

يمارس اللصوصية بحق أولادي، أنا أعرف، إنه يشدُّ عضدك ضدنا جميعاً، ومن أجل ذلك ما عدت أحتمله بعد في منزلي، هذا المهيِّج للخواطر، لا أريده.

تولستوي: ولكن يا سونيا، أنت تعلمين بلا ريب أنني أحتاج إليه من أجل عملي.

الكونتيسة: أنت تعثر على مائة من الآخرين! (بلهجة رافضة) أنا لا أطيق قربه، وما عدت أريد هذا الإنسان بينك وبيني.

تولستوي: سونيا، أيتها الطيِّبة، أرجو منك، أن لا تنفعلي، تعالَيْ، واقعدي هنا، ولنتحدث بهدوء فيما بيننا - تماماً كما كان يحدث في الزمن المنصرم، حين بدأت حياتنا - ولتُدْخلي في حسابك، يا سونيا مقدار قلة ما يتبقّى لنا من الكلمات الطيبة والأيام الطيبة بعد! (تنظر الكونتيسة حوالَيْها في قلق وتقعد وهي تضطرم). انظري يا سونيا، أنا أحتاج إلى هذا الإنسان - وربما كنت أحتاجه لمجرد أنني ضعيف الإيمان، لأنني يا سونيا، لست قوياً بالقدر الذي تمنيت أن أكون عليه، والحق أن كل يوم يؤكِّد لي ذلك، وهناك الألوف المؤلَّفة من الناس، بعيدين، في مكان ما من هذا العالم، يشاطرونني اعتقادي، ولكن فلتفهمي: هذا هو شأن قلبنا الدنيوي، إنه يحتاج، لكي يظل واثقاً من نفسه، إلى المحبة القريبة، ذات الأنفاس، التي يمكن الإحساس بها ولَمْسُها. ربما كان في وسع القديسين أن يحدثوا آثارهم من دون مساعدين، وحدهم، في صومعتهم، وربما كان من الممكن أن ينتابَهم الخَوَر واليأس من دون شهود، ولكن انظري، يا سونيا، أنا لست قديساً أبداً، ولستُ سوى رجل بالغ الوَهْن قد بلغ من الكِبَر عتياً، ولذلك فلابدّ لي من أحدٍ يكون قريباً

مني يشاطرني إيماني، هذا الإيمان الذي هو الآن أغلى ما في عمري المتقدِّم، في حياة الوحدة. وما من شك في أن سعادتي القصوى كانت خليقة أن تتمثل في أن تشاطريني أنتِ التي أكنُّ لها الاحترام وأنا ممتن منذ واحد وأربعين عاماً، وَعْيِيَ الديني، ولكنك، يا سونيا، لم تريدي هذا قطُّ. أمّا ما تحوّل إلى أغلى شيء بالقياس إلى نفسي فأنتِ تنظرين إليه من دون حب، بل إني لأخشى أن تنظري إليه نظرة الكراهية (تتحرك الكونتيسة حركةً ما) كلاّ، يا سونيا، لا تسيئي فهمي، فأنا لا أتّهمك، لقد أعطيتني وأعطيتِ العالم ما كان في وسعك أن تعطيه، الكثير من محبة الأم، والسرور باحتمال الهموم، وكيف كان يُقَدَّر لك أن تقدمي التضحيات من أجل عقيدة لا تعايشينها في قرارة نفسك، وأنىً يكون لي أن أُحَمِّلَكِ وِزْراً لأنك لا تشاطرينني أعمق أفكاري - وهي الأفكار التي تظل بلا ريب، دائماً، تمثل الحياة الفكرية لإنسان، بحكم كونها أفكاره الأخيرة، تظل سراً بينه وبين ربه. ولكن انظري، لقد أقبل إنسان، إنسان آخرَ الأمر يدخل بيتي، وكان قد عانى قبل ذلك هو نفسه في سيبريا في سبيل معتقده وهو يشاطرني الآن معتقدي، وهو بالقياس إليَّ مُعين وضيف عزيز، يعينني ويشدُّ أزري في حياتي الباطنية - فلماذا لا تريدين أن تَدَعي ليَ هذا الإنسان؟

الكونتيسة: لأنه أبعدك عني، وهذا أمر لا أستطيع احتماله، هذا أمر لا أستطيع احتماله، هذا أمر يجعلني كالمجنونة، يجعلني مريضة، لأنني أحسُّ على وجه الدقة، أن كل ما يفعله يتجه ضدي، واليوم ضبطته، مرة أخرى، عند الظهر، وإذا هو يدسُّ ورقة ليبعدها على عجل، ولم يكن في وسع أحد منكم أن ينظر في عيني نظرة الصدق والإخلاص:

لا هو ولا أنت، ولا ساشا! فأنتم جميعاً تخفون شيئاً عني، أجل، إني لأعرف هذا، لقد أقدمتم على فعلة سيئة ضدي.

تولستوي: أنا آمل أن يحفظني الله، وأنا على مسافة شبر من أجلي، من أن أتعمَّد الإقدام على شيء من السوء.

الكونتيسة: إذاً فأنتم لا تجادلون في أنكم فعلتم شيئاً في الخفاء... شيئاً ضدي، آه، إنك لتعلم أنك لا تستطيع أن تكذب أمامي كما تكذب أمام الآخرين.

تولستوي: (وقد استشاط غضباً): أنا أكذب أمام الآخرين؟ هذا ما تقولينه لي أنتِ، التي من أجلها أبدو، أنا، قِبَلَ الناس جميعاً، كاذباً (يكبح جماح غضبه): وأنا أرجو من الله الآن، ألاّ أرتكب خطيئة الكذب عامداً، ربما لم أُوتَ، أنا الإنسان الضعيف، المقدرة على أن أقول الحقيقة الكاملة دائماً، غير أني أعتقد مع ذلك أني لا أُعَدُّ، من أجل ذلك، كاذباً، أو مخادعاً للبشر.

الكونتيسة: إذاً فقل لي ماذا فعلتم - أي رسالة كانت هذه، وأيُّ ورقة... لا تعذبْني بربك أكثر من هذا...

تولستوي: (وهو يُقْبِل عليها، برفق بالغ): يا سونيا أندرييفنا، لست أنا الذي يعذبك، بل أنت التي تعذِّب نفسها، لأنك ما عدت تحبينني، ولو كنت مازلت تكنين لي الحب لكانت لديك ثقة بي - الثقة حتى في الموضع الذي ما عدت تفهمينني فيه. يا صوفيا أندرييفنا، أنا أرجوك أن تنظري في داخل نفسك. نحن نعيش معاً منذ ثمانية وأربعين عاماً! وربما وجدتِ من هذه السنوات الكثيرة، في مكانٍ ما، بعدُ، من زمن مَنْسِيّ، في تجعيدة من تجاعيد كيانك، شيئاً من الحب لي: وعندئذ خذي هذه الشرارة، أرجوك،

وأجِّجيها، وحاولي، مرة أخرى، أن تكوني مَنْ كُنْتِها طوال هذا الوقت، مُحِبَّةً، واثقة، رفيقةً، متفانية، ذلك لأنني أشعر، يا سونيا، في بعض الأحيان، بالفزع من موقفك مني كما أنتِ الآن.

الكونتيسة: (وقد اهتزت، وانفعلت): ما عدت أعرف أمر نفسي، أجل، فأنت على صواب، لقد أصبحت دميمة، شريرة، ولكن من عساه يحتمل هذا، أن يشارك في مشاهدة الكيفية التي تعذِّب بها نفسها لتكون أكثر من إنسان - هذا الحنق، حنق الحياة مع الله، وهذه الخطيئة. ذلك لأن الكبرياء خطيئة، أجل، إنها خطيئة، التعالي وعدم التواضع، والإلحاح على الله، والبحث عن حقيقة حُرِمنا منها. وفيما مضى، فيما مضى، كان كل شيء حسناً وواضحاً، وكان المرء يعيش كما يعيش كل البشر الآخرين، صادقاً مستقيماً، طاهراً، وكان يظل مسروراً إلى أن يبلغ الشيخوخة. وفجأة لم يكن بُدٌّ أن يَدْهَمَك هذا، في تلك الأيام، قبل ثلاثين عاماً، هذا الجنون الرهيب، هذه العقيدة التي تُشْقيك وتشقينا جميعاً، وما حيلتي في أنني مازلت حتى اليوم لا أفهم أيُّ معنى ينطوي عليه كونُك تنظف المواقد وتحمل الماء، وتنتعل النعال الرديئة، أنت الذي يحبه عالمٌ على أنه فنانه الأعظم. كلاً، فإن هذا يظل أبداً يستعصي على الإدراك عندي، لماذا يفترض أن تكون حياتنا ذات الصفاء والجدّ والاقتصاد، والهدوء والبساطة، لماذا يفترض أن تكون هذه، دفعة واحدة، خطيئة بحق الآخرين؟ كلا، أنا لا أستطيع أن أفهم هذا، لا أستطيع، لا أستطيع ذلك.

تولستوي: (برفق بالغ): انظري، يا سونيا، هذا، على وجه الخصوص ما قلته لك: هناك، حيث لا نفهم، هناك بالضبط، يجب علينا أن نثق

ونتوكّل بفضل طاقة الحب عندنا، وهكذا الحال مع البشر، وكذلك مع الله. هل تحسبين أنني أتطاول بالفعل مُدَّعياً أنني أعرف ما هو الصحيح؟ كلا، وإنما أثق بما يفعله المرء بقدر بالغ من الصدق، ويعذب نفسه من أجله تعذيباً ينطوي على كثيرٍ من المرارة، فهذا لا يمكن أن يكون أمام الله والبشر، خالياً من المعنى والقيمة تماماً. فلتحاولي أنتِ أيضاً، يا سونيا، أن تؤمني إلى حد ما، وحيث ما عدت تفهمينني فلتثقي على الأقل بإرادة الحق عندي، وسيعود كل شيء، كل شيء على ما يرام.

الكونتيسة (مضطربة) ولكنك ستقول لي بعدها كل شيء... ستقول لي كل ما فعلتم اليوم.

تولستوي: (بهدوء بالغ) سأقول لك كل شيء، ولن أخفي عنك شيئاً ولن أجعله سرِاً في هذا القَدْرِ من حياتي الذي لا يكاد يعدل شبراً، وإنما أنتظر فحسب، إلى أن يعود سيرجوشكا وأندريه، وعندئذ أعتزم أن أتقدم منكم جميعاً وأقول لكم بصدق وإخلاص، ماذا قررت في هذه الأيام، ولكن في هذا الأجل القصير، يا سونيا، كُفّي عن سوء الظن ولا تتعقّبيني - إنه رجائي الوحيد، والأكثر حميمية، يا سوفيا أندرييڤنا، فهل تراك تستجيبين؟

الكونتيسة: أجل، أجل، ... بلا ريب... بلا ريب.

تولستوي: شكراً لك، انظري كم يغدو كل شيء سهلاً بالصراحة والثقة! ما أحسن حديثنا في جوٍّ من الوئام والصداقة. لقد بعثتِ الحرارة في قلبي من جديد، ألا فانظري، حين دخلتِ كان سوء الظن يجثم على وجهك، وبتُّ أشعر بالغربة من جراء القلق والكراهية، وما عدتُ أعرفك في صورة تلك التي كانت في سالف الأيام، والآن بات مُحيّاك رائقاً من جديد،

وأصبحت أعرف عينيك من جديد، يا سوفيا أندرييڤنا، عيناك اللتان هما كعيني فتاة الأمس الغابر، طيبتان، متوجهتان نحوي، ولكن الآن فلتقرَّ عيناً، أيها الحب. لقد فات الوقت! أشكر لك من كل قلبي (يقبل جبهتها، تنصرف الكونتيسة. وعند الباب تلتفت مرة ثانية إلى الوراء).

الكونتيسة: ولكنك ستقول لي كل شيء؟ كل شيء؟

تولستوي: (ما زال هادئاً كل الهدوء): كل شيء يا سونيا، وستتذكرين وعدك.

(تبتعد الكونتيسة ببطء وبنظرة توحي بالقلق، تلقيها على منصة الكتابة).

تولستوي: (يروح ويغدو مراراً في الحجرة، ثم يقعد إلى منصة الكتابة، ويكتب بضع كلمات في اليوميات، وبعد هنيهة ينهض قائماً، ويقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ويعود إلى المنصة، ويقلِّب أوراق اليوميات مُطْرِقاً يفكر، ويقرأ بصوت متوسط الارتفاع ما كتب: «أنا أجتهد في أن أكون هادئاً رابط الجأش قدر الإمكان، وأنا أعتقد أنني سأبلغ هدفي المتمثل في تهدئة روعها بدرجة تقلُّ أو تكثر... أما اليوم فقد رأيت أول مرة إمكانية حملها على التراخي، عن طريق الفضيلة والحب... واعجباً، لَوْ... «يضع دفتر اليوميات على المنصة، ويتنفس بصعوبة، ليمرُق في النهاية داخلاً في الحجرة المجاورة وليوقد النار هناك، ثم يعود مرة أخرى، ويخلع، بمشقة، نَعْلَيْ الفلاح الثقيلين من قدميه، ثم يخلع رداءه، ثم يطفئ النور، ويدخل حجرة نومه وليس عليه سوى السروال الفضفاض وقميص العمل).

(وتظل الحجرة، بعض الوقت في سكون وظلام كاملين، فلا يحدث شيء، ولا يُسْمَع نَفَس. وفجأة ينفتح، بصوت خفيض، وبحذر لصوصي،

باب الممر الذي يفضي إلى حجرة العمل، ويسمع صوت وقع أقدام حافية في الحجرة الغارقة في ظلام دامس، وفي يد الداخل مصباح يبهر البصر يُلْقي الآن، وهو مصوَّب إلى الأمام، مخروطاً ضيقاً من النور أول الأمر على الأرضية. إنها الكونتيسة، وهي تنظر حواليها في خوف، وتصغي أول الأمر إلى باب حجرة النوم، ثم تتسلل، وقد بدا عليها أنها اطمأنت، منتقلة إلى منصة الكتابة على أن المصباح الباهر المنصوب يضيء الآن، بدائرة بيضاء، ما لا يزيد على المجال الذي يحيط بمنصة الكتابة في غمرة الظلام. ثم إن الكونتيسة التي لا يُرى منها سوى يديها المختلجتين في دائرة النور، تتناول أول الأمر النص المتروك، ثم تشرع في القراءة في دفتر اليوميات باضطراب عصبي، وأخيراً تسحب الواحدة بعد الأخرى بحذر من دُرْج منصة الكتابة، وتفتِّش بسرعة مطَّردة الزيادة، بين الأوراق، من دون أن تعثر على شيء، وأخيراً تتناول المصباح بيدها بحركة مختلجة، مرة أخرى، وتخرج فيسمع وقع قدميها. أمّا وجهها فذاهل مشدوه كمن يسير في نومه. ولا تكاد توصد الباب وراءها حتى يفتح تولستوي، من جانبه، بدفعة واحدة، باب حجرة النوم بحركة عنيفة، وهو يحمل شمعة في يده، والشمعة يتذبذب لَهَبُها، على أن الانفعال يهزُّ الشيخ هزة رهيبة: إذ كان يصغي إلى زوجته، وإذا هو ينقَضّ على أثرها، وإذا هو يمسك بمزلاج باب الدهليز، ولكن فجأة يلتفت وراءه بعنف، وينصب الشمعة بهدوء وتصميم على منصة الكتابة، ويذهب إلى الباب المجاور، على الجانب الآخر، ويقرع الباب قرعاً خفيفاً تماماً، وبحذر بالغ.

تولستوي (بصوت خفيض) دوشان... دوشان....

صوت دوشان (منبعثاً من الحجرة المجاورة): أهو أنت يا ليونيكولايفيتش؟

تولستوي: خَفِّض صوتك، خفِّض صوتك، يا دوشان، واخرج إليَّ فوراً...

(يخرج دوشان من الحجرة المجاورة، وهو أيضاً في نصف ثيابه)

تولستوي: أيقظ ابنتي ألكسندرا لقوفنا، ينبغي لها أن تأتي إليَّ على الفور، ثم اعْدُ على وجه السرعة إلى الحظيرة، ومُرْ جريجور أن يشدَّ الخيل، ولكن ينبغي له أن يفعل ذلك من دون أية جَلَبة، لكيلا يلاحظ أحد في البيت شيئاً. ويا ليتك تتجنَّب الجَلَبة أنت أيضاً! لا تنتعل حذاءً، وانتبه لكيلا تَصِرَّ الأبواب. لابدّ لنا أن ننطلق، من دون تأجيل – ليس هناك وقت يمكن تبديده.

(دوشان ينطلق مسرعاً، ويقعد تولستوي، وينتعل حذاءه بَحزْمٍ وعزم، ويتناول رداءه، وينطلق على عجل، ثم يبحث عن بعض الأوراق ويَلُمُّها، وفي حركاته همّة ونشاط، غير أنها تكون محمومة أحياناً، وحتى عندما يدوِّن الآن على منصة الكتابة بعض الكلمات يختلج كتفاه).

ساشا (وهي تدخل بهدوء): ما الذي حدث، يا أبتاه؟

تولستوي: إني راحل، إني منطلق أخيراً... لقد حُسِمَ الأمر أخيراً، لقد أقسمت لي قبل ساعة أنها واثقة، والآن، في الساعة الثالثة ليلاً، اقتحمت حجرتي خلسة، لتقلِّب في الأوراق... ولكنَّ هذا كان خيراً،... كان جيداً للغاية... لم تكن هذه إرادتها، بل كانت إرادة أخرى. لطالما رجوت من الله أن يهب لي آية، عندما يؤون الأوان – والآن وُهِبَت ليَ الآية، إذ أصبحت الآن أتمتع بالحق في تركها وحدها، وهي التي هجرتني.

ساشا: ولكن إلى أين تريد يا أبتاه؟

تولستوي: لست أدري، ولا أريد أن أعرف ذلك... إلى أي مكان، كل ما أريده أن أبتعد عن كذب هذه الحياة... إلى أي مكان... هناك طرق كثيرة على وجه هذه الأرض، وفي مكانٍ ما يكون في الانتظار فراش من القش أو سرير يستطيع رجل طاعن في السن أن يموت فيه بهدوء.

ساشا: سأصحبك...

تولستوي: كلاً، يجب أن تمكثي بعدُ، وأن تهدِّئي من روعهم، فهذه المسكينة سوف يُجَنُّ جنونها... ويلاه، كم ستعاني!... وأنا ذلك الذي يجعلها تعاني، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك، ما عدتُ أستطيع... وإلاّ اختنقت هنا، أما أنت فتتخلّفين هنا، إلى أن يصل أندريه، وسيرجوشكا، وبعد ذلك فحسب فلترحلي على أثري. سوف أنطلق أوّلاً إلى دير شاماردينو، لأودِّع أختي، لأنني أحسُّ أنْ قد آن أوان الوداع بالقياس إليّ.

دوشان (عائداً على عجل) لقد شدّ الحوذي خيوله إلى العربة.

تولستوي: إذاً فلتفرَغْ أنت من نفسك، يا دوشان، ها هي الأوراق، فأخْفِها عندك...

ساشا: ولكن يا أبتاه، يجب أن تأخذ معطف الفراء فالبرد قارس في الليل، سأحزم لك، على عجل، بعض الثياب الأكثر بعثاً للدفء).

تولستوي: كلاّ، كلاّ، لا شيء أكثر من هذا. يا إلهي، لا يجوز لنا أن نتردد أكثر من هذا... لا أريد أن أنتظر أكثر من هذا... لقد لبثت ستة وعشرين عاماً أنتظر هذه الساعة، هذه الآية... ألا فَعَجِّل، يا

دوشـان... فـقـد يحـول دون انطلاقنا أحـدٌ بعـدُ ويمنعنا، ههنا الأوراق فخذها، واليوميات، وقلم الرصاص...

ساشا: والنقود من أجل القطار، سآتي بها...

تولستوي: كلاّ، لا نقود بعدُ! لا أريد أن ألامس شيئاً منها بعد. إنهم يعرفونني في القطار، وسوف يعطونني التذاكر، وسوف يعينني الله بعد ذلك، يا دوشان، فلتفرَغ، تعالي. (الساشا): أما أنتِ فأعطِها هذه الرسالة: إنها رسالة وداعي، فلتغفره لي! ولتكتبي لي عن الكيفية التي احتملته بها.

ساشا: ولكن يا أبتاه، كيف ينبغي لي أن أكتب إليك، سوف يعرفون على الفور، فإذا ذكرت في البريد اسمك، ومكان إقامتك، فسوف يطاردونك. لابدّ لك من أن تتخذ لنفسك اسماً مستعاراً.

تولستوي: ويلاه، إنه الكذب دائماً! الكذب دائماً! والحطّ من مكانة النفس، المرة بعد الأخرى عن طريق السرِّية... ولكن أنت على حق... هَلُمَّ بربك، يا دوشان!... كما تشائين، يا ساشا... إنه بقصد حسن فحسب... إذا كيف يجب أن أُسَمِّي نفسي؟

ساشا: (وهي تفكر لحظة): أنا أوقِّع كل البرقيات باسم فرولوڤا، وأنت تسمي نفسك ت. نيكولاييف.

تولستوي: (وقد بات كالمحموم تماماً، من فرط العجلة) ت. نيكولاييف... لا بأس... والآن وداعاً! (يعانقها) تقولين: ت. نيكولاييف يجب أن يكون اسمي، كذبة أخرى، أخرى أيضاً! والآن فعسى الله أن يجعل هذه كذبتي الأخيرة أمام الناس.

(ينصرف مسرعاً).

المشهد الثالث

(بعد ثلاثة أيام، ٣١ تشرين الأول ١٩١٠، قاعة الانتظار في مبنى محطة الخطوط الحديدية في أستابوڤو. إلى اليمين يفضي باب كبير، مُزَجَّج، في الخارج، إلى رصيف المحطة، وإلى اليسار باب أصغر يفضي إلى سكن ناظر المحطة، إيڤان إيڤانوڤيتش أوسولينج، وعلى المقاعد الخشبية الطويلة في قاعة الانتظار، وحول منصة، يجلس بعض المسافرين في انتظار القطار القادم من دانلوف، أما الفلاحات المتدثرات في أوشحتهن، فنائمات، وثمة باعة صغار في فراء الخرفان، وفضلاً عن هؤلاء أبناء الطبقات السائدة في المدن الكبرى، وهم، على ما يبدو، موظفون أو تجار.

المسافر الأول (وهو يقرأ في جريدة، وفجأة يقرأ بصوت عال): هذا ما فعله هو على نحو ممتاز! قطعة فريدة عائدة إلى الشيخ! وما كان أحد ليتوقع هذا بعد ذلك.

المسافر الثاني: وماذا في الأمر يا تُرى؟

المسافر الأول: لقد هرب، ليو تولستوي، من بيته، وما من أحد يعلم إلى أين، ولم يتبَهْرَج بشيء، بل انتعل حذاءه الطويل، وارتدى فروته، وهكذا فرّ هارباً، من دون متاع ولا وداع، ولم يصحبه سوى طبيبه، دوشان بيتروڤيتش.

المسافر الثاني: وترك العجوز في البيت، وليس هذا بدعابة بالقياس إلى سوفيا أندريڤنا. ولابدَّ أنه الآن في الثالثة والثمانين، من كان يتوقع هذا منه، وإلى أين تُراه ذهب، في رأيك؟

المسافر الأول: هذا ما يود أن يعرفه الذين هم في البيت والذين هم

في الجريدة، وهم يرسلون البرقيات في كل أرجاء العالم، ويزعم أحدهم أنه رآه عند الحدود البلغارية، وآخرون يتحدثون عن سيبريا، ولكن ما من إنسان يعرف شيئاً دقيقياً، لقد أحسن الشيخ القيام بما قام به!

المسافر الثالث: (وهو طالب شاب): ماذا تقولون؟ ليو تولستوي هرب من منزله، هل تتفضل بإعطائي الجريدة، دعني أقرأها بنفسي (يلقي نظرة عليها) آه، هذا حسن، من الخير أنه استجمع قواه ومضى.

المسافر الأول: ولماذا يكون هذا خيراً يا تُرى؟

المسافر الثالث: لأن الكيفية التي كان يعيش بها كانت تمثل عاراً حيال كلمته، لقد ظلوا يرغمونه، وقتاً طويلاً بما يكفي، على أن يمثل دور الكونت، وكانوا يخنقون صوته بألوان التملُّق. الآن بات في وسع ليو تولستوي أخيراً أن يتحدث إلى الناس من صميم نفسه، وأسأل الله أن يعلم العالم عن طريقه ما يحدث للشعب هنا في روسيا، أجل، إنه لخير، وبركة، وشفاء لروسيا، أن يتمّ إنقاذ هذا الرجل القديس أخيراً.

المسافر الثاني: ولكن ربما كان كل ما يثرثرون به هنا غير صحيح (يلتفت وراءه ليرى أن أحداً لا يصغي إليه، ويهمس: ربما لم ينشروا هذا في الصحف إلاّ للتضليل ربما أوقفوه وأبعدوه في الحقيقة...

المسافر الأول: ومن يُفْتَرَض أنَّ له مصلحة في إبعاد ليو تولستوي...

المسافر الثاني: هم... هم جميعاً، الذين يقف في طريقهم، هم جميعاً، الموتمر الكنسيّ والشرطة، والعسكر، هم جميعاً، الذين يخافون منه، لقد سبق أن اختفى بعض الأفراد بهذه الطريقة - إذ ذهبوا إلى الخارج، كما قالوا في تلك الأيام، ولكننا نعرف ماذا يقصدون بالخارج...

المسافر الأول: (بصوت خفيض أيضاً) هذا أمر محتمل...

المسافر الثالث: هذا ما لا يجرؤون عليه أبداً، فهذا الرجل الواحد، أقوى، بمجرد كلمته، منهم جميعاً، كلاّ، هذا ما لا يجرؤون عليه، لأنهم يعرفون أننا أخرجناه بقبضات أيدينا.

المسافر الأول (على عجل) احذروا... وانتبهوا... ها هوذا، سيريل جريجوروڤيتش قادم... أبعدوا الجريد بسرعة...

(يظهر قائد الشرطة، سيريل جريجوروڤيتش، في حلته الرسمية الكاملة وراء الباب الزجاجي، من جهة رصيف المحطة، ويتجه على الفور إلى حجرة ناظر المحطة، ويقرع الباب.

إيفان إيڤانوڤيتش أوزولينج، (ناظر المحطة، خارجاً من حجرته، وقبعة الخدمة على رأسه): واعجباً، أهذا أنت يا سيريل جريجوروڤيتش...

قائد الشرطة: لابدَّ لي أن أكلِّمك على الفور، هل زوجتك معك في الحجرة؟

ناظر المحطة: أجل.

قائد الشرطة: إذاً فالأفضل هنا! (للمسافرين، بلهجة حادة، آمرة): القطار السريع من دانلوف سوف يصل حالاً، وأرجوكم مغادرة قاعة الانتظار على الفور، والتوجُّه إلى رصيف المحطة، (ينهضون جميعاً، ويتدافعون إلى الخارج بسرعة) (قائد الشرطة يقول لناظر المحطة): لقد وردت، للتوّ، برقيات مرموزة لها أهميتها، إذ قرروا، أن ليو تولستوي وصل أول أمس، وهو هارب، إلى أخته في دير شاماردينو، وثمة دلائل معينة تحمل على التكهن بأنه ينوي مواصلة السفر، وكل قطار من

شامـاردينو، في كل اتجـاه مـصحـوب من قـبل عـملاء الشرطة منذ أول أمس.

ناظر المحطة: ولـكن هلاّ شـــرحت لي، يـا أبانـا العـــزيـز، جريجوروڤيـتش، لماذا يكون هذا في الحـقيـقـة؟ فـما هو، بلا ريب، من مثيري القلاقل، وليو تولستوي يمثل شرفنا، وهو كنز حقيقي لبلادنا، هذا الرجل العظيم.

قائد الشرطة: غير أنه يثير من القلاقل والأخطار أكثر مما تفعل عصابة بأسرها من الثوريين، وبالمناسبة، ماذا يعنيني من هذا، وكل ما في الأمر أن لديَّ مهمة مراقبة كل قطار، غير أن أولي الأمر في موسكو يريدون أن يكون إشـرافنا غـيـر مـرئي أبداً، ولذلك أرجـوك، يا إيڤـان إيڤـانوڤـيتش، أن تذهب، بدلاً مني، أنا الذي يعـرفـه كل امرئ من بزّته الرسمية، إلى رصيف المحطة. وفـور وصول القطار سوف ينزل منه رجل من الشرطة السرية ويخبرك بما لاحظ القوم في المسافة المنصرمة، وسوف أواصل تبليغ الخبر على الفور.

ناظر المحطة: سوف نحرص على هذا بصدق وأمانة.

(تسمع إشارة الجرس الخاصة بدخول القطار المقترب إلى المحطة)

قائد الشرطة: وتحيي عملاء الشرطة تحية لا تلفت النظر أبداً، مثلما تحيي أحد معارفك القدامى، أليس كذلك، ولا يجوز أن يلاحظ المسافرون المراقبة، وهذا لا يمكن أن يكون إلاّ ذا فائدة بالنسبة لكلينا، عندما ننفِّذ كل شيء ببراعة، لأن كل تقرير يذهب إلى بطرسبرج، إلى أن يصل إلى أعلى الجهات: وربما ظفر الواحد منا أيضاً ذات مرة بصليب جورج.

(القطار يسير القهقرى مُرْعِداً، يدخل المحطة، وناظر المحطة ينطلق

على الفور خارجاً من الباب الزجاجي، وبعد بضع دقائق يدخل أوائل المسافرين، والفلاحون، والفلاحات، بالسلال الثقيلة، بأصواتهم المرتفعة وصخبهم، من خلال الباب الزجاجي، وبعضهم يقعد في حجرة الانتظار، ليستريح، أو يغلي الشاي).

ناظر المحطة: (فجأة، من خلال الباب، مستثاراً، يصرخ في وجوه القاعدين، فلتغادروا الحجرة على الفور! جميعاً! على الفور...

الناس، (مندهشين، يهمهمون) ولكن لماذا يا تُرى... لقد دفعنا حقاً... ولماذا لا يباح للمرء أن يظل قاعداً هنا في حجرة الانتظار... فنحن لا ننتظر، حقاً، سوى قطار الركاب.

ناظر المحطة (يصرخ): أقول: على الفور، اخرجوا على الفور جميعاً! (يخرجهم بإلحاح بعيداً، ثم يعود مسرعاً إلى الباب الذي يفتحه على مصراعيه) إلى هنا، رجاءً، فلتقودوا السيد الكونت!

(يدخل تولستوي مُجْهَداً يقوده عن اليمين دوشان، وعن اليسار ابنته ساشا، وقد رفع ياقة الفراء إلى الأعلى، ووضع شملة حول عنقه، ومع ذلك يلاحظ المرء أن كل الجسد المتدثّر يكاد يتجمد ويرتعد من البرد، ويزدحم وراءه خمسة أو ستة من الناس.

ناظر المحطة: (للمزدحمين عليه): فلتظلّوا في الخارج!

أصوات: ولكن ما لك لا تَدَعُنا... فنحن لا نريد إلاّ نكون عوناً لِليو نيكولاييفتش...

ربما كان في حاجة إلى شيء من الكونياك أو الشاي...

ناظر المحطة: (مستثاراً إلى حد هائل): لا يجوز لأحد أن يدخل إلى هنا! (يردّهم على أعقابهم بالقوة، ويسدُّ الباب الزجاجي الذي يفضي

إلى رصـــيف المحطة، ولكن المرء يظل يرى طوال الوقت كله وجـــوها فضولية وراء الباب الزجاجي تمرُّ به وتتطلّع بعيونها إلى ما وراءه. وقد التقط ناظر المحطة على وجه السرعة مقعداً وأعدّه إلى جانب المنصة): هل يريد حضرة الكونت أن يستريح قليلاً ويقعد هنا؟

تولستوي: لست حضرة الأمير... الحمد لله على أنني ما عدت كذلك... ولن أكونه بعد أبداً، لقد انتهى هذا (ينظر حواليه مستشاراً، ويلاحظ الناس من وراء الباب الزجاجي: أبعدهم... أبعد هؤلاء الناس... أريد أن أكون وحدي... الناس دائماً... ليت الإنسان يكون وحده ذات مرة...

(ساشا تسرع إلى الباب الزجاجي، وتغطيه على عجل بالمعاطف).

دوشان - (يتحدث في هذه الأثناء مع ناظر المحطة، بصوت خفيض): يجب علينا أن نأتي به فوراً إلى الفراش، فقد أصابته فجأة نوبة حمى وهو في القطار، أكثر من أربعين درجة، وأعتقد أن حالته لا تبشر بخير، هل يوجد هنا فندق بالقرب منا فيه بضع غرف لائقة؟

ناظر المحطة: كلا، أبداً! لا يوجد فندق في كل أستابوڤو.

دوشان: ولكن لابد له أن يأوي إلى الفراش على الفور، فأنت ترى كم هو محموم، ويمكن أن تغدو حالته خطيرة.

ناظر المحطة: أنا خليق أن أعُدَّ مما يشرفني، بحكم البدهية، أن أعرض حجرتي هنا، إلى جانب ليو تولستوي... ولكن استميح عفوك... فهي بائسة تماماً، بسيطة للغاية... هي حجرة خدم، في الدور الأرضي، ضيقة... فأنىَّ لي أن أجرؤ على إيواء ليو تولستوي فيها...

دوشان: هذا لا يهم، يجب علينا أول الأمر أن نذهب به إلى الفراش

بأي ثمن (ليولستوي، الذي يقعد إلى المنصة يكاد يتجمَّد من البرد، وتزلزله رعدة الصقيع المفاجئ): لقد بلغ من مودة السيد ناظر المحطة أنه عرض علينا حجرته، ولابدّ لك الآن أن تخلد إلى الراحة، وغداً تعود إلى الانتعاش الكامل، ونستطيع أن نواصل رحلتنا.

تولستوي: نواصل رحلتنا؟... كلاّ، كلاّ، أعتقد أنني لن أرحل بعد هذا... كانت هذه رحلتي الأخيرة وقد أصبحت عند الهدف.

دوشان: (يشجعه): لا تقلق بسبب بضع نوبات من الحمى، فهي لا تعني شيئاً. لقد أصابك شيء من البرد، وغدا تعود إلى الشعور بالارتياح الكامل.

تولستوي: أنا أشعر منذ الآن بالارتياح الكامل... الكامل، تماماً... إلاّ ما كان اليومَ في الليل، فقد كان رهيباً، فقد دَهَمني، لقد كان من الممكن أن يقتفوا أثري اعتباراً من بيتي، إذاً لأدْركوني وعادوا بي إلى ذلك الجحيم.... وها أنذا قد نهضت وأيقظتكم، لقد كانت الحمى تهدُّني هَدّاً بقوة بالغة، ولم يفارقني هذا الخوف طوال الطريق، الحمّى، حتى باتت أسناني تصطك... ولكن الآن، منذ أن بِتُّ هنا... ولكن أين أنا في الحقيقة؟... لم يسبق لي قط أن رأيت هذا المكان... والآن أصبح الأمر دفعة واحدة، مختلفاً كل الاختلاف... الآن ما عدت أخاف على الإطلاق. فما عادوا يدركونني بعد.

دوشان: كلاّ، بلا ريب، كلاّ، بلا ريب، وفي وسعك أن ترقد على فراشك وأنت مطمئن، هنا لا يعثر عليك أحد.

(كلا الرجلين يساعدان تولستوي على النهوض).

ناظر المحطة (وهو يتقدم منه): أرجو معذرتك... لم يكن في

وسعي أن أقدم إليك سوى حجرة بسيطة كل البساطة... حجرتي الخاصة... والسرير ربما كان غير جيد أيضاً... مجرد سرير من الحديد، غير أني سأعمل على كل شيء، وسأوعز على الفور، عن طريق البرق، بإرسال سرير آخر، بالقطار التالي...

تولستوي: كلاّ، كلاّ، لا شيء غيره... لقد لبثت وقتاً طويلاً... وقتاً مفرطاً في الطول، أحظى بأفضل مما يحظى به الآخرون! وكلما كان هذا أسوأ، الآن، كان ذلك خيراً لي! كيف يموت الفلاحون يا تُرى؟... ويموتون بلا ريب، أيضاً، ميتةً طيبة...

ساشا: تعال، يا أَبَتِ، تعال، فسينتابك التعب.

تولستوي: (يظل واقفاً، مرة أخرى) لست أدري... أنا متعب، أنا على صواب، أحِسُّ بثقل يشد كل أوصالي إلى الأرض، أنا مُتْعَب جداً، ومع ذلك فمازلت انتظر شيئاً... والمسألة كما لو أن امرءاً يشعر بالنعاس ولا يستطيع، مع ذلك، أن ينام، لأنه يفكر في شيء طيِّب، هو في انتظاره، ولا يريد أن يخسر الفكرة من جراء النوم... إنه لأمر غريب، مثل هذا لم أشعر به قطُّ قبل هذا... ربما كان هذا شيئاً من الموت... لقد لبثت غريباً، ولم أشعر بمثل هذا قطُّ من قبل... ربما كان هذا شيئاً من الموت... لقد لبثت سنين، طوال سنين، كما قد تعلمون، أخاف من الموت دائماً، خوفاً بلغ منه أنني لم أكن أستطيع الرقاد في سريري، وبات من الممكن أن أصرخ، شأن الحيوان، وأتوارى في جُحْر، والآن، ربما كان هنا، في داخل الغرفة الموت، وهو ينتظرني، ومع ذلك فأنا أتصدى له من دون خوف على الإطلاق (ظلت ساشا، ودوشان يَسْنُدانِه إلى الباب).

تولستوي (يظل واقفاً لدى الباب، ينظر إلى الداخل) المقام حسن هنا، حسن جداً، صغيرة، ضيقة، منخفضة، بائسة، ويخيِّل إليَّ كأنني حلمت بهذا ذات مرة، مثل هذا السرير الغريب، في مكان ما في بيت غريب، سرير يرقد فيه المرء... رجلاً شيخاً، مُتْعَباً... انتظر، كيف كان اسمه فحسب، لقد كتبت ذلك بلا ريب، قبل بضع سنوات، كيف كان اسمه فحسب، الرجل الشيخ؟... الذي كان ذات مرة غنياً، ثم يعود فقيراً مُعْدَماً، وما من أحد يعرفه، وهو يزحف على السرير، إلى جانب الموقد... آه، رأسي، دماغي الغبيّ!... كيف كان اسمه فحسب، الرجل الشيخ؟... هو الذي كان غنياً، وما عاد يوجد على جسده إلاّ القميص... والزوجة التي كانت تكدِّره، ليست عندي، وهو يموت... أجل، أجل، لقد عرفت، عرفت، إنه كورنييْ ڤاسيلييف، بهذا الاسم ذكرته في تلك الأيام في قصتي، الرجل الشيخ، وفي الليل، إذ يُحْتَضَر، يبعث الله القلب في حنايا زوجه، وتأتي، مارفا، لتراه مرة أخرى... غير أنها تأتي متأخرة، فهو راقد قد تجمَّد كل التجمُّد على السرير الغريب، وعيناه مغمضتان، وهي لا تدري أمازال حانقاً عليها أم تراه صفح عنها، وما عادت تعرف، سوفيا أندرييڤنا... (كمن استيقظ) كلاّ، إن اسمها مارفا، بلا ريب... لقد باتت تختلط عليَّ الأمور... أجل، أريد أن أرقد (كانت ساشا وناظر المحطة قد تقدّما به إلى الأمام، وتولستوي، لناظر المحطة): أشكر لك، أيها الإنسان الغريب أنك آويتني في منزلك، وتعطيني ما يتمتع به الحيوان في الغابة... والذي أرسلني، أنا كونييْ ڤاسيلييف، الله إليه... (وفجأة بلهجة المذعور): ولكن أغلقوا الأبواب،

ولا تسمحوا لأحد بالدخول، ما عدت أريد بشراً... إنما أريد أن أكون وحدي معه، على نحو أعمق، وأفضل مما كنت في أي يوم من الأيام...

(ساشا ودوشان يقودانه إلى حجرة النوم، وناظر المحطة يغلق الباب وراءهم بحذر ويظل واقفاً، مذهولاً.

(قرع عنيف من الخارج على الباب الزجاجي، يقوم ناظر المحطة بفتح الحاجز، وقائد الشرطة يدخل على عجل)

قائد الشرطة: ماذا قال لك؟ يجب عليّ الإبلاغ عن كل شيء، على الفور، عن كل شيء! هل يريد البقاء هنا في النهاية، وإلى متى؟

ناظر المحطة: هذا ما لا يعرفه، لا هو، ولا أي امرئ آخر، هذا ما لا يعلمه إلاّ الله.

قائد الشرطة: ولكن كيف استطعت أن تمنحه المأوى في مبنى حكوميّ؟ وهو بلا ريب مكان السكن الخاص بخدمتك، الذي لا يجوز لك أن تبذله لغريب!

ناظر المحطة: ليو تولستوي ليس بالغريب على قلبي، وما من أخٍ أقرب إليّ منه.

قائد الشرطة: ولكن كان واجبك يقتضي الاستيضاح بصورة مسبقة.

ناظر المحطة: لقد سألت ضميري.

قائد الشرطة: والآن، هذا أمر تتحمّله على مسؤوليتك، سوف أقدِّم بلاغي على الفور... إنه لأمر رهيب، ويالها من مسؤولية تقع على المرء الآن فجأة! لو كان المرء يعرف على الأقل ما هو موقف القوم في الجهات العليا من ليو تولستوي...

ناظر المحطة (بهدوء بالغ): أعتقد أن المرجع الأعلى كان على الدوام ينطوي على نوايا حسنة تجاه ليو تولستوي...

قائد الشرطة (ينظر إليه مندهشاً).

(دوشان وساشا يخرجان من الحجرة وهما يشدّان الباب فيغلقانه بحذر).

قائد الشرطة: (يبتعد بسرعة).

ناظر المحطة: كيف تركتما السيد الكونت؟

دوشان: إنه يرقد ساكناً كل السكون - لم يسبق لي قطُّ أن رأيت وجهه أهدأ مما هو الآن، ولكن قلبي يرتعد، فأنا لا أستطيع أن أفهم هذا. كيف أمكن أن يكدِّس الرب كل هذا القدر من المعاناة على عاتق ليو تولستوي حتى كُتِبَ عليه أن يهرب من بيته ويموت هنا في سريري البائس، وغير اللائق... وكيف يمكن للبشر، للروس من البشر، أن يكدِّروا صفو نفس قديسة كهذه، وكيف يقدرون على أن يحبّوا امرءاً آخر غيره بخشوع...

دوشان: على أن أولئك الذين يحبّون رجلاً عظيماً، هؤلاء على وجه الخصوص، كثيراً ما يحولون بينه وبين رسالته، ولابدّ له أن يهرب من أولئك الذين هم أقرب الناس إليه، إلى أبعد مسافة ممكنة. لقد جاء هذا على الوجه الصحيح الذي كان يجب أن يجيء عليه: فهذا الموت وحده يحقق رسالة حياته ويضفي عليها القدسية.

ناظر المحطة: ومع ذلك.. فقلبي لا يستطيع، ولا يريد أن يفهم، أن هذا الإنسان، هذا الكنز الذي أخرجته أرضنا الروسية، لم يكن له بدٌّ أن

يعـاني منا، نحن البـشر، وكـان القـوم أنفسـهم يعـيـشـون فـي هذه الأثناء ساعاتهم ويبدِّدونها، من دون أن يحملوا همّاً... هنالك يترتَّب على المرء، بلا ريب، أن يتولاه الشعور بالخجل والعار من نَفَسه الخاص ذاته...

دوشـان: لا تَرْثِهِ، أيهـا الرجل العـزيز الطيب، فـإن المصيـر الخـامل والوضيع لـم يكن ليلائم عظمـته، ولو لم يُعـانِ منا، نحن البشر، لما أصبح ليو تولستوي ما يُعَدُّ اليوم بالقياس إلى البشرية.

الكفاح من أجل القطب الجنوبي

الكابتن يكوت، خط العرض ٩٠

١٦ كانون الثاني ١٩١٢

الكفاح من أجل الأرض

القرن العشرون يطل بنظره على عالم لا أسرار فيه، فقد تم استقصاء كل البلدان، وسَبْرُ غَوْر أبعد البحار، وباتت الأراضي، التي كانت قبل جيل من الزمان ما تزال غارقة في ظُلمة انعدام الاسم، حرةً، سعيدة، تخدم حاجة أوروبا شأن البعيد، وأخذت البواخر تطمح إلى منابع النيل التي طال البحث عنها، وأخذت شلالات فكتوريا التي لم يبصرها أول أوروبي إلاّ منذ نصف قرن، تولّد الطاقة الكهربائية طائعة مستجيبة، وتضاءل عدد الأشجار في البقاع الموحشة الأخيرة، غابات نهر الأمازون، وتمّ نسف حزام البلاد الوحيدة البكر، أي التيبت. وباتت كلمة «الأرض المجهولة» في الخرائط القديمة وعلى مجسدات الكرة الأرضية تكتب على الهامش من قبل الأيدي العالمة، وأصبح إنسان القرن العشرين يعرف طالع حياته، وإذا إرادة البحث والتقصّي تلتمس طريقاً جديداً، فلم يكن لها بد أن تتنزّل إلى الغطاء الحيواني الخياليّ في أعماق البحار، أو ترتقي إلى الجوّ الذي لا نهاية له. ذلك لأن المسار الذي لم يوطأ ما عاد يمكن العثور عليه إلاّ في السماء،

وإذا طيور السنونو الفولاذية، من الطائرات تنبثق في الأعالي، لتصل إلى ارتفاعات وأمداء جديدة، منذ أن أصبحت الأرض معطّلة وخالية من الأسرار من جرّاء فضول أهل الأرض.

ولكن حياءها ظل يخفي عن العين البشرية لغزاً أخيراً حتى قرننا، يتمثل في موضعين ضئيلين من جسدها الممزّق والمعذّب، أنقذهما من رغبة مخلوقاتها هي، وهما القطب الجنوبي والقطب الشمالي، اللذان يمثلان العمود الفقري من جسدها، هاتان النقطتان اللتان تكادان تكونان بغير جوهر أو كيان، إذ هما نقطتان غير محسوستين، يتذبذب محورها حولهما منذ آلاف السنين، وقد احتفظت بهما الأرض لنفسها طاهرين غير مدنّسين. وكانت قد دفعت دون هذا السر الأخير حواجز من الجليد تحميه، ونصبت دونه شتاءً أبدياً ليكون حارساً له من عيون الملهوفين. وكان الصقيع والعاصفة يوصدان المدخل إيصاداً محكماً كالجدران. وكانت الرهبة والخطر يُفْزِعان الجَسورَ بما يتهدَّده من خطر الموت، ولم يكن يتاح إلاّ للشمس نفسها أن تطل على هذا الجو الموصَد، على حين لم تكن هذه الإطلالة تتاح للنظرة البشرية أبداً.

وتظل البعثات يقفو بعضها بعضاً منذ عقود من السنين، وما مِنْ واحدة تبلغ الهدف. وفي مكان ما، لم يكتشف إلاّ الآن، يثوي، في تابوت الجليد الزجاجي، منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، جثمان أشد الجسورين جسارة، وهو أندريز، الذي أراد أن يطير بالمنطاد فوق القطب، ولم يَعُدْ أبداً. وكانت كل غارة تتحطم على صخرة أسوار الصقيع المَحْضة، ومنذ آلاف السنين حتى يومنا هذا، ظلت الأرض تحجب محيّاها، حيث كانت تحقق آخر انتصار لها على الهوى الجامح عند المخلوقات فيها، وظل خجلها يرغم، بأسلوب العذرية والطُّهر، أنف فضول العالم.

ولكن القرن العشرين الفَتِيَّ يمدُّ أيديه نافدَ الصبر، فقد صنع، في مختبراته، أسلحة جديدة، واخترع مدرَّعاتٍ جديدة ضد الخطر، وكانت كل ألوان المقاومة لا تزيد على أن تزيد في رغبته، إنه يريد أن يعرف كل الحقيقة. على أن مجرد عَقْدِه الأول يريد أن يفتتح ما لم تقدر كل آلاف السنين قبله على الوصول إليه، وينضم إلى جرأة الفرد التنافس بين الأمم. وما عادت الأمم تكافح من أجل القطب وحده، بل باتت تكافح أيضاً من أجل الراية التي يُرادُ لها أن تكون أول راية ترفرف على الأرض الجديدة: إنها حملة صليبية من الأعراق والشعوب تبدأ حول الموقع الذي أضفى الحنينُ إليه القُدْسِيَّةَ عليه، وتتجدَّد الغارة من كل القارات، وتثابر البشرية في صبر نافد، إذ تعلم أن المسألة تتعلق بالسرّ الأخير في مجالنا الحيويّ. فمن أمريكا يتجهَّز پيري وكوك للقطب الشمالي، وإلى الجنوب تتوجه سفينتان: أمّا أولاهما فيتولى قيادتها النرويجي آموندْسِن، وأمّا الأخرى فيتولى قيادتها إنكليزي، هو الكابتن سكوت.

سكوت

أمّا سكوت فهو قبطان لا على التعيين، في البحرية البريطانية، رجلٌ ما، لا على التعيين، وأما سيرته فتتطابق مع لائحة مرتبته. فقد كان عمل ابتغاء مرضاة رؤسائه، وأسهم فيما بعد في بعثة شاكلتون، وما من شهادة خصوصية تشير إلى البطولة، إلى البطل بمعناه الإغريقيّ. أما وجهه الذي ينعكس من الصورة الفوتوغرافية، فهو وجه آلاف الإنكليز، وعشرات الألوف منهم، بارد، مفعم بالطاقة والحيوية، لا تلعب فيه العضلات دوراً، كأنما تجمَّد تجمُّداً قاسياً من جراء الطاقة الموجَّهة إلى

الداخل، وأمّا عيناه فرماديتّان في مثل لون الفولاذ، وأمّا فمه فمُطْبَق بإحكام جامد، وما من موضع يوجد فيه خط رومانسيّ، ولا مكان لبريقٍ من بشاشة أو مرح في هذا المُحَيّا الذي كأنّما قُدَّ من الإرادة وروح الدنيا، وأما خطه، فخطٌّ إنكليزي، كائناً ما كان، من دون ظلال، ولا زُخْرف، سريعٌ ينم عن الثقة، وأمّا أسلوبه فواضح وصحيح، وآسِرٌ جذّاب في مضمار الوقائع، ومع ذلك فهو خُلُوٌ من الخيال كتقرير طبي. وسكوت يكتب الإنكليزية مثلما يكتب تاتسيتوس اللاتينية، كأنما بأحجار مكعَّبة غير منحوتة، وإن المرء ليحسّ بإنسان خالٍ كل الخُلُوِّ من الأحلام، متعصِّب للموضوعية، أي أنه إنسان أصيل من الجنس الإنكليزي الذي تتركّز عنده، حتى العبقرية في الصورة الكريستالية، وكان سكوت هذا قد تكرر مئات المرات في التاريخ الإنكليزي، فهو الذي غزا الهند، وغزا جزائر مجهولة في الأرخبيل، وهو الذي استعمر أفريقيا، وخاض المعارك ضد العالم، ودائماً بالطاقة الفولاذية ذاتها، وبالوعي الجماعيّ ذاته، والوجه البارد المتحفظ ذاته.

غير أن هذه الإرادة كانت قاسية كالفولاذ، وهذا ما يحسّ به المرء من مجرد الفعل. وذلك أن سكوت يريد أن يكمِّل ما بدأ به شاكلتون، فهو يجهِّز بعثة، غير أن الوسائل لا تكفي، على أن هذا لا يعوقه، فيضحي بثروته، ويحمِّل نفسه ديوناً وهو على ثقة بالنجاح، وتنجب له زوجته الشابة ولداً - فلا يتردد، وهو هكتورٌ آخر، في مغادرة أندر وماك، وسرعان ما يعثر على الأصدقاء والرفاق، وما عاد ثمة شيء يستطيع أن يلوي هذه الإرادة، ويطلق اسم «الأرض الجديدة "Terra Nova” على السفينة الغريبة التي يفترض أن تذهب بهم إلى حافة بحر

الجليد. وكانت غريبة لأنها كانت مجهزة تجهيزاً مضاعفاً إلى حد بعيد، وكانت كأنها شطر سفينة نوح، ملأى بالحيوانات الحية، ثم، كان فيها، مرة أخرى، مختبر حديث فيه ألف آلة وكتاب، إذ لم يكن بُدٌّ أن يُجلَب معهم كل ما يحتاج إليه الإنسان من أجل قضاء حاجة الجسد والفكر، وفي هذا العالم الخاوي، غير المأهول تأتلف وسيلة الدفاع البدائية عند الإنسان الأول، والفَرْواتُ وألوان الفراء، والحيوانات الحية مع آخر ألوان الرِقّة والتهذيب في وسائل التجُّهز المعقَّدة في العصر الحديث، وكان مما يتسم بالروعة مثلَ هذه السفينة أيضاً الوجه المزدوج للمشروع بأسره: فهو مغامرة، ولكنْ معها شيء آخر، وهو أنها مغامرة محسوبة مثلما تُحْسَب الصفقة، وجسارة مقترنة بكل أفانين الحذر - إنها لا نهاية من الحساب الدقيق لكل مسألة على حدة في مقابل لا نهائية المصادفة التي هي أقوى من هذه بعد.

وفي الأول من حزيران ١٩١٠ يغادرون إنكلترا، وفي هذه الأيام تشرق مملكة الجزر الأنجلوسكسونية، وتشتد حرارة المروج بما فيها من العصارة والخُضْرة، وتجثم الشمس دافئة ساطعة فوق العالم الذي لا ضباب فيه، ويحسّون بالساحل يتوارى مبتعداً فيَحزُّ ذلك في نفوسهم، وهم يعلمون جميعاً، مع ذلك، أنهم يقولون وداعاً للحرارة والشمس، إلى سنين، وربما كان بعضهم يودعهما إلى الأبد، ولكن على ذؤابة السفينة تخفق الراية الإنكليزية، وهم يعلّلون أنفسهم بفكرة مؤدّاها أن ثمة علامة دولية تصحبهم في هجرتهم إلى الشريط الوحيد من الأرض المُفْتَتَحة والذي ما زال بلا حكام.

وفي كانون الثاني ينزلون، بعد استراحة قصيرة، في نيوزيلندا، عند

كاب إيڤانز، على حافة الجليد الخالد، ويجهِّزون بيتاً للمبيت فيه في الشتاء، ويطلق على كانون الأول وكانون الثاني هناك اسم، «الشهران الصيفيّان»، لأن الشمس تتألّق في هذا الوقت فحسب بضع ساعات من اليوم، في السماء البيضاء المعدنية. وتصنع جدران البيت من الخشب، مثلما كان يحدث، تماماً، في حالة البعثات الأسبق عهداً. ولكن المرء يحسّ، في الداخل، بالعصر المتقدم. فبينما كان أسلافهم ما زالوا يقعدون، في تلك الأيام في ظلمة جزئية، على ضوء مصابيح زيت السمك المُنْتِنة التي تنبعث منها جُذْوَةٌ من دون لهب، قد استحوذ عليهم السأم من وجوههم هم، وبعثت الخمول في أنفسهم رتابة الأيام التي لا شمس فيها، يتمتع هؤلاء البشر، من أهل القرن العشرين، بالعالم كله، وبالعلم كله مختصراً بين أيديهم، وبين جدرانهم الأربعة. وثمة مصباح من الأسيتيل يَهَب نوراً أبيض دافئاً، ويلتقط المصورون السينمائيون صوراً على البعد منه بطريقة كأنها السحر، ويُسقطون عُروض صور المشاهد الاستوائية، المأخوذة من أقاليم أكثر لطفاً ورقة، وثمة بيانو كهربائي يقدم الموسيقا، وجهاز الحاكي الذي يقدِّم الصوت البشري، وهو مكتبة المعرفة في زمانه. وفي إحدى الحجرات يُسْمَعُ وقع الضربات على آلة كاتبة، أما الحجرة الثانية فتفيد بصفتها حجرة مظلمة يتم فيها تحميض اللقطات الخاصة بالتصوير السينمائي، واللقطات الملوَّنة، ويقوم عالم طبقات الأرض باختبار الحجارة من حيث إشعاعها، ويكتشف عالم الحيوان طفيليات جديدة في طيور البطريق المحتبسة، ويتعاقب الملاحظون في مجال الظواهر الجوية على التجاريب الفيزيائية، ولكل فرد منهم عمله المخصَّص له خلال شهور الظلام، وثمة نظام ذكيّ يحوِّل البحث

المعزول إلى تعليم مشترك، ذلك لأن هؤلاء البشر الثلاثين يلقي بعضهم المحاضرات على بعض في كل مساء، وثمة فصول دراسية جامعية في وسط أكوام الجليد وصقيع القطب الشماليّ، وكلٌّ يحاول أن ينقل علمه إلى الآخر، وفي غمرة تبادل الأحاديث النشيط تتكامل عندهم النظرة إلى العالم، وهنا يتخلى التخصص في البحث عن كبريائه، ويبحث عن التفاهم في الأمور المشتركة، وفي وسط عالم بِكْرٍ أوّلي، وعلى نحو منعزل كل الانعزال في اللاّزمني، يتبادل هنا ثلاثون من البشر أحدث معطيات القرن العشرين فيما بينهم، وهنا، في الداخل لا يحسّ المرء بالساعة في التوقيت العالمي فحسب، بل يحسّ بالثانية، وإنه لمن المؤثّر أن نقرأ كيف يستطيع هؤلاء البشر أولو الجدّ، أن يبتهجوا ويُسَرّوا، فيما بين ذلك، في احتفالهم بشجرة عيد الميلاد، وبالنكات اليسيرة العائدة إلى «أيام القطب الجنوبي»، وبالصحيفة الفكاهية التي يحررونها عنا، وكيف يتحول الصغير - وهو حوت يظهر خارج الماء، والفرس الذي يكبو - إلى تجربة من التجاريب المُعاشة، ومن ناحية أخرى الشيء المهول، وهو نور القطب اللاهب، والصقيع المُرَوِّع، والوحدة العملاقة - إلى أمر يومي ومألوف.

وفيما بين ذلك يجرؤون على خطوات زحف يسيرة، فيجربون زحّافاتهم ذات الحركة الذاتية، ويتعلّمون التزلُّج على الجليد، ويدرِّبون الكلاب، ويجهِّزون مركزاً لتدريب المجندين من أجل الرحلة الكبيرة، ولكن أوراق الروزنامة تتناقص ببطء، ببطء شديد فحسب، حتى الصيف (أي كانون الأول) الذي يحمل إليهم السفينة عن طريق أكوام الجليد وفيها رسائل من بيوتهم. كما تتجرأ مجموعات صغيرة منذ الآن أيضاً،

في غمرة الشتاء، القارس إلى أقصى الحدود، على رحلاتٍ يومية تعوِّدهم على الخشونة، ويتم تجريب الخيام والتثبُّت من صحة ما خاضوا من التجاريب، وليس كل شيء ينتهي إلى نجاح، ولكن الصعوبات على وجه الخصوص تهب لهم جرأة جديدة، وكانوا إذا عادوا أدراجهم من بعثاتهم، متجمدين من البرد مرهقين، استُقْبِلوا بالتهليل وبريق الموقد الدافئ، وبدا لهم هذا المنزل الصغير المريح، عند خط العرض السابع والسبعين، بعد أيام الحرمان، أكثر أماكن الإقامة إسعاداً في العالم.

ولكن ذات مرة تعود بعثة أدراجها من الغرب، وتفضي رسالتها إلى أن يجثم السكون على المنزل، وذلك أنهم اكتشفوا في جولاتهم المقرَّ الشتوي لأموندسن: ويعرف سكوت الآن، دفعة واحدة، أن هناك، فضلاً عن الصقيع والخطر، امرأً آخر ينازعه المجد الذي يحظى به أولُ من اختطف سرَّ الأرض الصعبة المِراس، ألا وهو أموندسن، النرويجي. ويقوم بحساباته على الخرائط، ويحسُّ القوم بفزعه يتناهى إليهم من خلال الذبذبات بين السطور، حين يلاحظ أن مقرّ أموندسن الشتوي في موقع أقرب إلى القطب من موقعه بمقدار مائة وعشرة كيلو مترات، ويتولاّه الفزع، ولكن من دون أن يستحوذ عليه اليأس من جراء هذا. ويكتب في يومياته قائلاً بفخر: «هيّا، إلى شرف بلادي!»

ولا يظهر اسم أموندسن هذا إلا مرة واحدة حين يقلِّب المرء يومياته، ثم لا يعود يرد أبداً، ولكن المرء يحسّ: فمنذ ذلك اليوم يخيِّم ظل من الخوف على المنزل الذي يُحْدِق به الصقيع من وحدته، ومنذ الآن فصاعداً لا توجد ساعة لا يبعث فيها هذا الاسم الخوفَ لديه في نومه وفي يقظته.

الانطلاق إلى القطب

وعلى بعد ميل من الكوخ، على أكَمة للمراقبة، حيث يتم تبديل الحرس على الدوام، كان ينتصب جهاز هناك، وحيداً على مرتفع سحيق، عمودي، يضاهي مدفعاً موجَّهاً إلى عدوٍّ غير مرئي: جهاز لقياس أولى الظاهرات المتعلقة بالحرارة الصادرة عن الشمس الوشيكة. ويظلون طوال أيام ينتظرون ظهورها، وعلى سماء الأفق الشرقي كانت منعَكَسات ترسل عجائب الألوان اللاهبة فيما يشبه السحر، ولكن ما زال القرص المستدير لايبزغ ليبلغ الأفق. ومع ذلك فهذه السماء التي باتت مفعمة بالضوء السحري الناجم عن قربها، وهذا الانعكاس التمهيدي لضوئها المنعكس، يؤجج النار في صدور أولئك الذين نفد صبرهم، وأخيراً يرن الهاتف من ذروة الأكَمَة لينتهي إلى من غمرتهم السعادة: لقد ظهرت الشمس، ولأول مرة منذ شهور رفعت هامتها ساعةً من الزمان في الليلة الشتوية، أما بريقها فواهن كل الوَهْن، باهت تماماً، لا يكاد يقدر على أن يبعث الحياة في الهواء الجليدي، ولا تكاد أمواجها المتذبذبة تُحْدِث في الجهاز علامات تدل على نشاط أكثر، ومع ذلك فمجرد النظر إليها يبعث السعادة. ويتم تجهيز البعثة تجهيزاً محموماً لاستغلال الفترة القصيرة من الضوء التي تعني الربيع والصيف والخريف معاً، كلها من دون أن تبقى منها بقية، وهي الفترة التي كانت خليقة أن تكون مازالت شتاءً قاسياً بالقياس إلى مفهومات الحياة الفاترة عندنا. وكانت الزحّافات ذات الحركة الذاتية تنطلق بسرعة الريح في المقدمة، ووراءها الزحافات التي تجرها الخيول السيبيرية والكلاب، والطريق مُقَسَّم إلى مراحل مستقلٍ بعضُها عن بعض من باب الحَيْطة، وكان يتم إنشاء مركز للتخزين بعد

كل رحلة تدوم يومين لكي يتمَّ من أجل العـائدين الحفـاظ على مـلابس جديدة وغذاء، وعلى أهم المُهِمّات، وهو البترول، وعلى الحرارة المُركَّزة في الصقيع الذي لا نهاية له. وكانت الزمرة تنطلق بأسرها انطلاقاً مشتركاً، لكي تعود في مجموعات متفرِّقة، شيئاً فشيئاً، ولكي يُخَلِّفوا، بذلك، للمجموعة الصغيرة الأخيرة، الغزو المختار للقطب، والحدَّ الأقصى من الشحن، وحيوانات الجر الأوفر قوَّة ونشاطاً، وأفضل الزحّافات.

وكان قد تم تصميم الخطة وابتداعها بأسلوب الأساتذة البارعين، وحتى أشكال المصائب وحالات الإخفاق حُسِبَ حسابٌ لكلٍّ منها على حدة بصورة مسبقة، ولم يتخلّف هذا عن الحدوث كما كان متوقّعاً، وبعد رحلاتٍ دامت يومين تنهار الزحافات ذات المحرك وتظل جاثمة في مكانها لا تريم، كتلةً لا تجدي فتيلاً، وحتى الخيل لا تصمد الصمود الذي كان في وسع المرء أن يتوقّعه منها، ولكن هنا تنتصر الآلة العضوية على الآلة التقنيّة، لأن الحيوانات التي انهارت وسقطت ولم يكن بُدٌّ أن تطلق عليها النار، تهب للكلاب غذاءً حاراً ينطوي على قوة الدم ويحظى بالترحيب ويشدُّ أزر طاقتها.

وفي الأول من تشرين الثاني ١٩١١ يخرجون في فصائل متفرِّقة. ويرى المرء في الصور القافلة العجيبة الغريبة تجوب الصحراء البيضاء في عالم بِكْرٍ لا حياة فيه، وكانت أول الأمر تتألف من ثلاثين، ثم عشرين، ثم عشرة، وأخيراً ما عادت تضم سوى خمسة من البشر. وكان في مقدمتها على الدوام رجل متدثر في الفراء والأقمشة، مخلوق بربري جامح، لا يطل من وراء دِثاره إلاّ اللحية والعينان بحُرِّية. وكانت يدهُ المكسُوَّة بالفراء تمسك بزمام حصان صغير، يجرّ زحافته المُثْقَلة بحمولة

كبيرة، ووراءه، مرة أخرى، رجل آخر، على بعد عشر نقاط سود في خط متعرِّج، في صفحة من البياض تبهر الأبصار، بلا نهاية. وفي الليل يتوارَوْن في خيام، إذ كانت تُحْفَر أسوار من الثلج في اتجاه الريح، لحماية الخيل، وفي الصباح يبدأ المسير من جديد، رتيباً، لا عزاء فيه، عبر الهواء الجليدي الذي تشربه الأنفاس البشرية لأول مرة منذ آلاف السنين.

غير أن الهموم تزداد، والطقس يظل معادياً، وبدلاً من الكيلومترات الأربعين يقطعون أحياناً ثلاثين فحسب، وكل يوم يغدو بالقياس إليهم شيئاً من النفائس، منذ أن علموا أنَّ رجلاً آخر، غير مرئي، في هذه العزلة، يتقدَّم نحو الهدف ذاته. وكانت كل صغيرة من الصغائر تتورَّم هنا متحوِّلة إلى خطر، فهذا كلب أفلت منهم، وهذا حصان يأبى أن يأكل - كل هذا باعث على الخوف، لأن القيم هنا، في القَفْر اليباب تتبدَّل على نحو بالغ الرهبة. هنا يغدو كل شيء حيّ معادلاً في قيمته لألف مخلوق، بل يغدو غير قابل للتعويض، وربما توقف بقاء المرء على الحوافر الأربعة لحصان واحد، على أن السماء المتلبِّدة بالغيوم تستطيع أن تعوق بالعاصفة فعلاً من الأفعال يدوم إلى الأبد، وفي هذه الحال تأخذ الحالة الصحية للفريق في المعاناة، فأصبح بعضهم مصابين بعمى الثلج، وآخرون تجمَّدت بعض أطرافهم، وكانت الخيول تزداد خمولاء واسترخاءً على نحو مطرد، إذ كان القوم يضطرون إلى تقنين غذائها، وأخيراً، وقُبَيْل جُموديّة بيردمور، تنهار الخيل ويضطر القوم إلى القيام بالواجب الباعث للحزن والأسى، وهو قتل هذه الحيوانات ذوات المروءة والبلاء الحسن التي تحولّت هنا إلى أصدقاء وصديقات من جراء حياة مشتركة دامت عامين، والتي يعرفها كل واحد منهم بالاسم الخاص بكل

منها ويغدق عليها، مائة مرة، ألوان المداعبة. أمّا «المسلخ» فيطلقون عليه اسم «المكان الباعث للأسى»، على أن فريقاً من البعثة ينفصل في الموضع الدموي ويعود أدراجه، أمّا الآخرون فيتجهَّزون الآن من أجل الجهد الأخير، للطريق الشائك القاسي فوق الجُموديّة، وهي السور الجليدي الخطير الذي يتمنطق به القطب، والذي لا يستطيع أن ينسفه إلاّ لهيب إرادة بشرية عارمة.

وكانت ألوان أدائهم في المسير تزداد ضآلة على نحو مطّرِد، لأن الثلج يتكلّل هنا بقشرة جامدة، وما عادوا يضطرون إلى سحب الزحّافات، بل إلى تَجْريرها، وكان الجليد القاسي يقطع قضبان الانزلاج، والأقدام تحتك حتى تصاب بالجروح وهي تتجول عبر الرمل الجليدي المخلخل، غير أنها لم تكن تَني أو تتراجع، وفي ٣٠ كانون الأول يتم الوصول إلى خط العرض السابع والثمانين، وهو أقصى نقطة بلغها شاكلتون. وهنا يضطر القسم الأخير إلى أن يرتدّ على أعقابه. ولا يتاح إلا لخمسة من المختارين أن يشاركوا في المسير إلى أن يبلغوا القطب. ويستبعد سكوت الناس بالفحص، فلا يجرؤون على التبرُّم، ولكن يحزُّ في نفوسهم أن يضطروا إلى أن يرتدوا على أعقابهم بعد أن باتوا من الهدف قابَ قوسين أو أدنى، وأن يدعوا لرفاقهم المجد الذي يتمثل في أن يكونوا أوَّل من رأى القطب، ولكن الاختيار وقع، وقُضِي الأمر، ويصافح بعضهم بعضاً مرة أخرى وهم يجتهدون، بجهد ينمُّ عن الرجولة، في إخفاء تأثُّرهم، ثم ينفرط عقد المجموعة، ويسيرون في طابورين صغيرين، ضئيلين، فمنهم من يذهب إلى الجنوب، نحو المجهول، وآخرون إلى الشمال، عائدين إلى الوطن، وما يفتأون يرتدّون ببصرهم هنا وهناك

لكي يحسوا بعدُ أيضاً بالحضور الأخير لكائن مفعم بالحياة صديق لهم. وسرعان ما تتوارى الشخصية الأخيرة، ويُستأنف المسير، إلى المجهول، الخمسةُ المختارون من أجل هذه المأثرة: سكوت، وباورز، وأوتس، وويلسون، وإيڤانز.

القطب الجنوبي

وتزداد التدوينات اضطراباً وقلقاً في هذه الأيام الأخيرة، وتأخذ في الارتعاد، شأن إبرة البوصلة الزرقاء، بالقرب من القطب «ما أطول ما يدوم هذا إلى أن تزحف الظلال حوالَيْنا رويداً رويداً، وتتقدم من جانبنا الأيمن إلى الأمام، ثم من الأمام زاحفة، مرة أخرى، نحو اليسار!»، ولكن في هذه الأثناء يَبْرُق الأمل ساطعاً سطوعاً يزداد على نحو مطّرد ويسجِّل سكوت، بلهجة تزداد حرارة وجموحاً، المسافات التي تم التغلُّب عليها واجتيازها: «لم يبق إلاّ مائة وخمسون كيلو متراً إلى القطب، وإذا سارت الأمور على هذا المِنوال فلن نحتمل ذلك». وهكذا ينبئ التعب عن نفسه، وبعد يومين: «ما زال هناك مائة وسبعة وثلاثون كيلو متراً إلى القطب، غير أن هذه الكيلو مترات ستكون ذات صعوبة مريرة بالقياس إلينا»، ولكن يظهر بعد ذلك فجأة، إيقاع جديد، مُظَفَّر: «لم يبق إلاّ أربعة وتسعون كيلو متراً إلى القطب! ولئن كنا لم نصل فقد أصبحنا قريبين قُرْبَ الشياطين». وفي الرابع عشر من كانون الثاني يتحول الأمل إلى يقين: «لم يبق إلاّ سبعون كيلو متراً»، والهدف ماثل أمامنا!» وفي اليوم التالي يستعر تهليل صارخ، ويكاد يطلُّ البِشْر والبشاشة من بين سطور التدوينات: «لم يبق إلاّ خمسون كيلو متراً تافهة، ولابد لنا أن

نجيء إلى هناك، مهما كلّف الثمن!». وإن المرء ليحسّ، حتى في أعماق قلبه، من السطور المجنّحة. إلى أي مدى كان حنينهم يشدُّه الأمل، وإلى أي مدى كان كل شيء في أعصابهم يتزلزل من الانظار ونفاد الصبر. لقد أصبحت الغنيمة قابَ قوسين أو أدنى، وها هم أولاء يمدّون أيديهم إلى سرِّ الأرض الأخير، وما هي إلا اندفاعة واحدة ويتم بلوغ الهدف.

السادس عشر من كانون الثاني

وتسجِّل اليوميات عبارة «روح معنوية عالية». وفي الصباح انطلقوا، في وقت أشد بُكوراً من ذي قبل، وكان نفاد الصبر قد انتزعهم من أكياس نومهم، قبل أن ينظروا إلى السِرّ الجميل إلى حد رهيب، وقطع الخمسة الذين لا يعرفون الكلل أربعة عشر كيلو متراً حتى ما بعد الظهر، وكانوا ينطلقوان مستبشرين في الصحراء البيضاء الخالية من الروح: الآن ما عاد من الممكن أن يفوتهم الهدف، وقد أوشكت المأثرة الحاسمة بالنسبة للبشرية أن تغدو ناجزة. وفجأة ينتاب أحد الرفاق القلق، وهو باورز. وذلك أن عينه تلتهب التهاباً ثابتاً في نقطة صغيرة، داكنة في حقل الثلج الهائل، وهو لا يجرؤ على التعبير عن تكُّهنه، ولكن القوم جميعاً ترتعد في قلوبهم الفكرة الرهيبة ذاتها، وهو أن تكون يدٌ بشرية قد نصبت هنا مَعْلَماً على الطريق. ويحاولون أن يبعثوا الطمأنينة في نفوسهم بطريقة مصطنعة، فهم يقولون لأنفسهم، مثلما يريد روبنسون أن يدرك الجزيرة وسرعان ما يتحطم الشك الأخير على صخرة الحقيقة الصلبة، التي تتجلى في راية سوداء منصوبة عالياً على قائمة آلة للتزلج وآثار مكان لمخيَّم غريب مهجور - وقضبان زحّافة وآثارِ

كثيرٍ من قوائم الكلاب: لقد نصب أموندسِن خيامه هنا، لقد حدث المهول، الذي لا سبيل إلى إدراكه عند البشرية: وذلك أن قطب الأرض الذي لم تسكنه روح منذ آلاف السنين، وربما لم تقع عليه عين بشرية منذ البداية الأولى، تم اكتشافه مرتين خلال خمسة عشر يوماً، وهم الفريق الثاني - تأخروا شهراً واحداً من بين ملايين الشهور -، الفريق الثاني خلال تاريخ بشرية يعد الفريق الأول بالنسبة إليها هو الأول، والثاني لا شيء، وإذاً فعبثاً كانت كل الجهود، ومضحكةً كانت كل ألوان الحرمان، وجنوناً كانت كل آمال الأسابيع، والشهور، والسنين. ويكتب سكوت في يومياته قائلاً: «لماذا كان كل الجهد، وكل ألوان الحرمان، وكل العذاب؟ - » من أجل لا شيء سوى الأحلام التي انتهت الآن، وتَغْرَوْرِق بالدموع، فعلى الرغم من الإرهاق لا يستطيعون أن يناموا طوال الليل. وفي مزاج متكدِّر، ومن دون أمل، شأن المحكوم عليهم، يتقدمون في زحفهم الأخير، من القطب الذي كانوا يفكرون في اقتحامه مهلِّلين، وما من أحد منهم يحاول أن يعزّي الآخر، ويجرُّون أقدامهم لائذين بالصمت، مستأنفين المسير. وفي الثامن عشر من كانون الثاني يصل الكابتن سكوت مع رفاقه الأربعة إلى القطب، ولما كانت مأثرة كونه الأول، ما عادت تبهر بصره فإنه ما عاد يرى بعينيه الكليلتين سوى الوجه الحزين في المنظر الطبيعي «ما عاد يُرى شيء هنا، لا شيء يتميز من رتابة الأيام الأخيرة التي تثير الرّعدة» - هذا هو كل الوصف الذي يقدمه روبرت ف. سكوت عن القطب الجنوبي. على أن الشيء الوحيد الغريب الذي يكشتفونه هناك لم تَصُغْه الطبيعة، بل صاغته يد الإنسان المعادية: خيمة أموندسن بالراية النرويجية التي ترفرف بوقاحتها وزُهُوِّها بالنصر

فوق سور البشرية الذي تمَّ اقتحامه. وثمة رسالة من الغازي تنتظر هنا ذلك الثاني، المجهول الذي سيطأ هذا الموضع بعده، وترجو نقل الرسالة إلى الملك هاكون، ملك النرويج، ويأخذ سكوت على عاتقه أن يؤدي هذا الواجب المتناهي في قسوته بإخلاص: أن يكون شاهداً أمام العالم على مأثرة أجنبية كان يطمح إلى تكون مأثرته هو.

وينصبون الراية الإنكليزية محزونين، ينصبون اليونيون جاك الذي وصل متأخراً، إلى جانب شارة النصر التي ركَزَها أموندسِن، ثم يغادرون المكان الذي «لا وفاء عنده»، مكان طموحهم، وتمرُّ الرياح بهم باردة، ويكتب سكوت في يومياته في ريبة تنبؤية: «إني لأُحِسُ بهول طريق العودة».

الانهيار

على أن مسيرة العودة إلى الوطن تضاعف الخطر عشر مرات. ففي الطريق إلى القطب كانت البوصلة توجههم، أمّا الآن فلابدّ لهم أن ينتبهوا إلى وجوب عدم تضييع آثارهم هم فضلاً عن ذلك، وأن يظلوا، طوال أسابيع لا يفقدونها مرة واحدة، لكيلا يتيهوا عن مراكز التخزين، حيث يوجد غذاؤهم، وثيابهم، والحرارة المخزّنة في العديد من الغالونات من البترول، ولذلك يستحوذ عليهم القلق عند كل خطوة عندما يغشي تساقط الثلج بصرهم، لأن كل تِيه يؤدي بهم على نحو مباشر، إلى الموت المحقّق، وكانت أجسامهم مع هذا تفتقر إلى نضارة المسير الأول التي لمّا تُسْتَهلَك بعد، إذ كانوا يحظَوْن بالحرارة من الطاقات الكيميائية المستمدة من الأغذية الغنيّة، ومن الإقليم الدافئ في مأواهم في الدائرة القطبية الجنوبية.

ويلي ذلك أن الحدَّ الفولاذي لإرادتهم قد تضعضع في صدورهم، ففي مسيرة الذهاب كان الأمل السماوي في أن يجسِّدوا الفضول والشوق عند بشرية بأسرها، يشدُّ أزرَ طاقاتهم إلى الحدّ البطولي، وأتيحت لهم درجة من القدرة تتعالى عن المستوى البشري من جراء وعيهم أنهم ينجزون مأثرة خالدة. أما الآن فلا يكافحون من أجل شيء سوى النجاة بجلدهم، من أجل حياة أجسادهم، ووجودهم الفاني، ومن أجل عودة إلى الوطن لا مجد فيها، وربما كانت الإرادة الكامنة في أعمق أعماقهم تخشاها أكثر مما تتوق إليها.

على أن مما يبعث الرهبة في النفس أن يقرأ المرء الملاحظات العائدة إلى تلك الأيام. فالطقس يزداد قلة مُواتاةٍ على نحو مطرد، وكان الشتاء قد بدأ في وقت أبكر من عادته، وكان الثلج الطريّ يكوِّن قشرة كثيفة تحت نعالهم متحولاً إلى أشراك للأقدام تَعْلَق بها خطواتهم، وكان الصقيع يضني أجسادهم المنهكة، وكان يحدث لهيب عابر من الثقة ما يفتأ يتراقص، مرة بعد مرة، متعالياً، من خلال كلماتهم. وما من شيء يشهد، شهادة أجلَّ وأعظم، على البطولة النفسيّة عند هؤلاء البضعة من البشر، أكثر من أن ويلسون، الباحث، يستأنف، حتى هنا، وهو على بُعْد أنملة من الموت، ملاحظاته العلمية، وهو يَجُرُّ، على زَحّافته الخاصة، فوق كل الحمولة الضرورية، ستة عشر كيلو غراماً أيضاً من أنواع الحجارة النادرة.

ولكن شيئاً فشيئاً تنهزم الجرأة البشرية أمام قدرة الطبيعة الغلاّبة التي تستحضر هنا، بلا رحمة، وبطاقة شحنتها آلاف السنين حتى غدت كالفولاذ، ضد الخمسة الجسورين، كل قوى الهلاك، من البرد، والصقيع،

والثلج، والريح، وكانت الأقدام قد تسلّخت وتَخدَّدت منذ عهد بعيد، وكان الجسد الذي لم يكن يحظى بالتدفئة الكافية من الوجبة التي كانت دافئة فيما مضى، وأوْهنته التقنينات المخفَّضة قد أخذ ينتابه الوَهْن، وبدأ يعجز. ويدرك الرفاق وقد تولاّهم الفزع، ذات يوم، أن إيڤانز، وهو الأصلب عوداً بينهم، أخذت تعتريه أمور خيالية على نحو مفاجئ، فهو يتخلف في الطريق عنهم، وما يفتأ يشكو من آلام حقيقية ووهمية، ويستفيدون من حديثه الغريب، وقد انتابتهم الرّعدة، أن هذا البائس التعيس، قد أصابه الجنون نتيجة لسقوط ألوان من العذاب المُبَرِّح، فما يصنعون به يا تُرى؟ أيغادرونه في صحراء الجليد؟ ولكن لابدَّ لهم، من ناحية أخرى، أن يبلغوا المستودع من دون تأجيل، وإلاّ - وما زال سكوت نفسه يتردَّد في إصدار كلمته. وفي الساعة الواحدة ليلاً، من السابع عشر من شباط يموت الضابط الشقي، على مسافة لا تكاد تبلغ مسيرة يوم من «مخيّم المجزرة»، حيث يعثرون لأول مرة، من جديد، على وجبة أغنى، من آثار مجزرة خيلهم في الشهر المنصرم.

ويستأنفون المسير الآن وهم أربعة، ولكن يا لها من طامّة! فالمستودع التالي لايحتوي إلاّ على القليل من الزيت، وهذا يعني أنه لابدَّ لهم أن يتدبَّروا أمورهم، فيما هو الأكثر ضرورة على الإطلاق، أي في مادة الوقود، وأن يقتصدوا في التدفئة، وهي السلاح الدفاعيّ الوحيد ضد الصقيع، وتكون ليلة باردة كالجليد تزلزلها العواصف، واستيقاظ لا جرأة معه، وكانوا لا يكادون يجدون بعدُ قدرة على أن يدخلوا أقدامهم في النعال المصنوعة من الفراء، غير أنهم يستأنفون المسير وهم يجرّون أقدامهم، وكان أحدهم، وهو أوتس، قد باتَ يمشي

على أصابع قدمين متجمِّدتين، وتهبُّ الرياح بحدة أشد ممّا كانت عليه في أي وقت مضى، وفي المستودع الثاني، وفي الثاني من آذار، تتكرر خيبة الأمل القاسية: لا يوجد إلاّ القليل من مادة الوقود، مرة أخرى.

والآن يسري الخوف حتى إلى كلماتهم، ويحسّ القوم كيف يجتهد سكوت في إخفاء الفزع. ولكن كانت ما تفتأ صرخة من صرخات اليأس، بعد الأخرى، تخترق بصوتها الحاد هدوءه المفتعل. «لا يجوز أن تمضي الأمور على هذا المنوال» أو «فلتقفْ إلى جانبنا يا رب! فنحن ما عُدْنا أهلاً لهذه الجهود»، أو «لعبتنا تنتهي إلى نهاية مأساوية»، وأخيراً الإدراك الرهيب: «ألا فَهَلُمّي أيتها العناية الربانية لمعونتنا! فإننا ما عُدنا ننتظر الآن من البشر عوناً»، غير أنهم يواصلون جَرَّ أقدامهم، ويمضون، من دون أمل، يعضّون على أسنانهم. أمّا أوتس فلا يستطيع أن يشارك في المسير إلاّ على نحو يزداد رداءة مع الزمن، وهو بالنسبة لأصدقائه عبء أكثر مما هو عون. ويضطرون، مع درجة الحرارة التي تبلغ الثانية والأربعين تحت الصفر في منتصف النهار، إلى تأجيل المسير، ويحس المنكود الحظ أنه يجرُّ على أصدقائه الطامّة والوبال، وها هم أولاء يتأهَّبون للأمر الأخير، فيوعزون إلى ويلسون، الباحث، أن يناول كلاً منهم عشرة من أقراص المورفيوم، ليعجِّلوا بنهايتهم في حالة الضرورة، ويكرِّرون محاولتهم مع المريض يوماً آخر من أيام المسير، وعند ذلك يطلب الشقيّ المنكود الطالع، نفسُه، أن يَدَعوه في كيس نومه ويفصلوا مصيرهم عن مصيره. ويرفضون الاقتراح جميعاً بقوة على الرغم من أنهم كانوا جميعاً على بيِّنة من أن هذا الاقتراح سيعني تخفيفاً للعبء عنهم. ويظل المريض يترنّح بعد معهم على ساقَيْه المتجعّدتين، إلى مقر المبيت

في الليل، وينام معهم حتى الصباح التالي، ويطلون بنظرة على الخارج فإذا إعصار يُجَنُّ جنونه.

وفجأة ينهض أوتس، قائلاً لأصدقائه: «أريد أن أخرج قليلاً، وربما ظللت هنيهة في الخارج. ويرتعد الآخرون، إذ يعرف كلٌّ منهم ماذا تعنيه هذه الجولة، ولكن ما من أحد يجرؤ على كلمة لِيَرُدَّه، وما من أحد يجرؤ على أن يمد يده ليصافحه مصافحة الوداع، لأنهم يشعرون جميعاً شعوراً مصحوباً بالرهبة، أن معلم الفرسان، لورنس ج. ي. أوتس، الذي ينتمي إلى مقاتلي التنّين في إينيسكيلنغ، يواجه الموت مواجهة الأبطال.

ويظل ثلاثة من البشر، متعَبين، قد وَهَن العزم منهم، يجرّون أقدامهم جراً في الصحراء الجليدية الحديدية التي لا نهاية لها، وقد باتوا مرهقين، بلا أمل، وما عاد هنا إلاّ غريزة غامضة، هي غريزة البقاء، ما زالت تشدُّ أوتار المشية المُقَلْقَلَة. والطقسُ يزداد رهبة مع الزمن، وعند كل مستودع تسخر منهم خيبة أمل جديدة، إذ لا يوجد هناك، دائماً، إلاّ القليل من الزيت، والقليل من الدفء. وفي ٢١ آذار لا يَبْعُدون بعدُ إلاّ مسافة عشرين كيلو متراً عن أحد المستودعات، ولكن الريح تهبُّ بقوة يبلغ من فتكها أنهم لا يتاح لهم أن يغادروا خيمتهم. وفي كل مساء يعقدون آمالهم على الصباح التالي، لكي يبلغوا الهدف، بينما تتضاءل المؤونة ويتضاءل معها الأمل الأخير. لقد نفد الوقود من بين أيديهم، وميزان الحرارة يشير إلى الدرجة الأربعين تحت الصفر. كل أمل ينطفئ، وما عاد لديهم الآن بعدُ سوى الاختيار بين الموت من الجوع وبين الموت بالصقيع. ويظل هؤلاء البشر الثلاثة يكافحون ثمانية أيام في خيمة صغيرة في وسط العالم البدائي الأبيض ضد النهاية التي لا مندوحة عنها. وفي ٢٩ آذار

يعرفون أنه ما عاد يمكن أن تنقذهم أعجوبة، فيقررون أن لا يسيروا لمواجهة الطامّة خطوة واحدة، وأن يصبروا على الموت بفخر مثلما يصبر المرء على كل مصيبة أخرى، فَيَنْسَلّون في أكياس نومهم، ولم يكن يتسرَّب من آلامهم الأخيرة أبداً تنهُّدة إلى العالم.

رسائل المُحْتَضَر

وفي هذه اللحظات، وبينما كانوا وحيدين تجاه الموت غير المرئيّ، والقريب من ذلك قُرْبَ نَفَسِ المرء منه، وكان الإعصار يعدو، في الخارج إلى جدران الخيمة الرقيقة كالمجنون، يسترجع الكابتن سكوت ذكريات كل القواسمِ المشتركة التي يرتبط بها. وفي الصمت الجليدي إلى أقصى الحدود، ذلك الصمت الذي لم يسبق له بعدُ أبداً أن تخلّلَه إنسان بأنفاسه، ترتَدُّ إلى الوعي عنده أُخُوَّته لأمته، وللبشرية بأسرها، في صورتها البطولية. إنه سَرابٌ باطنيٌ للفكر يستحضِر، في هذه الصحراء البيضاء، صور كل أولئك الذين ارتبطوا به بآصرة الحب والإخلاص والصداقة في يوم من الأيام، ويوجه الكلمة إلى هؤلاء. وبأصابع متجمّدة يكتب الكابتن سكوت، يكتب رسائل صادرة عن ساعة موته إلى كل الأحياء الذين يحبُّهم.

وإنها لرائعة، هذه الرسالة، فكل شيء يتسم بالتفاهة والضآلة يُلْغى فيها، في إطار القرب الهائل من الموت، ويبدو أن الهواء البلّوري في هذه السماء غير المأهولة بالحياة يتغلغل فيها، وهي موجهة إلى أناس، ومع ذلك فهي تتحدث إلى البشرية بأسرها. لقد كُتِبَت في عصر من العصور وهي تتحدث عن الأبد.

فهو يكتب إلى زوجته، ويذكِّرها بأن ترعى التفويض الأعلى، وهو ابنه، وينبِّهها إلى وجوب حفظه من الخمول والتخاذل، ويتحدث معترفاً عن نفسه، في نهاية واحد من أرفع المنجزات في تاريخ العالم: «لم يكن ليَ بُدٌّ، كما تعلمين أن أقْسِر نفسي أن أكون طموحاً - وكنت أنطوي دائماً على ميل إلى الخمول» وما زال يفخر، وهو على قيد أنملة من الهلاك، بدلاً من أن يأسف، بقراره الخاص: «ماذا كان في وسعي أن أقصَّ عليك، حول كل شيء في هذه الرحلة، وإلى أي حد كانت أفضل من القعود في عقر داري، في رحلة مفرطة!».

وهو يكتب بروح زمالة متناهية في الإخلاص إلى السيدة والأم، لرفاقه في المعاناة، الذين عانوا الموت معه ليأتوا بالدليل على بطولتهم، ويُعَزّي المتخلّفين وراءه، من الآخرين، وهو نفسه في حالة الاحتضار، بشعوره القويّ، الذي بات متعالياً عن البشر، بعظمة اللحظة، وبما في هذا الهلاك من أمور جديرة بالنظر والاعتبار.

وهو يكتب إلى الأصدقاء، متواضعاً فيما يتصل بنفسه، ولكنه مفعم بالزُّهُوّ الرائع من أجل الأمة بأسرها، وهو الذي يشعر بنفسه في هذه الساعة بالحماسة لكونه ابنها، وابنها الكريم الذي يحظى بالتقدير والقول معترفاً: «لست أدري أتراني كنت مكتشفاً عظيماً، ولكن نهايتنا ستكون شاهداً على أن روح الشجاعة والمقدرة على الاحتمال لم ينضبا من جنسنا بعدُ. على أن ما كان جمود الرجال والعفة النفسية يصدانه، طوال حياته عن الاعتراف بهذه الصداقة؛ ينتزعه منه الموت الآن، إذ يكتب إلى أفضل أصدقائه قائلاً: «لم ألْقَ في حياتي قطُّ إنساناً أعجبت به مثل هذا الإعجاب وأحببته، مثلك، ولكني لم يكن في

وسعي أبداً أن أكشف لك عما تعنيه صداقتك بالقياس إليّ، إذ كان لديك الكثير مما تهب لي، ولم يكن لديَّ شيء أَهَبُه لك».

وهو يكتب رسالة أخيرة، هي أجملهن جميعاً، إلى الأمة الإنكليزية، فهو يجد نفسه مضطراً إلى أداء الحساب، على كونه مقصِّراً عن شأوِ الآخرين في هذا الكفاح من أجل المجد الإنكليزي بذنب أتاه، ويحصي المصادفات المتفرِّقة التي تآمرت عليه، ويهيب، بالصوت الذي يضفي عليه صدى الموت لهجة رهيبة، بكل الإنكليز، في رجاء، أن لا يتخلَّوْا عن ذويه. على أن فكرته الأخيرة يتجاوز مداها مصيره الخاص، وذلك أن كلمته الأخيرة لا تتحدث عن موته، هو، بل عن حياة من عداه: «بحق الإله، أسألكم رعاية ذوينا!» ثم تظل الأوراق خالية.

وحتى اللحظة القصوى، وإلى أن تتصلب أنامله من التجمُّد، وينزلق القلم من بين يديه المتصلبتين، ظل الكابتن سكوت يكتب في يومياته، إذ مَكَّنه الأمل في أن يعثر القوم عند جثمانه على هذه الأوراق التي يمكنها أن تشهد له وتكون شاهداً على جرأة الجنس الإنكليزي، على بذل مجهود كهذا الذي يرتفع فوق مستوى البشر. وكان آخر ما دوَّنته الأنامل المرتعدة التي عَراها التجمُّد، أيضاً، هذه الرغبة: «فلترسلوا هذه اليومات إلى زوجتي!» ولكن يده تعمد بعد ذلك إلى شطب هذه الكلمة، «زوجتي» في يقين قاسٍ، وتكتب فوقها الكلمة الرهيبة «أرملتي».

الجواب

ولبث الرفاق في الكوخ أسابيع بطولها، وكانوا أوَّل الأمر مفعمين بالثقة، ثم انتابهم القلق، وأخيراً كان قلقهم يتنامى، وكانت قد أرسلت

بعثتان مرتين، لإسداء العون، ولكن الطقس كان يردُّهما على أعقابهما بأسواطه، ويظل أولئك الذين باتوا بلا قائد، طيلة الشتاء الطويل بأسره، مقيمين في الكوخ من دون غرض، وقد خيم ظل الكارثة على قلوبهم. وفي هذه الشهور أوصد على مصير الكابتن روبرت سكوت وعمله بالثلج والصمت، وكان الجليد يحبسهم مختوماً عليهم في تابوت زجاجي. وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول، أي في الربيع القطبي، فحسب، تنطلق بعثة لتعثر على جثث الأبطال ورسالتهم على الأقل. وفي الثاني عشر من تشرين الثاني يصلون إلى الخيمة، فيجدون جثث الأبطال متجمِّدة في أكياس النوم، يجدون سكوت الذي يظل يعانق ويلسون حتى في الموت، عناق الإخوة، ويجدون الرسائل، والوثائق، ويشيدون للبطل المأساوي قبراً، قبراً بسيطاً، وينتصب صليب أسود على رابية من الثلج الآن، وحيداً في العالم الأبيض، يخفي تحته شهادة ذلك الإنجاز البطولي، الذي قدمته البشرية، إلى الأبد.

ولكن كلا! فالانبعاث يحدث لأعمالهم، على نحو غير متوقع، ورائع: ألا إنها لأعجوبة رائعة من عالمنا التقنيّ في عصرنا الحديث! هاهم أولاء أصدقاؤهم يأتون باللوحات والأفلام إلى الوطن، وتتحرر الصور في الحمّام الكيميائي، ويرى الناس، مرة أخرى، سكوت مع رفاقه، في جولاته، وأرض القطب، التي لم يرها عداه سوى ذلك الآخر، أموندسن. وعلى السلك الكهربائي تَثِبُ رسالة كلماته ورسالته لتخرج إلى العالم الذي تستحوذ عليه الدهشة. وفي كاتدرائية المملكة يحني الملك ركبتيه لذكرى الأبطال، وهكذا يتحوَّل ما بدا عبثاً، مرة أخرى، إلى شيء مثمر، ويتحوَّل ما فاتهم إلى نداءٍ مُسْكِرٍ إلى البشرية يهيب بها أن

تَشُدُّ طاقاتها لتتصدى لما لا يمكن الوصول إليه. وفي انعكاس رائع ينشأ من موتٍ بطولي، حياةٌ مصعَّدة، ومن الهلاك تبرز إرادة اللارتقاء إلى اللانهائيّ. ذلك لأن الطموح وحده يتَّقد على صخرة مصادفة النجاح والوصول السهل، ولكن ما من شيء يرتقي بالقلب الارتقاء الرائع إلى هذا المدى مثل هلاك إنسان في حَوْمة الكفاح ضد سلطان القدر الغلاّب الذي لا يُقْهَر، هذه المأساة التي هي أروع كل المآسي في كل العصور، والتي يصوغها شاعر أحياناً، وتصوغها الحياة ألف مرة.

القطار المختوم

لينين، ٩ نيسان ١٩١٧

الرجل الذي يسكن عند الإسكافي

كانت جزيرة السلام السويسرية الصغيرة التي تحدق بها الحرائق من كل حدب وصوب من جراء الطوفان العاصف الذي نجم عن الحرب العالمية، في تلك السنوات، أي في أعوام ١٩١٥، و١٩١٦، و١٩١٧، و١٩١٨، على نحو لا ينقطع، مسرحاً لرواية بوليسية مثيرة. وفي الفنادق المترفة كان مبعوثو الدول المتخاصمة يمرُّ بعضهم ببعض ببرود، كَأَنْ لم يسبق لهم قطُّ أن عرف بعضهم بعضاً، وهم الذين كانوا قبل عام يلعبون البريدج شأن الأصدقاء، ويدعو بعضهم بعضاً إلى منزله، وكان يَمْرُق من حجراتهم سِرْب كامل من الشخصيات التي لا تَشِفُّ عن شيء. فمنهم النواب، وأمناء السر، والمُلْحقون في السفارات، ورجال الأعمال، والسيدات المحجَّبات أو السافرات، وكلٌّ يهتم بمهمّات تنطوي على أسرار. وتنطلق أمام الفنادق سيارات ذات أُبَّهة تحمل الشارات الملكية والأميرية الأجنبيّة كان ينزل منها أرباب الصناعة والصحفيّون وأهل الفن والعباقرة والمسافرون الذين يبدو عليهم أنهم يلتمسون المتع والمسرّات كائنة ما كانت، ولكن كلَّ واحد منهم تقريباً كان يحمل المهمة ذاتها، أن

يطّلع على شيء ما، ويستطلع شيئاً ما، وكان العتّال الذي يقودهم إلى حجرتهم، والفتاة التي تكنس الحجرات، كان هؤلاء أيضاً تُلِحّ عليهم الأعمال، أعمال المراقبة، والتَّرَصُّد. وفي كل مكان تعمل المنظمات بعضُها ضد بعض، في الفنادق، وفي النُّزُل العائلي، وفي دوائر البريد، وفي المقاهي، وما يطلق عليه اسم الدعاية هو تجسُّس في شطرٍ منه، وما يتجلى في صورة الحب، فهو الخيانة، وكل عمل مكشوف لكل هؤلاء القادمين المسرعين يخفي وراءه خلفية ثانية وثالثة. وكل شيء يجري الإبلاغ عنه، وكل شيء يجري السهر عليه، ولا يكاد ألمانيٌّ من أية مرتبة كانت، يدخل زوريخ حتى تعلم به السفارة المعادية في برن، وبعد ساعة من هذا باريس، وهناك مجلدات بأكملها، ملأى بالتقارير الصحيحة والمخترعة يبعثها يوماً فيوماً، العملاء الصغار والكبار إلى الملحقين، وهؤلاء يتابعون إرسالها. وكل الجدران من الزجاج، وكل الهواتف يتمُّ التنصُّت عليها، وتجري إعادة تركيب كل مراسلة من سلال أوراق المهملات ومن الورق النشّاف. ويبلغ من جنون مملكة الأرواح الشريرة آخر الأمر، أن الكثيرين لا يعودون يعرفون، هم أنفسهم مَنْ يكونون، أمطارِدين أم مطارَدين، أجواسيس أم موضوعين تحت رقابة الجواسيس، أم معرَّضين للخيانة أم خائنين.

ولكن رجلاً واحداً لا يوجد عنه إلاّ القليل من التقارير من تلك الأيام، ربما لأنه كان رجلاً لا يُؤْبَهُ به إلى حد بعيد، ولم يكن ينزل في الفنادق الفخمة، ولم يكن يقعد في المقاهي، ولم يكن يشهد التقديمات الدعائية، بل كان يسكن، مع زوجته، عند إسكافيٍّ في عزلة كاملة، وكان يسكن وراء الليّمات (Limmat) مباشرة في الحارة الضيِّقة، القديمة

المتعرِّجة ذات الأرضية الملساء التي تعكس النور في الطابق الثاني، في واحد من تلك المنازل المبنية بناءاً محكماً، وذات الأسقف المقبَّبة في المدينة القديمة، التي تكون عابقة بالدخان، بفعل الزمن من ناحية، ومن جراء مصنع المقدَّدات الصغير الذي يعمل في الفِناء في الأسفل، من ناحية أخرى، وكان جيرانه زوجة خبّاز، وإيطالي وممثل نمساوي، ولا يكاد يعرف رفاق المنزل عنه أكثر من أنه روسيّ، وأن اسمه صعب النطق، إذ لم يكن يميل إلى الإفاضة في الحديث. أمّا أنه هارب من وطنه منذ كثير من السنين وأنه لا يوجد تحت تصرفه ثروات كبيرة، ولا يمارس أيّاً من الأعمال التي تدرُّ مالاً، فذلك ما تدركه قيِّمة المنزل أفضل إدراك من ملاحظة الوجبات البائسة ومن خزانة الملابس المستهلكة لِكليهما، التي لا تكاد تملأ، مع كل متاع الموت، ولوازمه، سلة صغيرة والتي جاءا بها عند هجرتهما.

وهذا الرجل القصير المتين البنيان لا يلفت النظر قدر الإمكان ويعيش حياة لا تلفت النظر ما وَسِعَه ذلك، فهو يتجنَّب المجتمع، ومن النادر أن يرى أهل المنزل النظرة الحادة العاتمة في العينين ذَواتيْ المحجرين الضيقين، وقلما يأتيه الزوّار، غير أنه يذهب إلى المكتبة العامة بصورة منتظمة، يوماً فيوماً، كل صباح، في الساعة التاسعة، ويقعد هناك إلى أن تُغلق في الساعة الثانية عشرة، وبعد الثانية عشرة بعشر دقائق على وجه الدقة يكون في البيت من جديد، وقبل الواحدة بعشر دقائق يغادر المنزل، ليكون أول من يكون في المكتبة، مرة أخرى، ويقعد هناك حتى السادسة مساءاً، ولكن لمّا كان عملاء الأخبار لا ينتبهون إلاّ إلى الناس الذين يكثرون من الحديث، ولا يعرفون أن البشر المنعزلين هم الأكثر خطراً

على الدوام في كل حركة تثوير للعالم، وهم الذين يكثرون من القراءة والتعلُّم، فإنهم لا يكتبون تقارير عن الرجل الذي لا يؤبه به، الذي يسكن عند الإسكافيّ: أما في الأوساط الاشتراكية فيعرف الناس عنه على وجه الخصوص أنه كان في لندن محرر مجلة صغيرة متطرفة للمهاجرين الروس، وأنه يُعَدُّ في بطرسبرج زعيماً لحزب استثنائيّ ما، كائناً ما كان، يصعب النطق باسمه، ولكن لما كان يتحدث حديثاً قاسياً ينم عن الازدراء عن أفضل الناس سمعة في الحزب الاشتراكي ويعلن أن طرائقهم خاطئة، ويثبت أنه بعيد المُتَناوَل، وغير تصالحيّ على الإطلاق، فإن الناس لا يحفلون به كثيراً. أما الاجتماعات التي يدعو إليها أحياناً في المساء، في مقهى بروليتاريّ صغير فيأتي إليها، على أقصى تقدير خمسة عشر إلى عشرين فرداً، أكثرهم من الشباب وهكذا يتقبَّل الناس هذا المعتزل الشاذ مثلما يتقبّلون كل هؤلاء الروس المهاجرين الذين يبعثون الحرارة في أدمغتهم بالكثير من الشاي والكثير من المناقشات، ولكن ما من أحد ينظر إلى الرجل القصير الذي يدل جبينه على الصرامة، ونظرته إلى رجل ذي خطر، ولم يكن يوجد ثلاث اثني عشريات من الناس في زوريخ يَرون أن من الأهمية بمكان أن يتذكَّروا اسم هذا المدعو ڤلاديمير إيليتش أوليانوف، الرجل الذي يسكن عند الإسكافي، ولو أن إحدى السيارات الفارهة التي كانت في تلك الأيام تطوي الأرض طياً، بسرعة بالغة، من سفارة إلى سفارة، صدمته وهو في الطريق بمصادفة، لما عرفه العالم، لا باسم أوليانوف، ولا بذلك الاسم، اسم لينين.

تحقُّق الأمل...

وذات يوم، وهو في الخامس عشر من آذار ١٩١٧ ينتاب أمين المكتبة في دار الكتب في زوريخ العجب، فالساعة تشير إلى التاسعة، والمكان الذي يقعد عليه أكثر مستعيري الكتب دِقة في المواعيد، في كل يوم بلا استثناء، خالٍ، وتصبح الساعة التاسعة والنصف، وتصبح العاشرة، والقارئ الذي لا يعتريه الكلل لا يأتي وما عاد يأتي، لأن صديقاً روسيّاً حَدَّثه وهو في الطريق إلى المكتبة العامة، أو بالأحرى، هجم عليه بالنبأ الذي يفيد أن الثورة نشبت في روسيا.

ويأبى لينين أن يصدِّق ذلك أوَّل الأمر، إذ صعقه النبأ، غير أنه يُهرَع بعد ذلك بخطواته القصيرة الشديدة إلى الكشك على ضفة البحيرة، وهناك، وأمام إدارة تحرير الجريدة ينتظر الآن ساعة بعد ساعة، ويوماً بعد يوم، إنه صحيح، النبأ صحيح، ويغدو في كل يوم أكثر صحة إلى حد رائع بالقياس إليه. كان في البداية مجرد شائعة عن ثورة في القصر وعلى ما يبدو مجرد تغيير وزراء، ثم عزل القيصر، وتعيين حكومة مؤقتة، ويكون الدوما، والحرية الروسية، والعفو عن السجناء السياسيين - كل ما كان يحلم به منذ سنين، كل ما كان يعمل من أجله منذ عشرين عاماً في تنظيم سري، في السجن، وفي سيبيريا، وفي المنفى، قد تحقق. ودفعة واحدة يبدو له أن الملايين من القتلى الذين اقتضتهم هذه الحرب، لم يموتوا عبثاً، وما عادوا يبدون له بعدُ قتلى من باب العبث، بل باتوا شهداء من أجل الدولة الجديدة، دولة الحرية والعدالة والسلام الأبديّ التي تنبثق الآن، ويشعر هذا الذي كان في العادة واضحاً كالجليد، وكان حالماً بارداً يبنى أحلامه على الحسابات، أنه كالسكران،

وكم يرتعد ويهلّل الآن المئات الآخرون الذين يقعدن في حجرات مهجرهم الصغيرة في جنيف ولوزان، وبرن، في صدد الرسالة الباعثة للسعادة: أن يتاح لهم العودة إلى روسيا! أن تتاح لهم العودة، لا بجوازات سفر مزوَّرة، ولا بأسماء مستعارة، ولا تحت خطر الموت في مملكة القيصر، بل مواطنين أحراراً في البلاد الحرة، وها هم أولاء يُعدّون متاعهم اليسير، إذ ترد في الصحف برقية جوركي المقتضبة: «عودوا جميعاً إلى الوطن!». وفي كل الاتجاهات يبعثون بالرسائل والبرقيات: عودوا، عودوا! تجمَّعوا! اتحدوا! ولتكرِّسوا حياتكم مرة أخرى من أجل العمل الذي وقفتم حياتكم له منذ ساعة يقظتكم الأولى: من أجل الثورة الروسية.

... وخيبة أمل

ولكن المعرفة التي تبعث على الذهول تأتي بعد بضعة أيام: فالثورة الروسية التي ارتفع قلبها كأنما بتحليق نَسْر، ليست الثورة التي كانوا يحلمون بها، وليست ثورة روسية، بل كانت انقلاباً في القصر ضد القيصر بتدبير من الدبلوماسيين الإنكليز والفرنسيين لمنع القيصر من عقد الصلح مع ألمانيا، وليست ثورة الشعب التي تريد هذا السلام وتريد حقوقه، إنها ليست الثورة التي عاشوا من أجلها والذين هم مستعدون للموت من أجلها، بل هي مؤامرة أحزاب الحرب، من الامبرياليين والجنرالات الذين لا يريدون أن يدعوا أحداً يكدِّر صفوهم في تنفيذ خططهم، وسرعان ما يدرك لينين ورهطه أن ذلك الوعد لا ينطبق على كل أولئك الذين يريدون هذه الثورة الحقيقية، الجذرية، ثورة كارل ماركس، وإذا ميليكوف والليبراليّون الآخرون يصدرون التكليف إلى

الآخرين بحظر العودة عليهم، وبينما كان الاشتراكيون المعتدلون الذين يمكن أن تمسَّ الحاجة إليهم من أجل إطالة أمد الحرب، مثل بليخانوف، يتم نقلهم بأكثر الطرق تلطُّفاً ومجاملة، من إنكلترا بزوارق الطوربيد إلى بطرسبرج، مصحوبين بحرس الشرف، يحتجزون تروتكس في هاليفاكس، ويحتجزون الآخرين من الراديكاليين عند الحدود. وفي كل دول الاتفاق الودي توجد على الحدود لوائح سود بأسماء كل أولئك الذين شاركوا في مؤتمر الأممية الدولية الثالث في تسيمرڤالد، وتتوالى برقيات لينين، وهو يائس، برقية إثر برقية، إلى بطرسبرج، غير أنها يتم احتجازها أو تظل معطَّلة. فما لا يعرفه القوم في زوريخ، ولا يكاد يعرفه أحد في أوروبا، يعرفه أولو الأمر في روسيا على وجه الدقة، وهو إلى أي مدى تبلغ قوة خصمهم ڤلاديمير إيليتش لينين، وحيويته وتطلُّعه إلى الهدف، وخطورته القاتلة.

ويصل يأس الذين صُدّوا عاجزين إلى ما لا حدود له، فقد كانوا منذ أعوام وأعوام يبتدعون استراتيجية ثورتهم الروسية في جلسات لا تحصى عدداً لأركانهم العامة في لندن، وفي باريس، وفي ڤينا، وقد نظروا في كل تفصيل من تفاصيل التنظيم واختبروه بصورة مسبقة، وظلوا، على مدى عقود من الزمان، يوازِنون، في مجلاتهم، من الناحية النظرية، والعملية، الأخطار والإمكانيات، بعضها إزاء بعض، ولبث هذا الرجل، طوال حياته بأسرها لا يُقلِّب الأمر على وجوهه إلاّ في هذه العقدة الواحدة من الأفكار، دائماً، وأبداً، مرة بعد أخرى، منقِّحاً ومراجعاً، لينتهي بها إلى الصياغات الأكثر نهائيةً وحسماً على الإطلاق، والآن يُقدَّر لثورته هذه، لأنه احتُجِز هنا في سويسرا، أن يتمّ تمييعها وإفسادها من قبل الآخرين الذين وضعوا له فكرة تحرير الشعب، المقدسة، في خدمة الأمم

والمصالح الأجنبية، وفي قياس يلفت النظر يشهد لينين في هذه الأيام مصير هندنبرج في الأيام الأولى من الحرب، وهو الذي ظلَّ، أيضاً، أربعين سنة يناور في مسألة الحملة على الروس ويتدرَّب عليها، وحين تنطلق يضطر إلى القعود في بيته، بالملابس المدنية، ومتابعة خطوات تقدُّم الجنرات الذين يتم استدعاؤهم، ومتابعة أخطائهم بالرايات الصغيرة على الخريطة: ويقوم لينين في تلك الأيام اليائسة بتقليب أشدّ الأحلام بلادةً وأكثرها خيالية على الإطلاق، والموازنة بينها، وهو الذي يُعَدُّ في العادة واقعياً فولاذيّاً، هل يمكن للمرء، يا تُرى، أن يستأجر طائرة وينطلق بها عبر ألمانيا أو النمسا؟ ولكن أول من يتقدم لإسداء العون يثبت أنه جاسوس. وتزداد أفكار الهرب جموحاً واضطراباً على نحو مُطَّرد: فهو يكتب إلى السويد طالباً أن يُدَبِّر القوم له جواز سفر سويدياً، ويريد أن يتظاهر بأنه أبكم لكيلا يضطر إلى تقديم بيانات أو إيضاحات، وبحكم البدهية يدرك لينين نفسه دائماً، عند الصباح، بعد كل هذه الليالي الحافلة بالأخيلة، أن كل هذه الأحلام الجنونية غير ممكنة التنفيذ، غير أن هذا هو ما يعرفه أيضاً في وضح النهار: فلابدّ له أن يعود إلى روسيا، ولابدَّ له أن يقوم بثورته بدلاً من أن يقوم بها الآخرون، أن يقوم بالثورة الصحيحة والشريفة بدلاً من الثورة السياسية. لابدَّ له أن يعود، وعمّا قريب، إلى روسيا، العودة بأي ثمن!

عَبْر ألمانيا، نعم، أم لا؟

تقع سويسرا في موقع تحتضنها فيه إيطاليا وفرنسا وألمانيا والنمسا. وكان الطريق مسدوداً في وجه لينين الثوري عن طريق البلدان

المتحالفة، سواء أكان خروجه عن طريق ألمانيا، أم النمسا، بحكم كونه من الرعايا الروس، أم بحكم كونه تابعاً لدولة معادية. ولكن التشكيلة البعثية: هي أن لينين يتوقع من ألمانيا الأمبراطور غليوم ترحيباً أكثر مما يتوقع من روسيا ميليوكوف ومن فرنسا بوانكاريه. وذلك أن ألمانيا تحتاج، عشية الإعلان الأمريكي للحرب، إلى السلام بأي ثمن مع روسيا، وعلى هذا فلابدّ للثوري الذي يثير هناك الصعوبات في طريق مبعوثَيْ إنكلترا وفرنسا، إلاّ أن يكون مساعداً يلقى الترحيب.

ولكن المسؤولية الهائلة التي تترتَّب على مثل هذه الخطوة المتمثلة في إقدامه الآن، دفعة واحدة، على إجراء مفاوضات مع ألمانيا الامبراطورية التي يشتمها مائة مرة في كتاباته ويهدِّدها. ذلك لأن روح كل الأخلاق السائدة حتى ذلك الحين تقضي، بحكم البدهية، أن يُعَدَّ من قبيل الخيانة العظمى، إقدامه، في غمرة الحرب، وبموافقة الأركان العامة المعادية، على دخول أرض معادية واختراقها، ولابدّ للينين، أن يعلم، بحكم البدهية أنه، بعمله هذا، يُسَوِّد وجه حزبه وقضيته هو، منذ البداية، وأنه سيغدو موضع الشبهة في أنه يُرْسَل عميلاً قبض الثمن وتمَّ استئجاره من قبل الحكومة الألمانية، إلى روسيا، وأنه، إذا ما حقق برنامجه الخاص بالصلح الفوري، فسوف يُحَمَّل إلى الأبد، في التاريخ، وزراً يتمثل في أنه حال دون سلام روسيا المظفَّر، ومن البدهي أن لا ينتاب الفزع الثوريين الأكثر اعتدالاً فحسب، بل ينتاب أيضاً معظم رفاق لينين المماثلين له في التفكير، وهو يعلن استعداده لأن يسلك، في حالة الضرورة، حتى هذا الطريق الذي ينطوي على أشد الأخطار قاطبة وعلى أكثر ما يسوِّد الوجه ويشين. ويقول مؤنِّبين، وقد تولاهم الذهول إنه

قد تمّ منذ عهد بعيد، عن طريق الديمقراطيين الاجتماعيين السويسريين، إجراء مفاوضات من أجل التمهيد لإعادة الثوريين الروس إلى الطريق المشروع والمحايد، طريق، تبادل الأسرى، ولكن لينين يدرك كم سيستغرق من الوقت سلوك هذا الطريق، وبأي كيفية مصطنعة ومتعمّدة سوف تؤجل الحكومة الروسية عودتهم إلى ما لا نهاية له، بينما يعلم هو أن كل يوم وكل ساعة ينطويان على تأثير حاسم. وذلك أنه لا يرى إلاّ الغاية، على حين لا يجرؤ الآخرون، وهم الأقل تهكُّماً وخبثاً، على أن يقرروا الإقدام على فعلة تعد خيانيّةً بموجب كل الشرائع القائمة وكل النظرات، ولكن لينين كان قد اتخذ قراره في سريرته، وهو يستهلّ، لشخصه، وعلى مسؤوليته، المفاوضات مع الحكومة الألمانية.

الاتفاقية

ولأن لينين يعرف ما في خطوته التي تلفت الأنظار وتتحدى، لهذا على وجه الدقة يتصرف بأكبر قدر ممكن من الصراحة. وبتكليف منه يتوجه أمين السر النقابي السويسري، فريتس بلاتن إلى المبعوث الألماني، الذي سبق أن تفاوض تفاوضاً عاماً مع المهاجرين الروس، ويعرض عليه شروط لينين. ذلك لأن هذا اللاجئ الضئيل الشأن وغير المعروف لا يتقدم - بحال من الأحوال، برجاء إلى الحكومة الألمانية وكأنما كان في وسعه أن يستشعر سلطته الوشيكة - بل يعرض الشروط التي سيكون المهاجرون مستعدين على أساسها للنزول على رغبة الحكومة الألمانية: وهي أن يُعْتَرَف للعربة بالصفة الاستثنائية المتمثلة في كونها عربة نقل خارجي، وأنه لا يجوز ممارسة رقابة على جواز السفر ولا على الأشخاص، لا عند

الدخـول، ولا عند الخروج، وأن رحلتـهـم بالتـعـرفـة العـادية سـوف تدفع تكلفـتـهـا من قِبَلهم هم، وأن مغـادرة العـربة لا يُؤمَر بهـا ولا تحدث بناء على مبادرة خاصة، ويتـولى الوزير رومبرغ نقل هذه الأخبار إلى الجهات الأعلى، إلى أن تصل إلى يدي لودندورف الذي يؤيدها بلاشك، على الرغم من أنه لا يمكن العثـور، في مـذكراتـه على كلمـة حـول هذا القـرار الذي ربما كـان الأكثـر أهميـة في حيـاته من حيث ارتبـاطه بتـاريخ العـالم. وفي بعض التـفاصيـل يحـاول المبعـوث الوصـول إلى بعض التـعديلات، لأن البروتوكـول تمت صيـاغتـه على هذا النحـو الملتبس عـمداً مـن قبـل لينين، بحيث لا يتاح للروس فحسب أن يشاركوا في السفر، بل يسافر معهم نمساوي، مثل راديك في القطار من دون رقابة أو تفتيش. ولكن الحكومة الألمانيـة كـانت فـي عـجلة مـن أمـرها، مـثـل لينين، فـفي هذا اليـوم، أي الخامس من نيسان، تعلن الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على ألمانيا.

وهكذا يتلقى فـريتس بلاتّن، في ٦ نيـسـان، عند الظهـر، القـرار الخـالد الذكـر: تمَّ ترتيب المسـألة بالمعنى المرغـوب»، وفي ٩ نيـسـان ١٩١٧، وفي السـاعـة الثـانيـة والنصف تتـحـرك من مطعم تسارنجرهوف، ثلة صـغـيـرة من ذوي الملابس الرَّثَّة، الذي يحملون الحـقـائب، إلى مـحطة زوريخ، وهم، على الإجمال، اثنان وثلاثون بمن فيهم من النساء والأطفال، ولم يكن مـعـروفـاً من الرجال بينهم سوى اسم لينين وسينوفييف وراديك، وكـانوا قـد تناولوا مـعـاً وجبة غداء متواضعة، ووقَّعـوا مـعـاً على وثيـقـة تفـيـد أن نبـأ «البـاريسي الصـغـيـر» مـعـروف عـندهم، وتنوي الحـكومـة الروسيـة المؤقتـة بموجبه، أن تعـامل المسـافرين عن طريق ألمانيـا على أنهم مـرتكـبـون للخـيـانة العظمى، ووقـعـوا بحـروف لا براعـة فـيـهـا، وعـسـيـرة

الانسياب، على أنهم يتحملون المسؤولية الكاملة، بأسرها عن الرحلة، على عاتقهم، وأنهم وافقوا على كل الشروط، ويتجهّزون الآن، في سكون وتصميم، للرحلة ذات الشأن في تاريخ العالم.

على أن وصولهم إلى محطة القطار لا يلفت الأنظار في شيء، ولم يظهر مراسلون ولا مصوِّرون، ومن تُراه يعرف في سويسرا هذا السيد المدعو أوليانوف الذي يبحث لنفسه عن مكان في القطار وعلى رأسه قبعة مضغوطة وهو يرتدي ثوباً بالياً، وينتعل حذاء جبلياً ثقيلاً إلى حد مضحك (وقد جاء به حتى إلى السويد)، هنا وسط ثلة من الرجال يحملون السلال المشحونة بالعلب، والنساء، صامتاً، لا يلفت النظر، ولا يبدو هؤلاء القوم شيئاً آخر سوى المهاجرين الذين لا يُحصى عددهم، والذين يقعدون على حقائبهم الخشبية، قادمين من يوغسلافيا، وروسيا البيضاء ورومانيا، في زوريخ غالباً، ويستريحون بضع ساعات قبل أن يُنقَلوا بعد ذلك إلى البحر الفرنسي، ومن هناك إلى ما وراء البحار. أما حزب العمال السويسري الذي لا يقر الرحيل، فلم يبعث بممثليه، ولم يأت سوى بضعة من الروس لكي يرسلوا شيئاً من المواد الغذائية والتحيّات إلى الوطن، كما جاء بضعة منهم أيضاً، لِيَثْنوا عزم لينين عن «الرحلة اللامعقولة، الإجرامية»، ولكن القرار صدر، في الساعة الثالثة يعطي الجابي الإشارة، ويدرج القطار منطلقاً إلى كوتمادنجن، إلى محطة الحدود الألمانية، وما هي إلا ثلاث ساعات وعشر دقائق، ومنذ هذه الساعة تتخذ ساعة العالم منحىً آخر.

القطار المختوم بالرصاص

لقد تمّ في الحرب العالمية إطلاق الملايين من القذائف المدمرة، وهي القذائف الأكثر عنفواناً وجبروتاً، والأبعد مدى، التي ابتدعها المهندسون، ولكن ما من قذيفة كانت أبعد مدى وأكثر حسماً للمصائر، في التاريخ الحديث، من هذا القطار الذي كان يطوي الأرض منطلقاً بسرعة بالغة، مُحَمَّلاً بأخطر ثوريي القرن وأشدهم تصميماً، في هذه الساعة، من الحدود السويسرية، عبر ألمانيا بأسرها ليحط رحاله في بطرسبرج وينسف هناك نظام ذلك العصر.

وفي كوتْماندنْجن تقف على القضبان هذه القذيفة الفريدة في نوعها، وهي عربة من الدرجة الثانية والثالثة يشغل النساء والأطفال الدرجة الثانية فيها، والرجال الدرجة الثالثة. وكان خط من الطباشير على الأرض يحدد منطقة سيادة الروس على أنها منطقة محايدة مقابل قسم الضابطين الألمانيَّيْن اللذيْن يصحبان هذه الشحنة من المواد الناسفة الحية، ويدرج القطار من دون حادث يعرض له خلال الليل، ولكن في فرانكفورت فحسب يقتحمه فجأة جنود ألمان كانوا قد سمعوا برحلة عبور الثوريين الروس، وذات مرة تُرْفَض محاولة من قبل الديمقراطيين الاجتماعيين الألمان للتفاهم مع المسافرين، ولينين يعرف بلا ريب ماهية الشبهة التي يُعَرِّضُ نفسه لها إذا ما تبادل كلمة واحدة مع ألماني على الأرض الألمانية، وفي السويد تُؤدّى لهم التحية بصورة احتفالية، وينقضّون على مائدة الإفطار السويدية التي يبدو لهم جهاز «السمورْغاز - smorgas» فيها كأعجوبة لا تصدق، وقد بلغ منهم الجوع ما بلغ، ثم يضطر لينين إلى أن يوعز بأن يُشترى له حذاء بدلاً من الجزمة الجبلية،

ذات الوقع الثقيل على البصر، وأن تُشْترى له بعض الملابس، وأخيراً يبلغون الحدود الروسية.

القذيفة تضرب ضربتها

على أن اللفتة الأولى للينين على الأرض الروسية لها سمتها المميِّزة: فهو لا يرى البشر فرداً فرداً، بل يرمي بنفسه قبل كل شيء على الجرائد، لقد مضى عليه أربعة عشر عاماً لم يكن فيها في روسيا، ولم ير الأرض، ولا عَلَم البلاد وحُلّة الجند، غير أنّ هذا الإيديولوجي الحديدي لا ينفجر بالدموع، شأن الآخرين، ولا يعانق، كالنساء، الجند المفاجَئِين الذين لا يدرون شيئاً، الجرائد، الجرائد أولاً، فلينظر في البراڤدا، ليفحصها ويرى هل تلتزم بالموقف الدولي التزاماً فيه من التصميم ما يكفي، ويكوِّر الجريدة في يده بغضب، كلا، ليس بالقدر الكافي، مازالت هي الوطنية المزعومة، دائماً، وما زالت هي النزعة الوطنية، وما زال هذا بعيداً عن الثورة المحضة بالمعنى الموجود عنده، وهو يشعر أن قد آن الأوان لانتزاع دفة الحكم ولطرح فكرة حياته فإما الانتصار وإما الهلاك. ولكن هل ينتهي إلى هذا؟ إنه الاضطراب الأخير، والفزع الأخير. ألَن يوعز ميليوكوف على الفور، في بيتروغراد، كما كانت المدينة مازالت تسمى في تلك الأيام، ولكن لن تظل كذلك زمناً طويلاً، فيظهرون ابتسامة تلفت النظر وتنطوي على الأسرار في القِسْمِ المظلم العائد إلى الدرجة الثالثة، والذي يضاء إضاءة غير ثابتة بفعل ضوء باهت وهم لا يجيبون أو لا يريدون أن يجيبوا.

ولكن الجواب يكون عندئذ جواباً خارقاً، يعبِّر عن الواقع، فحين

يدخل القطار المحطة الفنلندية يكون الميدان الهائل طافحاً بعشرات الألوف من العمال، وحرس الشرف من كل أنواع الأسلحة، في انتظار العائد إلى وطنه من المنفى، وتُدَوِّي أصوات الأممية الدولية، وحين يخرج ڤلاديمير إيليتش أوليانوف الآن، تتلقَّف الرجل، الذي كان، حتى منذ أول أمس، يسكن عند الإسكافي، مئات الأيدي، ويُرْفع على سيارة مدرَّعة وتُوَجَّه عاكسات الضوء من المنازل ومن الصحن، إليه، ومن المدرعة يوجه إلى الشعب أول خطبة له، وتتزلزل الشوارع، وسرعان ما تكون قد بدأت «الأيام العشر» التي تهزُّ العالم، وكانت القذيفة قد ضربت ضربتها وحطَّمت مملكة، وعالماً.

شيشرون

أحْكَمُ ما يستطيع أن يفعله رجل ذكي وليس بكثيرٍ من الشجاعة، إذا ما واجه، رجلاً أقوى، أن يتحاشاه ويتربَّص به الدوائر، إلى أن يخلو الطريق له، هو، من جديد، وقد عمل ماركوس توليوس شيشرون، أول صاحب نزعة إنسانية في الامبراطورية الرومانية، وأستاذ البلاغة، والمدافع عن القانون، طوال ثلاثة عقود من الزمان، جاهداً في خدمة القانون الموروث، ومن أجل الحفاظ على الجمهورية، وخطبه منقوشة بالإزميل في الحوليات التاريخية، وأعماله الأدبية في الأحجار المربعة للّغة اللاتينية، وناصب الفوضى لعداء في كاتيلينا، والفساد في ڤيرّيس، وتهديد الديكتاتورية في الجنرالات المُظفَّرين، ويعد كتابه «Dere Publica - في النظام العام»، في إطار عصره، القانون الأخلاقي لشكل الدولة المثالي. ولكن جاء الآن رجل أقوى، هو يوليوس قيصر، الذي شجعه بحكم كونه الأكبر سِنّاً والأكثر شهرة، من دون أن يسيء به الظن أول الأمر، وقد جعل هذا من نفسه، بفرقه في بلاد الغال، سيد إيطاليا، وبحكم كونه آمراً غير محدود السلطة، للقوة العسكرية، لم يكن يحتاج إلاّ إلى أن يمدّ يده لكي يمسك بتاج الملك، الذي قدَّمه إليه أنطونيوس أمام الجمهور المحتشد، وعبثاً كان شيشرون يقاوم انفراد

قيصر بالسلطة، بمجرد أن تجاوز هذا حدود القانون بعبوره نهر الروبيكون في الوقت ذاته، وعبثاً يحاول أن يستصرخ آخر المدافعين عن الحرية ضد المغتصب، ولكن فصائل الجيش الروماني كانت تثبت، شأنها دائماً، أنها أقوى من الكلمات، وكان قيصر، الذي هو إنسان الفكر وإنسان الفعل، قد انتصر انتصاراً كاملاً ناجزاً، ولو كان مولعاً بالانتقام، شأن معظم الطغاة لكان في وسعه الآن، بعد انتصاره الساحق، أن يتخلّص من هذا المدافع العنيد عن القانون، ببساطة، أو يهدر دمه ومع ذلك فيوليوس قيصر يولي سماحته وكرمه بعد النصر من الشرف أكثر مما يولي كل انتصاراته العسكرية، فهو يهب لشيشرون، الخصم الذي فرغ منه، من دون أي محاولة للإذلال، حياته، وينبهه فحسب إلى وجوب الانسحاب من المسرح السياسي الذي بات الآن يعود إليه وحده، ولا يظل مقسوماً لأي امرئ آخر إلا دور الكومبارس الصامت والمطيع.

على أنه ما من شيء يمكن أن يحدث لإنسان من أهل الفكر يكون أكثر انطواءاً على السعادة من استبعاده من الحياة العامة السياسية، إذ يخرج المفكر، الفنان، من جَوِّه غير اللائق الذي لا يمكن التمكُّن منه إلا بالفظاظة أو المكر والخبث، عائداً إلى جوِّه الداخلي الذي لا سبيل إلى المساس به أو إفساده. وكل شكل من أشكال النفي يتحول بالقياس إلى إنسان من أهل الفكر إلى حافز للتركيز والتجميع الداخلي، وشيشرون يلقى هذه المصيبة المباركة في أفضل اللحظات وأَحْفَلِها بالسعادة. وذلك أن الجَدَليَّ الكبير يدنو، شيئاً فشيئاً، من نقطة التحول في حياة لم تفسح له، بما حَفَلَتْ به من هبوب العواصف المستمر، وأشكال التوتُّر المتواصلة، إلاّ القليلَ من الوقت للنظرة الشاملة الإبداعيــة، فَلَكَمْ وكم، من

المتناقضات خاض ابن الستين حَولاً في مجال ضيِّق من عصره! وبالصلابة، واللباقة، والتفوُّق الفكري وصل هذا الوُصولي، وهو يتقدَّم ويزحف، ويظفر ببغيته بشق النفس، بالتسلسل والدَّوْر، إلى كل المراكز والمواقع المُشَرِّفة، التي كان يُرَدُّ عنها في العادة إنسان غير ذي شأن، من أهل الريف، ويُحْتَفَظُ بها، بأسلوب ينطوي على الغيرة، للطغمة المنتمية إلى النبلاء وحدها، ولقد خَبَر أعلى المراكز العالية وأدنى دَرْكٍ في المراكز المتَهَنة في مضمار الخُطْوَة العامة، إذ كان يُرْتَقى به، وهو منتصر بعد ضرب كاتيلينا، على درجات الكابيتول، ويتوجه الشعب بالأكاليل، ويُشرِّفه مجلس الشيوخ باللقب المجيد، لقب «أبو الوطن» (Pater Pa-triae)، واضطر، من ناحية أخرى، بين عشية وضحاها، إلى أن يهرب إلى المنفى، إذ أدانه مجلس الشيوخ نفسه، وتخلَّى عنه الشعب نفسه، وما من منصب لم يعمل فيه، وما من مرتبة لم يُحْرِزها بفضل استحالة إصابته بالكلل. فقد خاض الدعاوى في المحكمة، وقاد الفرق في الميدان وهو عسكري، وتولى إدارة الجمهورية قنصلاً، كما تولى إدارة الأقاليم قنصلاً أول، وتصرَّف في الملايين من السيسترسات(*)، وتحولت الملايين منها على يديه إلى ديون، وامتلك أجمل منزل في البالاتين (Palatin)، ورآه وقد تحوَّل إلى أنقاض، إذ أحرقه ودمَّره أعداؤه، وكتب مقالات جديرة بالخلود، وألقى خطباً كلاسيكية، وأنجب أولاداً وفقد أولاداً، وكان شجاعاً وضعيفاً، وكان عنيداً صعب المراس، وكان مولعاً بالثناء يعبده عبادة، يحظى بالكثير من الإعجاب وبالكثير من الكراهية، وهو شخصية متقلِّبة تقلُّب الطقوس والأنواء، مفعمة بالهشاشة والبريق، وعلى

* - عملة رومانية قديمة . (المترجم) .

وجه الإجمال فهو الشخصية الأكثر جاذبية، والأكثر إثارة، بدورها، في عصره، لأنه يرتبط بكل أحداث هذه السنين الأربعين المترعة، من ماريوس إلى قيصر ارتباطاً لا تنفصم عُراه. أمّا تاريخ العصر، وتاريخ العالم فقد شَهدَهما شيشرون وعاشهما كما لم يشهدهما ولم يعشهما أحدٌ غيره، ولكن لم يَتَبَقَّ له وقت من أجل شيء واحد فحسب، من أجل أهم الأمور قاطبة: وهو النظر في حياته الخاصة، ولم يُتَحْ أبداً لذلك الذي لا يقرُّ له قرار في سكره بالطموح، وقتٌ لِيُرَوِّي النظر في أمر نفسه على نحو هادئ وجيد، ويستجمع جملة معرفته، وتفكيره.

والآن أتيحت له الفرصة، أخيراً، من جرّاء انقلاب قيصر الذي استبعده من النظام العام (من شؤون الدولة)، ليرعى هذه الشؤون الخاصة (res privata)، وهي أهم ما في العالم، رعاية مثمرة، ويدع شيشرون، متخلّياً، معتزلاً، المحكمة، والامبراطورية والطغيان، ليوليوس قيصر، وتأخذ كراهية لكل ما يتصل بالنظام العام في الاستحواذ على الرجل المصدود المنبوذ، فهو يتخلى ويعتزل، وليتولّ الآخرون الدفاع عن حقوق الشعب الذي تعد مبارزات المتصارعين والألعاب عنده أهم من حريته، أما هو فقد بات من الواجب عليه، الآن، من باب أولى، أن يبحث عن حريته الخاصة، الحرية الداخلية، ويعثر عليها ويصوغها. وهكذا ينظر ماركوس توليوس شيشرون أول مرة في نفسه متفكّراً، وهو في عامه الستين، بهدوء وسكينة، لكي يثبت للعالم من أجل ماذا كان يعمل ويعيش.

وبصفته الفنّان الوليد، الذي لم يخرج من عالم الكتب وينغمس في عالم السياسة السريع العطب إلاّ بطريق السهو، يحاول ماركوس توليوس شيشرون أن يصوغ حياته في إطار رؤية واضحة وبما يتلاءم مع سِنّه

وأعمق ميوله، فهو يهجر روما، الحاضِرة الصاخبة، عائداً إلى توسكولوم، وهي فراسكاتي الحالية، ويجعل بذلك منظراً من أجمل المناظر الطبيعية في إيطاليا يُحْدِق ببيته. وفي أمواج لطيفة، تغشاها الغابات حتى تَدلّهِمّ، تفيض التلال والروابي هابطة إلى كامبانيا، وبإيقاع فضيٍّ تصدر الينابيع موسيقاها في السكون المُتَفرِّد. وبعد كل السنين التي قضاها في السوق، وفي المحكمة، وفي الخيمة الحربية، وعربات السفر تتفتّح للمتفكّرِ المبدع أخيراً نفسُه على مِصْراعَيْها. أما المدينة، المُغْوِية، والمُرْهِقة، فبعيدة كمجرد دخان عند الأفق، وهي مع ذلك قريبة بما يكفي لكي يأتي الأصدقاء مراراً لحوار يستثير الفكر، ومنهم أتيكوس الذي يثق به في قرارة نفسه، أوبروتوس الشاب، أو كاسيوس الشاب، بل يأتي ذات مرة – وياله من ضيف خطير! – إنه الدكتاتور الكبير ذاته، يوليوس قيصر. ولكن إذا تخلّف الأصدقاء الرومان فهناك دائماً آخرون يحلّون محلّهم، رفاق رائعون، لا يخيِّبون الأمل أبداً، مستعدون للصمت وللحديث على السواء: إنهم الكتب. وإنها لمكتبة رائعة، خَلِيّةٌ للعلم لا تنضب، حقاً، ينشئها ماركوس توليوس شيشرون في بيته الريفي، يَرْصُف فيها كتب حكماء الإغريق إلى جانب الحوليات الرومانية، ومجموعات القوانين. وبأمثال هؤلاء الأصدقاء من كل العصور، وكل اللغات لا يمكن لأمسية بعدُ أن تتسم بالوحدة أو العزلة. أما الصباح فللعمل. فالعبد المثقف هو دائماً في انتظار الإملاء، مطيعاً. وعند وجبات الطعام تقصِّر عليه ابنته توليا، التي يحبها من أعماق قلبه، الساعات، على أن تربية الولد تعود عليه في كل يوم بحافز جديد أو تجديد، ثم تأتي بعد هذا، الحكمة الأخيرة، وذلك أن ابن الستين يرتكب

أيضاً أعلى هَفَوات الشيخوخة، إذ يتخذ لنفسه زوجة صبيّة، أصغر من ابنته، ليستمتع بالجمال، بحكم كونه فنان الحياة، حتى في أكثر صورة حسِّيةً وسحراً، بدلاً من الاستمتاع به في صورة المرمر أو الشعر.

وبهذه الصورة يبدو ماركوس توليوس شيشرون وقد ثاب إلى نفسه في عامه الستين، أخيراً، لقد ازداد فلسفة فحسب وما عاد ديماغوجياً (يتملَّق الشعب)، وبات كاتباً وما عاد من أهل البلاغة، وأصبح سيد وقته الخالي وما عاد خادماً يعمل ابتغاء الظفر بالحُظْوة عند الشعب، وبدلاً من أن يفيض في الإلحاح على القضاة الذين يمكن رشوتهم في السوق، يُفَضِّل أن يُدَوِّن جوهر فن الخطابة في كتابه «حول الخطيب: De oratore»، ليكون أنموذجاً لكل مُقَلِّديه، ويحاول، في الوقت ذاته، في مقالته «في الشيخوخة» [Cato ma ior de senectute] (كاتو، الأكبر سنّاً، حول الشيخوخة) أن يعلِّم نفسه أن الحكيم الحق يجب أن يتعلَّم أن الكرامة الحقيقية للشيخوخة وسنينها تتمثل في تعلُّم التسليم بالأمر الواقع والتكيُّف معه، على أن أجمل رسائله وأكثرها تناسقاً وانسجاماً تعود إلى تلك الحقبة الخاصة باستجماع شتات النفس من الداخل، وحتى عندما تُلِمُّ به مصيبة ساحقة، وهي موت ابنته المحبوبة، توليا، يسعفه فنه الخاص بالكرامة من الوجهة الفلسفية: فيكتب تلك «التعزيات» التي مازالت حتى اليوم تُعَزِّي، على مدى القرون، آلافاً ممن واجهوا المصير ذاته، ولا يدين العالم من بعده بالكاتب الكبير إلاّ للمنفى، إذ يتمثل هذا الكاتب في الخطيب المنهمك في عمله في سالف الأيام. فخلال هذه السنوات الثلاث الساكنة يبدع من أجل عمله وشهرته اللاحقة أكثر مما أبدع قبل ذلك في السنوات الثلاثين التي كَرَّسَها، بأسلوب

ينطوي على البعثرة والتبديد، لكتاب res publica (أي: في شؤون الدولة).

وتبدو حياته وقد أصبحت حياة فيلسوف. أما الأخبار اليومية والرسائل القادمة من روما فلا يكاد يَحْفِل بها، وقد بات أقرب إلى أن يكون مواطناً في تلك الجمهورية الخالدة، جمهورية الفكر، منه إلى أن يكون مواطناً في دولة الطغيان التي ذهب قيصر برجولتها. لقد حظي معلم القانون الأرضي أخيراً، بالسرِّ المرير الذي لابُدَّ لكل امرئ يعمل في الحياة العامة أن يطّلع عليه آخر الأمر، وهو أنَّ المرء لا يستطيع أبداً، على المدى الطويل، أن يدافع عن حرية الجماهير، بل لا يدافع، دائماً، إلاّ عن حريته الخاصة، حرية سريرة النفس.

وهكذا يقضي المواطن العالمي، والإنساني، والفيلسوف، ماركوس توليوس شيشرون، صيفاً مباركاً، وخريفاً إبداعياً، وشتاءً إيطالياً، بعيداً، - وكما يقول: بعيداً إلى الأبد - عمّا هو زمني، وعن الممارسة السياسية. أمّا الأخبار اليومية والرسائل القادمة من روما فلا يكاد يحفل بها، غير آبهٍ بلعبة ما عاد في حاجة إلى أن يكون فيها شريكاً، ويبدو وكأنه قد بَرِئ من استمتاع الأديب بالحياة العامة، كل البُرْء، وما عاد إلا مواطناً أقرب إلى الانتماء إلى الجمهورية غير المرئية، إذ ما عاد ينتمي إلى تلك الجمهورية المخرَّبة والمغتصبة التي خضعت للإرهاب بلا مقاومة. وإذا رسول يقتحم المنزل ذات ظهر يوم من آذار، قد علاه الغبار، وقد أخذت رئتاه تخفقان بأنفاسهما، وينهي إليه النبأ بشقّ النفس: لقد قتل يوليوس قيصر، الدكتاتور، في سوق روما، ثم يهوي إلى الأرض.

وينتاب شيشرون الشحوب. لقد قعد، قبل أسابيع، مع المنتصر

السَّمْح، إلى المائدة ذاتها، ومهما يكن موقفه في خصومته لهذا المتفوِّق تفوُّقاً خطيراً، ومهما تكن نظرته إلى انتصاراته العسكرية مشوبة بسوء الظن، فقد كان مع ذلك مضطراً إلى أن يقدِّر في سريرة نفسه هذا الفكر المستقل، والعبقرية التنظيمية، وإنسانية هذا العدوّ الوحيد الجدير بالاحترام. ولكن مع كل فزعه من الحجة المبتذلة عند جمهور القتلة، ألم يرتكب هذا الرجل، يوليوس قيصر، مع كل خصاله وإنجازاته، أكثر أنواع القتل جدارة باللعنة، وهو قتل ابن الوطن لوطنه؟ ألم تكن عبقريته ذاتها تشكِّل أخطر الأخطار على الحرية الرومانية؟ ولئن كان موت هذا الرجل جديراً بالأسف من الوجهة الإنسانية فإن فِعْلَة السوء هذه ستكون في صالح انتصار القضية المقدسة، لأن الجمهورية بات في وسعها أن تنهض قائمة من جديد بعد أن مات قيصر، فبهذا الموت تنتصر الفِكْرَةُ الأكثر سُمُوّاً، فكرة الحرية.

وهكذا يتغلَّب شيشرون على فزعه الأول، فهو لم يُرد هذه الفعلة التي تنطوي على الضغينة والحقد، وربما لم يصل به الأمر حتى إلى مجرد أن يجرؤ على الرغبة فيها في منامه، الأكثر سِرِّية. ولم يكن بروتس وكاسيوس قد أطْلَعا شيشرون على المؤامرة على الرغم من أن بروتس، نادى باسمه، أي باسم شيشرون بينما كان ينتزع الخنجر الدامي من صدر قيصر، وبذلك كان يستحضر معلم التفكير الجمهوري ليكون شاهداً على عمله، ولكن الآن، بعد أن حدثت الفعلة وما عاد من الممكن استدراك الأمر، بات من الواجب أن يتم استخدامها لصالح الجمهورية على الأقل، ويتبَيَّن لشيشرون: أن الطريق إلى الحرية الرومانية القديمة يمرُّ من فوق هذه الجثة الملكية، ومن الواجب أن يتمّ توجيه الآخرين إلى هذا الطريق، ولا

يجوز إهدار مثل هذه اللحظة الفريدة، وحتى في اليوم ذاته يترك ماركوس تولّيوس شيشرون كتبه، ورسائله، وكتاب التبصُّر المقدس للفنان. وفي سرعة يخفق فيها القلب يُهْرَع إلى روما لكي ينقذ الجمهورية بحكم كونها الوريث الحقيقي لقيصر، من قتلته ومن المنتقمين له على حد سواء.

وفي روما يقع شيشرون على مدينة مشوَّشة مضطربة، مذهولة متحيِّرة، وقد ثبت منذ ساعة حَدَثِها أن فعلة قتل يوليوس قيصر أكبر من فاعليها. أما قتل يوليوس قيصر، والتخلُّص منه فحسب، فذلك ما عرف رهطُ أخلاط المتآمرين به منهم الرجلَ المتفوِّق عليهم جميعاً، ولكن الآن، إذ بات من الواجب استغلال هذه الفعلة، يقفون حائرين ولا يدرون بم يبدأون. أما أعضاء الشيوخ فيتذبذبون في مسألة هل يوافقون على القتل أم ينبغي لهم أن يدينوه، وأما الشعب الذي اعتاد منذ عهد بعيد أن ينقاد لإرادة يدٍ لا ترجو لشيء وقاراً، فلا يجرؤ على إبداء رأي، وأما أنطونيوس وأصدقاء قيصر الآخرون فيخافون من المتآمرين ويرتعدون فَرَقاً على حياتهم، على أن المتآمرين يخافون، بدورهم، من أصدقاء قيصر وانتقامهم.

وفي غمرة هذا الذهول العام يثبت شيشرون أنه الوحيد الذي يكشف عن عزم وتصميم. ويعمد، وهو المتردد والوَجِل في العادة، كشأن أهل الفكر والأعصاب دائماً، إلى وضع نفسه وراء الفعِلة التي لم يكن له، هو نفسه، نصيب فيها، ويظهر منتصب القامة على البلاط الذي مازال مخضَّباً بدم القتيل، ويشيد، أمام مجلس الشيوخ المجتمع، بالتخلُّص من القتيل، بحكم كون هذا انتصاراً للفكرة الجمهورية: وينادي قائلاً: «أي بني شعبي، ها أنتم أولاءِ تعودون إلى الحرية مرة أخرى! لقد أنجزتما أنتما

يا بروتس وكاسيوس، أَجَلّ المآثر، لا من أجل روما فحسب، بل من أجل العالم كله»، غير أنه يطالب في الوقت نفسه بأن يُضْفى على هذا العمل، الذي هو في حد ذاته عملية قتل، معناه الأسمى، ويقول إن المتآمرين ينبغي لهم أن يمسكوا بقوة بزمام السلطة التي تنهار بعد موت قيصر، وأن يستفيدوا من هذه السلطة بأسرع ما يمكن من أجل إنقاذ الجمهورية، لإعادة توطيد دعائم الدستور الروماني القديم. ويقول إنه ينبغي أن ينتزع منصب القنصل من أنطونيوس، وأن يُعْهَد إلى بروتوس وكاسيوس بالسلطة التنفيذية، ولأول مرة يضطر رجل القانون، مدة ساعة وجيزة في تاريخ العالم إلى خرق القانون الجامد ليفرض ديكتاتورية الحرية، إلى الأبد.

ولكن هنا يتبيّن ضعف المتآمرين، فهم لا يستطيعون سوى أن يدبِّروا مؤامرة، وأن يقدموا على عملية قتل، وليس لديهم من القدرة إلاّ ما يُمَكِّنهم أن يغمدوا خناجرهم خمس بوصات في جسد امرئ لا يملك وسائل الدفاع عن نفسه: وبذلك يكون حزمُهم وعزمهم قد وصل إلى نهايته، وبدلاً من أن يمسكوا بزمام السلطة ويستغلوها لإعادة توطيد نظام الجمهورية، يعملون جاهدين من أجل العفو الرخيص ويتقاضون مع أنطونيوس، ويفسحون لأصدقاء قيصر وقتاً ليتجمَّعوا، ويفوِّتون بذلك أغلى الأوقات، ويدرك شيشرون الخطر برؤيته الواضحة، ويلاحظ أن أنطونيوس يُحَضِّر لضربة مضادة يفترض أن لا تقضي على المتآمرين فحسب، بل على الفكرة الجمهورية أيضاً، فيحذِّر ويثير الهم، ويهيّج الخواطر، ويتحدث ليرغم المتآمرين، والشعب، على تصرُّف حازم، ولكن، وياله من خطأ في تاريخ العالم! - لا يتصرَّف هو نفسه. وكل

الإمكانيات مفتوحة الآن بين يديه، أمّا مجلس الشيوخ فمستعد لتأييده، وأما الشعب فلا ينتظر في الحقيقة إلا واحداً يمسك بحزم وعزم وجرأة، بالأعِنة التي أفلتت من يَدَيْ قيصر القويتين، وما كان أحد ليقاوم لو أنه أمسك الآن بزمام الحكم ووطّد النظام في غمرة العماء، ولتنفس القوم جميعاً الصُّعَداء.

وها هي ذي ساعة ماركوس توليوس شيشرون في تاريخ العالم، التي ظل يشتاق إليها شوقاً لاهباً منذ خُطَبِه في كاتيلينا قد أقبلت أخيراً مع يوم مقتل قيصر، ولو أنه عرف كيف يستغلها لكُنا جميعاً خليقين أن نتعلم في مدارسنا تاريخاً غير هذا الذي تعلمنا، ولَكان اسم شيشرون خليقاً أن لا يُنْقَل إلينا في صورة مجرد اسم كاتب مرموق السمعة، بل في صورة اسم منقِذ الجمهورية، والملاك الحارس الحقيقي للحرية الرومانية في حوليات ليڤيوس وبلوتارك، ولكان له المجد الخالد المتمثل في أنه تقلّد سلطة دكتاتور وردّها من جديد، طائعاً مختاراً، إلى الشعب.

ولكن ما تفتأ تتردّد في التاريخ التراجيديا المتمثلة في أن إنسان الفكر على وجه الخصوص قَلّما يتحوّل، في الساعة الفاصلة، إلى إنسان الفعل، لأنه مُثْقَل بعبء المسؤولية في قرارة نفسه، وما يفتأ يتجدد الفصام نفسه في الإنسان المفكر، المبدع: فلأنه يرى حماقات العصر رؤية أفضل يُلِحّ عليه دافع التدخُّل، ولمدة ساعة من ساعات الحماسة يزجُّ بنفسه بحماسة طاغية في المعترك السياسيّ، ولكنه يتردد في الوقت نفسه أيضاً، في الرد على العنف بالعنف، وذلك أن شعوره الباطني بالمسؤولية يردعه عن ممارسة الإرهاب وسفك الدماء، وهذا التردد والنظر في العواقب، على وجه الخصوص في تلك اللحظة الوحيدة التي لا تبيح

اللامبالاة فحسب، بل تقتضيها اقتضاءاً، يشلاًن قوته. فبعد الدافع الأول من دوافع الحماسة ينظر شيشرون بوضوحٍ رؤيةٍ خطير، في الموقف، فينظر إلى المتآمرين الذين كان يشيد بهم بالأمس بعدُ على أنهم أبطال، ويرى أنهم ليسوا إلا أناساً ضعاف النفوس، يهربون من ظل فعلتهم هو، وينظر إلى الشعب فيرى أنه ما عاد، منذ زمن بعيد، الشعب الروماني الأصيل «populus romanus»، ذلك الشعب البطولي الذي كان يحلم به، بل هو كتلة من الغوغاء المنحطين الذين لا يحفلون إلاّ بالمزيّة والمتعة، بالعلف واللعب. بالخبز وألعاب السيرك «panem et circenses»، فهو يهتف في هذا اليوم لبروتوس وكاسيوس، القاتليْن، وفي اليوم التالي يهتف لأنطونيوس الذي ينادي بالانتقام منهم، وفي اليوم الثالث يهتف من جديد لدونابيلا الذي يوعز بتحطيم صور قيصر. ويدرك أنه ما من أحد، في هذه المدينة المنحطة، ما زال يخدم بصدق، فكرة الحرية، وهم جميعاً يريدونها مجرد سلطة أو راحة لهم: عبثاً تخلصوا من قيصر، لأنهم لا يتوسّلون، ولا يتاجرون، ولا يتخاصمون، جميعاً، إلاّ من أجل سلطته، وهم لا يلتمسون المزايا والمكاسب إلاّ من أجل أنفسهم، لا من أجل المقدس الوحيد، وهو القضية الرومانية.

ويزداد شيشرون إرهاقاً، وشَكّاً في هذين الأسبوعين بعد الحماسة المتسرِّعة. فما من أحد سواه، هو، يحفل بإعادة إقامة الجمهورية، لقد خبا أُوار الشعور الوطني، والشعور بالحرية، وولّى الأدبار تماماً، وأخيراً يستحوذ عليه الاشمئزاز من هذه الجَلَبة ذات الكدر فما عاد يستطيع بعدُ أن يستسلم لخداع النفس فيما يتصل بعجز كلمته، ولابدّ له، بالنظر إلى إخفاقه، أن يعترف بأن دور التصالحيّ [القائم على الموازنة] قد انتهى،

وأنه إمّا أن يكون مفرطاً في الضعف وإما أن يكون مفرطاً في الجبن بحيث لا يتمكن من إنقاذ وطنه من الحرب الأهلية التي تهدده، فيدعه إلى مصيره. وفي مستهل نيسان يغادر روما ويعود أدراجه - مخيَّب الأمل مراراً، مهزوماً مراراً - إلى كتبه، في بيته الريفي المنعزل، في بوتيولي عند خليج نابولي.

وللمرة الثانية يهرب ماركوس تولّيوس شيشرون من العالم إلى عزلته، والآن بات يعي بصورة نهائية أنه كان في غير موضعه المناسب من حيث كونه مثقفاً، وإنسانياً، وحامياً للقانون، منذ البداية، في جو تعد القوة فيه هي القانون، ويشجع اللامبالاة بالروادع أكثر مما يشجع الحكمة والنهج التصالحي. ويضطر إلى أن يتبيّن وقد زلزله ذلك، أن جمهوريته تلك المثالية، كما كان يحلم بها من أجل وطنه، وانبعاث الأخلاقية الرومانية القديمة أمر ما عاد يمكن تحقيقه في هذا العصر الذي أدركه الوهن والتخاذل، ولكن لمّا كان عجز عن إنجاز العمل الإنقاذي في مادة الواقع الجامحة الشامسة، بنفسه، فهو يريد، على الأقل، أن ينقذ حلمه بعالم لاحق أكثر حكمة، ولا ينبغي للجهود والمعارف التي أتيحت لعمر بلغ الستين، أن تضيع كل الضياع من دون أن يكون لها أثر، وهكذا يفكر ذلك الذي تعرَّض للإذلال في قوته الحقيقية، ويؤلف في أيام العزلة هذه عمله الأخير الذي هو في الوقت ذاته أكبر أعماله ليكون بمثابة تفويض للأجيال الأخرى، وهو كتاب «De officiis»، أي نظرية الواجبات التي يترتب على الإنسان المستقل، الأخلاقي أن يؤديها حيال نفسه ذاتها وحيال الدولة، وهو يعد وصيته السياسية، والأخلاقية التي يدوِّنها ماركوس توليوس شيشرون في خريف عام ٤٤، وفي الوقت ذاته، في خريف حياته، في بوتيولي.

أمّا أنّ هذا البحث في العلاقة بين الفرد والدولة وصية، وهو الكلمة النهائية لإنسانٍ مستقل هجر كل العواطف والأهواء المتصلة بالحياة العامة، فذلك ما يثبته توجُّه الخطاب في هذه الرسالة، فكتاب «الواجبات» موجَّه إلى ولده، وشيشرون يعترف لولده بصراحة، بأنه لم ينسحب من الحياة العامة بسبب لا مبالاته، بل لأنه يرى أن مما ينتقص من كرامته وشرفه، بحكم كونه من أهل الفكر الحر، ومن الرومان الجمهوريين، أن يخدم دكتاتورية. «لقد كنت أكرِّس طاقتي وأفكاري للدولة مادامت الدولة تدار من قِبَل رجال اختارتهم بنفسها، ولكن منذ أن بات كل شيء خاضعاً لحكم الفرد (dominatio unius) ما عاد هناك، مجال لخدمة عامة أو لسلطة عامة، ومنذ أن ألغي مجلس الشيوخ، وأغلقت المحاكم ماذا بقي له مما يبحث عنه هنا، مع شيء من احترام المرء لنفسه، بعدُ، في مجلس الشيوخ أو في السوق؟ ويقول: إن النشاط السياسي كان حتى الآن يستغرق وقته الخاص إلى حد بعيد «Scriberdi otium mon erat» [لم يُتَحْ للكاتب وقت فراغ]، ولم يستطع أبداً أن يدوِّن نظرته إلى العالم في صورة متكاملة، ولكن الآن، حين اضطر إلى البطالة، أراد أن يستغلها على الأقل، بمعنى الكلمة العظيمة لسيبيو (Scipio) الذي كان قال عن نفسه، إنه «لم يكن قطُّ أكثر نشاطاً من حاله حين لا يكون لديه ما يعمله، ولم يكن أبداً أقل وحدة وعزلة مما يكون عليه حاله حين يخلو إلى نفسه».

وهذه الأفكار حول علاقة الفرد بالدولة، التي يطوِّرها ماركوس توليوس شيشرون لولده الآن ليست جديدة ولا أصيلة، من وجوه متعددة، فهي تربط المقروء بالمسموع فيما عدا ذلك: وحتى في سن الستين لا

يتحوَّل الجَدَليّ فجأة إلى شاعر، ولا يتحوَّل الجمّاع إلى مبدع أصيل، ولكن آراء شيشرون تكتسب هذه المرة لهجة رهيبة جديدة من جرّاء الإيقاع الذي تُحَلِّق به، إيقاع الحزن والأسى والمرارة. ففي غمار حروب أهلية دامية، وفي وسط عصر كانت فيه ثُلَل الأهماج من الحرس الشخصي للامبراطور وعصابات الحزب تتصارع من أجل السلطة، يحكم فكرٌ إنسانيٌّ حق، مرة أخرى - كما هو شأن الأفراد دائماً في أمثال هذه العصور - الحلم الأبدي في توطيد السلام في العالم عن طريق المعرفة الأخلاقية والتصالح. فالعدالة والقانون، هذان وحدهما ينبغي لهما أن يكونا الأعمدة الأساسية الفولاذية للدولة. ولابدّ أن يتقلّد السلطة أولئك الذين ينطقون بما في سرائر نفوسهم، لا الديماغوجيون (الذين يتملّقون الشعب) وبذلك يحافظون على القانون في الدولة. ويقول إنه لا يجوز لأحد أن يحاول أن يفرض إرادته الشخصية على الشعب ويفرض بذلك تعسُّفه واستبداده وإنه من الواجب رفض طاعة كلٍّ من هؤلاء الطموحين الذين ينتزعون زمام القيادة من الشعب "hoc omne genus pestife-ram acque inpium"، ويرفض، بمرارة، بحكم كونه مستقلاً لا تلين قناتُهُ، كل مجتمع فيه دكتاتور، وكل خدمة في ظله: "Nulla est enim societas nofis cum tynannis et potius summa distractio est" ويجادل بقوله إن حكم العنف يغتصب كل حق، ولا يمكن للانسجام الحقيقي أن ينشأ في جماعة إلا عندما يضع الفرد مصالحه الخاصة وراء مصالح المجتمع، بدلاً من أن يحاول أن يجني من مركزه العام مزيّة شخصية، ولا يمكن أن تَبْرأ الجماعة من المرض إلا عندما لا تتبدَّد الثروة بالترف والبعثرة والهَدْر، بل تتم إدارتها وتحويلها إلى ثقافة فكرية

وفنية، وإلا عندما تتخلى الارستقراطية عن كبريائها، وإلا عندما يطالب عامة الناس بحقوقهم الطبيعية بدلاً من الارتشاء من قبل الديماغوجيين (متملّقي الشعب)، وبيع الدولة لحزب من الأحزاب. وبحكم كون شيشرون ممن يتحدث بالثناء على الوسط، شأن كل الإنسانيين، يطالب بإجراء تسوية بين المتناقضات. فروما لا تحتاج إلى أناس من أمثال سُلاّ ولا إلى أناس من أمثال قيصر، ولا تحتاج، من ناحية أخرى، إلى أناس مثل جراكشي (Gracche). فالدكتاتورية خطيرة، وكذلك الثورة.

وكثيرٌ مما يقوله شيشرون كان من الممكن العثور عليه قبل ذلك في مجال دولة أفلاطون ويُقْرَأ، مرة أخرى، عند جان جاك روسو وعند كل الطوباويين المثاليين، غير أن ما يرفع وصيته هذه فوق عصره إلى هذا الحد المدهش هو ذلك الشعور الجديد الذي يتمّ التعبير عنه هنا، لأول مرة، قبل المسيحية بنصف قرن: الشعور بالإنسانية. ففي حقبة القسوة المتناهية في فظاظتها، حيث يوعز، حتى رجل مثل قيصر، عند غزو إحدى المدن، بقطع أيدي ألفين من الأسرى بالفؤوس، وحيث يُعَدُّ التعذيب ومبارزات المصارعين، وعمليات الصلب، والذبح، من الأحداث اليومية المفهومة بحكم البدهية، يعد شيشرون أول من يرفع عقيرته بالاحتجاج على كل إساءة استعمال للعنف، وهو الوحيد الذي يفعل هذا، وهو يدين الحرب بحكم كونها طريقة الوحوش، ويدين النزعة العسكرية والإمبريالية عند شعبه هو، واستغلال الأقاليم، ويطالب بأن لا يجري ضَمُّ البلدان إلى الدولة الرومانية إلا عن طريق الثقافة والأخلاق، وأن لا يكون ذلك أبداً عن طريق السيف، وتشتد حماسته ضد نهب المدن، ويطالب - وهو مطلب يعد غير معقول في روما في تلك الأيام - باستعمال الرفق حتى

تجاه أكثر المجرّدين من الحقوق تجريداً، أي تجاه العبيد (adversus infir-mus justitia esse ser vendum). وبنظرة تنبؤية يتنبأ بانحطاط روما من جرّاء النتائج المفرطة في السرعة، لانتصاراتها، وغزواتها للعالم، تلك الغزوات غير الصحية لأنها غزوات عسكرية فحسب. ويقول إنه منذ أن بدأت الأمة، مع سُلاّ، بالحروب، لمجرد الظفر بالغنيمة، ضاعت العدالة في الدولة ذاتها، ويقول إنه كلما اغتصب شعب حرية شعوب أخرى بالعنف يفقد في هذه العملية، في انتقام حافل بالأسرار، مقدرته العجيبة على الانعزال.

وبينما تزحف الفرق، بقيادة القادة الطموحين، إلى بلاد البارثيين وفارس وإلى جرمانيا وبريطانيا، وإلى إسبانيا ومكدونيا في خدمة جنون الامبراطورية العابر الزائل، يرتفع هنا صوت وحيد احتجاجاً على هذا الانتصار الخطير: ذلك لأنه كان يرى ما ينشأ عن البذرة الدموية في حالة حروب الغزو من حصاد أكثر دمويةً بعدُ في الحروب الأهلية، وبالطبع فإن وَلِيَّ أمر الإنسانية، هذا الذي لا حول له ولا طَوْل يناشد ابنه أن يُقَدِّر تعاون البشر (adiumenta honinum) بحكم كونه المَثَل الأعلى والأهمّ. وأخيراً توصَّل هذا الذي لبث زمناً مفرطاً في الطول بلاغيّاً، ومحامياً، وسياسياً، والذي كان يدافع، مقابل المال والشهرة، عن كل قضية صالحة أو خبيثة، بالقدر ذاته من الإخلاص، والذي تهالك حتى على كل منصب، وتوسَّل من أجل الوصول إلى الثروة والشرف العام وإعجاب الشعب واستحسانه، في خريف حياته، توصَّلَ إلى هذه المعرفة الواضحة. وقُبَيْل نهايته يغدو ماركوس توليوس شيشرون، الذي كان حتى الآن، إنسانياً فحسب، المحامي الأول عن البشرية.

وبينما كان شيشرون يقلب النظر، على هذا النحو، في مُعْتَزَلِه الثاني، بهدوء واسترخاء، في مضمون دستور الدولة الأخلاقي وشكله، كانت القلاقل تتنامى في الدولة الرومانية، وكان مجلس الشيوخ، والشعب، لم يفصلا بعدُ في مسألة هل ينبغي الثناء على قتلة قيصر أم ينبغي نفيهم. أما أنطونيوس فيتجهَّز للحرب ضد بروتوس وكاسيوس، وفجأة يظهر مُطالِب جديد بالعرش، هو أوكتاڤيان الذي كان قيصر عيَّنه وريثاً له، وهو يريد الآن أن يتقلَّد الإرث فعلاً، ولم يكد ينزل على البرّ الإيطالي حتى كتب إلى شيشرون ليظفر بمساعدته، ولكن في الوقت ذاته يلتمس منه أنطونيوس المجيء إلى روما، وعلى النحو ذاته يناديه بروتوس وكاسيوس من ميادين حربهما، وكلهم يخطب وُدَّ المدافع الكبير ليدافع عن قضيته، وكلهم يلتمس معلم القانون الشهير لعلَّه يُحَوِّل باطله إلى حق، وهم يلتمسون الإنسان المفكر بدافع من غريزةٍ صائبة، مثلما يفعل ذلك، على نحو دائم، السياسيون الذين يريدون الوصول إلى السلطة، ما داموا لم يَصلوا إليها بعد، يلتمسون هذا الإنسان ليكون لهم ركيزة ومُتَّكأ (ثم لا يلبثون أن يطرحوه جانباً بازدراء). ولو كان شيشرون مازال السياسي المغرور، الطموح، كما كان من قبل، لسمح لنفسه أن يُغَرَّرَ بها.

ولكن شيشرون بات امرءاً ذهب التعب بشطرٍ منه، وذهبت الحكمة منه بالشطر الآخر، وهما شعوران يتشابهان في كثير من الأحيان إلى الحد الذي يشكِّل خطراً، وهو يعلم أنه ما عاد الآن في حاجة حقيقية إلاّ إلى شيء واحد: أن يستكمل عمله، وأن يوطِّد النظام في حياته، والنظام في أفكاره، ومثلما فعل أوديسويس قبل نشيد سيرينا (Sitene)؛

يوصد أذنه الداخلية عن سماع نداءات الحكام المُغْوِية، فلا يستجيب لنداء أنطونيوس، ولا لنداء أوكتافيان، ولا لنداء بروتوس وكاسيوس، ولا يستجيب حتى لنداء مجلس الشيوخ ونداء أصدقائه، بل يكتب، وهو يشعر أنه أقوى في مجال الكلام منه في مجال الفعل، وأذكى وحده، مما يكون عليه وسط رهطٍ من الناس، ويواصل العمل في كتابه وهو يستشعر أن هذا الكتاب سيكون كلمته الوداعية إلى هذا العالم.

ولا يرفع طرفه إلا بعد إنجازِه وصيته هذه، وإنها ليقظة سيئة، فبلاده، وهي وطنه تقف على أبواب حرب أهلية، وقد أتيح لأنطونيوس الذي نهب خزائن قيصر وخزائن المعبد، أن يجمع المرتزقة بالمال المسروق، ولكنه يواجه ثلاثة جيوش، وكل جيش بسلاحه، جيش أوكتافيان، وجيش ليبيدوس، وجيش بروتوس وكاسيوس، لقد فات وقت المصالحة والتوسُّط: والآن لابُدَّ من البتّ في مسألة هل ينبغي أن تحكم روما قيصرية جديدة، بقيادة أنطونيوس، أم ينبغي أن تواصل الجمهورية بقاءها، ولابد لكل امرئ أن يفصل في الأمر في مثل هذه الساعة، وحتى هذا الأكثر حذراً ورَوِيّةً على الإطلاق، والذي كان يبحث أبداً، عن التسوية والموازنة، ويقف موقفاً فوق الأحزاب، أو يتذبذب بينها في تردُّد، حتى ماركوس توليّوس شيشرون، لابُدَّ له أن يحسم أمره نهائياً.

والآن يحدث الشيء الغريب، فمنذ أن أفضى شيشرون بوصيته، أي بكتاب «الواجبات»، إلى ولده، بات كأنما أخذت تواتيه جرأة جديدة. وهو يقول إن مسيرته السياسية، والأدبية، قد اخُتتمتا، وكان قد قال ما يجب أن يقول، وما بقي له ليشهده ما عاد كثيراً، لَقد طعن في السن، وأدّى عمله، ففيم الدفاع هنا عن هذه البقية التي تبعث على الرثاء، ومثلما يفعل

حيوان أرهقته المطاردة، عندما يعلم أن فحول الكلاب التي يستعر عواؤها باتت على مقربة شديدة منه، إذ يلتفت إلى الخلف فجأة، ليُعَجِّل بالنهاية، فيرمي بنفسه على الكلاب المطارِدة، يزجُّ شيشرون بنفسه، بجرأة قاتلة حقيقية، مرة أخرى، في حمأة القتال، وفي موضعه الخطير، وإذا هذا الذي ظل شهوراً، وأعواماً لا يمسك إلاّ بقلم الإردواز الصامت، يمسك بالحربة الصاعقة، حربة الخطابة، ويرمي بها أعداء الجمهورية.

وإنها لمسرحية تهز النفوس هزاً. ففي كانون الأول يقف الرجل الأشيب من جديد في سوق روما، يهيب بالشعب الروماني أن يثبت أنه جدير بشرف الانتماء إلى أجداده ((ille mos virtusque maiorum))، ويُرْعِدُ بأربع عشرة خطبة «فيليّباوية»(*)، مُصْقِعة ضد المغتصب أنطونيوس الذي رفض الامتثال لرغبة مجلس الشيوخ والشعب، وهو يعرف كل المعرفة، الخطر الذي يعنيه التصدي لدكتاتور من دون سلاح بعد أن حشد الدكتاتور حوله فِرَقه التي باتت مستعدة للزحف ومستعدة للقتل، ولكن من أراد أن يدعو الآخرين إلى الجرأة لا تتوفر له المقدرة على الإقناع إلا عندما يثبت هو نفسه هذه الجرأة على نحو أنموذجي، وشيشرون يعلم أنه ليس كما كان بالأمس، يبارز بالكلمات، خاليَ البال، في هذا السوق ذاته، بل وقف هذه المرة حياته من أجل قناعته، ويعترف، في تصميم، من منبره، قائلاً: «لقد كنت أدافع عن الجمهورية وأنا فتى، ولن أتخلى عنها، والآن، إذ بلغت من الكبر عتياً، يسرني أن أكون مستعداً للتضحية بنفسي، حين يكون من الممكن إعادة الحرية إلى

* – هذه صفة من باب التشبيه لهذه الخطب بخطب ديموستين، خطيب أثينا المشهور، ضد الملك فيليب المكدوني. (المترجم).

هذه المدينة بموتي، على أن رغبتي الوحيدة أن أخلّف ورائي، وأنا أموت، الشعب الروماني حُراً، وما من حُظوة أكبر من هذه يمكن أن تنعم عليَّ بها الآلهة الخوالد». ويطالب قائلاً بتوكيد وإلحاح: «الآن ما عاد هناك وقت للتفاوض مع أنطونيوس، ولابدَّ للمرء أن يساند أوكتافيان الذي يمثل قضية الجمهورية على الرغم من أنه وريث قيصر الذي يمتُّ إليه بآصِرة الدم. وما عادت المسألة تتعلق ببشر، بل تتعلق بقضية، هي أقدسُ القضايا -res in extremum adducta disarimen: de libertate decernitur - وقال إن القضية وصلت إلى آخر حَسْمٍ وأقصاه: فهي تدور حول الحرية، ولكن التساؤل عن الموضع الذي يأتي منه التهديد لهذا الملك الذي هو أقدس المتلكات هو المَفْسَدَة الناجمة عن كل تردُّد وهكذا يطالب داعية السلام شيشرون جيوش الجمهورية بالتصدي لجيوش الطغيان، ومثلما يكره تلميذه اللاحق، إراسموس، «الصخب» المتمثل في الحرب الأهلية أكثر مما يكره كل شيء، يقترح هو للبلاد إعلان حالة الطوارئ والانتباه بصدد المغتصب.

وفي هذه الخطب الأربع عشرة يجد شيشرون بالفعل، منذ أن لم يعد محامياً عن قضايا مشكوك فيها، بل بات محامياً عن قضية سامية، كلمات رائعة تَسْتَعِر استعاراً، فهو ينادي مواطنيه قائلاً: «فلتعش الشعوب الأخرى في ظل العبودية، أما نحن الرومان فنأبى هذا» وإذا كنا لا نستطيع أن نظفر بالحرية غلاباً فَدَعونا نموت»، ويقول: إذا وصلت الدولة بالفعل إلى هَوانِها الأخير، فخليق بشعب يحكم العالم كله - mos terrarum gentiusque omium - أن يسلك السلوك الذي يسلكه حتى المصارعون المُسْتَعْبَدون في الحَلَبة: لأنْ يموت المرء رافعاً

محيّاه في وجه العدو خير له من أن يدع العدو يذبحه "Ut cum digni- tate potius cadanus quam eum ignominia serviamus" إذ يؤثر أن يموت شريفاً على أن يخدم مُجَلّلاً بالعار.

ويصغي مجلس الشيوخ وقد تولّته الدهشة، ويصغي الشعب المحتشد إلى هذه الخطب الفيليبّاوية، وربما يقدر بعضهم أن هذا سيكون لآخر مرة، بحيث لا يتاح على مدى القرون النطق بأمثال هذه الكلمات في السوق، وسرعان ما يضطر الناس هناك إلى الاكتفاء بالانحناء انحناءة العبيد أمام التماثيل المرمرية للأمبراطور، ولا يسمح إلاّ بمجرد الهمس من وراء الظهور للمتملقين والأدعياء بدلاً من الكلام الحر السالف في دولة القياصرة، وتستحوذ رِعْدَةٌ على المستمعين، رعدة يتألف شطرٌ منها من الخوف وشطر آخر من الإعجاب بهذا الشيخ الذي يدافع عن حق الجمهورية وحيداً بجرأة يائس، بجرأة من تولاه يأس في قرارة نفسه، ويدافع عن استقلال الإنسان المفكر، ويوافقون على ما يقول، متردِّدين، ولكن حتى حريق الكلمات ما عاد يستطيع أن يشعل جذع شجرة الكبرياء الروماني الذي أصابه العطن، وبينما كان المثالي الوحيد يدعو في السوق إلى التضحية، كان حكام الفرق الذين لا يردعهم رادع، يعقدون من وراء ظهره أشنع الاتفاقيات وأكثرها غدراً في التاريخ الروماني.

وذلك أنَّ أوكتافيان ذاته، الذي أشاد به شيشرون مدافعاً عن الجمهورية، وليبيدوس نفسه، الذي طالب له بتمثال لقاء خدماته للشعب الروماني، لأنهما خرجا، كلاهما للقضاء على أنطونيوس المغتصب، يفضّلان، كلاهما، أن يعقدا صفقة سرية. ولمّا لم يكن أيٌّ من قادة الفرق

الثلاثة، أوكتافيان وأنطونيوس وليبيدوس، قوياً بما يكفي لكي يستحوذ وحده على الدولة الرومانية غنيمة شخصية له، فقد اتفق الأعداء الألداء الثلاثة على أن يفضِّلوا اقتسام ميراث قيصر فيما بينهم، وبدلاً من القيصر الكبير بات لروما، بين عشية وضحاها، ثلاثة من صغار القياصرة.

وإنها لساعة من ساعات تاريخ العالم يتفق فيها الجنرالات الثلاثة على أن يشكِّلوا ثالوثهم ويقتسموا دولة عملاقة تشتمل على ثلاث من القارات، غنيمة حربٍ رخيصة بدلاً من أن يمتثلوا لأمر مجلس الشيوخ ويحترموا قوانين الشعب الروماني. وفي جزيرة صغيرة بالقرب من بولونيا، حيث يلتقي نهرا الرينو ولافينو، تُنْصَب خيمة يفترض أن يلتقي فيها اللصوص الثلاثة، ومن البدهيّ أنه لم يكن أحد من أبطال الحرب الكبار يثق بالآخر، وما أكثر ما تبادلوا فيما بينهم، في إعلاناتهم نعوتاً مثل «كذّاب، ووغد، ومغتصب، وعدوّ الدولة، ولص، وسارق، لكيلا يطّلع الواحد منهم على ما عند الآخر من التهكمٍ بدقة، ولكن الجائعين إلى السلطة لا يكون مهماً عندهم سوى سلطتهم، لا تفكيرهم، الغنيمة فحسب، لا الشرف، ومع مراعاة كل قواعد الحذر يقترب الشركاء الثلاثة، أحدهم بعد الآخر، من المكان المتفق عليه، وبعد أن يستيقن حكام المستقبل لذلك العالم، على نحو متبادل أنه ما من أحد منهم يحمل معه أسلحة ليقتل بها الحليف الجديد كل الجدة، يبتسم بعضهم لبعض ابتسامة المودة ويدخلون معاً الخيمة التي يفترض أن يتقرر فيها تشكيل الثالوث المستقبلي وإنشاؤه.

ويظل أنطونيوس وأوكتافيان وليبيدوس ثلاثة أيام، في هذه الخيمة

من دون شـهـود ، وكـان عليـهم أن ينجزوا ثلاثة من الأمـور. أمـا النقطة الأولى، وهي كيف ينبغي أن يقتسموا العالم، فيتفقون عليها بسرعة، إذ يفترض أن يحصل أوكتـافيـان على أفريقـيا ونوميديا ، وأنطونيـوس على بلاد الغـال، وليبيروس على إسبانيا. على أن المسألة الثانيـة أيضاً لا تُحَمِّلهم كثيراً من الهمّ: وهي كيفية تحصيل المال الذي يدينون به لفرقهم والسَفَلة الأوغـاد من حزبهم، منذ شـهـور، إذ تنحل هذه المشكلة بخفـة وبراعـة بموجب نظام بات يُقَلَّد في كـثـيـر من الأحـيـان، وذلك أن القـوم سيعمدون إلى سرقة ثروة أغنى الرجال في البلاد ، ببساطة ويتخلصون منهم في الوقت ذاته لكيـلا يكون من الممكن أن ترتفع عـقـيـرة هؤلاء بالشكوى. ويضع الرجال الثلاثة براحة واسترخاء على مـائدتهم، لائحة حرمـان من حماية القـانون [وهي إعلان عام يتضمن أسماء المحرومين من حماية القانون، ترد فيه أسماء ألفين من أغنى أهل إيطاليا وفيهم مائة من أعضاء مجلس الشيـوخ، وكلٌّ منهم يسمي أولئك الذين يعرفـهم، وفوقهم أيضاً أعداؤه وخصومه الشخصيّون، وببضع جرّاتٍ سريعة من قلم الأردواز يكون الثـالوث الجديد قد فَرَغ، بعدَ المسألة الإقليمية، من المسألة الاقتصادية كل الفراغ أيضاً.

والآن يأتي دور الكلام على النقطة الثـالثـة، وذلك أن مَنْ أراد أن يؤسس دكتـاتورية فلابُدَّ له، ليظل على يقين من دوام سيطرته، أن يخمد أصـوات الخـصـمين الأبديين لكل طغـيـان - أي البـشـر المسـتـقلون، والمدافعون، عن تلك المدينة الفاضلة التي لا يمكن استئصالها: وهي حرية الفكر، ويطالب أنطونيوس بأن يكون الاسم الأول في هذه اللائحة الأخيرة

ماركوس توليوس شيشرون، إذ عرفه هذا الرجل في جوهره الحقيقي وباسمه الحقيقي، وهو أخطر منهم جميعاً لأنه يتمتع بطاقة فكرية، وبإرادة الاستقلال، ولابدَّ له أن يزول من الطريق.

وينتاب أوكتاڤيان الفزع، ويرفض، ولمّا كان فتىً غضَّ الإهاب ولم تُحَنكّْهُ أساليب مكر السياسة ولم تُسَمِّمْه تماماً، فقد أدركه الوَجَل من أن يبدأ حكمه بالتخلُّص من أشهر كاتب في إيطاليا، وقد كان شيشرون أكثر أولياء أمره إخلاصاً، ولقد أشاد به أمام الشعب وأمام مجلس الشيوخ، وقبل شهور قلائل فحسب كان أوكتاڤيان سأله معونته والتمس منه النصيحة بتواضع وخشوع، وسَمّى الشيخ، بخشوع «أباه الحقيقي» وينتاب أوكتاڤيان الخجل ويصرّ على المقاومة، وبدافع من غريزة صائبة سليمة تضفي عليه الشرف يَأبى أن يُسْلِمَ أجلَّ أساتذة اللغة اللاتينية قدراً للخنجر القذر، خنجر القتلة المأجورين، ولكن أنطونيوس يصرّ، وهو يعلم أن ثمة عداوة أبدية بين الفكر والعنف وما من أحد يمكن أن يكون أخطر على الطغيان من أستاذ الكلمة، ويطول الصراع حول رأس شيشرون ثلاثة أيام، وأخيراً يتراجع أوكتاڤيان، وهكذا يختتم اسم شيشرون الوثيقة التي ربما كانت أكثر الوثائق شناعة في التاريخ الروماني، ولا يتم وضع الخاتم على وثيقة الحكم بالإعدام على الجمهورية، على الوجه الصحيح، إلاّ بهذه الحالة الواحدة من حالات الحرمان من حماية القانون.

وفي الساعة التي يطّلع فيها شيشرون على اتفاق الأعداء الألداء الثلاثة يعرف أنه ضاع وخسر، وهو يعلم على وجه الدقة أنه قد شَهَّر، في

القرصان أنطونيوس، الذي رفعه شكسبير، بغير وجه حق، إلى مقام أهل الفكر والنبلاء، بالغرائز المنحطة فيه، من حب التملُّك، والصلف والغرور، والقسوة، وفقدان الرادع، بوَهْجِ الكلمة، تشهيراً أكثر إيلاماً من أن يتوقع معه من هذا القيصر الفظ والإنسان الذي يجنح إلى البطش، سماحة أو شهامة. على أن الشيء الوحيد المنطقي، إذا ما أراد أن ينقذ حياته بعد الهرب السريع، ولم يكن بُدٌّ لشيشرون أن ينتقل إلى هناك، إلى اليونان، إلى بروتوس، وإلى كاسيوس وكاتو، في معسكر الجيش الأخير للحرية الجمهورية، فهناك سيكون على الأقل في مَأمَنٍ من قَتَلة الفيلة الذين تمَّ إرسالهم، وبالفعل يبدو المحروم من حماية القانون قد صمّم مرتين، أو ثلاثاً، على الهرب، ويمهِّد لكل شيء، فيُفْهم أصدقاءه، وينتقل إلى السفينة، ويمضي في الطريق، ولكن شيشرون ما يفتأ يُحْجم في اللحظة الأخيرة، وذلك أن مَنْ عرف ما ينطوي عليه المنفى من فقدان العزاء والسلوى أحَسَّ، حتى في غمرة الخطر بمتعة أرض الوطن، وأن الحياة في هرب أبديّ حياة غير لائقة، وترغمه إرادة خفيّة، وراء العقل، وحتى ضد العقل، أن يواجه المصير الذي ينتظره، وما عاد ذلك الذي اعتراه التعب يرغب من حياته التي باتت منتهية سوى ببضعة أيام من الراحة، أن يفكِّر في أمره أيضاً بعض التفكير بهدوء، وأن يكتب بعض الرسائل، وأن يقرأ بعض الكتب - وليأتِ بعد ذلك ما هو مقسوم له. وفي هذه الأشهر الأخيرة يختبئ شيشرون؛ في هذه القطعة من أملاكه حيناً وفي تلك القطعة حيناً آخر، وما يفتأ ينطلق بمجرد أن يتهدده خطر، ولكنه لا يهرب منه أبداً هرباً كاملاً، ويبدِّل هذه المخابئ الجزئية مثلما

يبدِّل المريض بالحمى وسائده، إذ لم يكن صمَّم كل التصميم على أن يواجه مصيره، كما يحقق، من دون وعي منه، المبادئ التي دوَّنها في كتابه في الشيخوخة "De senectute" ومؤداها أن الرجل المُسنّ لا يجوز له أن يلتمس الموت ولا أن يؤجله، ومهما كان إبّان مجيئه فلابدَّ للمرء أن يستقبله مطمئن البال "Neque turpis mors forti viro accedere" ألا يوجد، بالقياس إلى الرجل ذي النفس المتحلية بالصبر والتجلُّد موت شائن.

وبهذه الروح يأمر شيشرون، الذي كان قد وصل، في طريقه إلى صقلية، فجأة، رهطه، أن يعودوا فيوجهوا مقدمة السفينة، مرة أخرى، إلى إيطاليا المعادية، وأن ينزلوا على البر في كاييتا، وهي جيتا الحالية، حيث يملك عقاراً صغيراً، وكان قد استحوذ عليه تعب، ليس مجرد تعب الأوصال، ولا تعب الأعصاب، بل هو التعب من الحياة، والحنين الخفيّ إلى النهاية، إلى الأرض. فليسترح الآن، مرة أخرى فحسب، وليستنشق، مرة أخرى، هواء الوطن الحلو، وليُودِّعْ، هذا العالم ولكنها الراحة والقعود، سواء أكان ذلك يوماً أم مجرد ساعة!

وبخشوع يحيّي، بمجرد أن ينزل على البرّ، الأشباح التي تحرس المنزل، لقد تعب، ابن الرابعة والستين حَوْلاً، واستنفدت طاقته الرحلة البحرية، ويتمدد في مقصورة نومه، [في حجرة النوم، وبالتالي، في حجرة القبر]، مغمض العينين، ليستمتع، في نوم عذب رفيق، ببوادر متعة الراحة الأبدية.

ولكن لم يكد شيشرون يتمدَّد حتى اقتحم الحجرة عنده مخلص،

قائلاً: إن رجالاً مسلحين مشبوهين على مقربة منه، وقال: إن موظفاً في إدارة منزله كان طوال حياته يوليه الكثير من مظاهر الود قد باح بسر إقامته للقتلة من أجل أجر معين، وإنه يستحسن لشيشرون أن يهرب، على عجل، وأن هناك هودجاً محمولاً على أهبة الاستعداد، وهم أنفسهم، أي عبيد المنزل، يريدون أن يتسلَّحوا ويدافعوا عنه أثناء الطريق القصير الذي يفضي إلى السفينة، حيث يكون بعدها في مأمن، ولكن الشيخ المُسْتَنْفَدَ القوى يحول دون ذلك قائلاً: «وماذا يعني هذا، التعب يصدُّني عن الهرب ويصدُّني عن الحياة، دعوني أموت هنا في هذه البلاد التي أنقذتها» ومع ذلك يقنعه آخر الأمر خادمه المسن المخلص، ويقوم عبيد مسلحون بحمل الهودج، في طرق ملتوية، خلال الغابة الصغيرة، إلى الزورق المنقذ.

ولكن الخائن في منزله يأبى أن يُغَرَّ عن نفسه، من أجل أجر الخيانة المعيَّن له، فينادي على عجل نقيباً وبضعة مسلحين مجتمعين، فيطاردون الموكب خلال الغابة، ويبلغون غنيمتهم في الوقت المناسب بعد.

وعلى الفور يتجمَّع العبيد المسلَّحون حول المحفة ويتخذون أهبتهم للمقاومة، ومع ذلك يأمرهم شيشرون بالكَفِّ عن ذلك، لقد فرغ من حياته، ففيم التضحية بحياة الآخرين، والذين هم أكثر شباباً؟ وفي هذه الساعة الأخيرة يُزاوِل هذا الرجلَ الذي كان أبداً يتذبذب، غير واثق، ولا يكو جريئاً إلا فيما ندر، كلُّ الخوف، ويشعر أنه، بحكم كونه رومانياً، لا يستطيع أن يثبت حُسنَ بلائه بعدُ إلا في التجربة الأخيرة، وعندها يواجه الموت منتصب

القــامــة – sapientissimus quisque aequissino animo moritur
ويأمر منه يتراجع الخدم، ويقدِّم هامته، هامة الشيخ، غير مسلَّح، ومن دون مقاومة، للقتلة وهو ينطق بالكلمة ذات التفوُّق الرائع: « Non ignoravi me mortalem genuisse: لقد كنت أعلم دائماً أنني صائر إلى الموت، غير أن القتلة لا يريدون فلسفة، بل يريدون أجرهم، ولا يترددّون طويلاً، وبضربة شديدة يردي النقيبُ الرجلَ الأعزل قتيلاً.

وهكذا يموت ماركوس توليوس شيشرون، المحامي الأخير عن الحرية الرومانية، موتاً أكثر بطولةً، ورجولة، وتصميماً، في ساعته هذه الأخيرة، مما كان خلال الآلاف والآلاف من ساعات حياته التي عاشها.

ويلي هذه التراجيديا المسرحية الهجائية الدامية، وذلك أن القتلة يتكهنون، بالاستناد إلى الإلحاح الذي يأمر به أنطونيوس بعملية القتل هذه بعينها، أن هذا الرأس لابدَّ أن تكون له قيمة خصوصية، وهم لا يقدِّرون، بالطبع قيمته في بنيته الفكرية بالقياس إلى العالم الحالي والعالم اللاحق، بل يقدِّرون، بلا ريب، القيمة الخصوصية لمن كلَّفهم بالفعلة الدامية، ولكيلا يجعلوا الجائزة موضع أخذٍ وردّ، يقررون أن يأتوا برأسه إلى أنطونيوس شخصياً ليكون برهاناً ينطق بما نفّذوا من الأمر، وهكذا يَحْتَزُّ زعيم قطاع الطرق الرأس عن الجثمان، ويقتطع اليدين، ويدس هذه في كيس، ويُهْرَع، وقد جعل هذا الكيس الذي مازال الدم يقطر منه على ظهره، بأسرع ما يستطيع، إلى روما، ليدخل السرور على قلب الدكتاتور بنبأ الفراغ من أفضل مدافع عن الجمهورية الرومانية، بالطريقة المألوفة.

وكان حساب قاطع الطريق الصغير صحيحاً، وذلك أن قاطع الطريق الكبير، الذي أمر بهذا القتل يحوِّل سروره بالفِعْلة المرتكبة إلى عَطاءٍ أميريّ، والآن، إذْ يوعِز أنطونيوس بنهب أغنى ألفي رجل في روما وقتلهم، يستطيع أن يكون سخيّاً آخر الأمر، ويدفع للنقيب مقابل الكيس الدامي الذي يحتوي على يَدَيْ شيشرون ورأسه المقطوع المشوَّه مليون سيزيستروس، عداً ونقداً، ولكن انتقامه لم يبرد غليله، وهكذا تبتدع الكراهية الحمقاء عند هذا الإنسان الدموي، لهذا الميت مهانة خصوصية أيضاً، وهو لا يدري أنها ستنحطّ به هو ذاته على مدى كل العصور. ويأمر أنطونيوس بأن يُسَمَّر رأس شيشرون ويداه على منبر الخطابة (Rostra)، على المنبر ذاته الذي ناشد الشعب منه أن ينهض للدفاع عن الحرية الرومانية.

وكان ثمة مسرحية مزرية تنتظر الشعب الروماني في اليوم التالي، إذ كان يتدلى على منبر الخطابة ذاته الذي ألقى منه شيشرون خطبه الخالدة، الرأس المقطوع الممتقع، لآخر محامٍ عن الحرية، وكان مسمار صدئ شديد الأسر يخترق جبهته التي فكَّرت في الألوف من الأفكار، وكانت الشفتان مضمومتين إحداهما على الأخرى، بلونٍ ممتقع، وبمرارة، وهما اللتان صاغتا الكلمة الفولاذية في اللغة اللاتينية صياغة أجمل من كل ما عداها، وكان الجفنان المُزْرَوْرِقان يغطيان،. وهما موصدان، العين التي لبثت تسهر على الجمهورية على مدى ستين عاماً. وتنبسط اليدان، عاجزتين، وهما اللتان كتبتا أروع رسائل العصر.

ولكن مع ذلك ما من اتهام ينطق به الخطيب الرائع ضد الفظاظة،

وضد نوبة جنون السلطة، وضد انعدام القانون، من هذا المنبر، يتحدث بمثل هذه الفصاحة ضد ظلم العنف الخالد التي يتحدث بها رأسه الصامت الصريع، وها هو ذا الشعب يتزاحم في وَجَل حول المنبر الذي دُنِّست حرمته، ثم يتنحّى عنه جانباً من جديد، محزوناً منقبض القلب، قد تولاّه الخجل. وما من أحد يجرؤ على كلمة يردُّ بها - إنه الطغيان! ولكن تشنجاً يعتصر منهم القلوب، ويغمضون أعينهم وقد بلغ التأثُّر مبلغه أمام هذا الرمز المأساوي لجمهوريتهم المصلوبة.

ويلسون
١٩٤٠

في الثالث عشر من كانون الأول عام ١٩١٨ تتوجه الباخرة الجبّارة «جورج واشنطن» وعلى ظهرها الرئيس وودرو ويلسون، نحو الساحل الأوروبي، ولم يحدث قبلُ، منذ بداية العالم، أن حدث انتظار لسفينة واحدة، ولرجل واحد، من قبل هذه الملايين الجمَّة من البشر، وبهذا القدر الكبير من الأمل والثقة. لقد لبثت أمم أوروبا أربع سنوات تغلي مراحل غضب بعضها ضد بعض، وتعرَّض مئات الألوف من خيرة شبابها وأكثرهم تفتُّحاً وازدهاراً، للذبح المتبادَل، بالبنادق الآلية، والمدافع، وقاذفات اللهب، والغازات السامة. وظلوا أربع سنوات لا ينطقون إلا بالكراهية وبما تُرغي به الأفواه وتزبد، بعضهم ضد بعض، ولا يكتبون إلاّ عنهما، ولكن كل هذا الانفعال المستثار لم يكن في وسع صوت خفيٍّ أن يسكته في قرارة النفوس وأن يبيِّن أن ما كانوا يفعلونه وما كانوا يقولونه كان شيئاً لا يقبله العقل، وتدنيساً لشرف قرننا، وكل هذه الملايين كان يخالجها، عن وعي أو عن غير وعي، الشعور الخفيُّ بأن البشرية عادت لتتردّى في قرون من البربرية تسودها الوحشية والفوضى، كان يُعْتَقَد أنها ولّت الأدبار منذ عهد بعيد.

هنالك أقبلَ من القارة الأخرى، من أمريكا، هذا الصوت، الذي سرى، من فوق ميادين المعارك التي مازالت تطلق دخانها، مُطالباً: «لا حربَ مرة أخرى»، ولا شقاق من جديد، ولا عودة للدبلوماسية السرية الإجرامية التي دفعت بالشعوب، من دون علم فيها إلى حافة المعارك، بل هو نظام للعالم جديد، وأفضل «إنه حكم القانون الذي يستند إلى موافقة المحكوم ويعززّه رأي منظّم من قبل الجنس البشري». والأمر الرائع أن الناس فهموا هذا الصوت في كل البلدان وبكل اللغات، والحرب التي كانت بالأمس ما تزال نزاعاً لا معنى له حول شرائط من الأرض، وحول حدود، وحول مواد خام، ومناجم، وحقول نفط، بات لها فجأة، معنى أسمى، معنى يكاد يكون دينياً: إنه السلام الخالد، دولة المسيح المنتظر، ودولة القانون والإنسانية. وبدا، دفعة واحدة، أن دم الملايين ما عاد يُسْفَك عبثاً، هذا الجنس الواحد، لم يُعانِ إلا لكي لا تُلِمَّ أمثال هذه الآلام مرة أخرى بأرضنا، وتهيب مئات الألوف، والملايين من الأصوات بهذا الرجل أن يأتي وقد استحوذ عليهاالسُّكْر بالثقة، إنه هو، ويلسون، الذي ينبغي أن يوطّد السلام بين المنتصرين والمهزومين، لكي يتحوّل إلى سلام قائم على الحق، إنه ويلسون، موسى الآخر، الذي ينبغي له أن يأتي بألواح العصبة الجديدة للأمم التائهة. وخلال أسابيع قلائل يتحول اسم ويلسون إلى قوة دينية، تتسم بسمة المسيح المنتظر، ويطلقون اسمه على الشوارع وعلى المباني والأطفال. وكل شعب يشعر أنه يعاني من محنة أو هُضِم حقُّه يرسل إليه موفدين. وتتكدّس الرسائل والبرقيات بالاقتراحات والالتماسات، والمناشدات، من كل القارات الخمس بالألوف المؤلّفة، ويُؤتى بصناديق كاملة منها إلى السفينة التي تتوجه إلى

أوروبا، وتطالب قارة بأكملها، بل المعمورة بأسرها، بالإجماع، بهذا الرجل ليكون حكماً في نزاعها الأخير قبل المصالحة النهائية التي يحلمون بها.

وويلسون لا يستطيع أن يقاوم النداء، وينصحه أصدقاؤه في أمريكا بالعدول عن السفر إلى مؤتمر الصلح بشخصه، قائلين إن واجبه، بصفته رئيساً للولايات المتحدة، أن لا يغادر بلاده، وأن الأفضل أن يدير المفاوضات عن بُعد، غير أن ووردرو ويلسون لا يدع شيئاً يثنيه عن عزمه. وحتى المكانة العليا لبلاده، ورئاسة الولايات المتحدة، يبدوان له شيئاً ضئيلاً في مقابل المهمة التي تُطْلَب منه، وهو لا يريد أن يخدم بلداً، ولا قارة، بل يريد أن يخدم البشرية بأسرها، وليس من أجل هذه اللحظة الواحدة، بل من أجل المستقبل الأفضل. وهو لا يريد أن يمثل مصالح أمريكا «لأن المصلحة لا تربط بين الناس، بل المصلحة تفرِّقهم» بل يريد الفائدة للناس جميعاً، وهو يشعر أنه لابدَّ له أن يسهر بعناية على أن لا يستحوذ العسكر والدبلوماسيون مراراً على الأهواء والعواطف القومية، وهم الذين يعني اتحاد البشرية جرس الإنذار بالموت بالنسبة إليهم، ويجب أن يكون هو شخصياً ضامناً أن يكون الذي يفرض كلمته إرادةُ الشعب لا إرادة زعمائه» وأن تقال كل كلمة في إطار أبواب مفتَّحة ونوافذ مفتَّحة، أمام العالم كله في مؤتمر الصلح هذا الذي هو المؤتمر الأخير والنهائي.

وهكذا يقف على السفينة وينظر إلى الساحل الأوروبي الذي يظهر فوق الضباب، غير مستيقَن، وغير متشكل بصورة كاملة، شأن حلمه هو بالأُخُوَّة المستقبلية بين الشعوب. يقف منتصب القامة، رجلاً مديد القامة،

ووجهه ثابت وعيناه ثاقبتان وصافيتان تحت النظارة. أما ذقنه فبارزة على الطراز الأمريكي المفعم بالطاقة، ولكن الشفتين الممتلئتين المكتنزتين موصدتان، وهو ابن وحفيد لآباء كنيسة بروتستانتية مشيخية، ينطوي في نفسه على صرامة أولئك الرجال وضيق أفقهم، إذ ليس عندهم إلا حقيقة واحدة، وهم على يقين أنهم يعرفون هذه الحقيقة، وهو ينطوي في دمه على حرارة الإيمان الموجودة عند كل أجداده الأتقياء، السكوتلنديين والإيرلنديين وعلى الحماسة الخاصة بالعقيدة الكالفينية، التي تضع للقائد والمعلم مهمة تتمثل في إنقاذ البشرية الخاطئة، ويؤثر فيه على نحو لا ينتابه الخَوَر، عناد الهراطقة والشهداء الذي يفضلون أن يُحْرقوا في سبيل قناعتهم على أن يحيدوا قيد أنملة عن الكتاب المقدس، وبالقياس إليه، وهو الديمقراطي المثقف، لا تعد مفاهيم «الإنسانية»، و«الحرية» و«السلام، و«حقوق الإنسان» كلماتٍ باردة، بل تعد مُعادلةً لفاتحة الكتاب المقدس عند آبائه، وهي لا تعني بالنسبة إليه مفاهيم إيديولوجية غامضة، بل هي من بنود الإيمان في الدين التي عقد العزم على أن يدافع عنها حرفاً حرفاً، مثلما كان أجداده يدافعون عن الإنجيل، وقد خاض كثيراً من المعارك، غير أن هذه المعركة، كما كان يشعر، وهو ينظر إلى البرّ الأوروبي الذي يزداد تجلّياً أمام ناظريه، ستكون المعركة الحاسمة، وعلى غير إرادة منه توتّرت عضلاته «لكي يقاتل من أجل النظام الجديد، لكي يسود بالتفاهم، إذا استطعنا، أو كَرْهاً، إذا لم يكن من ذلك بدٌّ».

ولكن سرعان ما تُزايل الصرامة نظرته المتوجهة إلى المدى البعيد، فالمدافع، والرايات، التي تؤدي له التحية في ميناء بريست لا تقدِّر إلاّ

رئيس الجمهورية الحليفة بموجب اللوائح والتنظيمات، ولكنَّ ما يتوجه في سرعة جنونية نحوه من الشاطئ، وهو يشعر به، ليس استقبالاً مصطنعاً، ولا منظَّماً، وليس تهليلاً مطلوباً، بل هي حماسة مستَعِرة من قبل شعب بأسره، وحيثما ينطلق القطار تُلوِّح له الرايات، من كل قرية ومن كل بيت ريفي، ومن كل منزل، إنهن مشاعل الأمل، والأيدي تمتد نحوه، والأصوات تحدق به في زعيق جنوني، وحين يدخل قصر الإليزيه في باريس تنقض شلاَّلات الحماسة من الجدران الحيّة، إنه شعب باريس، شعب فرنسا، رمزاً لكل شعوب أوروبا النائية وهم يصرخون، ويهلِّلون، ويلحّون في إظهار توقُّعهم له ويزداد استرخاء ملامح وجهه، وتكشف عن أسنانه ابتسامة طلقة، سعيدة، تكاد تكون سَكْرى ويلوِّح بقبعته عن اليمين وعن الشمال، كأنما يريد أن يحيي الناس جميعاً، العالَم كله، أجل، لقد أصاب حين جاء بنفسه، فالإرادة الحية وحدها هي التي تستطيع أن تنتصر على القانون الجامد. أفلا يستطيع المرء أن ينشئ مثل هذه المدينة السعيدة، ومثل هذه البشرية المسرورة بالأمل على نحو دائم، وللناس جميعاً، أم تراه لا ينبغي له أن يفعل هذا؟ وما هي إلاّ ليلة من أجل الراحة والاستقرار، ثم يكون البدء غداً على الفور، في منحِ العالمِ السلام، السلام الذي يحلم به منذ آلاف السنين، وبذلك يتم إنجاز أكبر مأثرة أنجزها واحد من أهل الأرض في أي يوم من الأيام.

وأمام القصر، الذي خصَّصته له الحكومة الفرنسية، وفي دهاليز وزارة الخارجية، وأمام فندق كرِيّون، المقر الرئيس للوفد الأمريكي، يتزاحم الصحفيون نافدي الصبر، وهم في حد ذاتهم، يشكلون، وحدهم جيشاً عَرَمْرَماً. وقد جاء مائة وخمسون منهم من أمريكا الشمالية

وحدها، وبعثت كل مدينة بمراسليها، وكلهم يطلب بطاقات دخول إلى كل الجلسات، للكُلّ! لأن العالم وُعِدَ صراحة بـ «العلنية الكاملة»، ولا ينبغي أن تكون هناك هذه المرة جلسات سرية أو اتفاقات سرية، لأن الفقرة الأولى من النقاط الأربع عشرة تنص حرفياً على «ميثاق مكشوف يتم الوصول إليه على نحو مكشوف ولن يكون هناك بعده أشكال من التفاهم الدولي الخاص من أي نوع كان، ويجب أن يتم التخلُّص بصورة نهائية من الداء المتمثل في وجود الاتفاقيات السرية التي كلفت من القتلى أكثر مما اقتضت كل الأوبئة الأخرى، وذلك عن طريق المَصْلِ الجديد المتمثل في دبلوماسية ويلسون المكشوفة.

ولكن كان من بواعث خيبة أملهم أنهم يواجهون ضروب المماطلة والتسويف المتكرِّرَيْن؛ وما من شك في أنهم سُمِح لهم جميعاً بدخول الجلسات الكبيرة، وأن محاضر هذه الجلسات العلنية - وهي في الواقع مطهَّرة تطهيراً كيميائياً من كل أشكال التوتُّر - نُقلت إلى العالم بكامل مضمونها، ولكن في البداية لا يستطيع المرء بعدُ أن يقدم معلومات، ولم يكن بدٌّ في البداية من ترسيخ نظام المفاوضات (modus proceden-di)، ويُحِسُّ المخيَّبو الآمال إحساساً عفوياً أن ثمة شيئاً يحدث من دون إجماع كامل، غير أن المعلومات لم تقل غير الحقيقة بصورة كاملة. إنه نظام التفاوض الذي يُحِسُّ فيه ويلسون لدى المناقشة الأولى للأربعة الكبار، مباشرة، بمقاومة الحلفاء: فالقوم لا يريدون أن يتفاوضوا على كل شيء بصورة علنية مكشوفة، وذلك لسبب وجيه، إذ كانت توجد في حقائب كل الأمم التي خاضت الحرب، وفي خزائن ملفّاتها، اتفاقيات سرية ضمنت لكل طرف حصته وغنيمته، وكان غسيلاً قذراً يستوجب

المداراة والتحفظ، ولا يستطيع المرء أن ينشره إلا في حجرة الإيثار والغيرية (camera caritatis)، ولكيلا يتمّ إلحاق الضرر بسمعة المؤتمر بصورة مسبقة لم يكن بُدٌّ للقوم من مناقشة بعض الأمور وراء أبواب مغلقة أولاً، وتطهيرها، ولكن عدم الإجماع لم يكن موجوداً في نظام التفاوض فحسب، بل كان موجوداً في طبقة أعمق أيضاً، وكان الموقف في الأساس صريحاً لا لَبْس فيه، بصورة كاملة عند كلٍّ من المجموعتين، الأمريكية والأوروبية. فهناك موقف واضح على اليمين، وموقف واضح على اليسار، ولم يكن يفترض، في هذا المؤتمر أن يتم عقد صلح، بل كان يفترض عقد صلحين في الحقيقة، أي اتفاقيتين مختلفتين كل الاختلاف، الصلح الأول، العابر، المرتبط بقضايا الساعة الذي يفترض أن ينهي الحرب مع ألمانيا المهزومة، التي ألقت السلاح، وفي الوقت ذاته الصلح الآخر، صلح المستقبل الذي يفترض أن يجعل كل حرب مستقبلية مستحيلة إلى الأبد. فكان هناك، من ناحية أخرى، الصلح على الطريقة القديمة، القاسية، وكان هناك، من ناحية أخرى، الميثاق الويلسوني، الجديد (النظام الأساسي) الذي يهدف إلى تأسيس عصبة الأمم... فعلى أيٍّ من هذين يفترض أن يتمّ التفاوض أولاً؟

هنا تتصادم النظرتان تصادماً حاداً. وكان ويلسون قليل الاهتمام بالصلح المؤقت العابر. وكان يرى أن تعيين الحدود ودفع التعويضات عن الحرب وتكاليف الإصلاحات ينبغي أن يقررها الخبراء واللجان على أساس المبادئ المحدَّدة في النقاط الأربع عشرة، وهذا عمل يسير، أو عمل جانبي، إنه عمل خبراء. وفي مقابل ذلك ينبغي أن تكون مهمة كبار رجال السياسة في كل الأمم، ويمكنها أن تكون: إنشاء الجديد

والمتطوِّر، مثل وحدة الأمم والسلام الخالد، ولا شك أنَّ كل مجموعة تعد نظرتها هي المُلحّة. والحلفاء الأوروبيون يحذِّرون بحق، إذ لا يجوز للمرء أن يدع العالم المستنفد القوى والمدمَّر، بعد أربع سنوات من الحرب، ينتظر السلام شهوراً بعد، وإلا خيَّم العَماء على أوروبا كلها، فلنبدأ بالأمور الواقعية، بتسوية مسألة الحدود والتعويضات، وإعادة الرجال الذين مازالوا يحملون السلاح، إلى نسائهم وأطفالهم، وتثبيت العلة وتنشيط التجارة وحركة المرور، وبعد ذلك فحسب، وعلى أرض موطَّدة الدعائم، ندع بوارق الأمل في المشروعات الويلسونية تشرق أنوارها. ومثلما كان ويلسون غير مهتم في قرارة نفسه بالسلام الفعلي المتعلق بواقع الساعة، كان كليمنصو، ولويْد جورج، وسونّينو، بحكم كونهم من المتمرِّسين المحنَّكين بأمور التكتيك والأمور العملية، غير مبالين على الإطلاق بالمطلب الويلسوني في أعمق أعماقهم. وكانوا قد أبدوا استحسانهم لمطاليبه وأفكاره الإنسانية بدافع حسابات سياسية، وبدافع التعاطف الصادق أيضاً من الناحية الجزئية، لأنهم كانوا يشعرون، عن وعي أو عن لا وعي، بالقوة القاهرة لمبدأ بعيد عن الأنانية عند شعوبهم. وكانوا، من أجل ذلك، يرغبون في مناقشة خطتهم مع إدخال ألوان معينة من الإضعاف والتَّوْهين، والتحفظات والتقييدات، ولكن ليكن الصلح مع ألمانيا، أوّلاً بحكم كونه خاتمة للحرب، ثم الميثاق.

ومع ذلك فويلسون نفسه عمليٌّ بما يكفي لكي يعلم كيف يستطيع المرء أن يرهق مطلباً حيوياً ويجعل دمه ينزف إلى النهاية، ويعرف حتى الكيفية التي ينحّي بها المرء جانباً بعض أشكال المقاطعة السمجة بأساليب التعويق والمماطلة: فالمرء لا يصبح رئيساً لأمريكا بمجرد

المثـاليـة، ولذلك يصر على مـوقفـه من دون أن تلين قناته، فـمن الواجب أولاً أن تتم صياغة الميثاق، ثم يطالب بأن يتم القبول به بوضوح وبصورة حرفية، في اتفاقية الصلح مع ألمانيا، ويتبلور من مطلبه هذا، عُضْوِيّاً، صراع ثانٍ، ذلك لأن تثبيت هذه المبادئ خليق أن يعني، بالقياس إلى الحلفاء، أن يتاح لألمانيا المذنبة، التي تنتهك القانون الدولي انتهاكاً فظاً بالإغارة على بلجيكا، وتقدم أسوأ الأمثلة على إملاء سياسة عنف لا تراعي فيها أي اعتبار، في بريستليتوفسك بضربة الجنرال هوفمن، أن تُعْطى سلفاً المكافأة التي لا تستحقها، أي المكافأة التي تترتب على المبادئ الإنسانية الجديدة. وكانت الميادين مازالت مدمَّرة مقفرة، وكانت مدن بأكملها مدمَّرة بإطلاق القذائف، ولكي يؤثِّروا على ويلسون كانوا يضطرونه إلى مشاهدتها بشخصه، ولكن ويلسون، الرجل غير العملي، يمرُّ بالخرائب مرور الكرام عن قصد. ولا ينظر إلاّ إلى المستقبل، وبدلاً من أن يرى المبنى الذي دمَّرته القذائف يرى البناء الخالد فمهمته تقتصر على شيء واحد: «أن يمحو نظاماً قديماً، وينشئ نظاماً جديداً» ويصر على مطلبه من دون أن يتزحزح، ويصرّ عليه بجمود وعناد على الرغم من احتجاج مستشاريه الخاصِّين، لانسِنْغ وهاوس. الميثاق أولاً، وقضية البشرية بأسرها أولاً، ثم بعد ذلك مصالح كل شعب على حدة.

ويحتدّ الصراع – وهو الأمر الذي يثبت أنه ينطوي على طامَّة – ويبدِّد الكثير من الوقت وكان من بواعث التعاسة أن وودرو ويلسون قد قصَّر في رسم ملامح محدَّدة سلفاً لحلمه، وذلك أن مشروع الميثاق الذي جاء به بعد، لا يعدُّ بحال من الأحوال، مصوغاً صياغة نهائية، بل هو «مسوَّدة أولى» فحسب، لا بدَّ له أولاً، أن يناقش في جلسات لا تحصى، ويتم

تعديله، وتنقيحه، وتدعيمه، أو توهينه. وفوق هذا فإن مما يقتضيه التهذيب أن يقوم، بعد باريس، بزيارة لعواصم حلفائه الأخرى في هذه الأثناء، وعلى هذا ينطلق ويلسون إلى لندن، ويتحدث في مانشستر، وينطلق إلى روما، وحين لا يبادر رجال السياسة، الآخرون، في غيابه، إلى ترويج مشروعه بهوى ومحبة صادقَيْن، يضيع أكثر من شهر كامل قبل أن ينتهي إلى «الجلسة التمهيدية» الأولى، وهو شهر ترتجل خلاله، في المجر، ورومانيا، وبولونيا وفي البلطيق، وعلى حدود ألمانية، قوات نظامية وقوات متطوعين، بعض المعارك، وتحتل بلداناً، وتتصاعد المجاعة في فيينا، وتزداد حدة الوضع في روسيا إلى حد يبعث على القلق.

ولكن حتى في هذه «الجلسة التمهيدية» الأولى، في ١٨ كانون الثاني لا يتمّ سوى اتخاد قرار من الناحية النظرية ينص على أن الميثاق يفترض أن يشكل «جزءاً لا يتجزّأ من معاهدة السلام العامة»، وما زالت الوثيقة لم يجر تصميمها، وما زالت تروح وتجيء من يدٍ إلى يدٍ، ومن حكومة إلى أخرى، في مناقشات لا نهاية لها. وينقضي الشهر مراراً، وهو شهر من شهور الاضطراب الأكثر إثارة للفزع بالنسبة لأوروبا التي تريد الوصول إلى سلامها الحقيقي، الواقعيّ بجموح مطَّرِد الزيادة. وفي الرابع عشر من شباط ١٩١٩، فحسب، أي بعد ربع عام من الهدنة، يستطيع ويلسون أن يطرح الميثاق في صورته النهائية التي يقبل فيها بالإجماع أيضاً.

ومرة أخرى يهلّل العالم، فقد انتصرت قضية ويلسون، لأن السلام في المستقبل لا يفترض أن يكون ضمانة بقوة السلاح، والإرهاب، بل بالتفاهم والإيمان بقانون يعلو على الأمم جميعاً، وتدوِّي عواصف

الاستحسان لويلسون وهو يغادر القصر. ومرة أخرى، هي المرة الأخيرة، ينظر بابتسامة مزهُوَّة، ممتنّة، تنمُّ عن السعادة إلى الجمهور الذي يزدحم عليه، ويحسّ، من وراء هذا الشعب، بالشعوب الأخرى، ومن وراء هذا الجيل الواحد، الذي عانى الكثير، بالأجيال المقبلة، التي لن تعرف بعدُ أبداً، بفضل هذا الضمان النهائي، سياط الحرب والإذلال من قِبَل المعاهدات المفروضة والدكتاتوريات. وهو يومه الأكبر، وهو في الوقت نفسه يومه السعيد الأخير. ذلك لأن ويلسون يفسد على نفسه انتصاره، حين يغادر ميدان المعركة منتصراً قبل الأوان، وفي اليوم التالي، أي في الخامس عشر من شباط، يعود أدراجه إلى أمريكا، ليطرح على ناخبيه وأهل بلده الميثاق الأعظم للسلام الخالد، قبل أن يوقّع، عائداً، للآخرين، صلح الحرب الأخير.

ومرة أخرى تُرْعِد المدافع تحيةً له، حين تقلع الباخرة «جورج واشنطن» من بريست؛ ولكن ها قد بات الجمهور المزدحم عليه أقل ازدحاماً، وأكثر لا مبالاة. لقد خَفَتَ شيء من التوتر العاطفي الجامح، الكبير، وشيء من الأمل، الأمل بالمسيح المنتظر عند كل الشعوب بينما يغادر ويلسون أوروبا، وحتى في نيويورك ينتظره استقبال بارد، فليس هناك طائرات ترفرف بأجنحتها حول السفينة العائدة ولا تهليل صاخب عاصف، وفي دوائره الخاصة، وفي مجلس الشيوخ، وفي الكونجرس، وفي حزبه هو، وفي صفوف شعبه تحية تنطوي على سوء الظن. أما أوروبا فغير راضية لأن ويلسون لم يذهب بعيداً بالقدر الكافي، وأما أمريكا فغير راضية لأنه ذهب إلى أبعد مما ينبغي، وتبدو أوروبا وكأنها لمّا تذهب بعيداً بما يكفي للتلاؤم مع ربطه للمصالح المتضاربة بمصلحة

البشرية عامَّةً كبيرةً، وفي أمريكا يثير خصومه السياسيون الخواطر عنده، وقد باتت عيونهم مركّزة على انتخابات الرئاسة التالية، قائلين إنه ربط القارة الجديدة سياسياً، ربطاً وثيقاً أكثر مما ينبغي، بالمصالح الأوروبية المضطربة، ذات النزوات المفاجئة، وخالف بذلك المبدأ الأساسي في السياسة الوطنية، أي مبدأ مونرو. ويتم تذكير وودرو ويلسون بإلحاح بالغ بأنه ليس عليه أن يكون مؤسساً لمملكة مستقبلية من ممالك الأحلام، أو يفكر من أجل الأمم الأجنبية، بل يجب عليه أن يفكر في المقام الأول، في الأمريكيين الذين انتخبوه ممثلاً لإرادتهم هم، ولذلك يضطر ويلسون الذي كان ما يزال مستنفد القوى من جراء المفاوضات الأوروبية، إلى أن يشرع في مفاوضات جديدة، سواء مع أهل حزبه أم مع خصومه السياسيين، ويضطر قبل كل شيء إلى أن يفتح باباً خلفياً في البنيان الشامخ للميثاق الذي حَسِبَ أنه أنشأه إنشاءً لا سبيل إلى المساس به أو استبداله، بصورة لاحقة، وهو التحوّط الخطير المتمثل في حقٍّ أمريكا في الانسحاب من عصبة الأمم، وهو ما يتيح لأمريكا أن تنسحب في أي لحظة تشاء، وبذلك تمَّ انتزاع الحجر الأول من المبنى الذي خُطِّطَ له إلى الأبد ليكون لعصبة الأمم، لقد انفتح الصَّدْع الأول في الجدار، ذلك الصدع الذي انطوى على طامّة والذي سترجع جريرة انهياره النهائي إليه.

ولكن ويلسون يفرض ميثاقه الأعظم الجديد للبشرية الآن في أمريكاً أيضاً مثلما فرضه في أوروبا، وإن كان ذلك مقترناً بقيود وتصحيحات، غير أنه ما عاد سوى انتصار جزئي.

ويسافر ويلسون عائداً إلى أوروبا، ليحقق الشطر الثاني من

مهمته، غير أنه ما عاد يتمتع بهذا القدر من الحرية، وبهذا القدر من الثقة بالنفس حين ينطلق. ومرة أخرى تتوجه السفينة نحو ميناء بريست، وما عادت هي النظرة ذاتها التي يملؤها الأمل بالسرور، والتي ينظر بها إلى الساحل. لقد بات أكبر سناً، وأكثر تعباً، لأنه كان أخيب أملاً، في هذه الأسابيع القلائل، وكان وجهه يتقلص بمزيد من الصرامة والتوتُّر، ويأخذ تعبير قاسٍ، أكثر تجهُّماً، في الارتسام على وجهه، وكانت تسري هنا وهناك اختلاجة فوق الوجنة اليسرى، وهي إشارة إنذار تحذيرية تنبئ عن مرض يتكوَّر في داخله، ولا يفوِّت الطبيب المرافق لحظة ليذكِّره بمراعاة أمر نفسه وثمة صراع جديد في انتظاره، ربما كان أقسى، فهو يعرف أن فَرْضَ المبادئ أصعب من صياغتها، غير أنه عقد العزم على أن لا يضحي بنقطة من برنامجه، فإمّا كل شيء وإما لا شيء.

ما عاد هناك تهليل حين ينزل إلى البر، ولا تهليل بعدُ، حين ينزل في شوارع باريس أما الصحف فمتربصة وباردة، وأما الناس فيتسمون بالحذر وسوء الظن، وعادت تصحُّ مرة أخرى كلمة جوته: «الحماسة ليست سلعة يُمَلِّحها المرء ويحفظها كثيراً من السنين» وبدلاً من أن يستغل الساعة مادامت مواتيةً له، وبدلاً من أن يطرق الحديد وهو حامٍ ليصنع منه ما يشاء ما دام لينا ومطاوِعاً، ترك ويلسون هذه النزعة المثالية في أوروبا تتجمد، لقد غيَّر الشهر الواحد من غيابه كل شيء، وفي الوقت ذاته الذي جاء فيه أخذ لويد جورج إجازة من المؤتمر. أما كليمنصو فمصاب من جراء طلقة مسدس في محاولة اغتيال، ولبث أسبوعين عاجزاً عن العمل، واستغل أنصار المصالح الخاصة هذه اللحظة التي لا حراسة فيها ليتسللوا إلى قاعات جلسات اللجان، وكان أكثر القوم

حيوية وطاقة في العمل وأكثرهم خطورة، العسكريون، إذ كان كل المارشالات والجنرالات الذين ظلوا حتى الآن طوال أربع سنوات واقفين في ضوء المصلحة، والذين كانت كلمتهم، وقرارهم، وتعسُّفهم على مدى السنوات الأربع، تجعل مئات الألوف عبيداً لهم، غير راغبين بحال من الأحوال في الانسحاب بتواضع. وذلك أن الميثاق الذي يريد أن ينتزع من أيديهم وسائل السلطة، إذ يطالب بإلغاء الخدمة العسكرية الإلزامية، وكل أشكال الخدمة الإلزامية الأخرى، يهدد وجودهم، ولذلك فلابد لهذا اللغو الذي يتحدثون به عن السلام الأبدي الذي سيجرد مهنتهم من معناها، أن يتم التخلُّص منه مطلقاً أو يُدْفع به إلى طريق مسدود، ويطالبون، متوعِّدين، بالتسلُّح بدلاً من نزع السلاح على طريقة ويلسون، وبحدود جديدة وضمانات قومية بدلاً من الحل المتعالي عن الأمم، ويقولون: إن المرء لا يستطيع، بنقاط أربع عشرة مرسومة في الهواء، أن يؤمن الرخاء للبلاد، بل يستطيع ذلك بتسليح جيشه فحسب، ونزع سلاح الخصم، وبعد العسكريين يتسرَّب ممثلو المجموعات الصناعية الذين همّهم أن يحافظوا على دوام العمل في مؤسساتهم الحربية، والتجار الوسطاء الذين يريدون أن تكون تعويضات الحرب من نصيبهم، والدبلوماسيون الذين يزدادون تذبذباً على نحو مطرد، إذ يتعرّضون للتهديد من وراء ظهورهم من قبل أحزاب المعارضة، وكلٌّ منهم يريد لبلاده قطعة دسمة من الأرض تكون زيادة لها؛ وما هي إلا بضع ضغطات بارعة بالأصابع على بيانو الرأي العام وإذا كل الصحف الأوروبية، تساعدها الصحف الأمريكية، تدخل تنويعات بكل اللغات على الموضوع ذاته: ويلسون يؤجل السلام بأخيلته، ومدنه الفاضلة التي هي في حد ذاتها جديرة

بالثناء جداً، ولاريب في أنها مفعمة بالروح المثالية، عاقت استتباب الأمور في أوروبا: لا تضييع للوقت بعد الآن بالهواجس الأخلاقية وبمراعاة الجوانب الأخلاقية المثلى! وإذا لم يعقدِ الصلح على الفور فسوف يفلتُ العَماءُ من عقاله في أوروبا.

ولعلّ من بواعث التعاسة أن هذه المآخذ لا تفتقر تماماً إلى ما يبررِّها، وذلك أن ويلسون الذي يُعِدُّ خطته لمدى قرون، يقيس الزمن بمقياس غير مقياس شعوب أوروبا. والشهور الأربعة، والخمسة تبدو له قليلة بالنسبة إلى المهمة التي يفترض أن تحقق حلماً يبلغ عمره ألف سنة. ولكن في هذه الأثناء تزحف في شرقي أوروبا فيالق حرة منظمة من قبل قوى غامضة مشبوهة، جيئة وذهاباً، فتحتل الأراضي وثمة رقاع من الأرض كاملة لا تدري بعد إلى أي بلد تنتمي، وإلى أي بلد ينبغي أن تنتمي. أما الوفود الألمانية والنمساوية، فلم يجرِ استقبالها بعدُ، حتى بعد أربعة شهور، ووراء الحدود التي لم تُرْسَم بعدُ، ينتاب الشعوبَ الاضطرابُ، وثمة نُذُرٌ واضحة تنبئ أنّ هنغاريا ستسلِّم مقادير أمورها للبلاشفة، غداً، وبعد غد تفعل ذلك ألمانيا بدافع اليأس، وإذاً فلتتوصَّلْ بسرعة إلى نتيجة، إلى اتفاقية، عادلة أو غير عادلة، كذلك يلحُّ الدبلوماسيون، وبُعْداً لكل ما يقف في طريق الاتفاقية عائقاً، والمقصود بهذا في المقام الأول هو الميثاق التعيس!

وكانت الساعة الأولى في باريس، وحدها، كافية لكي تكشف لويلسون أن كل ما بناه في ثلاثة شهور قد تم تقويضه في الشهر الواحد من غيابه، ويوشك أن ينهار وكان المارشال فوخ قد فرض، على وجه التقريب، أن يتوارى الميثاق من اتفاقية الصلح، وتبدو الشهور الثلاثةُ

الأولى كأنما أُهْدِرَت بغير معنى، ولكن فيما يتعلق بالأمر الحاسم كان ويلسون قد صمّم بعزيمة كالفولاذ، أن لا يتراجع خطوة واحدة. وفي اليوم التالي، أي في ١٥ آذار يوعز بالإعلان في الصحف رسمياً، أن قرار ٢٥ كانون الثاني كان، وما زال، ساري المفعول، وأن الميثاق يجب أن يكون جزءاً لا يتجزأ من اتفاقية الصلح، وهذا التصريح هو الضربة المضادة الأولى لمحاولة عقد الصلح مع ألمانيا، لا على أساس الميثاق الجديد، بل على أساس الاتفاقيات السرية القديمة بين الحلفاء. والرئيس ويلسون يعلم الآن على وجه الدقة ما الذي تنوي الدول ذاتها التي أقسمت على احترام حق تقرير المصير للشعوب، أن تطالب به. أما فرنسا فتنوي المطالبة بأرض الراين والسار، وأما إيطاليا فتنوي المطالبة بفيومي ودالماسيا كما تنوي رومانيا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا المطالبة بحصتهن من الغنيمة، وإذا لم يقاوم فسوف يعقد الصلح مراراً، بموجب طرائق نابليون، وتاليران، ومترنيش، التي شهَّر بها، لا بموجب المبادئ المطروحة من قبله والتي حظيت بقبول احتفاليّ.

وتنقضي أربعة عشر يوماً في كفاح مرير. على أن ويلسون يأبى أن يُسَلِّم لفرنسا حتى بمنطقة السار، لأنه ينظر إلى هذا الانتهاك الأول لمبدأ «تقرير المصير» نظرته إلى مثال يُحْتَذى به فيما يتعلق بكل الشروط الأولية الأخرى، وقد باتت إيطاليا بالفعل، وهي التي تشعر أن كلّ مطالبها مرتبطة بهذا الانتهاك الأول، تهدِّد بمغادرة المؤتمر. وتعمد الصحافة الفرنسية إلى تأجيج نيران مدفعيتها، وتتقدَّم البلشفية متسرِّبة من هنغاريا، ويحتج الحلفاء بأن البلشفية توشك أن تطغى على العالم، وحتى عند أقرب مستشاريه، وهما الكولونيل هاوس وروبرت لانسنغ،

تنشأ مقاومة تغدو ملموسة على نحو مطرد الزيادة، وحتى هم، أصدقاؤه السالفون ينصحون له، إذ كانوا يستعجلون عقد الصلح بالنظر إلى حالة العَماء والفوضى في العالم بأن يفضل التضحية ببعض المطالب المثالية، وتتشكل في وجه ويلسون جبهة مبنية على الإجماع. وفي أمريكا تَدُقُّ مطارق الرأي العام على ظهره، إذ يؤجِّج حُميّاها أعداؤه السياسيون وخصومه. وفي بعض اللحظات يشعر ويلسون أنه بات عند نهاية طاقته، ويعترف لصديق أنه ما عاد يستطع الصمود وحده ضد الناس جميعاً، وأنه عقد العزم على مغادرة المؤتمر إذا لم يستطع أن يفرض إرادته.

وفي غمرة هذا الكفاح يُغير عليه عدوٌّ أخير آخر الأمر، ينبعث من الداخل، من جسده هو. ففي اليوم الثالث من نيسان، وعلى وجه الخصوص في اللحظة التي يصل فيها الصراع بين الواقع الفظ والمثل الأعلى الذي لمّا يتشكل بعد، إلى النقطة الحاسمة لا يعود ويلسون قادراً على البقاء منتصب القامة، إذ ترغم هجمة من هجمات الأنفلونزا ابنَ الثلاثة والستين حَوْلاً على التوجه إلى فراشه، ولكن الوقت يلح إلحاحاً أكثر عصفاً من دمه المحموم، ولا يدع، حتى للمريض، مجالاً ليقرَّ قراره وتَبْرُق رسائل كارثية من سماء متجهِّمة. ففي الخامس من نيسان تصل الشيوعية في باڤاريا إلى السلطة، ويُنادى في مونيخ بجمهورية الألب، وبات من الممكن في كل ساعة أن تنضمّ النمسا التي ذهبت المجاعة بشطر منها وأصبحت محصورة بين باڤاريا البلشفية والمجر البلشفية. ومع كل ساعة من ساعات المقاومة تتنامى مسؤولية هذا الرجل الواحد عن كل شيء، ويلحُّ الناس على ذلك المُسْتَنْفَدِ القوى حتى وصلوا إلى فراشه؛ وفي الغرفة المجاورة يتشاور كليمنصور ولويد جورج والكولونيل

هاوس، وكلهم قد عقد العزم على وجوب الوصول إلى نهاية بأي ثمن. وهذا الثمن ينبغي أن يدفعه ويلسون بمطالبه، ومُثُله، ويطالبون الآن جميعاً بوجوب رَدٍّ «سلامه الدائم»، إلى الوراء، لأنه يسدُّ الطريق على السلام الواقعي، العسكري، الماديّ.

ولكن ويلسون، الذي أصابه الإرهاق، وأنهكه المرض، واستثير من جراء الهجمات في الصحافة التي تتهمه بتأجيل السلام وتأخيره، وقد هجره مستشاروه الخاصون وعَصَف به ممثلو الحكومات الأخرى، ما زال لا يتراجع، ويشعر أنه لا يجوز له أن يتنكّر لكلمته، وأنه لا يحصل بكفاحه، على هذا السلام، إلاّ عندما يوفِّق بينه وبين السلام غير العسكري، الدائم، المستقبليّ. وعندما يجرِّب أقصى ما في وسعه من أجل «الاتحاد العالمي» [أو النظام العالمي]، الذي يُعَدُّ هو وحده الكفيل بإنقاذ أوروبا، ولم يكد ينهض من فراشه حتى وجَّه الضربة الحاسمة. ففي ٧ نيسان بعث ببرقية إلى وزارة البحرية في واشنطن يسأل فيها: «ما هو أَبْكَرُ موعد ممكن تستطيع فيه الباخرة الأمريكية جورج واشنطن أن تُبْحر إلى بريست فرانس، وما هو أبكر موعد محتمل للوصول إلى بريست. الرئيس يرغب في تعجيل انطلاق هذا المركب». وفي اليوم ذاته يتم إبلاغ العالم بأن الرئيس ويلسون أمر بإقلاع سفينته إلى أوروبا.

ويكون لهذا النبأ وقع كوقع الصاعقة، ويُفْهَم على الفور. ويعلم الناس في كل أرجاء المعمورة: أن الرئيس ويلسون يرفض كل صلح ينتهك، ولو في نقطة واحدة منه، مبادئ الميثاق، وقد عقد العزم على تفضيل مغادرة المؤتمر على التراجع. لقد جاءت لحظة تاريخية تقرر مصير أوروبا ومصير العالم على مدى عقود، بل على مدى قرون من الزمان.

فـإذا نهض ويلسـون عن مـائدة المؤتمر انـهـار النظام العـالمي القـديم، وبدأ العـمـاء، ولـكنه ربّما كـان عـمـاءً مـن تلك الأنواع التي تَلِد النـجم الجديد. وتنتـاب أوروبا رِعْدةٌ في صبر نافد: هل يـضطلع المشـاركـون الآخرون في المؤتمر، بهذه المسؤولية؟ وهل يضطلع بها هو نفسه؟ إنها دقيقة فاصلة.

إنهـا دقـيـقـة فـاصلة، فـفي اللحظة الراهنة مـا زال ويلسـون مـصـمـمـاً تصـميمـاً فولاذياً. فليس هناك حل وسط، ولا تراجع، ولا صلح عن طريق الضـغط والسحق، بل هو «السلام العـادل». لن تكـون السـار للفرنسـيين، ولن تكـون فـيـومي للإيطاليين، ولا تمزيق لتـركـيـا ولا «تبـادل، أو مـقايضـة للشـعـوب»، ولابد أن ينتـصر الحق على القـوة، والمَثَل الأعلى على الواقـع، والمستقبل على الحاضر! ولتأخذ العدالة مجراها، وإن هلك العالم من بعد ذلك. وهذه السـاعـة الضـئـيلة تغـدو لحظة ويلسـون الكبيـرة، لحظتـه الأكـبـر والأكـثـر إنسـانيـة وبـطوليـة عـلى الإطلاق: فـإذا أتيـحت له المـقـدرة على الثبـات فيـهـا بات اسمـه مخلداً ضمن العـدد الضـئيل مـن أصدقـاء البـشرية الصـادقين، ويكون قـد أتى عمـلاً لا مـثـيل له. ولكن هذه اللحظة يُعْقِبُها أسبـوع، وتُلِحُّ المسـألة عليـه مـن كل حدب وصـوب، وتتـهـمـه الصـحـافـة الفرنسيـة والإنكليزية والإيطاليـة، وهو صـانع السـلام بأنه المتَّهـم بتخـريب السلام وإفساده بالعناد اللاهوتي - النظري، والتضحيـة بالعـالم الواقعي لصالح مدينة فاضلة خصوصية، وحتى ألمانيـا، التي تأمل منه كل شيء، والتي تكدّر جوُّها الآن من جراء انبثاق البلشفية في باڤاريا، تتجه ضده، ولم يكـن أقلَّ من ذلك أهل بـلاده هو، الكولونـيل هاوس ولانسنغ، اللذان يناشدانه أن يضرب صـفحاً عن عزمه، ووزير الخـارجيـة نفسه، تومولتي، الذي كـان أبرق، حتـى قـبـل أيام قـلائل، من واشنطن مـشـجـعـاً، يقـول:

«مـجـرد ضـربة جـريئـة من قـبل الرئيس سـوف تـنقـذ أوروبا وربما أنقـذت العـالم»، يبـرق الآن، بعـد أن وجَّه ويلسـون «الضـربة الجـريئـة»، مـتكدِّراً، من المدينـة ذاتهـا: «[... الانسحـاب يتـسم بعـدم الذكـاء إلى حد فـائق، وحـافل بالإمكانات الخطيـرة، هنا، وفي الخـارج... لقـد كـان ينبـغي للرئيـس... أن يضع المسـؤوليـة عن توقُّف المؤتمر عن العـمل، حيث يجب أن تكون في الحـقيـقـة... وإن الإنسحـاب في هذا الوقت خليق أن يكون تخلِّياً وخذْلاناً].

وينظر ويلسون حواليـه متكدِّراً، مشوَّشاً، وقد اختلط عليه الأمر من جرَّاء هذا الإلحاح عليـه بصوت واحد، وهو في مَأْمنه، ومـا من أحد يقف إلى جانبه، وكلهم ضده في قاعـة المؤتمر، وكل العـاملين في هيئـة خبرائه، وأصوات الملايين والملايين غير المرئية التي تناشده على البعد، أن يصمد، وأن يظل عـلى إخـلاصـه، لا تـبلغـه، وهـو لا يقـدِّر أنه حين ينفـذ تـهـديده وينهض فسوف يخلِّد اسمه على مدى كل العصور، وأنه لن يخلِّف فكرته للمستقبل، لا شائبـة فيـهـا، لتكون بَدَهيَّةً يجب تجديدها المرة بعـد الأخرى إلا عندمـا يظل صادقـاً مع نفسـه، ولا يقدِّر مـاهيـة الطاقـة الإبداعيـة التي تنبثق من هذه اللاَّ التي خاطب بهـا دول النهم، والكراهيـة واللاعقل، وإنما يشـعـر فـحسب أنه وحده وأنه أضعف من أن يضطلع بالمسـؤوليـة الأخيـرة وهكذا يتـراجع ويلسـون - بطريقـة تنطوي على الطامّـة - شيـئـاً فـشيـئـاً، فـيخفف عناده وينشئ الكولونيل هاوس الجسر، ويتـم تقديم التنازلات، وتظل المساومة ثمانيـة أيام على الحدود، رائحة غادية، وأخيراً، وياله من يوم مُدْلَهِمٍّ في التـاريخ، في الخـامس عشـر مـن نيسـان، يوافق ويلسـون، وقلبه مثقل بالهمّ وضميره متكدِّر مشوَّش، على المطالب العسكرية التي

تمَّ تخفيضها على نحو ملحوظ، لكليمنصو: السارلن تُسَلَّم إلى الأبد، بل مدة خمسة عشر عاماً، ويُخْتَتَم أول حل وسط عند ذلك الذي ليس عنده حلول وسط. ويتغير مزاج الصحافة الباريسية في الصباح التالي وكأنما كان ذلك بضربة ساحر. وإذا الصحف التي كانت، بالأمس فحسب، تعيِّره بأنه مخرّب السلام، ومدمِّر العالم، تثني عليه على أنه أحكم رجال السياسة في العالم. غير أن هذا المديح يستعر في أعمق الأعماق من نفسه كأنه مأخذ ومَلامَة، وذلك أن ويلسون يعلم أنه ربما أنقذ السلام حقّاً، سلام الساعة هذه، غير أن السلام الدائم، بروح التصالح، السلام الوحيد المُنْقِذ، ضاع وتبدَّد. وانتصرت مناقضة العقل على الإدراك؛ والهوى على العقل، وأُلْقِيَ بالعالم في غارة على مَثَل أعلى فوق العصور. أما هو، القائد وحامل الراية، فقد خسر المعركة الفاصلة، المعركة مع نفسه.

فهل تصرَّف ويلسون في هذه الساعة المصيرية على الوجه الصحيح أم لم يتصرف على الوجه الصحيح؟ مَنْ تُراه يقدر على أن يقول هذا؟ وعلى كل حال: لقد وقع الحسم في هذا اليوم التاريخي الذي لا سبيل إلى استعادته والذي يمتد مداه إلى ما هو أبعد كثيراً، فوق العقود من السنين والقرون، والذي ندفع ثمن وِزْره نحنُ مراراً، بدمنا، وبيأسنا وبما يعترينا من ذهول العاجزين الذين لا حول لهم، ومنذ هذا اليوم فصاعداً تحطّم سلطان ويلسون الذي كان سلطاناً أخلاقياً لا مثيل له في عصرنا، وتلاشت مكانته وامتيازه، وتلاشت بذلك مقدرته. فمَنْ يقدِّمْ تنازلاً لا يستطيع أن يتوقف بعده. والحلول الوسط تظل تفضي إلى حلول وسط، جديدة دائماً.

وعدم الصدق يخلق عدم الصدق، والعنف يُوَلِّد العنف، والسلام الذي كان ويلسون يحلم به من حيث هو كلّ وذو ديمومة خالدة، يظل عملاً مُجْتزَءاً، وبنية غير مكتملة، إذ لم يجر تشكيله بروح المستقبل، ولم يصدر عن روح الإنسانية وعن مادة المثل النقيّة. لقد تبدَّدت فرصة فريدة من نوعها، على نحو يبعث على الرثاء، وينتاب العالمَ المخيَّبَ الآمال، الذي عاد، مرة أخرى، مجرَّداً من آلهته، شعورٌ بالظلمة والانقباض والاختلاط والتشوُّش. أما الرجل الذي يعود إلى دياره، والذي كان يلقى الترحيب والتحية على أنه جالب الخير والبركة إلى العالم، فما عاد مسيحاً بالقياس إلى أحد، وما عاد سوى رجل متعَب، مريض، مصاب إصابةً قاتلة. وما عاد يواكبه تهليل، ولا عادتْ رايات تخفق وراءه، وحين تقلع السفينة من الساحل الأوروبي، يُعْرِضُ المهزوم وينأى بجانبه، فهو يأبى على نظرته أن تعود فتنظر إلى بلادنا التعيسة التي ظلت، منذ آلاف السنين، تتوق إلى السلام والوحدة ولم تشكِّلْهما أبداً. ومرة أخرى تتسَرَّب، في غمرة الضباب والمدى البعيد، صورة الحلم الخالدة، بالعالم الذي أُضْفِيَت عليه السِمة الإنسانية.

تعقيب المحرر

«أنا أجد الحروف الجديدة التي تريد أن تستعملها من أجل كتاب سلسلة "Jnsel" جميلة جداً، غير أن السطور تأبى إلاّ أن تبدو لي قريبةً بعضُها إلى بعض أكثر مما ينبغي، وأنا أحس على الأقل بأنها على شيء من الضخامة في تأثيرها على النظر، غير أنك تستطيع أن تحكم على هذا حكماً أفضل بلا ريب. وإنه ليسرني أن أتسلَّم التصحيحات بعد هذا...»

هذه الرسالة من ستيفان تسفايج، المؤرخة في ٢٧ حزيران ١٩٢٧، إلى م. س. ڤيجنر، وهو من المتعاونين في الإخراج في دار "Insel" للنشر، في لايبتسج، تقدم الإشارة الأولى إلى الطبعة الأولى من كتابه: «ساعات القدر في تاريخ البشرية» خمس صور تاريخية وجيزة، وكانت دار النشر قد أطلعته، أوّلاً وقبل كل شيء، وهو الذي كان يُسْتَشار من قِبَلها، من الوجهة الأدبية، على أسلوب إخراج كتابه الجديد، من حيث فن الطباعة، مثلما كانت تفعل أيضاً، على سبيل المثال، مع هوجو فون هوفْمَنْزتال. ومنذ الثالث عشر من آب ١٩٢٧، استطاع ستيفان تسفايج، الذي كان يقوم لتوّه بجولة في سويسرا، أن يكتب، من تْسوأوتس في الإنجادين العليا، إلى لايبتسج قائلاً: «لقد سمعت لتوّي وأنا في مكان إقامتي أن «ساعات القدر» قد تم الفراغ منه، ويسرُّني أن أرى هذا الكتاب عند عودتي، ولمّا كان يتضمن حتى الآن، في قالب الكتاب،

أعمالاً غير مطبوعة أيضاً فأرجو إرسال نسخ للتنقيح كما يحدث في حالة المستجدّات الأخرى، الأمر الذي لا يحدث في العادة في مكتبة (Insel) على ما أعتقد، وسواء استجاب القوم لهذا الرجاء أم لا، فقد ورد، بعد سنة، أي في ٢ تشرين الأول ١٩٢٨، في رسالة إلى دار "Insel"، قوله: «لقد سررت أيضاً، أيّما سرور، بنبأ النجاح غير المتوقع لكتاب «ساعات القدر»، وأرى أن الصحيح أنكم أشرتم في الصحافة على وجه الخصوص، إلى هذا الرقم، الرقم القياسي ورقم اليوبيل، خلال عام. «وحتى نهاية عام ١٩٢٨ طُبِع، على وجه الإجمال، سبع طبعات، تتضمن ١٣٠,٠٠٠ نسخة، وتوالى النجاح: فحتى عام ١٩٨٦ بيعت أربعون طبعة تضمنت ٦٩٤٠٠٠ نسخة.

وتضمنت هذه الطبعة الأولى - فضلاً عن المقدمة - «دقيقة العالم في واترلو»، «مرثية مارييناباد»، «اكتشاف مملكة الثروة الأسطورية»، «لحظة بطولية»، «الصراع على القطب الجنوبي». على أن الترتيب لا يتماشى مع حوليات تدوين كلٍّ من هذه الفصول. أما مفهوم «ساعات القدر في تاريخ البشرية» من أجل هذا النوع الجديد، الدرامي - الملحمي، كما عبّر عنه فرانتس تيودور سوكور، في رسالة إلى ستيفان تسفايج، في كانون الأول ١٩٢٧، فلم يجر تصميمه من قبله، على ما يُظن، إلاّ مقترناً بالفكرة التي أفضت حتى ذلك الوقت إلى رَصْفِ الصور الوجيزة التي نشأت في كتاب. وما من شك في أن أبْكَر طبعة لساعات القدر هي أيضاً الطبعة الأولى هنا، وقد نشرت بعنوان Grouchy، في ١٣ أيلول ١٩١٢ في مجلة Neue Freie Presse، في ڤينا، وكان، ستيفان تسفايج في أيامه متشكِّكاً فقد سجل في يومياته: «ظهور كتابي Grouchy في ركن الأدب والفن: وهو يبدو لي فارغاً على نحوٍ ما، وحتى سرعة الإيقاع كان من الممكن أن تكون أخف، وما زال أسلوبي

حتى اليوم يفتقر إلى الاطمئنان والثقة، بل يتشكَّل دائماً على ضوء الموضوع (ومثلما أتكيَّف في الحوار تكيُّفاً أكثر ممّا ينبغي، أُعَدُّ، على أي نحوٍ من الأنحاء، صدىً متوقَّعاً). ومن أجل طبعة الكتاب تصفَّح النص مرة أخرى - وقد نشأت «ساعة القدر» الثانية داخل الطبعة الأولى، أي طبعة عام ١٩٢٧ في عام ١٩٢٣، لسبب وجيه: فهو يوم جدير أن يسجله التاريخ، بمناسبة الذكرى المائة لميلاد «مرثية ماريينباد». وفي الثاني من أيلول عام ١٩٢٣ طبعت في مجلة Neue Freie Presse، في ڤينا، وبالعنوان ذاته نقلتها دار "Insel" للنشر إلى مجلتها المنزلية "Des Inselschiff" السنة الرابعة، العدد ٤ (خريف ١٩٢٣)، واختير للطبعة الأولى لـ «ساعات القدر في تاريخ البشرية»، بعد ذلك، العنوان النهائي «مرثية ماريينباد». جوته بين كارلسروهه وڤايمار، ٥ أيلول، ١٨٢٣. - أما «اكتشاف مملكة الثروة الأسطورية» ج. أ. سوتر، كاليفورنيا، كانون الثاني ١٨٤٨، وهو الصورة الوجيزة الثالثة في الطبعة الأولى، فيُظَنُّ أنها كتبت لهذا المجلد خصوصاً، ولم يثبت وجود طبع سابق لها. - وأما «ساعة القدر» الرابعة في طبعة مكتبة In-sel، فكانت قد نشأت، كالأولى، منذ عام ١٩١٢، وقد تم إدخالها أول الأمر في الكتاب السنوي لدار Insel، في العام ١٩١٣ (لايبتسج، ١٩١٢) تحت عنوان «الشهيد». دوستويفسكي، ٢٢ كانون الأول، ١٨٤٩، والصيغة المعدَّلة المعروضة في الطبعة التي بين أيدينا هي التي تمَّ إدخالها أيضاً في الطبعة الأولى العائدة إلى عام ١٩٢٧. وقد ظهر منها في الوقت ذاته طبعة إفرادية اقتصرت على ٢٥ نسخة، مُرقمة وموقَّعاً عليها: «لحظة بطولية، دوستويفسكي، بطرسبرج، ميدان سيمينوفسك، ٢٢ كانون الأول، ١٨٤٩، لايبتسج: أكاديمية الدولة للفنون الطباعية وصناعة الكتاب (١٩٢٧). - وكانت الخامسة والأخيرة

بين الدراسات الدرامية – الملحمية في الطبعة الأولى، قد نشرت أول مرة بعنوان «رحلة الكابتن سكوت الأخيرة»، في ٢٨ كانون الثاني ١٩١٤، من قبل مجلة Neue Freie Presse في ڤينا، وقد تمت صياغة العنوان الذي كان يتمُّ تبنّيه، فيما بعد، المرة بعد الأخرى، من أجل الطبعة الأولى، في شكل كتاب، وهو «الصراع على القطب الجنوبي»، الكابتن سكوت، خط العرض ٩٠، ١٦ كانون الثاني، ١٩١٢.

وفي خريف عام ١٩٣٣ انفصل ستيفان تسفايج عن دار Insel للنشر على أساس إفشاء سر، إذ تمَّ إيصال رسالة شخصية إلى المدير العام أنطون كيبنبرج، أثناء غيابه عن الدار، إلى صحيفة بورصة تجارة الكتاب الألمانية، ونُشرت هناك.

وكان تسفايج قد أدلى فيها بنبأ مفاده أنه يسحب وعداً كان بذله من قَبْلُ لكلاوس مان، بأن يضع تحت تصرُّفه، من أجل مجلته التي صدرت في المنفى بأمستردام، «المجموعة»، فقرة من كتابه القادم «انتصار إراسموس فون روتردام ومأساته» (لايبتسج، دار Insel، ١٩٣٤، وذلك بسبب «الصفة السياسية» لهذه الدورية، بالنظر إلى معلومات سابقة. وحتى عام ١٩٣٨ باتت كتب تسفايج تصدر الآن في دار هربرت رايشنر (ڤينا، لايبتسج، زوريخ)، وفي عام ١٩٣٦ – ومنذ آذار يعيش ستيفان تسفايج في لندن، ومنها كتاب تجميعي بعنوان المشْكال (kleidoskop)، وقد تضمَّن ثلاث مجموعات: «القصص»، و«الأساطير»، و«ساعات القدر في تاريخ البشرية» وفيه أدخلت الصور الوجيزة الخمس الواردة في الطبعة الأولى، من دون مقدمة، وبالتسلسل ذاته، وتمّ استكمالها باثنتين أخريين: «غزو القسطنطينية»، ٢٩ أيار، ١٤٥٣، ويُظن أنها كتبت لهذه الطبعة على وجه الخصوص، إذ لم يثبت وجود طبعة سابقة، و: انبعاث جورج فريدريش هيندل، ٢١ آب ١٧٤١

التي كانت قد طُبِعَت قبل عام، أي في ٢١ نيسان ١٩٣٥، في مجلة Neue Freie Presse، في ڤينا.

وفي ٢١ حزيران ١٩٣٧، كتب ستيفان تسفايج إلى صديقه فيليكس براون يقول: «ثم يورد رايشنر مختاراتٍ من مقالاتي من ثلاثين سنة، مع أشياء مفقودة، مثل ذكريات فير هيرن، وخطبة ريلكه، وديسبورديس - ڤالمور. وفضلاً عن ذلك كتبتُ ساعات قدر جديدة، وكانت أحوالي تسير بحيث أكون أكثر ما أكون عملاً عندما تنتابني أحوال تتسم بالاكتئاب والقنوط». وحين كان تسفايج قد فارق الحياة في ٢٣ شباط ١٩٤٢، في بيتروبوليس في البرازيل التي كان عاد إليها في آب ١٩٤١، في صحبة لوتّه، زوجته الثانية، عُثر في مخلّفاته، على «ساعات القدر» الجديدة المذكورة في الرسالة التي استشهدنا بها.

وكان الناشرون لستيفان تسفايج خلال الأعوام التي تبدأ منذ ١٩٣٩، جوتفريد بيرمان فيشر، ووَلِيُّ أمر مخلّفاته، ريتشارد فريدنتال، الذي كان على صداقة معه منذ العشرينات. وفي عام ١٩٤٢، أخرجت دار نشر بيرمان - فيشر في ستوكهولم، بعد وفاته، أولاً «عالم الأمس، ذكريات أوروبي» وفي العامِ الذي تلا هذا نشرت طبعة جديدة موسّعة لساعات القدر في تاريخ البشرية مع العنوان الفرعي «خمس صور تاريخية وجيزة». وخلال الأعوام الممتدة من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٧ أخرجت دار المنفى في ستوكهولم ثلاث طبعات شملت، كلها، ١٦٠٠٠ نسخة. ومنذ عام ١٩٤٩، أي منذ عودة دار النشر من المنفى، طبعت هنا، ضمن طبعات كتاب الجيب، مرة أخرى، ١,٢٠٠,٠٠٠ نسخة. وظل كتاب «ساعات القدر في تاريخ البشرية» كتاب ستيفان تسفايج الأكثر شعبية ونجاحاً على الإطلاق.

أما ترتيب «ساعات القدر في تاريخ البشرية» في الطبعة الجديدة الصادرة عن دار بِرْمان - فيشر في ستوكهولم عام ١٩٤٣ فقد تمَّ تعديله

على أساس التوسيع بمقدار خمس صور وجيزة في مقابل الطبعات الألمانية السابقة، واحتُفظ بهذا النظام منذ ذلك الوقت في كل الطبعات. وباستثناء «الهرب إلى اللَه» - التي كتبت في آب ١٩٢٧، أثناء العمل في مقالة تولستوي من أجل مجلد «ثلاثةٌ هم شعراء حياتهم» لا يمكن تقرير تواريخ نشوء أو تواريخ طبعات سابقة لساعات القدر الباقية: «الهرب إلى الخلود» و«عبقرية ليلة» و«الكلمة الأولى حول المحيط» و«القطار المختوم بالشمع». على أن رسالة ستيفان تسفايج التي تم الاستشهاد بها آنفاً، إلى فيليكس براون، في حزيران ١٩٣٧، تحمل على التكهُّن بأنه كتبها واحدة بعد أخرى مباشرة، في عام ١٩٣٧. أما الساعتان الأخيرتان من ساعات القدر المدمجتان في الطبعة التي بين أيدينا فلم تنشأ إلا بعد ذلك، وهو أمر ثابت. وفي تموز ١٩٣٩ كان ستيفان تسفايج قد انتقل من لندن إلى باث، حيث كان اشترى لنفسه منزلاً. وفي الأول من أيلول ١٩٣٩ نشبت الحرب العالمية الثانية، وفي ٢٣ أيلول مات زيجموند فرويد الذي كان يبجّله في لندن (وألقى ستيفان تسفايج كلمة التأبين له). وعلى أساس الأحداث يسجل في يومياته، يائساً، مُثبَّط الهمة، قوله: «لا شيء! أنا أشتغل قليلاً بشيشرون، ولكن ليس لديّ رغبة جادة في العمل، إذ لا أعرف متى يُقدَّر لهذا أن يُنشر - وأنا مع ذلك، في هذه الأيام، واحد من أشهر الكتاب في العالم» - «مازلت لا أستطيع الكتابة»، هذا ما جاء في رسالته إلى رومان رولان في ١١ تشرين الأول ١٩٣٩. لقد كتبت صورة تاريخية وجيزة، ساعة من ساعات القدر، مثل ساعاتي الأخرى - موت شيشرون، الإنساني الأول، الذي داسته أقدام دكتاتورية. لقد كانوا يصغّرون شيشرون دائماً، على نحو مطرد، ليجعلوا قيصر يبدو أكبر... غير أني فوجئت حين قرأت كتابه «في النظام العام» (De repuflica) و«الواجبات» (De officiis) أنه رجلنا الذي مات في سبيل أفكارنا، في

عصور كانت تماثل عصرنا مماثلة قاسية». وبعد أيام قلائل من هذه الرسالة، أي في ٢١ تشرين الأول ١٩٣٩، كتب مجدّداً إلى رومان رولان، يقول: «إن ما يبعث على... اكتئابي هو الجو الأخلاقي، أو، بالأحرى، اللاأخلاقي الذي يسود أوروبا، قارتنا القديمة، هذا الانتكاس الخطير، والافتقار إلى فكرة إبداعية - أو ربما تشكّلت الفكرة من تلقاء ذاتها، من دون أن تُعلَن عن طريق فم إنسان... وما أكثر ما خدع أنفسهم أولئك الذين اعتقدوا بعد عام ١٩١٨ (وأنا نفسي أيضاً بمثاليتي التي كانت في أيام الصبا) أن دور الدبلوماسية قد انتهى![*]، يا لويلسون المسكين، الحالم المسكين والحكيم - ما أكثر ما أُغْريتُ برسم صورة شخصيته المأساوية ذات يوم، بكل نقائصها، ومع ذلك، بإيمانها الجميل».

وتحت عناوين «الرأس المنصوب على منبر الخطابة، موت شيشرون، وإخفاق ويلسون، ١٥ آذار، ١٩١٩، نُشرت هاتان الساعتان من ساعات القدر، أول الأمر، في عام ١٩٤٠، في الترجمة الإنكليزية، من قبَل إيدن وسيداربول. أما المجلد التجميعي «مدُّ الثروة»، اثنتا عشرة صورة تاريخية وجيزة (نيويورك: ڤايكنغ برس) فقد تضمن، بالمناسبة، باستثناء «لحظة تاريخية» و«الهرب إلى الله» اللتين من الواضح أنهما صُرِف النظر عنهما لصالح الصورتين الوجيزتين الجديدتين للمحافظة على مقياس الاثني عشرية، على وجه الدقة، ساعات القدر التي تمَّ إدخالها بعد ثلاث سنوات خَلَوْن من وفاته أيضاً، في الطبعة الألمانية الجديدة. أما السبب الذي حُذفت من أجله مقالتا «شيشرون» و«ويلسون» عام ١٩٤٣ في طبعة ستوكهولم فلا يمكن معرفته إلا من باب التخمين: فإما أن يكون الأصلان الألمانيان لم يُعْثَر عليهما في الوقت المناسب، وإما أن

* - في ١٥ آذار ١٩٢٥ أوردت مجلة «أوروبا» ، باريس (السنة الثانية ، العدد ١٥) إسهاماً لستيفان تسفايج في ترجمة فرنسية : Le visage énigmatiqwe de Wilson ، وأصلُها غير معروف .

يكون القوم قرروا هنا أيضاً، أن لا يتجاوزوا رقم الاثني عشرية، ولولا الأنموذج الإنكليزي لواصلوها في العادة، واحدة بعد الأخرى.

وفي كانون الثاني ١٩٢٥ كان ستيفان تسفايج قرأ سيرة يوليوس قيصر لناقد العصر الدانمركي ومؤرخ الأدب جورج برانديس (١٨٤٢ - ١٩٢٧). وكتب، في ٢٦ كانون الثاني، ١٩٢٥، إلى رومان رولان يقول: هذا الشيخ العظيم يتوافر لديه إرهاف نادر في الذوق واللباقة، فهو لا يُدخل الملل أبداً بالتفاصيل، ولا يختار إلا ما يصيب الجوهر والصميم، على أن الصورة التي يرسمها لشيشرون في «قيصر» لا تنسى - فههنا يكون الأديبَ الأول، قوياً في وجه الضعفاء، وجباناً في وجه الأقوياء، وأنيقاً، ومَرِناً مطاوعاً، سعيداً في الأساس، مقصراً في مضمار الجرأة، عندما يرى الآخَرين وقدَ ضاعوا (كاتيلينا، قيصر)، وقد كان خليقاً أن يشكل شخصية مستحسنة في عام ١٩١٤. وفي أمثال هذه الصور يعد كتاب براندیس بارزاً: فهو يعرف البشر، لا من التاريخ فحسب، شأن المؤرخين، فلكي يصف المرء رجال الماضي وصفاً حسناً لابُدَّ له أن يكون عرف الأحياء... والمؤرخ لا يكفي أبداً، إذ لابدَّ له أن يكون أيضاً عالم نفس تعرَّف على الحاضر. وهذه هي المقدرة العظيمة عند براندیس: فهو يقارن بالحياة، وهذا ما يجعل تاريخه حيّاً إلى هذا المدى «لقد تحوَّل تصوير جورج براندیس للشخصيات والأحداث، من الماضي، بالقياس إلى ستيفان تسفايج، إلى أنموذج - ولاسيما من أجل «ساعات القدر في تاريخ البشرية».

كنوت بيك

أيلول ١٩٩٦

محمد جديد - حلب - ٢١ أيار ٢٠٠٣

الفهرس

مقدمة 5
هَرَبٌ إلى الخلود 7
فتح القسطنطينية 39
انبعاث جورج فريدريش هيندِل 75
عبقرية ليلة 105
دقيقة واترلو في تاريخ العالم 127
مرثية مارييناباد 147
اكتشاف إلدورادو 161
لحظة بطولية 175
الكلمة الأولى عَبْر المحيط 187
الهرب إلى الله 217
الكفاح من أجل القطب الجنوبي 263
القطار المختوم 289
شيشرون 305
ويلسون 337
تعقيب المحرر 359

إذا نشأت في الفن عبقرية تخطّت العصور: فإنها تحدث في ساعةٍ في تاريخ البشرية تنشئ حسماً يمتد على مدى عقود من الزمان وقرون. ومثلما يحدث في أضيق حيِّز من الزمان، وما يجري، في العادة مسرخياً بعضه إثر بعض، أو بعضه إلى جانب بعض، فإنه ينضغط في لحظة واحدة، تحدد كل شيء، وتفصل في كل شيء: كلمة نعم واحدة، أو كلاً واحدة، أَوْ لمّا يئن الأوان، أو فات الأوان، تجعل من هذه الساعة ساعة حاسمة لا رجعة فيها، على مدى مائة جيل، وترسم معالم حياة فرد، أو شعب، بل مسيرة المصير للبشرية بأسرها.

علي مولا

ISBN:2-84305-773-X
9 782843 057731